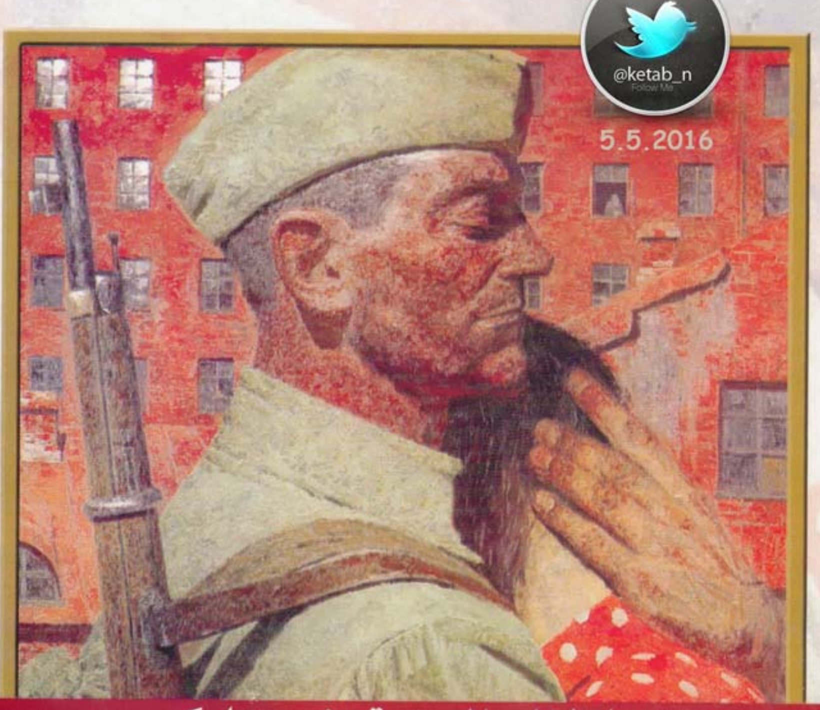
روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

أرنست همنغواي

وداع للسلاح !..



نقلها إلى العربية منير بعلبكي

أرنست همنغواي

وداع للسلاح !..

نقلها إلى العربية

مُنير البَعلبكي

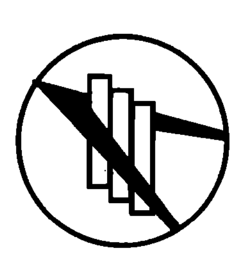
دار العلم للملايين

أرنست همنغواي

وداع للسلاح !..

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف : ٧٠١٦٥٦ ـ ٧٠١٦٥٥ ـ ٣٠٦٦٦٦ (٠١)
فاكس : ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص ب ١٠٨٥ بيروت ـ لبنان
www.malayin.com



لقد تمت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة لتصدر في هذه الطبعة الانيقة كطبعة تذكارية لذكرى الاستاذ الكبير منير البعلبكي

الكتاب الأول

الفصل الأول

في أواخر الصيف من ذلك العام كنا نقطن بيتاً في قرية تطلّ، عبر النهر والسهل، على الجبال. وفي قاع النهر كانت حصى وحجارة جففتها الشمس وأحالت لونها إلى بياض، وكانت المياه صافية، تنطلق رشيقة زرقاء في القنوات. وكانت القوات المسلحة تمر بالمنزل ثم تهبط الطريق، وكان الغبار الذي تثيره يغطي أوراق الأشجار. وكانت جذوع الأشجار مغبَّرة أيضاً، وقد تساقطت أوراقها باكراً، ذلك العام، وكنا نرى القوات المسلحة تجتاز الطريق، والغبار يتصاعد، والجنود يتقدمون، لنعود بعد ذلك فنرى الطريق مقفرة، بيضاء، إلا من أوراق الشجر المتساقطة.

كان السهل غنياً بالمحاصيل. وكان ثمة كثير من جنائن الأشجار المثمرة، ووراء السهل كانت الجبال سمراء عارية. كان القتال دائراً في الجبال، وخلال الليل كان في استطاعتنا أن نرى وميض المدافع. وكان يخيل للمرء، في الظلمة، وكأنه برق الصيف، ولكن الليالي كانت باردة، ولم نكن نستشعر أن عاصفة توشك أن تهب.

وفي بعض الأحيان كنا نسمع القوات المسلحة تزحف في الظلام تحت النافذة، والمدافع تسحبها الجرَّارات. كان ثمة في الليل حركة نقل كثيفة. كانت الطُرق حافلة ببغال مثقلة الجوانب بصناديق الذخيرة، وبشاحنات رمادية تحمل رجالاً، وشاحنات أخرى تنقل أحمالاً مغطاة

بالخيش وتجري في سرعة أبطأ. وفي النهار كانت تجتاز الطريق أيضاً مدافع ضخمة تسحبها جرَّارات ميكانيكية، وكانت خراطيم تلك المدافع الطويلة مغطاة بأغصان مُورقة خضراء، وأوراق كرمة منثورة فوق الجرَّارات. وإلى الشمال، كان في ميسورنا أن نتطلع عبر أحد الأودية فنرى غابة من أشجار الكستناء، ونرى وراءها جبلاً آخر على هذه الضفة من النهر. ولقد نشب قتال للاستيلاء على ذلك الجبل أيضاً، ولكنه لم يكن ناجحاً. وفي الخريف، عندما يبدأ المطر في الانهمار، كانت أشجار الكستناء تتعرى من كل أوراقها، فإذا بالأغصان جرداء، وبالجذوع سوداء من أثر المطر. وكانت حقول الكرمة عارية الأغصان أيضاً، وكان الريف كله رطباً، أسمر، ميتاً مع الخريف. كان ثمة ضباب فوق النهر، وسُحُب فوق الجبل، وكانت الشاحنات تثير الوحل فيتطاير على جانبي الطريق، وكان الجنود المتدثرون بمعاطفهم مبلّلين موحلين. كانت بنادقهم رطبة، وتحت معاطفهم كان كل منهم يحمل محفظتي خرطوش جلديتين معلّقتين في مقدّمة حزامه، وكانت هذه المحافظ الجدلية الرمادية المثقلة بمجموعات من الخراطيش الدقيقة الطويلة من عيار 6,5 مليمتر تندفع ناتئة إلى الأمام، تحت معاطف الجنود، إلى درجة جعلتهم يظهرون، عند اجتيازهم الطريق، وكأنهم يحملون في بطونهم أجنَّة في الشهر السادس!

وكانت ثمة سيارات رمادية صغيرة تنطلق في سرعة بالغة. وكان يمتطي كلاً من هذه السيارات، عادة، ضابط يجلس إلى جانب السائق، وضباط آخرون في المقعد الخلفي. وكانت تلك السيارات تنثر الوحل أكثر مما تنثره الشاحنات نفسها. وإذا كان أحد الضباط في المقعد الخلفي ضئيلاً جداً، وجالساً بين جنرالين، ضئيلاً إلى حد يجعلك لا تستطيع رؤية وجهه ولكن أعلى قبعته وظهره الضيّق ليس غير، وإذا كانت السيارة تنطلق في سرعة خاطفة غير مألوفة فأغلب الظن أن ذلك الضابط هو الملك. كان يسكن في أودين، وكان يخرج

بسيارته، على هذا النحو، كل يوم تقريباً ليطلع على سير الأمور، ولقد كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ.

وفي مستهل الشتاء أقبل المطر المتواصل، ومع المطر أقبلت الكوليرا. ولكن القوم استطاعوا أن يكبحوا جماحها، فلم يمت بسببها آخر الأمر غير سبعة آلاف من رجال الجيش.

الفصل الثاني

وفي السنة التالية سُجِّلت انتصارات عديدة. فقد تمَّ الاستيلاء على الجبل القائم وراء الوادي. وعلى الكثيب الذي نَمت فوقه غابة الكستناء، ووراء السهل حُقِّقت انتصارات أيضاً، في الهضبة القائمة إلى الجنوب، واجتزنا النهر في آب (أغسطس)، ونزلنا في غوريتزيا في بيت فيه عين ماء، وحديقة مسوَّرة حافلة بكثير من الأشجار الكثيفة الظليلة، وكان يتعرّش إلى جانب البيت نبات أرجواني من النوع المعروف بالـ «وسطار». كان القتال دائراً، الآن، في الجبال المجاورة، على مبعدة أقل من ميل واحد. كانت المدينة جميلة جداً، وكان منزلنا حسناً جداً. كان النهر يجري من خلفنا، وكانت المدينة قد احتُلَّت في براعة فائقة، ولكن الجبال القائمة وراءها امتنعت على الاحتلال، ولقد كنت سعيداً جداً برغبة النمساويين، على ما يبدو، في العودة إلى المدينة، ذات يوم، إذا ما وضعت الحرب أوزارها، لأنهم لم يقصفوها بمدافعهم ليدمروها، مكتفين بقصفها على نطاق محدود، ووفقاً للأغراض الستراتيجية ليس غير. وكان سكان المدينة قد بقوا فيها. وكان ثمة مستشفيات، ومقاه، ومدفعية في الشوارع المنعزلة، وبيتان من بيوت الدعارة، أحدهما للجنود والآخر للضباط. وعند نهاية الصيف كانت الليالي الرطبة، والقتال الدائر في الجبال خلف البلدة، وفولاذ جسر السكة الحديدية البادية عليه آثار القنابل، والنَفَق المحطم قرب النهر حيث نشب القتال، والأشجار المحيطة بالساحة، والشارع

الطويل المزدان بالأشجار والمؤدي إلى تلك الساحة، هذا إذا لم نذكر وجود الفتيات في المدينة، ومرور الملك بسيارته وقد أصبح في الإمكان الآن، أحياناً، رؤية وجهه وجسده الضئيل ذي الرقبة الطويلة ولحيته الشائبة مثل لحية تيس، كل ذلك مضافاً إليه الأجزاء الداخلية غير المتوقعة من بيوت فقدت جداراً أثناء القصف المدفعي، والجصّ وكسارة الحجارة في حدائقها وأحياناً في الشارع، وسير العمليات سيراً حسناً في الـ «كارسو» ـ أقول كل ذلك جعل هذا الخريف مختلفاً جداً عن الخريف السابق عندما كنا في الريف. كانت الحرب قد تغيَّرت أيضاً.

كانت غابة السنديان، على الجبل القائم خلف المدينة، قد اختفت. كانت تلك الغابة خضراء في الصيف عندما دخلنا المدينة، أما الآن فلم يبقَ غير الأرومات والجذوع المحطمة والأرض الممزقة. في أواخر الخريف قصدت ذات يوم إلى حيث كانت غابة السنديان، فرأيت سحابة تُقبل فوق الجبل. كانت تقبل في سرعة بالغة، واصطبغت الشمس بصباغ أصفر غامق، ثم أمسى كل شيء رمادياً، وأمست السماء محجوبة كلها، وهبطت السحابة فوق الجبل، فإذا بها تكتنفنا فجأة وإذا بها مثلجة. لقد انهمر الثلج منحرفاً عبر الريح، فغطّى الأرض الجرداء، ونتأت أرومات الشجر. كان ثمة ثلج على المدافع، وظهرت ممرات في الثلج تمتدّ إلى المراحيض التي خلف الخنادق.

وفي ما بعد، حين هبطتُ إلى المدينة، راقبت الثلج يتساقط فيما كنت أطلُ من نافذة بيت البغاء، البيت المخصص للضباط، حيث جلست مع صديق وكأسين نشرب زجاجة من الـ «آستي». وإذ تطلَّعنا إلى الثلج يتساقط بطيئاً ثقيلاً أدركنا أن كل شيء قد انتهى بالنسبة إلى ذلك العام. فالجبال الواقعة غي عالية النهر لم يتم الاستيلاء عليها، كما أن أياً من الجبال الواقعة خلف النهر لم يُحتل. لقد تُرك ذلك كله إلى العام القادم. ورأى صديق كاهن زمرتنا يجتاز الشارع، ماشياً بحذر

فوق الثلج نصف الذائب. فصفق النافذة لكي يلفت انتباهه. ورفع الكاهن بصره. فرآنا وابتسم. وأومأ صديقي إليه بأن يدخل، فهز الكاهن رأسه ومضى لسبيله. وفي تلك الليلة، وكنا نتناول الطعام مع سائر أفراد الزمرة، قُدمت إلينا السباغيتي(*) فأكلناها في سرعة وفي رصانة، رافعين المعكرونة على الشوكة حتى تتدلى أطرافها واضحة لنخفضها بعد ذلك ونولجها أفواهنا، أو مصطنعين طريقة الرفع والمص على نحو موصول، ساكبين بأنفسنا الخمر من قارورة بحجم الغالون مغطاة بالعشب. كانت تلك القارورة تتأرجح في حاملٍ معدني، فكان كل منا يُميل عنق القارورة بسبابته إلى أدنى فتتدفق الخمر حمراء صافية على لون بنّي ضارب إلى الصفرة، لذيذة، في الكأس المحمولة باليد نفسها. وبعد أن ألتهمنا السباغيتي شرع الكابتن يمازح الكاهن ويتندر عليه.

كان الكاهن غض الشباب، وكان وجهه يحمرّ بسرعة. كان يرتدي بزة عسكرية مثلنا، ولكنها تتميَّز بصليب من مخمل أحمر داكن فوق جيب صدرته الرمادية الأيسر. وكان الكابتن يتكلم إيطالية عامية، في محاولة، مشكوك في فائدتها، لكي أفهم فهماً كاملاً، فلا يفوتني من الكلام شيء:

ـ «الكاهن كان اليوم مع البنات» كذلك قال الكابتن، ناظراً إلى الكاهن وإليَّ. وابتسم الكاهن، وشاع الدم في وجهه، وهزّ رأسه. كان هذا الكابتن كثيراً ما يمازحه.

وسأله الكابتن:

ـ «أليس صحيحاً؟ اليوم رأيت الكاهن مع البنات.»

فقال الكاهن:

ـ «لا».

(*) Spaghetti : نوع من المعكرونة.

وسرَّ الضباط الآخرون بهذا المزاح.

وتابع الكابتن موضحاً لي:

- «الكاهن لم يكن مع البنات. الكاهن لا يجتمع مع البنات أبداً.»

وتناول كأسي فملأها، ناظراً إلى عينيَّ دائماً، ولكن غير غافل عن الكاهن.

- «كل ليلة يكون الكاهن واحداً مقابل خمسة.» وضحك كل من كان جالساً إلى المائدة. «هل فهمت؟ كل ليلة يكون الكاهن واحداً مقابل خمسة» وأومأ إيماءة وضحك بصوت عال. وتقبَّل الكاهن ذلك كما يتقبّل المرء نكتة من النكات.

وقال المايجور:

- «البابا يريد أن يكسب النمساويون الحرب. إنه يحب فرانسوا جوزيف. ولا تعجب فالأموال تأتيه من هناك. أنا ملحد.»

فسأله الليفتنانت:

- «هل قدِّر لك أن تقرأ كتاب «الخنزير الأسود»؟ سوف آتيك بنسخة منه. لقد كان ذلك الكتاب هو الذي زعزع إيماني.»

فقال الكاهن:

- «إنه كتاب قذر فاجر. أنا لا أستطيع أن أعتقد أنه يعجبك حقاً.»

فقال الليفتنانت، موجِّهاً الكلام إليَّ:

- «إنه نفيس جداً. إنه يحدثك عن هؤلاء الكُهان. ولا ريب في أنه سوف يعجبك.»

فابتسمتُ للكاهن، فرد لي الابتسامة عبر ضياء الشمعة، وقال:

- «لا تقرأه».

فقال لي الليفتنانت:

ـ «سوف آتيك به.»

فقال المايجور:

ـ «جميع المفكّرين ملحدون. ومع ذلك فأنا لا أؤمن بالماسونية.»

فأجابه الليفتنانت:

ـ «أنا أؤمن بالماسونية. إنها منظمة نبيلة.»

ودخل علينا شخص ما، وحين فُتح الباب استطعت أن أرى الثلج يتساقط. وقلت:

ـ «أما وقد تساقط الثلج فلن يكون ثمة هجوم بعد الآن.»

فقال المايجور:

ـ «طبعاً لن يكون ثمة هجوم. ينبغي أن تذهب في إجازة. يجب أن تذهب إلى روما، نابولي، صقلية...»

فقال الليفتنانت:

ـ «يجب أن يزور آمالفي. سوف أزوّدك ببطاقات إلى أسرتي في آمالفي. ولسوف تحبك وكأنك ولد من أولادها.»

ـ «يجب أن يذهب إلى باليرمو.»

ـ «لا. يجب أن يذهب إلى كابري.»

قال الكاهن:

ـ «حبذا لو تقصد إلى آبروتزي، وتزور أسرتي في كابراكوتا.»

ـ «إصغِ إليه يتحدث عن آبروتزي. إن ثمة ثلجاً أكثر من هنا. إنه لا يريد أن يرى فلاحين. دعه يذهب إلى مراكز الثقافة والحضارة.»

ـ «يجب أن ينعم بالصبايا الجميلات. سوف أُقدِّم إليك عناوين بعض الأماكن في نابولي. صبايا جميلات تصحبهن أمهاتهن. ها! ها! ها!»

ويبسط الكابتن يده وإبهامها مرفوع إلى أعلى وسائر أصابعها منتشرة كما تُنشر حين يصنع المرء صوراً طيفية. وكان قد ارتسم على

الجدار ظل من يدِه. وعاود الكلام بإيطالية عامية، «اذهب أنت هكذا،» وأشار إلى إبهامه، «وارجِع هكذا!» ومسَّ البنصر. وضحك القوم أجمعون.

وقال الكابتن:

ـ «انظر!»

وبسط يده من جديد. ومن جديد طبعت الشمعة ظلالها على الجِدار. وبدأ بالإبهام المرفوع وسمَّى، وفقاً للترتيب، الإبهامَ والأصابعَ والأربع الأخرى: «سوتوتينانتي (الإبهام) تينانتي (السبابة)، كابيتانو (الوسطى) ماغيور (الخنصر)، تينانتي كولونيلو (البنصر). أنت تذهب سوتوتينانتي! أنت ترجع سوتو كولونيلو(*)!»

وضحكوا جميعاً. كان الكابتن يحرز نجاحاً كبيراً بألعاب الأصابع. ونظر إلى الكاهن وهتف:

ـ «كل ليلة يكون الكاهن واحداً مقابل خمسة!» وضحكوا جميعاً من جديد.

وقال المايجور:

ـ «يجب أن تذهب في إجازة، في الحال».

وقال الليفتنانت:

ـ «أتمنى لو أستطيع الذهاب معك لأريك الأشياء».

ـ «حين ترجع إئتنا بفونوغراف.»

ـ «بل ببعض أسطوانات الأوبرا الجيدة.»

ـ «إئتنا ببعض أسطوانات كاروزو.»

ـ «لا. لا تأتِ بأسطوانات كاروزو. إنه يخور خواراً.»

ـ «ألا تتمنى لو كنت قادراً على أن تخور مثله؟»

(*) أي تذهب برتبة ملازم ثان وترجع وقد كدت تصبح كولونيلاً. (المعرب)

ـ «إنه يخور خواراً. أقول إنه يخور خواراً.»

فقال الكاهن وسط صياح الآخرين:

ـ «أود لو تذهب إلى آبروتزي. إن هناك أماكن صالحة للصيد. ولسوف تعجب بالناس، وعلى الرغم من البرد فإن الجو صاحٍ وجاف. وفي استطاعتك أن تنزل ضيفاً على أسرتي. إن والدي صياد مشهور.»

فقال الكابتن:

ـ «هيا. فلنذهب إلى الماخور قبل أن يغلق أبوابه.»

فقلت للكاهن:

ـ «طاب مساؤك.»

فقال:

ـ «طاب مساؤك.»

الفصل الثالث

حين رجعت إلى الجبهة كنا لا نزال نحيا في تلك المدينة. كان في الريف المحيط بنا عدد من المدافع أكثر من ذي قبل بكثير، وكان الربيع قد أقبل. كانت الحقول خضراء، وكان ثمة على عرائش الكرمة أماليد صغيرة خضراء. كانت الأشجار التي على جانبي الطريق تحمل أوراقاً صغيرة، وكان النسيم يهب من نهاية البحر. لقد رأيت المدينة، وكثيبها متوَّج بالقصب العنبق، تحيط بها التلال، وخلفها الجبال ـ جبال سمراء على سفوحها خضرة يسيرة. وفي المدينة، كان ثمة مدافع أكثر وكان ثمة مستشفيات جديدة أيضاً. كنت تلتقي ببعض الإنكليز، وأحياناً بعض الإنكليزيات، في الشارع، وكان ثمة عدد إضافي من البيوت أصابته نيران المدافع. كان الجو دافئاً، وشبيهاً بجو الربيع، وهبطت الطريق المحاطة بالأشجار التي جعلتها الشمس المنعكسة على البدار حارَّة، فوجدت أنّا كنا لا نزال نقطن البيت نفسه، وأن كل شيء فيه لم يتغيَّر منذ أن غادرناه. كان الباب مفتوحاً، وكان جندي يجلس على مقعد طويل في الخارج، تحت أشعة الشمس، وكانت سيارة إسعاف تنتظر قرب الباب الجانبي، حتى إذا دخلت شمَمْت رائحة الرخام الذي فرشت به أرض البيت، ورائحة المستشفى. كان كل شيء على الحال التي تركته عليها، ما خلا أننا كنا، الآن، في فصل الربيع. ونظرت من خلال باب الحجرة الكبيرة، فرأيت المايجور جالساً إلى مكتبه، والنافذة مفتوحة وأشعة الشمس تملأ الغرفة. إنه لم

يرني. ولم أدرِ أأدخل أم أرتقي السلم أولاً وأغتسل. ثم إني قررت آخر الأمر أن أرتقي السلم.

كانت الغرفة التي كنت اقتسمها مع الليفتنانت رينالدي تطلّ على الفناء. وكانت النافذة مفتوحة، وكان سريرها مغطى ببعض البطانيات، وكانت حوائجي كلها معلقة على الجدار، وقناع الغاز في علبة صفيح مستطيلة والخوذة الفولاذية على الوتد نفسه. وعند قدم السرير كان صندوق سفري المسطح. وعلى هذا الصندوق كان حذائي الشتوي العالي الملمع جلده بالدهن. وفوق السريرين علقت بندقيتي النمساوية القناصة بماسورتها المزرقّة المثمنة الأضلاع، وعقبها الخشبي الجميل الداكن المصنوع من خشب الجوز والملائم أحسن الملاءمة لشكل الخد. وكان التلسكوب المناسب لها محفوظاً، على ما أذكر في الصندوق المقفل. وكان الليفتنانت رينالدي مستسلماً للنوم في السرير الآخر. ولقد أفاق حين سمعني أمشي في الغرفة، فجلس في سريره وقال:

ـ «هالو! كيف كانت إجازتك؟»

ـ «رائعة.»

صافحني، وطوّق عنقي بذراعه، وقبَّلني.

وقال:

ـ «إنك وسخ. يجب أن تغتسل. إلى أين ذهبت، وما الذي فعلت؟ أخبرني كل شيء في الحال.»

ـ «ذهبت إلى كل مكان. ميلانو، فلورنسة، روما، نابولي، فيلا سان جيبوفاني، مسيناتا ورمينا...»

ـ «أنت تتحدث مثل جدول مواقيت. هل كانت لك مغامرات لطيفة؟»

ـ «نعم.»

ـ «أين؟»

ـ «ميلانو، فيرينتز، روما، نابولي. . . »

ـ «كفى. حدثني من غير مخادعة، أيُها كانت الفُضلى. »

ـ «في ميلانو.»

ـ «كان ذلك لأنك زرتها أولاً. أين اجتمعت بها؟ في الـ «كوفا»؟ إلى أين ذهْبتَ؟ كيف كان شعورك؟ أخبرني كل شيء في الحال. هل بقيتَ طوال الليل؟»

ـ «ليس هذا بالأمر الخطير. إن عندنا، الآن هنا، فتيات جميلات. فتيات جديدات لم نرَ مثلهن في إلى الجبهة قبل اليوم قط.»

ـ «رائع.»

ـ «ألا تصدقني؟ سوف نذهب بعد ظهر اليوم ونرى. وفي المدينة عندنا فتيات إنكليزيات جميلات. أنا اليوم واقع في حب مس باركلي. سوف اصطحبك لزيارتها. وأغلب الظن أني سوف أتزوج من مسى باركلي.»

ـ «إن عليَّ أن أغتسل، وأقابل المسؤولين. ألا يعمل أحد في هذه اللحظة؟»

ـ «منذ أن ذهبت لم نعرف غير قضمة الصقيع، وتشقق القدمين واليدين من البرد، واليرقان، والسيَلان، والجروح الذاتية، وذات الرئة، والقُرَح الصلبة والطرية. وكل أسبوع يُصاب أحدهم بجراح من شظايا الصخور. وهناك عدد قليل جداً من المصابين بجراحات خطيرة. وفي الأسبوع القادم ستبدأ الحرب من جديد. ربما تبدأ الحرب من جديد. هذا ما يقولون. هل تعتقد أني أحسن صنعاً إذا تزوجت من مس باركلي. . . بعد الحرب طبعاً؟»

فقلت وأنا أملأ الحوض ماء:

ـ «بكل تأكيد.»

فقال رينالدي:

ـ «الليلة سوف تخبرني كل شيء. أما الآن فيتعيَّن عليَّ أن أستسلم

إلى الرقاد من جديد لكي أكون نَضراً وسيماً عند اجتماعي بمس باركلي.»

نزعت صدرتي وقميصي، واغتسلت بالماء البارد في الحوض. وفيما أنا أفرك جسدي بمنشفة أجَلْت بصري في الغرفة، وتطلعت إلى الخارج، من خلال النافذة، وإلى رينالدي المستلقي، مغمضِ العينين، على سريره. كان فتى وسيماً، في مثل سني، وكان من مدينة آمالي. كان يحب عمله كجرَّاح، وكنا صديقين حميمين. وبينما أنا أنظر إليه، فتح عينيه وسألني:

ـ «هل تحمل مالاً؟»

ـ «نعم.»

ـ «أقرضني خمسين ليراً.»

فنشَّفت يديَّ، وأخرجت حافظة نقودي من داخل صدرتي المعلقة على الجدار. تناول رينالدي الورقة النقدية وطواها من غير أن ينهض من فراشه، ودسَّها في جيب بنطلونه. وابتسم:

ـ «يجب أن أوقِع في نفس مس باركلي أني رجل غني. أنت صديقي العظيم الطيب، وملاذي المالي الذي أرجع إليه عند الحاجة.»

فقلت:

ـ «اذهَب إلى الجحيم.»

وفي تلك الليلة، عندما تناولنا الطعام مع سائر أفراد زمرتنا، جلست إلى جانب الكاهن، وكان مغضباً ومستاءً على نحو مفاجئ لعدم ذهابي إلى آبروتزي. كان قد كتب إلى أبيه أني قادم. وكان القوم قد اتخذوا استعدادات كبيرة. وأسفت أنا أيضاً مثل أسفه، ولم أستطع أن أفهم لماذا لم أذهب إلى هناك. كان ذلك هو ما كنت أرغب فيه، ولقد حاولت أن أشرح كيف قادني أمر إلى أمر. وأخيراً تقبَّل ذلك وأدرك أني كنت في الحق راغباً في الذهاب، وامحى الأثر السيّئ من نفسه. كنت قد شربت كثيراً من الخمر، واحتسيت بعد ذلك القهوة

والـ «ستريغا»، وأوضحت له ـ مخموراً ـ كيف لا نوفّق دائماً إلى صنع الأشياء التي نرغب فيها. لا، إننا لا نصنع هذه الأشياء دائماً.

وكنا نحن الاثنين نتحدث فيما كان الآخرون يتجادلون. أجل، كنت قد رغبت في الذهاب إلى آبروتزي. فأنا لم أشهد قط أياً من هذه المناطق، حيث الطرق متجمدة وقاسية كالحديد، وحيث البرد شديد وجافّ، والثلج جافٌّ وذروري، حيث يشهد المرء آثار أقدام الأرانب في الثلج، وحيث يرفع الفلاحون قبعاتهم وينادونك «يا سيدي»، وحيث القنص موفور. أنا لم أذهب إلى موطن مثل هذا، بل ذهبت إلى دخان المقاهي، والليالي التي تدور فيها الغرف والتي تحتاج فيها إلى أن تنظر إلى الجدار لتحمله على الوقوف، لیال تقضيها في الفراش، على نحو مخمور، وأنت مدرك أن ليس ثمة غير هذا، والانطباعة الغريبة التي تغلب عليك حين تُفيق من غير أن تعلم مَن الذي إلى جانبك، الليالي التي يكون فيها العالم كله غير واقعي، من حولك، ومثيراً إلى حد يضطرك إلى أن تستأنف من جديد، غير عارف وغير مبال في الظلام، واثقاً أن هذا كل شيء، في لا مبالاة واستهتار. وفجأة يستيقظ اهتمامك البالغ بالأشياء، ثم الرقاد واليقظة، والصباح، والشعور بأن كل شيء قد انتهى، وأن كل شيء حادّ، وقاسٍ، وواضح، وقد يعقب ذلك أحياناً نزاع على السعر. وفي بعض الأحيان تقع استعادة للحبور، والحب، والدفء، ويعقب ذلك فطور وغداء. وأحياناً تتلاشى المتعة كلها ويصبح المرء سعيداً بالخروج إلى الشارع، ولكن يوماً جديداً يبدأ دائماً، يعقبه ليل جديد. وحاولت أن أتحدث عن الليل، وعن الفرق بين الليل والنهار، وكيف أن الليل أفضل، إلا إذا كان النهار نظيفاً جداً وبارداً، ولكني لم أستطع أن أشرح له ذلك، كما لم أستطع أن أشرحه الآن. ولكن كل من اختبر هذه التجربة يعرف ما أريد أن أقول. ولم يكن له مثل هذه الخبرة، ولكنه فهم أني كنت صادق الرغبة في الذهاب إلى آبروتزي، ولكني لم أذهب، وبقينا صديقين حميمين، تجمع ما بيننا

أذواق كثيرة مشتركة، ولكن بيننا فَرقاً كبيراً أيضاً. كان يعرف دائماً ما لا أعرفه، ويعرف تلك الأشياء التي لا أكاد أتعلمها حتى أظهِر القدرة دائماً على نسيانها. بيد أني لم أكن أعرف هذا آنذاك، على الرغم من أني تعلَّمتُه في ما بعد. وفي غضون ذلك، كنا جميعاً هناك، نتناول طعامنا. وانتهينا من تناول الطعام، ولكن المناقشة ظلّت دائرة. وكفَفْنا نحن الاثنين عن الكلام، وصاح الكابتن:

ـ «الكاهن غير سعيد. الكاهن غير سعيد بدون بنات.»

فقال الكاهن:

ـ «بل أنا سعيد.»

فقال الكابتن:

ـ «الكاهن غير سعيد، الكاهن يريد أن يكسب النمساويون الحرب.»

وأصغى الآخرون. وهزَّ الكاهن رأسه، وقال:

ـ «لا».

ـ «الكاهن لا يريد الهجوم أبداً. ألا تريدنا أن لا نهاجم أبداً؟»

ـ «لا. إذا كان هناك حرب فأحسب أن علينا أن نهاجم.»

ـ «علينا أن نهاجم. قل إذن: سوف نهاجم.»

وهز الكاهن رأسه.

وقال المايجور:

ـ «دعه وشأنه. إنه فتى صالح.»

فقال الكابتن:

ـ «على أية حال، ليس في استطاعته أن يقوم بشيء في هذا المضمار.»

ونهضنا كلنا، وغادرنا المائدة.

الفصل الرابع

في الصباح، أيقظتني المدفعية التي في الحديقة المجاورة، فرأيت الشمس تدخل الغرفة من خلال النافذة. فنهضت من فراشي، ومضيت إلى النافذة وأطلَلْت منها. كانت ممرّات الحصى مبلَّلة، وكان العشب رطباً بالندى. وقد أطلقت المدفعية نيرانها مرتين فكان الهواء يندفع كل مرة وكأنه عاصفة فيهز النافذة ويموّج مقدمة بيجامتي. لم يكن في ميسوري أن أرى المدافع، ولكنها كانت من غير ريب تطلق النار فوقنا مباشرة. كان من المزعج وجودها هناك، ولكن من دواعي سرورنا أنها لم تكن أكبر من ذلك. وفيما أنا أطل على الحديقة سمعت صوت شاحنة تجري في الشارع. فارتديت ملابسي، وهبطت السلم، واحتسيت بعض القهوة في المطبخ، ومضيت إلى المرآب.

كانت عشر سيارات مصطفة، بعضها إلى جانب بعض، تحت السقيفة الطويلة. كانت سيارات إسعاف غليظة المقدَّمات، صلبة السطوح، مدهونة باللون الرمادي، مصنوعة على غرار السيارات المخصصة لنقل الأثاث وغيره. وكان الميكانيكيون يصلحون واحدة في الفناء. وكانت ثلاث أخرى في الجبال، في مراكز الإسعاف.

سألت أحد الميكانيكيين:

ـ «هل صُوِّبت النار، ذات مرة، إلى هذه المدفعية؟»

ـ «لا، يا سيدي الملازم. إنها محميّة بالتلة الصغيرة.»

ـ «وكيف تجري الأمور؟»

ـ «ليست رديئة جداً. هذه الماكينة ليست جيدة ولكن الماكينات الأخرى لا تزال قادرة على العمل.»

ثم كفَّ عن الشغل، وابتسم:

ـ «هل كنت في إجازة؟»

ـ «نعم.»

ومسح يديه بصديريته وكشَّر مبتسماً:

ـ «هل قضيت وقتاً طيباً؟»

وابتسم الآخرون كلهم أيضاً.

فقلت:

ـ «قضيت وقتاً رائعاً. ما علّة هذه الماكينة؟»

ـ «إنها غير صالحة. كلما أصلحت عطلاً ظهر عطل آخر.»

ـ «وما علّتها اليوم؟»

ـ «يجب أن نغيِّر حلقاتها.»

وتركتهم يشتغلون، وقد بدت السيارة بائسة فارغة، مفتوحة المحرك، منثورة القِطَع على مقعد الشغل، ودخلتُ المرآب ناظراً إلى كل من السيارات. كانت نظيفة نسبياً، فبعضها قد غُسل حديثاً، وبعضها يعلوه الغبار. ونظرت إلى الدواليب في عناية، باحثاً عن الجراح وعن رضَّات الحجارة. وبدا كل شيء في حالة جيدة. كان واضحاً أن وجودي هناك للاهتمام بالأشياء وعدم وجودي سيان. وكنت قد تخيَّلت أن حالة السيارات، وإمكان الحصول على القطع الضرورية وعدمه، وحسن انتظام نقل الجرحى والمرضى من مراكز الإسعاف ثم توزيعهم على المستشفيات المعيّنة على أوراقهم ـ أقول تخيَّلت أن هذا كله مرهون بي أنا إلى حد بعيد. ولكن كان من الواضح أن وجودي وعدمه سيان.

وسألت الميكانيكي الرقيب:

ـ «هل عانيت أية مشقة في الحصول على قطع الغيار؟»

ـ «لا، يا سيدي الملازم.»

ـ «أين مستودع البنزين الآن؟»

ـ «في مكانه القديم.»

فقلت:

ـ «حسن.»

ورجعت إلى البيت، وجلست إلى مائدة رفاقي في الطعام، وشربت فنجاناً آخر من القهوة. كانت القهوة ذات لون رمادي شاحب، وكانت محلاّة بالحليب المكثَّف. وفي الخارج، كان الصباح الربيعي رائعاً. كان ثمة بداية ذلك الشعور بجفاف في الأنف، وهو الشعور الذي يفيد أن النهار سوف يكون حاراً في ما بعد. وذلك اليوم، زرت مراكز الإسعاف في الجبال، ثم رجعت إلى المدينة في ساعة متأخرة من الأصيل.

لقد بدا كل شيء وكأنه يجري، أثناء غيابي، على نحو أفضل. وتناهى إلى سمعي أن الهجوم يوشك أن يُستأنف. وكانت الفصيلة التي أُلحقنا بها تعتزم أن تشن هجوماً في مكان ما في المرتفعات، ولقد كلفني المايجور أن أنظم المراكز استعداداً للهجوم. وكانت الخطة تقضي بعبور النهر فوق المضيق الضيق، وبالانتشار عند سفح الكثيب. كان على السيارات أن تُحشد أقرب ما يكون إلى النهر، في مراكز مغطَّاة. وكان طبيعياً أن يختار سلاح المشاة هذه المراكز، ولكن كان من المفروض أن نقوم نحن بالتنفيذ. كانت تلك إحدى المناسبات التي أوقعت في نفوسنا انطباعاً زائفاً بأننا نشترك حقاً في العمل الحربي.

كنت مغبرّاً جداً، متّسخاً جداً، فصعدت إلى غرفتي لكي أغتسل. كان رينالدي قاعداً في فراشه وبيده نسخة من كتاب «قواعد اللغة

الإنكليزية» لهوغو، كان مرتدياً ملابسه، منتعلاً حذاءه العالي. وكان شعره يلمع.

وقال عندما رآني:

ـ «رائع. سوف تذهب معي لترى مس باركلي.»

ـ «لا.»

ـ «بل ستذهب. أرجوك أن تذهب، وأن تساعدني على أن أُحدث في نفسها انطباعة جيدة.»

ـ «حسن. انتظر حتى أغيِّر ملابسي.»

ـ «اغتسل، وتعال كما أنت.»

واغتسلت، ورجَّلت شعري، وانطلقنا.

وقال رينالدي:

ـ «انتظر دقيقة. لعل من الخير أن نحتسي كأساً.»

وفتح صندوق سفره، وأخرج زجاجة.

فقلت:

ـ «أرجو أن لا تكون زجاجة ستريغا.»

ـ «لا. إنها غرابًّا.»

ـ «حسن جداً.»

وأترع كأسين، فتناولناهما، وسبَّابتانا مرفوعتان. كانت خمر الغرابًّا قوية جداً.

ـ «كأساً أخرى؟»

فقلت:

ـ «لا بأس.»

وشربنا. كأساً أخرى، وأبعد رينالدي الزجاجة، وهبطنا السلم. كانت المدينة قائظة على من يمشي في الشوارع، ولكن الشمس كانت قد أخذت في الانحدار، وكان ذلك لطيفاً جداً. كان المستشفى

البريطاني دارة ضخمة بناها الألمان قبل الحرب. وكانت مس باركلي في الحديقة ومعها ممرضة أخرى. ورأينا ملابسهما البيضاء الخاصة بالممرضات من خلال الأشجار، فتقدمنا نحوهما. وألقى رينالدي التحية. وحييت أنا أيضاً، ولكن في قدر أكبر من الرصانة.

وقالت مس باركلي:

ـ «كيفد حالك؟ أنت لست إيطالياً، أليس كذلك؟»

ـ «لا.»

كان رينالدي يتحدث مع الممرضة الأخرى. كانا يضحكان.

ـ «إنه لمن العجيب حقاً أن تكون في الجيش الإيطالي.»

ـ «أنا لست في الجيش تماماً. أنا عملي في الإسعاف.»

ـ «ذلك عجيب أيضاً. لماذا أقدمت على ذلك؟»

فقلت:

ـ «لست أدري. ليس ثمة دائماً تفسير لكل شيء.»

ـ «أوه، ألا يوجد؟ لقد نُشِئتُ على الاعتقاد بأن ثمة مثل هذا التفسير.»

ـ «هذا رائع.»

ـ «قل لي: هل يحسن بنا أن نستمر طويلاً في مثل هذا الضرب من الحديث؟»

فقلت:

ـ «لا.»

ـ «هذا إعفاء. أليس كذلك؟»

فسألتها:

ـ «ما هذه العصا؟»

كانت مس باركلي فارعة الطول. وكانت ترتدي ما بدا لي أنه بزة

الممرضات النظامية، وكانت شقراء ذات بشرة سمراء ضاربة إلى الصفرة وعينين رماديتين.

واعتقدت أنها جميلة جداً. كانت تحمل عصا رفيعة من أغصان نخيل الروطان، مثل سوطٍ دُمْيةٍ من سياط الفرسان الأطفال، مغلفة بالجلد.

ـ «كانت لفتى قُتل في العام الماضي.»

ـ «أنا آسف أعظم الأسف.»

ـ «لقد كان فتى لطيفاً جداً. كان يعتزم أن يتزوجني. وقد قُتل في السوم.»

ـ «كان ذلك شيئاً رهيباً.»

ـ «هل كنتَ هناك؟»

ـ «لا.»

فقالت:

ـ «لقد سمعتُ عن ذلك سماعاً. لم يكن ثمة حقاً إيما حرب من النوع الذي يدور هنا. ولقد أرسلوا إليَّ العصا الصغيرة. إن أمه هي التي أرسلتها إليّ. لقد أعادوها مع سائر أشيائه.»

ـ «وهل انقضت مدة طويلة على خطبته إياك؟»

ـ «ثماني سنوات. لقد ترعرعنا معاً.»

ـ «ولماذا لم تتزوّجا؟»

قالت:

ـ «لست أدري. كان ذلك بلاهة من جانبي. لقد كان في ميسوري أن أمنحه ذلك على أية حال. ولكني أعتقدت أن هذا سوف يكون سيئاً بالنسبة إليه.»

ـ «فهمت.»

ـ «هل قُدِّر لك أن تعشق في يوم من الأيام؟»

فقلت:

ـ «لا.»

وجلسنا على أحد المقاعد. ونظرت إليها.

فقلت:

ـ «إن لكِ شعراً جميلاً.»

ـ «هل يعجبك؟»

ـ «كثيراً.»

ـ «كنت أعتزم أن أقصه عندما مات.»

ـ «لا.»

ـ «أردت أن أفعل شيئاً من أجله. أنت ترى أني لم أبالِ بالمسألة الأخرى، ولقد كان في ميسوره أن يفوز مني بكل شيء. كان في ميسوره أن يفوز بكل ما يريد لو كنت أعرف. كان في استطاعتي أن أتزوج منه، أو أن أفعل أي شيء آخر. أنا أعرف الآن كل شيء. ولكنه أراد، آنذاك، أن يذهب إلى الحرب، ولم أكن أدري.»

ولم أقل شيئاً.

ـ «كنت لا أعرف شيئاً آنذاك. لقد حسبت أن ذلك سوف يكون أسوأ بالنسبة إليه. ولقد خُيل إليَّ أنه قد لا يقوى على احتمال هذا الضرب من الحياة، ثم إنه قُتل بعد ذلك طبعاً، وكان هذا نهاية القصة.»

ـ «لست أدري.»

فقالت:

ـ «أوه، نعم. كان هذا نهاية القصة.»

ونظرنا إلى رينالدي يتحدث إلى الممرضة الأخرى.

ـ «ما اسمها؟»

ـ «فيرغوسون. هيلين فيرغوسون. إن صديقك طبيب، أليس كذلك؟»

ـ «نعم، إنه بارع جداً.»

ـ «هذا رائع. إنك نادراً ما تجد أطباء بارعين على مثل هذا القرب من الجبهة. إن هذا المكان يقع على مقربة من الجبهة، أليس كذلك؟»

ـ «من غير شك.»

فقالت:

ـ «إنها جبهة بلهاء. ولكنها جميلة جداً. هل يعتزمون القيام بهجوم؟»

ـ «نعم.»

ـ «وإذن فسوف يكون لدينا عمل. ليس هناك عمل الآن.»

ـ «هل مارست التمريض منذ زمن بعيد؟»

ـ «منذ نهاية عام 1915. لقد بدأت حين بدأ هو. وأذكر أنه استبدت بي فكرة بلهاء تقول إنه قد يجيء إلى المستشفى الذي أعمل فيه... وقد أصيب، في ما خيل إليَّ، بضربة سيف، وطوَّقت رأسه ضمادة، أو أصيب برصاصة في الكتف. شيء باهر!»

فقلت:

ـ «إن هذه الجبهة هي الجبهة الباهرة.»

فقالت:

ـ «نعم. إن الناس لا يستطيعون أن يدركوا كيف كانت الحرب في فرنسا. ولو قد فعلوا إذن لما كان في ميسورها أن تستمر. إنه لم يتلق ضربة سيف. لقد قذفوه بقنبلة مزقته إرباً إرباً.»

ولم أقل شيئاً.

ـ «هل تعتقد أن الحرب سوف تستمر إلى ما لا نهاية؟»

ـ «لا.»

ـ «وما الذي سيوقفها؟»

ـ «إنها سوف تتصدع في مكان ما.»

ـ «إننا نحن الذين سنتصدع. نحن الذين سنتصدع في فرنسا، إنهم لا يستطيعون الاستمرار في القيام بعمليات كالتي قاموا بها في الـ «سوم» من غير أن ينهاروا.»

فقلت:

ـ «إنها لن تنهار هنا.»

ـ «هل تؤمن بذلك؟»

ـ «أجل. لقد أبلوا بلاء حسناً في الصيف الماضي.»

فقالت:

ـ «إنهم قد ينهارون. إن كل امرئ قد ينهار.»

ـ «والألمان أيضاً.»

فقالت:

ـ «لا. لا أظن ذلك.»

ومضينا إلى حيث كان رينالدي ومس فيرغوسون.

وسأل رينالدي مس فيرغوسون بالإنكليزية:

ـ «هل تحبين إيطاليا؟»

ـ «حباً كثيراً.»

فهز رينالدي رأسه! وقال:

ـ «لا أفهم.»

فترجمتْ له العبارة قائلاً: Abbastanza Bene

فهز رأسه وقال:

ـ «هذا غير جيد، هل تحبين إنكلترة؟»

ـ «أنا لا أحبها كثيراً. إني أسكتلندية، وهذا ما يفسر لك ذلك.»

فتطلّع رينالدي إليَّ مندهشاً.

فقلت بالإيطالية:

ـ «إنها اسكتلندية، وهكذا فهي تحب أسكتلندا أكثر مما تحب إنكلترة.»

ـ «ولكن أسكتلندة هي إنكلترة.»

وترجمتُ هذا لمس فيرغوسون.

فقالت:

ـ «إنها لم تصبح بعد.»

ـ «حقاً؟»

ـ «ولن تصبح أبداً. إننا لا نحب الإنكليز.»

ـ «لا تحبين الإنكليز؟ لا تحبين مس باركلي؟»

ـ «أوه، هذه مسألة أخرى. يجب أن لا تفهم كل شيء فهماً حرفياً إلى هذا الحد.»

وبعد فترة تمنيَّنا لهما ليلة سعيدة وودعناهما، وفيما نحن نسير نحو البيت قال رينالدي:

ـ «مس باركلي تفضّلك عليَّ. هذا واضح جداً. ولكن الأسكتلندية الصغيرة لطيفة جداً.»

فقلت، ولم أكن قد لاحظتها:

ـ «جداً. هل تحبها؟»

فقال رينالدي:

ـ «لا.»

الفصل الخامس

وفي أصيل اليوم التالي ذهبت لأزور مس باركلي مرة أخرى. لم تكن في الحديقة، فذهبت إلى باب الدارة الجانبي الذي تقف أمامه سيارات الإسعاف. وفي داخل الدارة وجدت كبيرة الممرضات التي قالت لي إن مس باركلي منصرفة إلى أداء وظيفتها. وأضافت:

ـ «نحن في حرب كما تعرف.»

فقلت إني أعرف ذلك.

قالت:

ـ «أأنت الأميركي الذي يعمل في الجيش الإيطالي؟»

ـ «نعم يا سيدتي.»

ـ «كيف اتفق لك أن أقدمت على ذلك؟ لماذا لم تلتحق بقواتنا؟»

فقلت:

ـ «لست أدري. هل أستطيع الالتحاق الآن؟»

ـ «أخشى أن لا يكون ذلك ممكناً الآن. قل لي: لماذا التحقت بالإيطاليين؟»

فقلت:

ـ «لقد كنت في إيطاليا. وأنا أتكلم الإيطالية.»

فقالت:

ـ «أوه. أنا أتعلَّمها. إنها لغة جميلة.»

ـ «يقول بعضهم إنه في استطاعة المرء أن يتعلمها في أسبوعين.»

ـ «أوه، أنا لن أستطيع أن أتعلَّمها في أسبوعين. لقد أمضيت في دراستها أشهراً حتى الآن. في استطاعتك أن تجيء وترى مس باركلي بعد الساعة السابعة إذا شئت. سوف تكون حرة عندئذ. ولكن لا تصحب معك كثيراً من الإيطاليين.»

ـ «حتى ولو من أجل لغتهم الجميلة؟»

ـ «لا. ولا من أجل بزَّاتهم العسكرية الجميلة.»

فقلت:

ـ «طاب مساؤك.»

ـ «A rivederci، أيها الملازم.»

ـ «A rivederci»

وحيَّيت، ومضيت لسبيلي. إن من المستحيل أن تحيي الأجانب على الطريقة الإيطالية من غير ارتباك. لقد اعتقدت دائماً أن التحية الإيطالية لم تُصنَع للتصدير.

كان النهار حاراً. وكنت قد صعدت إلى النهر حتى رأس الجسر عند «بلافا». وكانت الخطة تقضي بأن يبدأ الهجوم من هناك. كان من المتعذر التقدم من تلك النقطة إلى جسر الزوارق، وكانت خاضعة لنيران المدفعية والرشاشات على مبعدة ميل واحد تقريباً. وهذه الطريق نفسها لم تكن عريضة إلى حد يساعد على نقل كل ما هو ضروري للقيام بهجوم، ولقد كان في استطاعة النمساويين أن يجعلوا منها مَجْزراً(*). ومع ذلك فالإيطاليون كانوا قد عبروا النهر وانتشروا بعض الشيء على الضفة الأخرى لكي يسيطروا على نحو ميل ونصف ميل من الجانب النمساوي من النهر. كانت منطقة قذرة، وما كان ينبغي

(*) المجزر أو المسلخ، حيث تذبح الخراف والأبقار.

للنمساويين أن يسمحوا لهم بالاستيلاء عليها. وأحسب أن ذلك كان بفضل ضرب من التسامح المتبادل، لأن النمساويين ظلوا يحتفظون برأس جسر في الجانب الأدنى من النهر. وكانت الخنادق النساوية منتشرة في مكان أكثر ارتفاعاً، عند سفح الكثيب، وليس يفصل ما بينها وبين الخطوط الإيطالية غير بضع ياردات. كان ثمة، في سالف الأيام، مدينة صغيرة، ولكنها قد أمست ركاماً من الحجارة. كان هناك بقية محطة سكة حديدية، وجسر ثابت محطم لا سبيل إلى إصلاحه ولا إلى استعماله لأنه كان على مرمى البصر.

هبطتُ الطريق الضيقة نحو النهر، وتركت السيارة عند مركز الإسعاف، في أسفل الكثيب، وعبرتُ جسر الزوارق من حيث كان مصوناً بكتف من الجبل، ومضيت في محاذاة الخنادق في المدينة الخربة وعلى طول حافة السفح. كان كل امرئ في الملاجئ. وكانت ثمة صفوف من الصواريخ المعدّة لطلب النجدة من المدفعية، أو لتوجيه الإشارات إذا ما قطعت الأسلاك التلفونية. لم يكن ثمة غير الهدوء، والحرارة، والقذارة. ونظرتُ عبر السلك فرأيت الخطوط النمساوية. ولكن العين ما كانت لترى أحداً. شربت كأساً مع كابتن عرفتُه في أحد الملاجئ، ثم عبرت الجسر راجعاً.

كان القوم على وشك إتمام طريق عريضة تصعد إلى الجبل ثم تتكسر يمنة ويسرة هابطة نحو الجسر. وكانت الخطة تقضي بالبدء بالهجوم عندما يتم شق هذه الطريق. كانت تهبط خلال الغابة الجديدة للنزول، على أن تسلك الشاحنات الفارغة، والعربات، وسيارات الإسعاف المثقلة، وجميع وسائل النقل الراجعة، الطريق القديمة الضيقة. كان مركز الإسعاف على الجانب النمساوي من النهر تحت حافة الكثيب، وكان على حملة النقّالات أن يعيدوا الجرحى عبر جسر الزوارق. ولسوف يكون الوضع على هذه الحال أيضاً عندما يبدأ الهجوم. وكان يخيَّل إليَّ أن الميل، أو نحو الميل، الأخير من الطريق

الجديدة ـ حيث نأخذ في الاستواء ـ معرّض على نحو موصول لقذائف النمساويين. لقد بدا وكأنها سوف تكون ورطة. ولكني وجدتُ مكاناً تستطيع السيارات أن تأوي إليه بعد أن تجتاز تلك البقعة البشعة، وأن تنتظر فيه الجرحى الذين يُحملون عبر جسر الزوارق. وكنت أتمنى لو أقود السيارة على الطريق الجديدة ولكنها لم تكن قد أنجزت بعد. لقد بدت عريضة حسنة الصنع ذات انحدار معقول، ومنعطفات تتراءى رائعة جداً حين تنظر إليها من خلال فجوات في الغابة على سفح الجبل. ولن يكون ثمة إيما خطر على سياراتنا المزوَّدة بمكابح فولاذية جيدة، وعلى أية حال فإنها لن تكون، في حال هبوطها الطريق، مثقلة. حتى إذا عدتُ، قُدت السيارة مصعداً في الطريق الضيقة. أوقف سيارتي اثنان من الجنود القربينيين(*). كانت قنبلة قد سقطت، وفيما نحن ننتظر سقطت ثلاث أخرى على الطريق. كانت تلك القنابل من النوع المعروف «بذوات السبعة والسبعين»، وقد أحدثت اندفاعاً أزيزياً في الهواء: انفجار قاسٍ مشرق، ووميض، ثم دخان رمادي يجرف الطريق. وأشار إلينا الجنديان القربينيان بمتابعة السير. وإذا مررنا حيث سقطت القنابل فقد اجتنبتُ المواطن الصغيرة المحطمة وشممتُ المادة المتفجرة القوية، ورائحة الطين والحجارة المنسوفة، والصوَّان المكسَّر حديثاً. واتجهت بسيارتي عائداً إلى غوريتزيا، إلى دارتنا، ومضيت ـ كما سبق وذكرت ـ لزيارة مس باركلي التي كانت منهمكة في مهام العمل.

تناولت طعام العشاء في سرعة بالغة، ومضيت إلى الدارة حيث يقيم البريطانيون مستشفاهم. كانت في الواقع دارة كبيرة جداً وجميلة، وكانت حديقتها مزدانة بأشجار رائعة. كانت مس باركلي جالسة على

(*) Carabinieri وهم الجند المسلحون بالقربينات، والقربينة Carbine ضرب من الغدارات. واليوم تُطلق التسمية على الدرك في إيطاليا

مقعد في الحديقة، وكانت مس فيرغوسون معها. لقد بدتا سعيدتين برؤيتي، وما هي إلا لحظات حتى استأذنت مس فيرغوسون ومضت لسبيلها قائلة:

ـ «سوف أترككما معاً، إنكما تنسجمان أحسن الانسجام حين لا أكون بينكما.»

فقالت مس باركلي:

ـ «لا تذهبي، يا هيلين.»

ـ «بل إني أؤثر الذهاب. هناك بضع رسائل يتعيَّن عليَّ أن أكتبها.»

فقلت:

ـ «طاب مساؤك.»

ـ «طاب مساؤك، يا مستر هنري.»

ـ «لا تكتبي أي شيء مما يزعج الرقيب.»

ـ «لا تقلقي. أنا لن أكتب إلا عن المكان الجميل الذي نعيش فيه، وعن شجاعة الإيطاليين البالغة.»

ـ «إذن فسوف تفوزين بوسام.»

ـ «سوف يكون ذلك رائعاً. طاب مساؤك، يا كاثرين.»

فقالت مس باركلي:

ـ «سوف أراك بعد قليل.»

وتوارت مس فيرغوسون في الظلام.

فقلت:

ـ «إنها لطيفة.»

ـ «أوه، نعم. إنها لطيفة. هي ممرضة.»

ـ «ألست أنتِ ممرضة أيضاً؟»

ـ «أوه، لا. أنا V.AD[*] نحن نعمل كثيراً. ولكن أحداً لا يثق بنا.»

ـ «ولِمَ لا؟»

ـ «إنهم لا يثقون بنا حين لا يكون ثمة حوادث. ولكنهم يمنحوننا ثقتهم حين يتكاثر العمل.»

ـ «وما الفرق؟»

ـ «الممرضة أشبه بالطبيب. إن الفتاة تحتاج إلى وقت طويل لكي تفوز بهذا اللقب. أما الـ V.A.D فتسلك طريقاً مختصرة.»

ـ «فهمت.»

ـ «الإيطاليون لا يحبون أن يروا النساء على مقربة من الجبهة. وهكذا فإننا نسلك كلنا سلوكاً خاصاً جداً. إننا لا نغادر المستشفى أبداً.»

ـ «ولكن، أنا، هل أستطيع أن أجيء إلى هنا؟»

ـ «أوه، نعم. نحن لسنا معزولات عن العالم.»

ـ «ما رأيك في وضع حديث الحرب هذا جانباً؟»

ـ «ذلك أمر عسير. وليس ثمة مكان نستطيع أن نصفه فيه.»

ـ «فلنستبدله إذن.»

ـ «حسن.»

وتبادلنا النظرات في الظلام. لقد وجدتها رائعة الجمال، ولقد أمسكت بيدها. ولم تعترض على ذلك، فضغطت بيدي عليها، ثم طوّقتها واضعاً ذراعي تحت ذراعها.

فقالت:

(*) وهي مختصر Voluntany Aid Detachment أي فرقة المتطوعات للمساعدة في المستشفيات.

ـ «لا.»

ولكني أبقيت ذراعي حيث كانت، وقلت:

ـ «ولِمَ لا؟»

ـ «لا.»

فقلت:

ـ «بل نعم. أرجوكِ.»

وملْتُ عليها، في الظلام، لكي أقبّلها. وأحسست بوميض حاد لاسع. كانت قد لطمتني بقوة على وجهي. وكانت يدها قد أصابت أنفي وعينيَّ، وأغرورقت عيناي من أثر ذلك بالدمع.

وقالت:

ـ «آسفة جداً، لقد شعرتُ بأن لي أفضلية ما.»

ـ «لقد كنتِ على صواب.»

فقالت:

ـ «أنا آسفة إلى حد فظيع. ولكن هذا الوجه من المسألة، وجه «إجازة الممرضة في منتصف الليل»، هو الذي لم أستطع احتماله. أنا لم أقصد إلى إيذائك. بل أنا لم أؤذك. أليس كذلك؟»

كانت تنظر إليَّ في الظلام. وكنت غاضباً، ولكني مع ذلك هادئ جداً، إذ توقَّعت كل ما قد حدث كما يتوقع المرء حركة حجارة الشطرنج.

فقلت:

ـ «لقد أحسنتِ صنعاً. أنا لا أجد أي بأس في ذلك البتة.»

ـ «يا للفتى المسكين!»

فقلت ناظراً إليها:

ـ «أنت ترين أني كنت أحيا حياة مضحكة. إننا أقطع الأيام من غير أن أتكلم الإنكليزية. وإلى هذا فأنت بارعة الجمال.»

- «لستَ في حاجة إلى التلفظ بكثير من الهراء. لقد قلت إني آسفة. إنا منسجمان بشكل جيّد.»

فقلت:

- «أجل، ولقد ابتعدنا عن الحرب.»

وضحكت. وكانت تلك أول مرة قُدِّر لي فيها أن أسمعها تضحك. لقد راقبت وجهها.

وقالت:

- «إنك حلو.»

- «لا، لستُ كذلك.»

- «بلى، أنت لطيف جداً. وإني لأتمنى لو أقبّلك إذا لم يكن لديك مانع.»

ونظرتُ في عينيها، وطوّقتها بذراعي كما فعلت من قبل، وقبّلتها. لقد قبّلتها في عنف، وضممتها إلى صدري بقوّة، وحاولت أن أفتح شفتيها. كانتا مغلقتين في أحكام. وكنت لا أزال مغضباً، ولقد ارتعَشَت حين هصرتُها فجاءة. لقد ضممتُها إليَّ ضماً شديداً، وكان في ميسوري أن أسمع قلبها يخفق. وانفرجت شفتاها، وارتدَّ رأسها مستنداً إلى يدي، ثم انخرطت في البكاء فوق منكبي.

وقالت:

- «أوه، يا حبيبي. سوف تكون لطيفاً معي، أليس كذلك؟»

فقلت في نفسي: ولكن ماذا تعني، بحق الجحيم؟ وداعبت شعرها، وأخذتُ أربّت على كتفيها. وكانت مسترسلة في البكاء.

ورفعت بصرها إليَّ وقالت:

- «سوف تكون لطيفاً معي، أليس كذلك؟ لأننا سوف نحيا حياة عجيبة.»

وبعد برهة قصيرة مضيت معها إلى باب الدارة. واجتازت هي

الباب، ورجعت أنا إلى البيت. حتى إذا بلغتُ دارتنا، صعدتُ إلى الغرفة. كان رينالدي مستلقياً في فراشه. ولقد نظر إليَّ قائلاً:

ـ «وهكذا تحرز كل يوم تقدماً مع مس باركلي؟»

ـ «نحن صديقان.»

ـ «تبدو على محيّاك العذوبة التي تكون للكلاب عند النَّزْوِ.»

ولم أفهم الكلمة.

ـ «التي تبدو على ماذا؟»

وشرح لي ما قصد إليه.

فقلت:

ـ «تبدو على محيّاك العذوبة التي تكون للكلاب حين...»

ـ «اقلع عن ذلك. فلن تنقضي بضع دقائق حتى نتبادل الإهانات.»

وضحك.

ـ «طاب ليلك.»

ـ «طاب ليلك، أيها الجرو الصغير.»

صرعتُ شمعتَهُ، وانسللت إلى الفراش في الظلام.

ورفع رينالدي الشمعة، وأضاءها، واستأنف مطالعته.

الفصل السادس

وغبتُ في مراكز الإسعاف يومين. ثم إنني رجعت في ساعة متأخرة فلم أرَ مس باركلي إلا مساء اليوم التالي. لم تكن في الحديقة، فكان عليَّ أن أنتظرها في مكتب المستشفى. كان ثمة كثير من التماثيل الرخامية النصفية المرفوعة على قوائم من خشب مدهون على طول جدران الغرفة التي اتخذوا منها مكتباً، وكان الرواق الذي يؤدي إليه المكتب هو الآخر مزدان الجانبين بتماثيل مشابهة. كانت لها ميزة الرخام الكاملة التي تجعلها تبدو متماثلة. والواقع أني كنت دائماً أجد فنّ النحت مُضجِراً إلى أبعد الحدود، ولكن التماثيل البرونزية تبدو أشبه بشيء ما. أما التماثيل الرخامية النصفية فتتراءى لي دائماً وكأنها مقبرة. ومع هذا، فقد كان ثمة مقبرة رائعة، هي مقبرة بيزا. وكانت جنوى هي المكان الذي ينبغي أن تذهب إليه لترى التماثيل الرخامية الرديئة. وكانت الدارة مِلْكاً لرجل ألماني بالغ الثراء، ولا ريب في أن تماثيلها النصفية قد كلفته أموالاً طائلة. وتساءلت مَن الذي نحتها، وما مقدار الأجر الذي تقاضاه. وحاولت أن أدرك هل كان أصحاب تلك التماثيل من أفراد الأسرة أم لا. لكنها كانت كلها تماثيل كلاسيكية على نحو متماثل. فليس في استطاعتها أن توقع في نفسك انطباعة ما.

وجلست على كرسي، وقبعتي في يدي. وكان مفروضاً فينا أن نعتمر بالخوذ الفولاذية حتى في غوريتزيا، ولكنها كانت مزعجة،

ومسرحية إلى حد مضحك في مدينة لم يُدعَ سكانها المدنيون إلى إخلائها. وكنت كلما صعدت إلى مراكز الإسعاف اعتمر إحدى تلك الخوذ وأحمل قناعاً إنكليزياً من أقنعة الغازات. كنا قد بدأنا نحصل على بعض تلك الأقنعة. ولقد كانت أقنعة حقيقية. ليس هذا فحسب، بل لقد أُمِرنا بأن نحمل غدارة أوتوماتيكية. حتى الأطباء ورجال الهيئات الصحية. وكانت غدارتي تصطدم دائماً بظهر الكرسي فأحس بوجودها. وكان الواحد منا عرضة للاعتقال إذا لم يحمل غدارته علانية. وكان رينالدي يحمل جراب غدارة جلدياً محشواً بالورق الصحي. أما أنا فكنت أحمل غدارة حقيقية واستشعر أني أشبه برجل بارع في استعمال الغدارات، وبقيتُ على ذلك حتى تمرَّنت على إطلاق النار منها. كانت من نوع آسترا، عيار 7,65، كانت ماسورتها قصيرة، وكان اندفاعها إلى الوراء عنيفاً إلى درجة تجعلك لا تتصور أن في ميسورك أن تصيب بها هدفاً. ولقد تمرنت على استعمالها مسدّداً إياها تحت الهدف، محاولاً السيطرة على ارتجاج الماسورة القصيرة المضحكة حتى أمسى في ميسوري أن أصيب ضمن نطاق ياردة من الهدف الذي سدَّدت إليه النار على مبعدة عشرين خطوة، وعندئذ خطرت لي سخافة حمل الغدارة. وما هي إلا برهة يسيرة حتى نسيتُها، وحملتُها على خصري من غير أن أستشعر شيئاً على الاطلاق ما خلا ضرباً غامضاً من الخجل كلما لقيت بعض الناطقين بالإنكليزية. لقد كنت جالساً، هناك على كرسي، وكان هناك ضابط ينظر إليَّ شَزْراً من وراء مكتبه، بينما كنت أتأمل أرض الغرفة الرخامية، والأعمدة ذات التماثيل الرخامية، واللوحات الجصيَّة (فريسكو) على الجدران، وانتظر مس باركلي. ولم تكن اللوحات الجصية رديئة. إن إيما لوحة جصية تكون جيدة حين تأخذ في التقشر والتناثر.

رأيت كاثرين باركلي مقبلة في الرواق. فنهضت. لم تبدُ فارعة الطول وهي تتقدم نحوي، ولكنها كانت رائعة جداً.

وقالت:

ـ «مساء الخير، مستر هنري.»

فقلت:

ـ «كيف حالكِ؟

كان الضابط يصغي خلف مكتبه.

ـ «هل نجلس هنا أم نخرج إلى الحديقة؟»

ـ «فلنخرج إلى الحديقة. إنها أبرد بكثير.»

ومشيت خلفها إلى الحديقة، والضابط يتبعنا بنظراته. حتى إذا انتهينا إلى الممرّ المفروش بالحصباء، قالت:

ـ «أين كنت؟»

ـ «كنت أقوم بتفتيش مراكزنا.»

ـ «ألم يكن في ميسورك أن تبعث إليَّ بكلمة؟»

فقلت:

ـ «لا. ليس بسهولة. لقد حسبتُ أني سأرجع.»

ـ «كان عليك أن تخبرني، يا حبيبي.»

كنا قد بعدنا عن الممرّ الممهَّد، وشرعنا نمشي تحت الأشجار. وأمسكت بيديها الاثنتين، ثم وقفتُ وقبَّلتُها.

ـ «أليس هناك أيما مكان نستطيع أن نذهب إليه؟»

فقالت:

ـ «لا. ينبغي أن نكتفي بالسير هنا. لقد غبتَ عنا فترة طويلة.»

ـ «هذا هو اليوم الثالث. ولكن ها أنا ذا قد عدت.»

ونظرت إليَّ:

ـ «أتحبني حقاً؟»

ـ «نعم.»

ـ «لقد قلتَ إنك تحبني، أليس كذلك؟»

فقلت كاذباً:

ـ «أجل. أحبكِ.» ولم أكن قد قلتُها من قبل.

ـ «وأنت تناديني كاثرين؟»

ـ «كاثرين.»

ومشينا بضع خطوات، ثم وقفنا تحت شجرة.

ـ «قُلْ: لقد رجعتُ لأرى كاثرين في الليل.»

ـ «لقد رجعتُ لأرى كاثرين في الليل.»

ـ «أوه، يا حبيبي، لقد رجعتَ، أليس كذلك؟»

ـ «نعم.»

ـ «أنا أحبك حباً عظيماً، أتوسّل إليك، ضع يدك هناك مرة أخرى.»

ـ «إنها لم تفارق مكانها قط.»

وأدرتها نحوي بحيث أستطيع أن أرى وجهها حين أُقبّلها، فرأيت أن عينيها مغمضتان. وقبّلت عينيها المغمضتين كلتيهما، وخيِّل إليَّ أنها معتوهة بعض الشيء. وما كنت لأجد أي بأس في هذا إذا كانت كذلك حقاً. فذلك أفضل من الذهاب كل يوم إلى الماخور الخاص بالضباط حيث تتسلق البنات ركبتيك، ويُلبسنك قبعتك على نحو معكوس كدليل على حبّهن بين رحلتين من رحلاتهن إلى الدور العلوي مع إخوانك في السلاح. كنت أعرف أني لم أحب كاثرين باركلي، ولم أكن أفكِّر في أن أحبها قط. كان ذلك كله لعبة، مثل البريدج، يقول فيها المرء كلمات بدلاً من أن يلعب بالورق. وكالبريدج يتعين عليك أن تتظاهر بأنك تلعب من أجل المال، أو من أجل رهان ما، ولم يكن أحد قد حدد طبيعة الرهان. وقد لاءمني ذلك كل الملاءمة.

وقلت:

- «أتمنى لو كان ثمة مكان نستطيع أن نذهب إليه.»

كنت قد بدأت أختبر، في الواقع، تلك الصعوبة الخاصة بالرجال والتي تتمثل في مغازلة المرأة، وقوفاً على القدمين، لفترة طويلة.

وقالت:

- «ليس ثمة مكان.»

وخرجت من أحلام يقظتها وأضافت:

- «فلنجلس هنا لحظة قصيرة.»

وجلسنا على المقعد الحجري المسطح، وأمسكتُ بيد كاثرين باركلي. إنها لم تسمح لي بأن أطوّقها بذارعي.

وسألتني:

- «هل أنت متعب جداً؟»

- «لا.»

وخفضت بصرها إلى العشب.

- «إنها لعبة سمجة هذه التي نلعبها. أليس كذلك؟»

- «أية لعبة؟»

- «لا تتظاهر بقلّة الفهم.»

- «أؤكد لك أني لا أقول ذلك عمداً.»

فقالت:

- «أنت فتى لطيف. وأنت تبذل غاية جهدك لكي تلعب اللعبة جيداً. ولكنها لعبة سمجة.»

- «هل تعرفين دائماً ما الذي يفكّر فيه الناس؟»

- «ليس دائماً. أما ما تفكّر فيه أنت فأعرفه. من العبث أن تقول لي إنك تحبني. لقد انتهى كل شيء لهذا المساء. أعِندكَ موضوع تحب أن نتحدث فيه؟»

- «ولكني أحبك!»

ـ «أرجوك، لماذا نكذب حين لا نكون مضطرين إلى ذلك؟ لقد أجدت تمثيل مهزلتك الصغيرة إجادة عظيمة، وأنا في حال حسنة الآن. أنت ترى أني لست بلهاء. إلا قليلاً في بعض الأحيان.»

وضغطتُ على يدها قائلاً:

ـ «عزيزتي كاثرين.»

ـ «إنها تبدو مضحكة جداً الآن ـ كاثرين. أنتَ لا تلفظها بالطريقة نفسها. ولكنك لطيف جداً. أنت فتى ممتاز.»

ـ «ذلك ما قاله الكاهن.»

ـ «أجل، أنت فتى ممتاز. ولسوف تجيء وتراني؟»

ـ «طبعاً.»

ـ «ولن تضطر إلى القول إنك تحبني. لقد انتهى ذلك كله مؤقتاً.»

ونهضت وبسطت يدها، قائلة:

ـ «طاب مساؤك.»

لقد أردت أن أقبّلها. وقالت:

ـ «لا. أنا متعبة إلى حد رهيب.»

فقلت:

ـ «قبّليني، برغم ذلك.»

ـ «أنا متعبة إلى حد رهيب، يا حبيبي.»

ـ «قبّليني.»

ـ «هل أنت شديد الرغبة في ذلك؟»

ـ «نعم.»

وقبّلتها، وأفلتت مني فجأة، وهي تقول:

ـ «لا. طاب مساؤك. أرجوك، يا حبيبي.»

ومضينا نحو الباب، ورأيتها تدخل وتبتعد في الرواق. وأحببت

أن أراقبها وهي تمشي. وتابعت سيرها في الرواق. ورجعتُ إلى البيت. كان الليل قائظاً جداً، وكان ثمة حركة ناشطة في الجبال. وراقبت وميض البرق على جبل سان غبرييل.

ووقفت تجاه فيلا روسًا. كانت مصاريع النوافذ موصدة، ولكن كان لا يزال ثمة ناس في الداخل. كان بعضهم ينشد. ودخلت إلى غرفتي. وأقبل رينالدي فيما كنت أنزع ملابسي.

وقال:

- «ها! الأمور لا تجري على ما يرام. الطفل مرتبك.»

- «من أين أقبلت؟»

- «من فيلا روسًا. لقد كان اجتماعنا مثقِفاً جداً، أيها الطفل. لقد أنشدنا كلنا، وأنت، أين كنت؟»

- «كنت في زيارة للإنكليز.»

- «أحمد اللّه على أني لم أتورط مع الإنكليز.»

الفصل السابع

وفي أصيل اليوم التالي رجعت من مركزنا الجبلي الأول، وأوقفت السيارة عند الـ «سميستيمنتو» حيث كان الجرحى والمرضى يصنَّفون وفقاً لأوراقهم التي كانت تدوَّن عليها أسماء مختلف المستشفيات. وكنت أقوم بقيادة السيارة، ولقد بقيت فيها، ومضى السائق بالأوراق. كان نهاراً قائظاً، وكانت السماء لامعة جداً، زرقاء جداً، وكانت الطريق بيضاء مكسوَّة بالغبار. كنت جالساً في مقعد الـ «فيات» العالي، وكنت لا أفكِّر بشيء. واجتازت الطريق سريَّة من سرايا الجيش، وراقبتها وهي تمر. كانت وطأة الحر شديدة على أفراد السريّة، وكان العرق يتصبب منهم. كان بعضهم يعتمر الخوذ الفولاذية، ولكن كثرتهم كانت تحملها معلَّقة بالجراب. وكانت أكثر الخوذ أكبر مما ينبغي، فهي تكاد تنتهي إلى آذان الذين يعتمرونها. أما الضباط فقد اعتمروا كلهم بالخوذ، وكانت أكثر ملاءمة لرؤوسهم. كانت السرية هي نصف الـ «بريغاتا بازيليكاتا» Brigata Basilicata، ولقد عرفت أفرادها من الخطوط الحمراء والبيضاء التي تقلِّم أطواق قمصانها. وكان ثمة متخلفون من الجند برزوا على الطريق بعد فترة طويلة من مرور السرّية ـ رجال لم يستطيعوا أن يلحقوا بالشراذم التي ينتسبون إليها. كان العرق يتصبب منهم، وكانوا مغبَّرين متعبين. وقد بدا بعضهم في حال رديئة جداً. وبرز جندي بعد مرور آخر المتخلفين. كان يعرج في سيره. وقد كفَّ عن المشي، وجلس على حافة الطريق.

فترجلت من سيارتي وتوجهت نحوه.

ـ «ما دهاك؟»

فرفع بصره إليَّ، ثم نهض.

ـ «سوف أتابع السير.»

ـ «ما المسألة؟»

ـ «...... الحرب.»

ـ «وما بال رجلك؟»

ـ «لست أشكو من رجلي. أنا مصاب بفتق.»

فسألته:

ـ «ولِمَ لم تركب سيارة الإسعاف؟ لِمَ لم تذهب إلى المستشفى؟»

ـ «إنهم لا يسمحون لي بذلك. لقد قال الليفتنانت إني نزعت حزام الفتق عمداً.»

ـ «دعني أتحسّسه.»

ـ «إنه بارز كل البروز.»

ـ «في أي ناحية هو؟»

ـ «هنا.»

ولمسته. وقلت:

ـ «أسعُل!»

ـ «أخشى أن يزيده ذلك ضخامة. لقد أصبح حجمه الآن ضعف ما كان عليه هذا الصباح.»

فقلت:

ـ «إجلس. ما إن أنجز أوراق هؤلاء الجرحى حتى أنقلك معي وأسلمك إلى أيدي أطبائكم.»

ـ «سوف يقولون إني فعلت ذلك عن عمد.»

فقلت:

ـ «إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً. إنه ليس جرحاً. لقد أصبت به قبل الحرب. أليس كذلك؟»

ـ «ولكنني فقدت الحزام.»

ـ «سوف يرسلونك إلى أحد المستشفيات.»

ـ «ألا أستطيع أن أبقى هنا، أيها الملازم؟»

ـ «لا. إن أوراقك ليست لدي.»

ووصل السائق حاملاً أوراق الجرحى الذين في السيارة. وقال:

ـ «أربعة إلى رقم 105، واثنان إلى رقم 132.»

وكان هذان مستشفيين واقعين وراء النهر.

فقلت:

ـ «تولَّ أنت قيادة السيارة.»

وساعدت الجندي ذا الفتق على الصعود والجلوس معنا على مقعد السيارة الأمامي. وسألني:

ـ «هل تتكلم الإنكليزية؟»

ـ «من غير ريب.»

ـ «ما رأيك في هذه الحرب اللعينة؟»

ـ «شيء عفن.»

ـ «آه، أنا أعتقد أنها شيء عفن. وحق يسوع المسيح أنها شيء عفن.»

ـ «هل كنت في الولايات المتحدة؟»

ـ «طبعاً، في بيتزبورغ. لقد قدَّرت أنك أميركي.»

ـ «ألا أتكلم الإيطالية جيداً؟»

ـ «لقد عرفت جيداً أنك أميركي.»

فقال السائق، بالإيطالية، ناظراً إلى الرجل ذي الفتق:

ـ «أميركي آخر.»

ـ «اسمع أيها الملازم، هل يتعيَّن عليك فعلاً أن تقودني إلى سريَّتي؟»

ـ «نعم.»

ـ «لأن الكابتن الطبيب يعرف أني مصاب بفتق. لقد رميت الحزام اللعين لكي يزداد الفتق سوءاً فأعفى من الذهاب إلى خط النار من جديد.»

ـ «فهمت.»

ـ «ألا تستطيع أن تقودني إلى مكان آخر؟»

ـ «لو كنا في مكان أقرب إلى الجبهة إذن لكان في ميسوري أن أنقلك إلى أول مركز من مراكز الإسعاف. أما في مثل هذا المكان في مؤخرة الجبهة فيجب أن تكون لديك أوراق.»

ـ «إذا رجعت فسوف يجرون لي عملية جراحية، ومن ثم يرسلونني إلى خط النار ويبقونني هناك.»

وفكَّرت في الأمر.

وسألني:

ـ «وأنت أيضاً لا تريد أن تذهب إلى خط النار وتبقى هناك، أليس كذلك؟»

ـ «طبعاً.»

ـ «آه، بحق المسيح، أليست هذه حرباً لعينة؟»

فقلت:

ـ «اسمع. انزل، ودع نفسك تقع في الطريق، فيسيل الدم من رأسك، ولسوف ألتقطك وأنا عائد وآخذك إلى المستشفى. سوف نقف هنا، يا آلدو.»

ووقفنا عند جانب الطريق. وساعدته على النزول.

وقال:

ـ «سوف تجدني هنا، أيها الملازم.»

فقلت:

ـ «إلى اللقاء.»

ومضينا لسبيلنا، وبعد ميل واحد تقريباً اجتزنا السرية، ثم عبرنا النهر الذي عكَّره ذوبان الثلج فصار يجري مسرعاً بين دعائم الجسر، وسلكنا الطريق الممتدة عبر السهل لنُسلّم الجرحى إلى المستشفيين. وفي طريق العودة قدتُ أنا السيارة الفارغة، على جناح السرعة، إلتماساً للرجل ذي الفتق. فاجتزنا السرّية، ثم اجتزنا المتخلفين من الجند. وبعد ذلك رأينا عربة خيل من عربات الإسعاف واقفة في قارعة الطريق. وكان رجلان اثنان يرفعان الرجل ذا الفتق لنقله في العربة. كانا قد عادا بحثاً عنه. وأومأ الرجل برأسه إليَّ. كانت خوذته قد سقطت، وكان الدم يجري من جبهته عند منبت الشعر. كان أنفه مخدوشاً، وكان الغبار يعلو الرقعة الدامية، ويعلو شعره أيضاً.

وصاح:

ـ «أنظر إلى الجرح، أيها الملازم. ليس في اليد حيلة. لقد رجعوا ليأخذوني.»

* *

وحين رجعت إلى الدارة، كانت الساعة الخامسة. ومضيتُ إلى المكان الذي نغسل فيه السيارات لابترد بالماء. ثم إني شرعت أكتب تقريري في غرفتي، جالساً ببنطلون وقميص داخلي تجاه النافذة المفتوحة. كان الهجوم على وشك أن يقع خلال يومين اثنين، وعليَّ أن أذهب مع السيارات إلى بلافا. كان قد انقضى زمن طويل على آخر رسالة بعثت بها إلى الولايات المتحدة، وأعرف أنه عليَّ أن أكتب،

ولكني بعد أن كنت أرجأت الكتابة إلى درجة جعلت من المستحيل عليَّ، تقريباً، أن أقوم بهذه المهمة الآن. وإلى هذا، فلم يكن لدي ما أقوله. لقد أرسلت بطاقتين أو ثلاثاً من البطاقات العسكرية المعروفة بـ Zona di guerra (المنطقة الحربية) ضارباً خطاً على ما فيها باستثناء: أنا في صحة جيدة. إن أمثال هذه البطاقات سوف تغريهم بالصبر. ولا ريب في أنها سوف تلقى نجاحاً كبيراً في أميركا، فهي غريبة وغامضة. والواقع أن هذه المنطقة الحربية كانت منطقة غريبة وغامضة، ولكني اعتقدت أنها خطرة جداً وموجهة توجيهاً صالحاً، بالقياس إلى الحروب الأخرى مع النمساويين. فقد أُنشِئ الجيش النمساوي ليمنح نابوليون انتصارات ـ ليمنح أي نابوليون انتصارات ـ وقد تمنيت لو أن عندنا نابوليون، ولكن كان عندنا بدلاً من ذلك الجنرال كادورنا، البدين المترف، وفيكتور عمانوئيل، الرجل الضئيل الجسم ذو العنق الطويلة الدقيقة، واللحية الشبيهة بلحية التيس. وفي القطاع الأيمن، كان عندنا دوق آووستا. ولعله كان وسيم الطلعة إلى درجة تجعل من المتعذر عليه أن يكون جنرالاً عظيماً، ولكنه كان يبدو وكأنه إنسان. وكان كثير من الإيطاليين يودّون لو يكون هو الملك. كانت تبدو عليه سيما الملوك حقاً. فهو عم الملك، وكان يقود الجيش الثالث. وكنا نحن في الجيش الثاني. وكانت بعض بطاريات المدفعية البريطانية تعمل مع الجيش الثالث. وكنت قد اجتمعت بمدفعيّين من تلك الزمرة، في ميلانو. كانا لطيفين جداً، ولقد قضينا معهما سهرة رائعة. كانا ضخمي الجسم، حيِيَّيْنِ مرتبكين، شديدي التقدير لكل ما يحدث. ولقد كنت أتمنى لو عملت مع البريطانيين. فقد كان ذلك خليقاً به أن يجعل مهمتي أيسر بكثير. ومع ذلك فقد كان من الجائز جداً أن أقتل، لو عملت معهم. لا، ليس في حقل الإسعاف هذا. بل حتى في حقل الإسعاف نفسه. فقد قُتل بعض سائقي سيارات الإسعاف الإنكليز، أحياناً. حسناً، أعرف أني لن أقتَل. في هذه الحرب على

الأقل. فلم تكن لهما أيما اهتمام بي شخصياً. وهي لم تبدُ في نظري أشد خطراً عليَّ من حرب تدور رحاها في السينما. ومع ذلك فقد تضرعت إلى الله أن يضع حداً لها. ولعلها أن تنتهي هذا الصيف. ولعل النمساويين ينهارون. فطالما انهاروا في حروب أخرى. ما الذي أصاب هذه الحرب؟ فقد قال كل امرئ إن الفرنسيين قد أوشكوا على الاستسلام. وقال رينالدي إن الفرنسيين قد ثاروا وإن جيوشهم زحفت على باريس. وسألته ما الذي حدث، فأجابني قائلاً: «أوه، لقد أوقفوا زحفها.» كنت أريد أن أذهب إلى النمسا من غير حرب، كنت أريد أن أذهب إلى «الغابة السوداء». وكنت أريد أن أذهب إلى جبال هارتز. ولكن أين تقع جبال هارتز على أية حال؟ كانوا يتحاربون في جبال الكاربات. وما كنت راغباً في الذهاب إلى هناك. ومع ذلك فمن الجائز أن تكون الرحلة إلى الكاربات جميلة. ولقد كان في إمكاني ـ لولا الحرب ـ أن أذهب إلى إسبانية. كانت الشمس قد أخذت في الانحدار، وكان النهار قد بدأ يبرد. وإن نفسي لتغريني بأن أذهب بعد العشاء وأرى كاثرين باركلي. إني لأتمنى لو كانت هنا الآن. بل إني لأتمنى لو كنت أنا وإياها في ميلانو. فأنا شديد التوق إلى أن أتناول الطعام في الـ «كوفا» وأن أسير هابطاً الـ «ڤيا مانزوني» في المساء القائظ، واجتاز الشارع، وانعطف في محاذاة القنال، وأمضي إلى الفندق مع كاثرين باركلي. ومن يدري فلعلها أن تقبل ذلك. لعلها تتظاهر بأنني فتاها الذي قُتل، وندخل من الباب الرئيسي، ويرفع البواب قبّعته احتراماً، وأقف عند منضدة البواب وأطلب المفتاح، وتنتظرني هي واقفة أمام المصعد الكهربائي، وندخل معاً إلى المصعد فيرتقي بنا أدوار البناء في بطء بالغ، محدثاً تكتكة خفيفة عند كل دور، ويفتح الغلام الباب ويقف هناك، وتغادر هي المصعد، وأغادره أنا من بعدها، ونتقدم في الرواق، وأضع المفتاح في الباب، وأفتحه، وأدخل، ثم أتلفن، وأسألهم أن يرسلوا إليَّ زجاجة من

الـ «كابري بيانكا» في دلو فضي مليء بالثلج، وتسمع ارتطام الثلج بجدران الدلو، من أول الرواق إلى آخره، ويقرع الغلام الباب، فتقول له: «اتركه في الخارج، من فضلك.» لأننا نكون متجردَين من ملابسنا كلها بسبب من الحر الشديد. وتكون النوافذ مشرّعة، ويطير السنونو فوق سطوح المنازل، حتى إذا هبطت العتمة بعد ذلك واقتربنا من النافذة رأينا خفافيش صغيرة جداً تتصيد فوق البيوت وعلى قمم الأشجار، وشربنا الـ «كابري»، والباب مقفل بالمفتاح، والحر لاهب، وليس ثمة غير غطاء سرير، والليل كله، ونتساقى كؤوس الهوى، طوال الليل، في ليالي ميلانو القائظة. على هذا النحو ينبغي أن تجري الأشياء. إن عليَّ أن أسرع في تناول الطعام وأنطلق لأرى كاثرين باركلي.

لقد تحدثت زمرتنا كثيراً على المائدة. وشربت أنا بعض الخمر لأني ما كنت لأستشعر في تلك الليلة أننا كلنا إخوة ما لم أشرب قليلاً، وتحدثت مع الكاهن عن رئيس الأساقفة، آيرلند، الذي كان، في ما يبدو، رجلاً نبيلاً والذي تظاهرت بأني على علم بالأذى الذي تحمَّله، والذي شاركت أنا في إنزاله به بوصفي أميركياً. فالواقع أني لم أسمع بذلك الأذى قط، ولكن كان من عدم اللياقة أن لا أعرف شيئاً عنه بعد أن استمعت إلى تفسير رائع لأسبابه التي كانت على أية حال - في ما يبدو - راجعة إلى سوء الفهم. كنت أرى أن اسمه جميل، وكان هو من أبناء مينيزوتا، مما شكَّل اسماً ساحراً، آيرلند مينيزوتا، آيرلند ويسكونسن، آيرلند ميتشيغان. والذي جعل ذلك الاسم رائعاً هو الشبه بينه وبين لفظة island (جزيرة). لا، لم يكن ذلك هو السبب. كان ثمة إلى جانب هذا شيء إضافي. أجل أيها الأب. هذا صحيح، أيها الأب. ربما، أيها الأب. لا، أيها الأب. حسناً، ربما نعم، أيها الأب. أنت تعرف عن هذه المسألة أكثر مما أعرف، أيها الأب. كان الكاهن طيباً، ولكنه مضجر. وكان الضباط غير طيبين، ولكنهم

مضجرون. وكان الملك طيباً، ولكنه مضجر. وكانت الخمر رديئة ولكنها غير مضجرة. إنها تنزع المينا عن أسنانك وتلصقها بحلقك.

وقال روكا:

ـ «واعتُقل الكاهن لأنهم وجدوا معه سندات الثلاثة في المئة. كان ذلك في فرنسة طبعاً. ولو حدث ذلك هنا لما اعتقلوه أبداً. لقد أنكر أن تكون له أية معرفة بوجود هذه السندات معه. وإنما حدث ذلك في بيزييه. وكنت عندئذ هناك، وكنت أتابع المسألة في الصحف، فقصدت إلى السجن وطلبت الاجتماع بالكاهن. كان واضحاً أنه سرق السندات.»

قال رينالدي:

ـ «أنا لا أصدق كلمة من هذا.»

فقال روكا:

ـ «كما تريد. ولكني أروي هذه الحكاية لكاهننا. إنها حافلة بالمعلومات. وهو، بوصفه كاهناً، سوف يقدرها حق قدرها.»

وابتسم الكاهن، وقال:

ـ «أكمِل. إني مصغ إليك.»

ـ «كان هناك، طبعاً، بعض السندات التي لم يُتّهم بها أحد، ولكنهم وجدوا مع الكاهن جميع سندات الثلاثة في المئة وكثيراً من السندات المحلية. لقد نسيت ماهيتها على وجه الضبط. وهكذا قصدت إلى السجن. وتلك هي النقطة الرئيسية في القصة. ووقفت خارج زنزانته وقلت وكأنني ذاهب إلى الاعتراف: «باركني، أيها الأب، لأنك ارتكبت خطيئة!»

وانفجر القوم كلهم بالضحك.

وتساءل الكاهن:

ـ «وبماذا أجاب؟»

وتظاهر روكا بأنه لم يسمع، وراح يشرح النكتة لي:

ـ «لقد أدركت النقطة، أليس كذلك؟»

لقد بدا لي أنها نكتة مضحكة جداً، إذا فهمت كما ينبغي. وصبّوا لي مقداراً إضافياً من الخمر، فرويت لهم قصة الجندي الإنكليزي الذي وُضع تحت مياه «الدش». ثم روى المايجور قصة التشيكوسلوفاكيين الأحد عشر والعريف الهنغاري. وبعد أن احتسيت مقداراً من الخمر جديداً رويت قصة الفارس الذي وجد بنساً. وقال المايجور إن ثمة قصة إيطالية مماثلة تدور على الدوقة التي لم تستطع النوم في الليل. وعند هذه النقطة غادر الكاهن المكان، فرويت قصة موظف المبيعات المترحل الذي وصل في الساعة الخامسة صباحاً إلى مرسيليا عندما كانت الريح الشمالية تهب. وقال المايجور إن المعروف عني أني سكّير كبير. وأنكرت ذلك. فقال إنه صحيح، وأننا وحقِّ جثة باخوس سوف نختبر ما إذا كان هذا صحيحاً أم لا. فقلت دعنا من باخوس، دعنا من باخوس. فقال: أجل، لا بدَّ من باخوس. كان عليَّ أن أشرب كوباً مقابل كوب وكأساً مقابل كأس مع باسي فيليبو فينزنزا. وقال باسي: لا، هذا ليس اختباراً لأنه شرب حتى هذه اللحظة ضعف ما شربته أنا. وقلت إن هذه كذبة نجسة، وإن فيليبّو فينزنزا باسي، أو باسي فيليبو فينزنزا ـ بقَسَم بباخوس أو غير قسم بباخوس ـ لم يمس قطرة من الخمر طول اللّيل، وإلى هذا فما اسمه تماماً؟ وسألني عن اسمي أهو فيديريكو آنريكو أم آنريكو فيديريكو؟ وقلت دع الرجل الأفضل يغلب، وبدأ المايجور يصب لنا خمراً حمراء في قدحين كبيرين. حتى إذا احتسيت نصف ما صب لي رفضت أن أشرب قطرة إضافية. لقد تذكرت إلى أين كنت ذاهباً.

وقلت:

ـ «باسي هو الذي غلب. إنه أحسن مني. يجب أن أذهب.»

فقال رينالدي:

ـ «إن عليه أن يذهب فعلاً. إنه على موعد. أنا أعرف كل شيء عن ذلك..»

ـ «يجب أن أذهب».

فقال باسي:

ـ «في ليلة أخرى، في ليلة أخرى عندما تكون أقوى.»

وضربني على كتفي. كان ثمة، على المائدة، شموع مضاءة. وكان الضباط كلهم سعداء جداً. وقلت:

ـ «طاب مساؤكم، أيها السادة.»

وخرج رينالدي معي. ووقفنا خارج الباب على الأرض الخضِرة، وقال:

ـ «من الأفضل أن لا تصعد إلى هناك وأنت مخمور.»

ـ «أنا لست مخموراً، يا رينين. صدِّقني.»

ـ «من الخير لك أن تمضغ قليلاً من البن.»

ـ «هراء.»

ـ «سوف آتيك بقليل منه. ابق هنا واذرع المكان جيئة وذهاباً.»

ورجع حاملاً حفنة من حبات البن المحمص، وقال:

ـ «امضغ هذه، أيها الطفل، وليكن الرب معك!»

فقلت:

ـ «باخوس.»

ـ «سوف أرافقك.»

ـ «أنا في أحسن حال.»

وهبطنا إلى المدينة معاً، ومضغت حبات البن. وعند مدخل الممرّ الممهد الذي يؤدي إلى الدارة البريطانية ودَّعني رينالدي.

وقلت:

ـ «لماذا لا تدخل؟»

هز رأسه وقال:

ـ «لا. أنا أفضل الملذات الأكثر بساطة.»

ـ «أشكرك على حبات البن.»

ـ «لا تذكر ذلك، أيها الطفل، لا تذكر ذلك.»

وأخذت أهبط الممرّ الممهد. كانت حدود شجرات السرو التي تحيط به من جانبيه حادة وواضحة. والتفتّ إلى الوراء، فرأيت رينالدي واقفاً يراقبني، ولوَّحت له بيدي.

وجلست في صالون الدارة منتظراً مجيء كاثرين باركلي. مشى شخص ما في الرواق. ونهضت، ولكنها لم تكن كاثرين. لقد كانت مس فيرغوسون.

وقالت:

ـ «هالو! كلَّفتني كاثرين أن أقول لك إنها آسفة لعدم تمكنها من رؤيتك هذا المساء.»

ـ «أنا آسف جداً. أرجو أن لا تكون مريضة.»

ـ «إنها ليست في حالة جيدة جداً.»

ـ «هل لك أن تبليغها عظيم أسفي لذلك؟»

ـ «طبعاً، من غير شك.»

ـ «هل تعتقدين أن من الخير أن أحاول رؤيتها غداً؟»

ـ «أجل، أعتقد ذلك.»

فقلت:

ـ «أشكرك كثيراً. طاب مساؤك.»

وجرتُ، وفجأة استشعرت الوحشة والفراغ. كنت قد استخففت بالاجتماع بكاثرين استخفافاً بالغاً، وكنت قد أجزت للسكر أن يستبد بي بعض الشيء، وكنت قد نسيت تقريباً أن أجيء، ولكني حين تعذر عليَّ أن أراها، استشعرتُ الوحشة والفراغ.

الفصل الثامن

وفي أصيل اليوم التالي سمعنا أن هجوماً سوف يشن عند عالية النهر، تلك الليلة، وأن علينا أن نرسل إلى هناك أربع سيارات. إن أحداً لم يعرف شيئاً عن ذلك الهجوم على الرغم من أن كل امرئ كان يتحدث عنه بتوكيد بالغ وفهم ستراتيجي. كنت أنا راكباً في السيارة الأولى، حتى إذا مررنا بالمستشفى البريطاني سألت السائق أن يتوقف. وتوقَّفت السيارات الأخرى خلفنا. وترجلت وقلت لسائقيها أن يواصلوا السير وينتظروا عند مفرق الطريق المؤدي إلى كورمون إذا لم ندركهم هناك..

وانطلقت مسرعاً في الممرّ الممهد، حتى إذا انتهيت إلى قاعة الاستقبال، سألت عن مس باركلي.

- «إنها منهمكة في أداء وظيفتها.»

- «هل أستطيع أن أراها لحظة واحدة؟»

وأُرسِل آذن للاستعلام، فرجعت هي معه.

- «لقد عرَّجت لأطمئن على صحتك. ولقد قالوا لي إنك تقومين بأعباء الوظيفة، وهكذا طلبت أن أراك.»

فقالت:

- «أنا في حال جيدة. أحسب أن الحرارة هي التي صرعتني أمس.»

ـ «لقد آن لي أن أذهب.»

ـ «سوف أمضي معك خارج الباب دقيقة واحدة.»

وسألتها في الخارج:

ـ «و... هل أنت في حال جيدة؟»

ـ «أجل، يا حبيبي. هل ستأتي الليلة؟»

ـ «لا سوف أذهب في الحال لأشهد عرضاً صغيراً هناك، فوق نهر البلافا.»

ـ «عرضاً صغيراً؟»

ـ «إنه لن يكون شيئاً خطراً في ما أظن.»

ـ «وسوف ترجع؟»

ـ «غداً.»

وفكّت شيئاً كان معقوداً حول عنقها، ووضعته في يدي، وقالت:

ـ «إنها أيقونة القديس أنطوني. ولا تنسَ أن ترجع مساء غد.»

ـ «بالمناسبة، هل أنتِ كاثوليكية؟

فقالت:

ـ «لا. ولكنهم يقولون إن أيقونة القديس أنطوني مفيدة جداً.»

ـ «سوف أُعنى بأمره إكراماً لك. وداعاً.»

فقالت:

ـ «لا. لا تقل وداعاً.»

ـ «حسن.»

ـ «كن فتى صالحاً وخذ حذرك. لا. ليس في استطاعتك أن تقبّلني هنا. مستحيل.»

ـ «حسن جداً.»

والتفت إلى الوراء، فرأيتها واقفة على السلم ولوّحت لي، فقبّلت

يدي وبسطتها نحوها. ولوَّحت كرة ثانية، ثم إني ابتعدت عن المجاز الممهد وامتطيت سيارة الإسعاف وانطلقنا. كانت الأيقونة ضمن عُليبة معدنية بيضاء. وفتحت العليبة وأخرجت القديس منها.

وسألني السائق:

ـ «القديس أنطوني؟»

ـ «نعم.»

ـ «إن عندي واحدة.»

وتركت يده اليمنى المقود، وفتح زراً في صدرته وأخرج الأيقونة من تحت قميصه.

ـ «هل تراها؟»

وأعدت إيقونتي إلى علبتها، وكوَّرت السلسلة الذهبية الدقيقة، ووضعت ذلك كله في جيب صدرتي.

ـ «ألا تعلِّقها في عنقك؟»

ـ «لا.»

ـ «من الأفضل أن تعلقها. لقد جُعلت لهذا الغرض.»

فقلت:

ـ «حسن جداً.»

وفككت مشبك السلسلة الذهبية، وطوّقت عنقي بها، وعاودت إغلاقها. لقد تدلى القديس على ثوبي العسكري. ففتحت مقدم صدرتي وفككت طوق قميصي وأدخلته تحت القميص. لقد أحسست به في علبته المعدنية فوق صدري فيما كنت أقود السيارة. وما هي إلا لحظات حتى كففت عن التفكير فيه. لقد فقدت كل أثر للأيقونة بعد أن جُرحت. ولعل امرءاً قد استولى عليها في أحد مراكز الإسعاف. وحين بلغنا الجسر اجتزناه بسرعة. وما لبثنا أن رأينا أمامنا على الطريق، غبار السيارات الأخرى. وانحرفت الطريق، ورأينا السيارات الثلاث وقد

بدت صغيرة جداً، والغبار يرتفع من الدواليب ويلتف بين الشجر. لقد أدركنا تلك السيارات وتجاوزناها، وانعطفنا على طريق تصعد في الكثبان. إن قيادة السيارات على شكل قافلة ليست بغيضة إذا كنت تقود السيارة الأولى. وقد استرخيت في مقعدي أتأمل الريف. كنا قد انتهينا إلى التلال السفحية على الجانب الأدنى من النهر. وفيما أخذنا نصعد بدت في ناحية الشمال جبال شامخة لا تزال مكللة بالثلج. والتفتّ إلى وراء فرأيت السيارات الثلاث تتسلق الطريق، وقد فصلت ما بينها سحابة من غبارها. واجتزنا خطاً طويلاً من البغال المثقلة بالأحمال، وقد سار سائقوها إلى جانب البغال، مرتدين طرابيش حمراء. كانوا من الـ «برساغليري»(*).

وخلف قطار البغال كانت الطريق فارغة، وصعدنا في الكثبان ثم هبطنا فوق كتف كثيب طويل إلى أحد الأودية. كانت الأشجار تحيط بجانبي الطريق، ومن خلال الخط الأيمن من الأشجار رأيت النهر صافي الماء، سريعاً، ضحلاً. كان النهر منخفضاً، وكانت ثمة رُقع متطاولة من الرمل والحصى وقناة ماء ضيقة. وفي بعض الأحيان كانت المياه تنتشر مثل غطاء لامع فوق سرير من حصى. وعلى مقربة دانية من الضفة رأيت بركاً عميقة مياهها زرقاء مثل السماء. لقد رأيت فوق النهر جسوراً حجرية مقنطرة حيث انعطفت السُّبل المختصرة من الطريق، واجتزنا بيوتاً ريفية حجرية تزدان بشجر الإجاص المنتصب وكأنه الشمعدانات، عند جدرانها الجنوبية وأسواراً حجرية منخفضة في الحقول. وصعَّدَت الطريق في الوادي تصعيداً متطاولاً ثم انعطفت بنا فبدأنا نصعد الكثبان، كرة أخرى. كانت الطريق تصعد تصعيداً عمودياً وتتخلل غابات الكستناء لتستوي آخر الأمر على ربوة عالية. كان في ميسوري أن أخفض البصر من خلال الغابة فأرى، بعيداً في

(*) حملة البنادق في الجيش الإيطالي. (المعرب)

المنخفض، خط النهر الذي يفصل بين الجيشين، وقد توهَّج تحت أشعة الشمس. وسلكنا الطريق العسكرية، الجديدة، الرديئة، التي امتدت فوق قمة الرابية، وتطلعت إلى الشمال فرأيت سلسلتيّ الجبال. كان لونهما أخضر داكناً حتى الحد الذي انتهى إليه الثلج، وأبيض رائعاً على القمم الساطعة تحت أشعة الشمس. وفيما صعدت الطريق بعد ذلك على طول الرابية رأيت سلسلة ثالثة من الجبال، سلسلة مكللة بالثلوج ذات ارتفاع أعلى. كانت هذه السلسلة بيضاء كالطباشير، كثيرة الصدوع والشقوق، ذات سطوح عجيبة مستوية. وخلف هذه الجبال كلها كانت جبال أخرى هي من البعد بحيث كان يخامرك الريب في أنك تراها حقاً. كانت هذه كلها جبالاً نمساوية، ولم يكن لدينا نظير لها في إيطاليا. وأمامنا انعطفت الطريق إلى اليمين، وإذ خفضت بصري استطعت أن أرى الطريق تهبط خلال الأشجار. كانت على هذه الطريق قوات عسكرية، وشاحنات وبغال عليها مدافع جبلية. وفيما نحن نهبط الطريق، ملتزمين جانبها، استطعت أن أرى النهر، في مكان منخفض جداً، وروافد الرُّبط الخشبية والخطوط الحديدية التي تمتد على طوله والجسر العتيق الذي تعبره السكة الحديدية إلى الجانب الآخر، كما رأيت، في مكان أبعد، عند سفح تلة وراء النهر، بيوت البلدة الصغيرة المهدمة التي كان يتعيَّن علينا الاستيلاء عليها.

كانت العتمة قد بدأت تخيِّم عندما بلغنا المنخفض وانعطفنا نحو الطريق الرئيسية الممتدة في محاذاة النهر.

الفصل التاسع

كانت الطريق مزدحمة، وكان ثمة حُصر من تبن وسُتر مصنوعة من سُوَيقات الذرة. وكان ذلك كله مغطى بالحصر حتى ليخيَّل للمرء أنه أمام مدخل سيرك أو قرية زنجية. واجتزنا، ببطء، هذا النفق المغطى بالتبن، وانتهينا إلى رقعة من الأرض جرداء كانت تقوم عليها، في ما مضى، محطة السكة الحديدية. كانت الطريق هنا أدنى من مستوى النهر، وعلى طول الطريق الغائرة احتلَّت كتائب المشاة خنادق حفرت في المنحدر. كانت الشمس قد أخذت في المغيب، وفيما كنت أنظر إلى الضفة ونحن نتقدم بالسيارة رأيت مناطيد المراقبة النمساوية على التلال القائمة فوق الضفة الأخرى وقد بدت داكنة تجاه غروب الشمس. وأوقفنا السيارات خلف مصنع للقرميد. كانت الأفران وبعض الحفر العميقة قد حُضّرت كمراكز للإسعاف. وكان ثمة ثلاثة أطباء أعرفهم. وتحدَّثت إلى المايجور فعلمت منه أن علينا حالما يبدأ الهجوم وتُحمّل سياراتنا، أن نقودها عائدين على الطريق الرئيسية الممتدة على طول الرابية حيث نجد مركزاً للإسعاف وسيارات أخرى تتولى نقل من حملناهم من المصابين. كان يرجو أن لا تُسد الطريق من الازدحام. فقد كانت هذه العملية تجري في طريق موحدة. وإنما حجبت الطريق لأنها كانت على مرأى من النمساويين عبر النهر. وهنا، في مصنع القرميد، كنا في منأى من نيران بنادق العدو ومدافعه المنطلقة من ضفة النهر. كان يخترق النهر جسر مهدَّم. وكانوا يعتزمون إنشاء

جسر آخر عندما بدأ القصف، وكان على بعض الجنود أن يجتازوا المناطق الضحلة العليا، عند منعطف النهر. المايجور كان رجلاً ضئيل الجسم مفتول الشاربين. وقد شهد الحرب في ليبيا، فهو يحمل على كمه شريطتين من شرائط جرحى الحرب. ولقد قال لي إنه إذا سارت الأمور على ما يرام فسوف يسعى لحمل المسؤولين على منحي وساماً. فقلت إني أرجو أن تسير الأمور على أحسن ما يكون، ولكني أعتقد أنه لطيف أكثر مما ينبغي. وسألته هل يوجد ملجأ كبير يستطيع سائقو السيارات أن يبقوا فيه، فاستدعى جندياً ليُريني ذلك الملجأ. ولقد ذهبت مع الجندي فرأيت الملجأ، فإذا به ملجأ جيد. لقد سر السائقون به، فغادرتهم هناك. ودعاني المايجور إلى كأس أشربها معه ومع ضابطين آخرين. شربنا الـ «روهم»، وكان الجو ودّياً إلى حدّ بعيد. وفي الخارج كان الليل يهبط. سألت متى يبدأ الهجوم فقالوا: حالما يشتد الظلام. ورجعت عائداً إلى السائقين. كانوا قاعدين في الملجأ يتحدَّثون، وحين دخلت عليهم كفُّوا عن الكلام. وأعطيت كلاً منهم علبة من السكاير ـ المعروفة باسم ماسيدونياس ـ وهي سكاير ملفوفة لفاً رخواً يجعل التبغ يتناثر منها، فأنت مضطر إلى أن تثني طرفيها قبل أن تدخنها. وأشعل مانيرا قدَّاحته، وأدارها على رفاقه. وكانت القداحة على شكل مشعاع (رادياتور) سيارة فيات. رويت لهم ما سمعته.

سألني باسيني:

ـ «لِمَ لم نرَ المركز عندما نزلنا؟»

ـ «كان يقع وراء المنعطف الذي استدرنا عنده.»

فقال مانيرا:

ـ «هذه الطريق سوف تكون بلاء علينا.»

ـ «إنهم سوف ينسفوننا نسفاً.»

ـ «ربما.»

ـ «ألا ترى أن من الخير لنا أن نأكل، أيها الملازم؟ إننا لن نجد فرصة للأكل بعد أن يبدأ الهجوم.»

فقلت:

ـ «سوف أذهب الآن وأرى.»

ـ «أنستطيع أن نخرج فنقوم بجولة، أم يتعيَّن علينا أن نبقى هنا؟»

ـ «من الأفضل أن تبقوا هنا.»

وانقلبتُ إلى ملجأ المايجور، فقال لي إن الطهاة سوف يصلون وشيكاً، وأن في استطاعة السائقين أن يجيئوا ويأخذوا طعامهم. وأعلن عن استعداده لإعارتهم قصاعاً إذا لم يكن لديهم قصاع. فقلت إني أعتقد أنهم مزوَّدون بذلك. فرجعت إلى السائقين وأخبرتهم أني سأعود وأدعوهم لحظة يصل الطعام. فقال مانيرا إنه يرجو أن أعود قبل أن يبدأ القصف. واعتصموا بالصمت حتى خرجتُ. كانوا كلهم ميكانيكيين، وكانوا يكرهون الحرب.

وخرجت لألقي نظرة على السيارات وأرى ما الذي كان يجري، ثم رجعت وقعدت في الملجأ مع السائقين الأربعة. لقد جلسنا على الأرض مسندين ظهورنا إلى الجدار، وشرعنا ندخن. وفي الخارج، كان الظلام قد خيَّم تقريباً. كانت أرض الملجأ حارة وجافة. وأسندت كتفيَّ إلى الجدار، وقعدت على الأرض، واسترخيت.

وتساءل غافوتزي:

ـ «من الذي سيقوم بالهجوم؟

ـ «البرساغليري.»

ـ «جميع البرساغليري؟»

ـ «أظن ذلك.»

ـ «ليس هناك عدد كاف من الجند لشن هجوم حقيقي.»

ـ «لعل المقصود هو صرف النظر عن المكان الذي سيقع فيه الهجوم الحقيقي.»

ـ «وهل يعرف المهاجمون ذلك؟»

ـ «لا أعتقد.»

فقال مانيرا:

ـ «طبعاً لا يعرفون. إنهم لن يهاجموا إذا عرفوا.»

فقال باسيني:

ـ «بل إنهم يهاجمون. البرساغليري مجانين.»

فقلت:

ـ «إنهم شجعان، يتمتعون بانضباط حسن.»

ـ «إنهم ضخام، عراض الصدور، أصحاء. ولكنهم مع ذلك مجانين.»

فقال مانيرا:

ـ «إن رماة القنابل طوال.»

كانت هذه نكتة. وضحك القوم جميعاً.

ـ «هل كنت هناك، أيها الملازم، يوم رفضوا الهجوم، فعوقبوا بإطلاق الرصاص على الرجل العاشر من كل عشرة منهم؟.»

ـ «لا.»

ـ «هذا صحيح. لقد جعلوهم يقفون، بعد ذلك صفاً، وأخذوا منهم كل عاشر. إن القربينيين هم الذين أعدموهم رمياً بالرصاص.»

فقال باسيني وبصق على الأرض:

ـ «القربينيون! ولكن رماة القنابل هؤلاء... والواحد منهم يزيد طوله على ستة أقدام، رفضوا أن يهاجموا.»

فقال مانيرا:

ـ «لو رفض كل امرئ أن يهاجم لانتهت الحرب.»

ـ «لم يكن الأمر كذلك مع رماة القنابل. كانوا خائفين. إن جميع ضباطهم ينتسبون إلى أسر راقية جداً!»

ـ «لقد انطلق بعض ضباطهم إلى الهجوم بمفردهم.»

ـ «وقد قتل رقيب ضابطين رفضا الزحف.»

ـ «ولكن بعض الجنود زحفوا.»

ـ «إن أولئك الذين زحفوا لم يوقّفوهم صفاً عندما أطلقوا النار على كل رجل عاشر.»

فقال باسيني:

ـ «إن واحداً من أولئك الذين صرعهم القربينيون هو من بلدتي. كان فتى أضخم وأذكى وأطول من أن ينتسب إلى رماة القنابل! كان دائماً في روما. دائماً مع البنات. ودائماً مع القربينيين.»

وضحك ثم أضاف:

ـ «واليوم يقيم خارج منزله حرس يحمل حربة، وليس في استطاعة أحد أن يذهب ويزور أمه وأباه وإخواته. وقد خسر أبوه حقوقه المدنية. لقد حرموه حق التصويت في الانتخابات. ولقد فقدوا جميعاً حماية القانون. إن أي امرئ يستطيع أن يستولي على ممتلكاتهم.»

ـ «لو لم يكن ذلك هو مصير عائلاتهم لما اندفع أحد إلى الهجوم.»

ـ «بلى. إن الجنود الإلبيين يندفعون. وجنود الـ V.E أيضاً. وكذلك بعض البرساغليري.»

ـ «لقد فرَّ البرساغليري من الميدان أيضاً. إنهم الآن يحاولون أن يَنْسوا ذلك.»

فقال باسيني متهكماً:

ـ «ينبغي أن لا تتركنا نتحدث على هذا النحو، أيها الملازم. مرحى للجيش!»

فقلت:

ـ «أنا أعرف طريقتكم في الكلام. ولكن ما دمتم تسوقون السيارات وتسلكون...»

وختم مانيرا العبارة بقوله:

ـ «.. وتفعلون ذلك من غير أن يسمعكم الضباط الآخرون.»

فقلت:

ـ «أعتقد أن علينا أن نضع حداً لهذه الحرب. إنها لن تنتهي إذا ما كف جانب واحد عن القتال. إن الحال لن تزداد إلا سوءاً إذا أوقفنا القتال.»

فقال باسيني باحترام:

ـ «إنها لا يمكن أن تزداد سوءاً. فليس ثمة شيء أسوأ من الحرب.»

ـ «الهزيمة أسوأ.»

فقال باسيني باحترام أيضاً:

ـ «لست أعتقد ذلك. ما هي الهزيمة؟ كل امرئ يرجع إلى بيته.»

ـ «إنهم يتعقبونك. إنهم يأخذون بيتك. إنهم يأخذون أخواتك.»

فقال باسيني:

ـ «لا أصدق ذلك. إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا هذا لكل إنسان. فليدافع كل امرئ عن بيته. فليُبقوا أخواتهم في البيت.»

ـ «إنهم يشنقونك. إنهم يجيئون ويُكرهونك على الدخول في الجندية من جديد، ليس في سيارة الإسعاف، ولكن في فرقة المشاة.»

ـ «إنهم لا يستطيعون أن يشنقوا جميع الناس.»

فقال مانيرا:

ـ «الدولة الأجنبية لا تستطيع إكراهك على القتال. لأن الجنود سوف يفرّون جميعاً منذ المعركة الأولى.»

ـ «كما فعل التشيكيون.»

ـ «أعتقد أنك لا تعرف شيئاً عن حقيقة الانهزام، ومن أجل ذلك تحسبه شيئاً غير رديء.»

فقال باسيني:

ـ «أيها الملازم، نحن نعرف جيداً أنك تجيز لنا أن نتكلم. اسمع. ليس ثمة شيء أسوأ من الحرب. ونحن، في سيارات الإسعاف، لا نستطيع أبداً أن ندرك مبلغ سوئها. وحين يدرك الناس مبلغ سوئها يعجوزن عن صنع إيما شيء لوقفها لأنهم يصبحون مجانين. إن هناك بعض الناس الذين لا يدركون أبداً. وهناك بعض الناس الذين يخافون من ضباطهم. وهؤلاء هم الذين تُصْنَع بهم الحرب.»

ـ «أنا أدري أنها سيئة، ولكن علينا أن ننهيها.»

ـ «إنها لا تنتهي، ليس ثمة نهاية للحرب.»

ـ «بلى، هناك نهاية.»

وهزَّ باسيني رأسه.

ـ «الحرب لا تُكسب بالنصر. إذ أي فائدة نجنيها إذا استولينا على سان غابريل؟ وأي فائدة نجنيها إذا استولينا على الكارسو، ومونفالكوني وتريستا؟ إن ذلك لن يفيدنا شيئاً. هل رأيت جميع الجبال القصية اليوم؟ هل تعتقد أن في ميسورنا أن نستولي عليها جميعاً أيضاً؟ إن ذلك لن يتم لنا إلا إذا كف النمساويون عن القتال. ينبغي أن يكف جانب عن القتال.

لماذا لا نوقف نحن القتال؟ إنهم إذا نزلوا إلى إيطاليا استبدّ بهم التعب ورجعوا من حيث أتوا. إن عندهم وطناً خاصاً بهم. ولكن لا، إننا بدلاً من ذلك نتسلى بخوض الحرب!»

ـ «أنت تتكلم وكأنك خطيب.»

ـ «نحن نفكِّر. نحن نقرأ. إننا لسنا فلاحين. نحن ميكانيكيون. ولكن حتى الفلاحون أذكى من أن يؤمنوا بالحرب. إن كل إنسان يكره هذه الحرب.»

ـ «إن ثمة طبقة بلهاء تسيطر على البلاد، طبقة لا تفهم شيئاً ولا تستطيع أن تفهم شيئاً أبداً. وهذا هو السبب الذي من أجله نخوض هذه الحرب.»

ـ «وهم يكسبون الثروات من ورائها أيضاً.»

فقال باسيني:

ـ «معظمهم لا يكسب ثروة. إنهم بلهاء أكثر مما ينبغي. إنهم يفعلون ذلك للاشيء. من أجل البلاهة.»

فقال مانيرا:

ـ «يجب أن نخرس. إننا نتحدث أكثر مما ينبغي حتى بالنسبة إلى الملازم.»

فقال باسيني:

ـ «إنه يحب ذلك. سوف نقنعه.»

فقال مانيرا:

ـ «ولكن علينا، مؤقتاً، أن نخرس.»

فتساءل غافوتزي:

ـ «ولكن متى سوف نأكل، أيها الملازم؟»

فقلت:

ـ «سأذهب وأرى.»

ونهض غورديني وخرج معي قائلاً:

ـ «هل ثمة شيء أستطيع أن أفعله، أيها الملازم؟ هل أستطيع أن أساعدك بطريقة ما؟

كان هذا أهدأ الأربعة. فقلت:

ـ «تعال معي إذا شئت، وسوف نرى.»

كان الظلام قد خيَّم في الخارج، وكان النور الطويل المنبعث من الأضواء الكشافة يتحرك فوق الجبال. كان ثمة أضواء كشافة ضخمة في تلك الجبهة محمولة على شاحنات. وكنت تجتاز بها ليلاً، في بعض الأحيان، على الطُرق، غير بعيد عن خطوط القتال. وقد وقفت الشاحنة في ناحية من الطريق، وشرع أحد الضباط يوجِّه الضوء وسط رجاله المذعورين. واجتزنا مصنع القرميد، ووقفنا عند مركز الإسعاف الرئيسي. كان ثمة، في الخارج، ملاذ صغير من أغصان خضراء فوق المدخل، وفي الظلام حركت ريح الليل أوراق الأشجار التي جففتها الشمس فسُمع لها حفيف. وكان في الداخل ضوء. وكان المايجور يتحدث بالتلفون، قاعداً على صندوق وقال لي طبيب من الضباط إن موعد الهجوم قد قُدِّم ساعة واحدة. وقَدَّم إليَّ كأساً من الكونياك. وعلى الألواح الخشبية التي جُعلت طاولات، رأيت الأدوات تلمع في النور، والطسوت والزجاجات المسدودة. ووقف غورديني خلفي. ونهض المايجور وقال:

ـ «سوف يبدأ الهجوم الآن. لقد أعيد إلى موعده السابق.»

ونظرتُ إلى الخارج. كان الظلام مخيّماً، وكانت أضواء النمساويين الكشافة تتحرك، خلفنا، فوق الجبال. ودام الهدوء لحظات أخرى، وبعد ذلك انطلقت النيران من جميع المدافع وراءنا.

وقال المايجور:

ـ «سافوى.»

فقلت:

ـ «أحب أن أسألك عن الحساء، أيها المايجور.»

ولم يسمعني، فكررت كلامي فأجاب:

ـ «إنهم لم يأتوا به بعد.»

وسقطت قنبلة ضخمة وانفجرت خارج مصنع القرميد. وعقب ذلك انفجار قنبلة أخرى، وفي غمرة من الدوي كان في استطاعتك أن تسمع جلبة القرميد والتراب الصغرى وهما يتساقطان كالمطر المنهمر.

ـ «وهل عندكم طعام آخر؟»

فقال المايجور:

ـ «عندنا قليل من الباستا آسيوتا.»(*)

ـ «سوف آخذ ما تستطيع أن تعطيني إياه.»

وتحدث المايجور إلى أحد الجند، فما كان من هذا إلا أن توارى عن البصر لحظة ثم رجع حاملاً وعاء معدنياً مليئاً بالمعكرونة المطبوخة الباردة.

ودفعت الوعاء إلى غورديني.

ـ «هل عندكم شيء من الجبن؟»

فتكلم المايجور، في تبرم، مع الجندي، الذي غار في الخندق كرة أخرى ثم عاد حاملاً أوقيّة من الجبن الأبيض.

فقلت:

ـ «شكراً جزيلاً.»

ـ «من الخير لك ألا تخرج.»

كان رجلان قد وضعا شيئاً أمام المدخل. ونظر أحدهما إلى الداخل.

وقال المايجور:

ـ «أدخِله. ماذا دهاك؟ أتعتقد أن علينا أن نخرج بأنفسنا ونجيء به؟»

وأمسك حاملا النقالة الرجلَ من ذراعيه وقدميه، وأدخلاه.

(*) طعام يصنع من المعكرونة. (المعرب)

فقال المايجور:

ـ «أمزّق الصدرة.»

وأمسك بكلاّب في طرفه قطعة من شاش. ونزع الضابطان سترتيهما.

وقال المايجور لحاملَي النقالة:

ـ «أخرجا من هنا.»

وقلت لغورديني:

ـ «تعال.»

وقال المايجور من فوق كتفه:

ـ «من الأفضل أن تنتظر حتى ينتهي القصف.»

فقلت:

ـ «إنهم يريدون أن يأكلوا.»

ـ «كما تريد.»

وما إن خرجنا حتى ركضنا عبر مصنع القرميد. وانفجرت قنبلة قرب ضفة النهر. ثم انفجرت أخرى قربنا انفجاراً مفاجئاً إلى حدّ جعلنا لا نكاد نجد متسعاً من الوقت للشعور باقترابها. وانبطحنا كلانا على الأرض مدركين، في وقت واحد، الوميض وزلزلة الانفجار والرائحة سامعين صفير الأجزاء المتناثرة. وزفير القرميد الهاطل كوابل من المطر. ونهض غورديني ووثب نحو الملجأ. وتبعته أنا، حاملاً قطعة الجبن، وقد غطى سطحها الأملس مسحوق الآجر. في الملجأ كان السائقون الثلاثة يدخنون وقد جلسوا مسندين ظهورهم إلى الجدار.

ـ «هيا. أيها الوطنيون.»

وسألني مانيرا:

ـ «كيف وجدت السيارات؟»

ـ «في حال جيدة.»
ـ «هل أصابك ذعر، أيها الملازم؟»
فقلت:
ـ «أنت مصيب إلى حد لعين.»
وأخرجت مديتي، وفتحتها، ومسحت شفرتها، وكشطت سطح الجبن الخارجي القذر. وقدَّم غافوتزي وعاء المعكرونة إليَّ وقال:
ـ «ابدأ بالأكل أيها الملازم.»
فقلت:
ـ «لا. ضعه على الأرض. سوف نأكل جميعاً.»
ـ «ليس هناك شوكات.»
فقلت بالإنكليزية:
ـ «وأي بأس في ذلك؟»
وقطعت الجبن أجزاء، ونثرتها على المعكرونة.
وقلت:
ـ «اجلسوا وكلوا.»
وجلسوا وانتظروا. ووضعت إبهامي وسائر أصابعي في المعكرونة، وانتزعت بعضها، فخرجت بكتلة كاملة.
ـ «ارفعها عالياً، أيها الملازم.»
رفعتها أقصى ما أستطيع رفعها، فتدلَّت جدائلها. وخفضتها إلى فمي، ومصصت أطرافها عاضّاً عليها بالنواجد، ومضغت، ثم قضمت قطعة من الجبن، ومضغت، ثم أخذت جرعة من خمر. كان بها مثل طعم المعدن الصدئ. وقدَّمت إبريق الخمر الكبير إلى باسيني، فقال:
ـ «إنها عفنة. لقد بقيَت زمناً طويلاً في الإبريق. كنت احتفظ بها في السيارة.»
كانوا كلهم يأكلون، وذقونهم فوق الوعاء مباشرة، رادِّين رؤوسهم

إلى وراء، ماضين أطراف المعكرونة. وأخذت لقمة أخرى، وشيئاً من الجبن، وجرعة كبيرة من الخمر. وفي الخارج سقط شيء ما، فزلزل الأرض.

فقال غافوتزي:

- «قذيفة من عيار أربعمئة وعشرين.»

فقلت:

- «ليس هناك أية قنابل من عيار أربعمئة وعشرين في هذه الجبال.»

- «إن عندهم مدافع سكودا كبيرة. لقد رأيت الفجوات.»

- «لديهم قنابل من عيار ثلاثمئة وخمسة.»

وتابعنا الأكل. وسُمع سُعال، وضجة أشبه بضجة قاطرة حديدية تنطلق بعد وقوف، ثم انفجار هز الأرض كرّة أخرى.

وأتيت على حصتي من الجبن، وأخذت جرعة من الخمر. ومن خلال الضجة الأخرى سمعت سعالاً جديداً، ثم تشو - تشو - تشو - تشو، ثم أومض بريق كالذي يومض حين يُفتح باب فرن عال، فجأة، وأخيراً سمعت قصف رعد كان أبيض بادئ الأمر ثم استحال إلى أحمر تصحبه ريح عاصفة. وحاولت أن أتنفس. ولكن التنفس امتنع عليَّ، وأحسست أني أكاد أخرج من جلدي وأخرج وأخرج وأن الريح تحملني طوال الوقت على جناحيها. ومن غير وعي انطلقت إلى الخارج في خفة ورشاقة، وأدركت أني قد مُت، وأن من الخطأ أن يحسب المرء نفسه قد مات وانتهى. ثم إني طفوت، وبدلاً من أن أمضي إلى الأمام شعرت وكأني أنزلق إلى وراء. وتنفست وعدت إلى وعيي. كانت الأرض ممزقة، وأمام رأسي كانت عارضة خشبية استحالت إلى شظايا. وفي التشوش الذي غلب على رأسي سمعت شخصاً يصيح. لقد حسبت أن ثمة شخصاً يُعْول. وحاولت أن أتحرك

ولكني لم أستطع أن أتحرك. وسمعت الرشاشات والبنادق تطلق نيرانها عبر النهر، وعلى طول النهر. وتطاير رشاش ماء هائل، ورأيت طائفة من القنابل النجمية(*) ترتفع وتنفجر وتطفو في الهواء، بيضاء ناصعة، ورأيت الصواريخ تعلو وسمعت القنابل، كل ذلك في لحظة. وبعد هذا سمعت بقربي شخصاً يقول: «آه يا أمي! آه يا أمي!» وجذبْتُ، ولويت وحرَّرت رجلي آخر الأمر، واستدرت، ولمسْتُه. كان هو باسيني، وحين لمسته صرخ. كانت رجلاه مُسدّدتين نحوي، وفي الظلام والضياء المتعاقبين رأيت أنهما كلتيهما مسحوقتان فوق الركبة. كانت إحدى الرجلين مبتورة، ولم يكن يمسك الأخرى غيرُ بعض الأوتار العضلية وجزء من البنطلون، وكانت أرومة الرجل تختلج وتهتز وكأنها غير متصلة البتة. وعضَّ ذراعه وانتحب: «آه يا أمي، آه يا أمي» ثم أضاف: «ايه يا يسوع، اجهز عليَّ أيها المسيح، اجهزي عليَّ يا مريم، يا مريم العذراء القديسة اجهزي عليَّ. ضعا حداً لهذا. ضعا حداً له. ضعا حداً له. أوه يا يسوع، يا مريم القديسة، ضعا حداً له. أوه، أوه، أوه.» وأخيراً قال في صوت مختنق: «ماما ميا! ماما ميا!» ثم رانت عليه السكينة، وقد عض على ذراعه، واختلجت أرومة رجله.

وصحت جاعلاً من كفي شبه قمع:

ـ «يا حاملي الجرحى! يا حاملي الجرحى!»

وحاولت أن أدنو من باسيني لكي أضع على رجليه ضماداً يوقف نزف الدم، ولكني لم أستطع أن أتحرك. وحاولت من جديد. فتحركت رجلاي قليلاً. واستطعت أن أتراجع إلى الوراء مستعيناً بذراعيَّ ومرفقيَّ. كان باسيني ساكناً الآن. وقعدت إلى جانبه، وفككت أزرار صدرتي، وحاولت أن أمزق ذيل قميصي. ولكنه امتنع على المزق،

(*) sta-ells ضرب مِن القنابل ينطلق منه، عند انفجاره، وابل من النجوم اللامعة. (المعرب)

فعضضت على طرف القماش تيسيراً لمزقه. ثم إني فكّرت في العصابة التي تغطي رَبْلة ساقه. كنت أنا أرتدي جورباً صوفياً، ولكن باسيني كان يرتدي عصابَتَيْ ساق. وكان جميع سائقي السيارات يرتدون مثل هذه العصائب، ولكن باسيني كان ذا رجل واحدة. وحللت العصابة، وفيما أنا أقوم بذلك رأيت أنه ليس ثمة حاجة إلى تضميد رجله لأنه كان قد مات. واستيقنت أنه مات فعلاً. وكان عليَّ الآن أن أبحث عن الثلاثة الآخرين. فجلست متصدراً، وفيما أنا أفعل ذلك تحرك شيء في داخل رأسي مثل الأثقال التي تُشدَ إلى عيني الدمية، وضربني على مؤخرة حدقتي عينيَّ. واستشعرت أن قدميَّ ساخنتان رطبتان، وكان حذائي رطباً وساخنا من الداخل. وعرفت أني جُرحت، فانحنيت إلى الأمام ووضعت يدي على ركبتي، ولكن ركبتي لم تكن هناك. إن يدي لم تقع إلا على فراغ. ولقد كانت ركبتي قد انحدرت فوق عظم ساقي الأكبر. ومسحتُ يدي بجانب قميصي. وسقط ضياء آخرُ عائمٌ سقوطاً بطيئاً، ونظرت إلى رجلي، فاستبد بي ذعر شديد. وقلت: «أوه، يا إلهي أخرجني من هنا.» لقد عرفت، مع ذلك، إنه كان ثمة ثلاثة آخرون. كان هناك أربعة سائقين. ولقد مات باسيني، فبقي ثلاثة.

وأمسك بي شخص ما، من تحت ذراعي، ورفع شخص آخر رجليَّ.

وقلت:

ـ «هناك ثلاثة آخرون. لقد مات واحد.»

ـ «هذا أنا، أنا مانيرا. لقد حاولنا أن نبحث عن نقالة ولكنا لم نجد. كيف أنت، أيها الملازم؟»

ـ «أين غورديني وغافوتزي؟»

ـ «غورديني في مركز الإسعاف حيث تضمد جراحه. أما غافوتزي فهو الذي يمسك برجليك الآن. تشبَّث بعنقي أيها الملازم. هل أصبت بجرح خطير؟»

ـ «في رجلي. كيف حال غورديني؟»

- «في خير. لقد كانت قنبلة كبيرة من قنابل مدافع الخنادق.»
- «لقد مات باسيني.»
- «أجل. لقد مات.»
وسقطت قنبلة على مقربة منا. فأفلتاني وانبطحا على الأرض.
وقال مانيرا:
- «أنا آسف، أيها الملازم، تشبَّث جيداً برقبتي.»
- «إذا أفلتَّني مرة ثانية...»
- «كان ذلك لأن الرعب غلب علينا.»
- «ألم تصابا بجراح؟»
- «لقد أصيب كل منا بجراح بسيطة.»
- «هل يستطيع غورديني أن يسوق؟»
- «لست أظن ذلك.»
- «وطرحاني على الأرض، قبل أن نصل إلى مركز الإسعاف.
وقلت:
- «يا لكما من ابني زنا!»
فقال مانيرا:
- «أنا آسف أيها الملازم. إننا لن نطرحك على الأرض مرة ثانية.»

وأمام مركز الإسعاف وُضع عدد كبير منا على الأرض، تحت جنح الظلام. لقد أدخلوا الجرحى إلى المركز وأخرجوهم منه. وكان في ميسوري أن أرى الضوء ينبثق من مركز الإسعاف كلما أزيحت الستارة وأدخلوا جريحاً أو أخرجوا جريحاً. كان الأطباء يعملون وأكمامهم مرفوعة حتى أكتافهم، وكانوا حمراً كالجزارين. لم يكن ثمة قدْر كاف من النقالات. وكان بعض الجرحى كثيري الصخب، ولكن معظمهم كانوا هادئين. وفوق باب المركز، أثارت الريح أوراق الشجر

التي تظلل المدخل. كان الليل قد أخذ يبرد، وكان حملة النقالات يفدون على المركز على غير انقطاع، فيضعون نقالاتهم على الأرض، ويفرغونها ثم يمضون لسبيلهم. وما إن وصلت إلى مركز الإسعاف حتى اصطحب مانيرا رقيباً ممرضاً فلفَّ كلتا رجليَّ بالعصائب. لقد قال لي إن مقداراً كبيراً من التراب قد تسرب إلى الجرح، وإن هذا التراب هو الذي وفَّر عليَّ كثيراً من النزف. إنهم سوف يُعنون بأمري في أسرع وقت ممكن. وإنه يعرف كيف يسوق السيارة. كان البريطانيون قد أقبلوا بثلاث من سيارات الإسعاف، وكانوا يحملون على كل منها رجلين. كان جالساً إلى جانب أحد الجدران الآجرية. وخرج كل من مانيرا وغافوتزي مثقلاً بحمل من الجرحى. ثم عادا فدخلا المركز من جديد. وقال لي مانيرا إن غورديني لا يستطيع أن يقود السيارة. كانت كتفه قد سُحقت، وكان رأسه قد جرج. إن ذلك لم يكن يؤلمه في بادئ الأمر، ولكن كتفه قد تصلَّبت. اقترب نحوي أحد السائقين البريطانيين، يقوده غورديني الذي بدا شديد الشحوب، مريضاً. وانحنى البريطاني فوقي وسألني:

ـ «أهل أصبت بجرح خطير؟»

كان رجلاً فارع الطول، وكان يضع على عينيه نظارة ذات حاشية فولاذية.

وأجبته قائلاً:

ـ «في ساقيَّ.»

ـ «أرجو أن لا تكون إصابتك خطيرة، تفضل وخذ سيكارة.»

ـ «شكراً.»

ـ «يقولون لي إنكم خسرتم سائقين.»

ـ «نعم.. أحدهما قُتل. وثانيهما هو الذي قادك إليّ.»

ـ «يا للحظ السيئ! هل ترغب في أن تأخذ السيارتين؟»

ـ «ذلك هو ما رغبت أن أكلفكم القيام به.»

ـ «سوف نعني بهما عناية حسنة، ونعيدهما إلى الدارة. أنت تحيا في رقم 206 أليس كذلك؟»

ـ «نعم.»

ـ «إنه مكان ساحر. لقد رأيتك هناك. يقولون لي إنك أميركي.»

ـ «نعم.»

ـ «أنا إنكليزي.»

ـ «لا؟»

ـ «أجل، إنكليزي. هل ظننت أني إيطالي؟ لقد كان هناك بعض الإيطاليين مع إحدى وحداتنا.»

فقلت:

ـ «يسرّني جداً أن تتمكنوا من أخذ السيارتين.»

فتصدَّر وقال:

ـ «سوف نُعنى بهما أعظم العناية. إن فتاك هذا كان شديد الحرص على أن يجمعني بك.»

وربت على كتف غورديني. وارتد غورديني مجفلاً وابتسم. وشرع الرجل الإنكليزي يتحدث في ذرابة، بلسان إيطالي مبين:

ـ «كل شيء قد رتِّب الآن. لقد رأيت ضابطك. سوف نقود السيارتين لا داعي بعد للقلق.»

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أعمل شيئاً من أجل إخراجك من هنا. سوف أرى السلطات الطبية. سوف نرجعك معنا.»

ومضى نحو مركز الإسعاف، ماشياً في احتراس بين الجرحى. ورأيت الستارة تُزاح. وانبجس النور، ودخل الرجل الإنكليزي المركز.

وقال غورديني:

ـ «سوف يعنى بأمرك أيها الملازم.»

ـ «كيف أنت يا فرانكو؟»

ـ «في خير.»

وقعد إلى جانبي. وما هي إلا لحظة حتى أزيحت ستارة المركز، وخرج اثنان من حملة النقالات يتبعهما الإنكليزي الفارع الطول. لقد قادهما نحوي.

وقال بالإيطالية:

ـ «ها هو الملازم الأميركي.»

فقلت:

ـ «إني أفضّل أن أنتظر. إن جراحات الآخرين أخطر من جرحي بكثير. أنا في حال جيدة.»

فقال:

ـ «هيا، هيا. لا تكن بطلاً لعيناً.»

ثم أضاف بالإيطالية:

ـ «ارفعاه من قدميه في عناية بالغة. إن رجليه تؤلمانه كثيراً. إنه ابن الرئيس ولسون الشرعي.»

ورفعاني وأدخلاني إلى مركز الإسعاف. وفي الداخل كان الأطباء يجرون العمليات الجراحية على الموائد كلها. ونظر إليَّ المايجور الضئيل الجسم نظرة هائجة. وعرفني. فلوَّح لي بالكلاّب.

ـ «هل أنت بخير؟»

ـ «أجل، بخير.»

وقال الرجل الإنكليزي الفارع الطول باللغة الإيطالية:

ـ «إني أنا الذي أدخلته إلى هنا. إنه الابن الوحيد لسفير الولايات المتحدة. في استطاعته أن ينتظر ريثما تفرغون للاهتمام به. وعندئذ أنقله في أول سيارة من سياراتنا التي تنقل الجرحى من هنا.»

وانحنى فوقي وأضاف:

ـ «سوف أذهب وأبحث عن سكرتيرهم لإنجاز أوراقك. ذلك ادعى إلى السرعة.»

ـ «وطأطأ رأسه لكي لا يصطدم بأعلى الباب، ومضى لسبيله. كان المايجور يفك كلابته، الآن، ليضعها فوق حوض. وتابعتُ حركاته بناظريَّ كان يعصب العصائب، الآن. ثم إن حملة النقالات رفعوا الرجل عن المائدة.

وقال أحد الأطباء العسكريين:

ـ «سوف أعنى بالملازم الأميركي الآن.»

وحملوني إلى المائدة. كانت قاسية وزلقة. وكان ثمة كثير من الروائح القوية: روائح كيميائية، ورائحة الدم الزكية. ونزعوا بنطلوني، وشرع الكابتن الطبيب يملي على مساعده فيما هو يتابع العمل: «جراح متعدِّدة وسطحية في الفخذين اليسرى واليمنى. وفي الركبتين اليسرى واليمنى والقدم اليمنى. جراح عميقة في الركبة اليمنى والقدم اليمنى. تمزّقٌ في جلدة الرأس (وجسّ ـ هل تشعر بألم؟ يا إلهي، نعم!) مع إمكانية كسر في الجمجمة، ولقد أصبت بهذا كله فيما كنت تؤدي واجبك. وهذا ما ينقذك من المثول أمام المجلس العرفي بتهمة تعريض نفسك للأذى على نحو إراديٍّ. ما رأيك في كأس من البراندي؟ وكيف أقحمت نفسك في هذا البلاء، على أية حال؟ ما الذي كنت تحاول أن تفعله؟ أن تنتحر؟ قليلاً من مضاد الكزاز (آنتيتيتانوس) من فضلك، وارسم صليباً على كلتا الرجلين. أشكرك، سوف أنظف هذا كله قليلاً، وأغسله، وأضمِّده. إن دمك يتخثَّر على نحو رائع.»

ورفع المساعد رأسه عن الورق، وسأل:

ـ «ما الذي سبَّب الجراح؟»

فقال الطبيب:

ـ «ما الذي جرحك؟»

فقلت وأنا أغمض العينين:

- «قنبلة من أحد مدافع الخنادق.»

فقال الطبيب، وهو يقوم بأشياء آلمتني إيلاماً شديداً ويقصُّ أنسجة جسدي:

- «هل أنت واثق من ذلك؟»

فأجبت، محاولاً أن احتفظ بسكينتي، ومستشعراً أن معدتي ترفرف كلما شرط اللحم:

- «أظن ذلك.»

فقال الطبيب وقد أثار اهتمامه شيء اكتشفه:

- «شظايا قنبلة من قنابل مدافع العدو الخاصة بالخنادق. سوف أبحث الآن عن بعض هذه الشظايا، إذا شئت. ولكن هذا غير ضروري. ولسوف أطلي ذلك كله و- هل يؤلمك هذا؟ حسن، ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى ما ستشعر به في ما بعد. إن الألم لم يبدأ بعد. ناولوه كأساً من البراندي. إن الصدمة تخدِّر الألم. ولكن لا بأس، وليس ثمة ما يدعوك إلى القلق إذا لم يتطرق الفساد إلى الجرح، وإمكان ذلك ضئيل الآن. كيف رأسك؟»

فقلت:

- «أوه. يا إلهي!»

- «من الأفضل أن لا تسرف في شرب البراندي إذن، فإذا كنت مصاباً بكسر في الجمجمة فيجب أن تحذر الإلتهاب. هل تحسَّ بألم في الرأس؟»

وسال العرق فوق جسدي كله، وقلت:

- «يا إلهي!»

- «أحسب أنك مصاب بكسر في الجمجمة. سوف أعصبك، فلا تحرك رأسك.»

ـ «وعصب رأسي. كانت يداه تتحركان في سرعة بالغة، فإذا بالعصابة مُحكمة مكينة.»

وقال:

ـ «حسن، أتمنى لك حظاً سعيداً، ولتحيَ فرنسا!»

فقال أحد الضباط الآخرين:

ـ «إنه أميركي.»

فقال الطبيب:

ـ «حبت أنك قلت إنه فرنسي. إنه يتكلم الفرنسية. لقد عرفته من قبل. ولقد كنت دائماً أظنه فرنسياً.»

وتجرع نصف كأس من الكونياك، وأضاف:

ـ «إئتوني بمقدار إضافي من مضاد الكزاز (آنتيتيتانوس).»

وأومأ الكابتن الطبيب بيده: فرفعوني، فمسَّت ستارة المدخل وجهي ونحن نغادر المكان. وفي الخارج، ركع المساعد على مقربة مني، وسألني في رقة:

ـ «اسمك؟ اسمك الأوسط؟ اسمك الأول؟ رتبتك؟ مكان ولادتك؟ السنة التي جُنِّدت فيها؟ في أية فرقة؟ إلخ... «أنا متأسف لما أصاب رأسك، أيها الملازم. أرجو أن تكون حالك قد تحسَّنت. سوف أطلب إلى سيارة الإسعاف الإنكليزية أن تنقلك من هنا.»

فقلت:

ـ «أنا بخير. أشكرك كثيراً.»

كان الألم الذي تحدث عنه الكابتن الطبيب قد بدأ، وكان كل ما يجري لا يلفت اهتمامي البتة. وبعد برهة، أقبلت سيارة الإسعاف الإنكليزية، فوضعوني على نقالة، ورفعوا النقالة إلى مستوى السيارة ودفعوا بها إلى الداخل. كانت إلى جانبي نقالة أخرى عليها رجل استطعت أن أرى أنفه الشمعيّ اللون من خلال العصائب والضمادات.

كان يتنفس في عسر بالغ. وكانت ثمة نقالات تُرفع وتدفع في الحمائل المعلَّقة فوقي. وأقبل السائق الإنكليزي الفارع الطول وألقى نظرة على الداخل، وقال:

ـ «سوف أقود السيارة في هدوء كثير، أرجو أن يريحك ذلك.»

وأحسست بالمحرك يدور، وأحسست بالسائق يمتطي متن العربة ليحتل المقعد الأمامي، وأحسست بالمكبح يُرخى، وبالدوبرياج يُداس، ثم انطلقنا. والتزمت الهدوء، واستسلمت للألم.

وبسبب من نشاط حركة المواصلات صعدت السيارة ببطء. كانت تتوقف عن المسير حيناً، وترتد على عقبها عند أحد المنعطفات. وأخيراً استطاعت أن تصعد بسرعة بالغة، . واستشعرتُ شيئاً يقطر. لقد قطر بادئ الأمر ببطء وفي انتظام، ثم تحوَّل إلى جدول. وناديت السائق. فأوقفت السيارة، ونظر إلى الداخل من خلال الثقب الذي وراء مقعده.

ـ «ما المسألة؟»

ـ «الرجل الممدَّد فوقي على النقالة مصاب بنزف.»

ـ «عمَّا قليل نصل إلى القمة. أنا لا أستطيع إخراج النقالة وحدي.»

وأدار المحرِّك. واستمر الجدول في جريانه. وفي الظلام، لم أستطع أن أتبيَّن من أية ناحية من القماش الذي فوق رأسي تفجَّر ذلك الجدول. وحاولت أن أبتعد إلى جانب، لكي لا يسقط عليّ. وكان المكان الذي سال فيه، تحت قميصي، حاراً ودبقاً. وكنت أنا أشعر بالبرد، وكانت رجلي تؤلمني إلى درجة خشيت معها من الإغماء. وما هي إلا لحظة حتى تضاءل السيل المتحدِّر من النقالة التي فوقي، وتحوَّل إلى قطرات ضئيلة، وسمعت القماش يتحرك فوقي بينما كان الرجل الممدد على النقالة يخلد إلى السكينة.

وسألني الرجل الإنكليزي:

ـ «كيف حاله؟ لقد كدنا نبلغ القمة.»

فقلت:

ـ «لقد مات، على ما أظن.»

وتساقطت القطرات في بطء شديد. كما تسقط من دُلدول جليديّ بعد غياب الشمس. كان الجو في السيارة بارداً، في الليل، فوق تلك الطريق الآخذة في الارتفاع. وفي مركز الإسعاف، عند القمة، أخرجوا النقالة، ووضعوا غيرها مكانها، وتابعنا سيرنا.

الفصل العاشر

وفي القاعة التي أنزلت بها في مستشفى الميدان أخبروني أن شخصاً سوف يزورني بعد الظهر. كان يوماً قائظاً، وكان في الغرفة عدد كبير من الذباب. كان ممرِّضي قد أعد قصاصات طويلة من الورق، وشد هذه القصاصات إلى عصا لكي يتخِّذ منها منفضة لإقصاء الذباب. وراقبتُ الذباب وهو يستقر على السقف. وحين كفَّ عن تحريك منفضته واستسلم للرقاد هبط الذباب فنفخت عليه أذوده عني، وأخيراً غطيت وجهي بيديَّ واستسلمت للرقاد أيضاً. كان الجو قائظاً جداً، وحين أفقت حكَّتني رجلاي. وأيقظتُ الممرض، فصبَّ بعض الماء المعدني على الضمادات. وهذا ما جعل السرير رطباً وبارداً. كان زملائي الجرحى يتبادلون الحديث من أقصى القاعة إلى أقصاها. وكان الأصيل وقتاً هادئاً. وفي الصباح كان ثلاثة ممرضين وطبيب يفدون علينا فيعودون كلاً من الجرحى بدوره ويخرجونه من سريره وينقلونه إلى حجرة التضميد بحيث يكون في الإمكان تسوية السُّرر فيما هم يضمدون جراحاتنا. ولم يكن الانتقال إلى حجرة التضميد رحلة لطيفة، ولم أعرف إلا في ما بعد أن في الإمكان تسوية السرر من غير أن يغادرها المرضى. وكان ممرضي قد أنهى صبَّ الماء فإذا بالفراش بارد محبَّب. كنت أدله على المواضع التي ينبغي له أن يحكَّها من أخمص قدميَّ عندما دخل عليَّ أحد الأطباء مصطحباً رينالدي. وهرع رينالدي نحوي، وانحنى فوق السرير، وقبَّلني. لقد لاحظت أنه كان يلبس قفازين.

ـ «كيف أنت، أيها الطفل؟ كيف تشعر الآن؟ لقد جئتك بهذه. . . .»

كانت زجاجة كونياك. وجاءه الممرض بكرسيّ، فجلس عليه وأضاف:

ـ «. . . وبأنباء سارة. سوف يُنعم عليك بوسام. إنهم يريدون أن يمنحوك المدالية الفضية، ولكن من الجائز أن لا يوفقوا إلى أكثر من الحصول على المدالية البرونزية.»

ـ «وعلام هذا التكريم؟»

ـ «لأنك أصبت بجراح بليغة. وهم يقولون إنك إذا استطعت أن تُثبت أنك قمت بعمل بطولي فعندئذ يكون بإمكانك الفوز بالمدالية الفضية. وإلا مُنحت البرونزية ليس غير. قل لي ما الذي حدث تماماً. هل قمت بأيما عمل بطوليٍّ؟»

فقلت:

ـ «لا. لقد نُسفتُ ونحن نأكل الجبن.»

ـ «كن جاداً. لا بدَّ أنك قمت بعمل بطولي ما، سواء قبل، أو بعد. تذكّر جيداً.»

ـ «لم أقم بشيء من ذلك.»

ـ «ألم تحمل أحداً على ظهرك؟ غورديني يقول إنك حملت كثيراً من الناس على ظهرك، ولكن المايجور الطبيب في مركز الإسعاف الأول يصرِّح بأن هذا مستحيل. إن عليه أن يوقِّع اقتراح الإنعام.»

ـ «أنا لم أحمل أحداً. لقد كنت عاجزاً عن الحركة.»

فقال رينالدي:

ـ «هذا لا يقدم ولا يؤخر.»

ونزع قفازيه. وأضاف:

ـ «أنا أعتقد أن في استطاعتك أن تفوز بالمدالية الفضية. ألم

ترفض أن تَنعم بالمساعدة الطبيّة قبل الآخرين؟»

ـ «في غير كثير من الإصرار.»

ـ «هذا لا يقدم ولا يؤخر. تذكَّر الجرح البليغ الذي أصبت به. تذكَّر إصرارك الجريء على أن تكون في الخط الأول دائماً. وإلى هذا فالهجوم كان ناجحاً.»

ـ «أوه، هل وفِّقوا إلى عبور النهر؟»

ـ «على نحو مدهش. وقد أسروا نحواً من ألف رجل. كل هذا مذكور في البلاغ الرسمي. ألم تطلع عليه؟»

ـ «لا.»

ـ «سوف آتيك به. لقد كان هجوماً موفقاً.»

ـ «وكيف تجري الأمور؟»

ـ «على نحو رائع. نحن كلنا رائعون. وكلُّنا فخورون بك. قل لي على وجه الضبط كيف حدث ذلك. أنا واثق أنك سوف تفوز بالمدالية الفضية. هيَّا، أخبرني. أخبرني كل شيء عن ذلك.»

وتمهَّل قليلاً وراح يفكِّر ثم أردف:

ـ «لعلّك تنال مدالية إنكليزية أيضاً. لقد كان هناك رجل إنكليزي. سوف أذهب وأراه وأسأله أن يقترح الإنعام عليك. لا بدَّ أن يكون قادراً على عمل شيء. هل تتوجع كثيراً؟ خذ كأساً. أيها الممرض، اذهب وائتِ بفتّاحة. أوه، يجب أن ترى ماذا فعلت في انتزاع ثلاثة أمتار من المعي الدقيق، وخير البر عاجله. إنها شيء جدير بأن ينشر في مجلة «لانسيت» Lancet. أنت تقوم بالترجمة وعندئذ أبعثُ بها إلى مجلة «لانسيت». أنا أحرز كل يوم تقدماً. كيف تشعر الآن، أيها الطفل العزيز المسكين؟ أين تلك الفتّاحة اللعينة؟ أنت شجاع جداً، وهادئ جداً، وإني لأنسى أنك تتوجع.»

وضرب حافة السرير بقفازيه.

وقال الممرض:

ـ «ها هي الفتّاحة، يا سيدي الملازم.»

ـ «افتح الزجاجة. هات كأساً. اشرب هذا، أيها الطفل. كيف رأسك المسكين؟ أنت غير مصاب بأي كسر في الجمجمة. لقد كان المايجور الذي في مركز الإسعاف الأول، ذاك، جزاراً من جزاري الخنازير. ولو كنت مكانه لما أنزلت بك أي أذى. أنا لا أوجعُ أحداً البتة. أنا أعرف كيف أقوم بهذه المهمة. وكل يوم أتعلَّم كيف أحسن صنع الأشياء في رشاقة وإتقان متزايدين. يجب أن تعذرني على هذا الهذر كله، أيها الطفل. فقد أثّر في نفسي كثيراً أن أراك جريحاً على هذه الشاكلة الخطرة. خذ، اشرب هذا. إنها خمر جيدة. إن ثمنها خمسة عشر ليراً. وكيف لا تكون جيدة وهذا ثمنها؟! خمسة نجوم. إني بعد ذهابي من هنا سأقصد ذلك الإنكليزي، ولسوف يساعدك على الفوز بمدالية إنكليزية.»

ـ «إنهم لا ينعمون بالمداليات على هذا النحو.»

ـ «أنت متواضع أكثر مما ينبغي. سوف أبعث ضابط الارتباط. إن في استطاعته أن يقنع الإنكليزي.»

ـ «هل رأيت مس باركلي؟»

ـ «سوف أجيء بها إلى هنا. سوف أذهب الآن وأصطحبها إلى هنا.»

فقلت:

ـ «لا تذهب. حدِّثني عن غوريتزيا. كيف حال البنات؟»

ـ «ليس هناك بنات، إنهم لم يغيِّروهنَّ منذ أسبوعين. أنا ما عدت أذهب إلى هناك. شيء معيب. إنهن لسن بنات. إنهن رفاق سلاح قدماء.»

ـ «أنت لا تذهب إلى هناك البتة؟»

ـ «أنا أذهب لأرى هل من جديد، ليس غير. أمرّ بالمكان مجرد مرور. إنهن جميعاً يسألنني عن أنبائك. من المعيب أن يمكثن هذه المدة كلها حتى يصبحن صديقات.»

ـ «لعل البنات ما عدن يرغبن في الذهاب إلى الجبهة.»

ـ «بل إنهن يرغبن من غير شك. إن ثمة عدداً كبيراً من البنات. إنها مسألة إدارة رديئة ليس غير. إنهم يحتفظون بهنَّ لمتعة المختبئين في الملاجئ وراء الخطوط.»

ـ «مسكين أنت رينالدي. تخوض غمار الحرب وحيداً من غير بنات جديدات.»

وصبَّ رينالدي لنفسه كأساً أخرى من الكونياك.

ـ «لا أظن أنها ستؤذيك، أيها الطفل. اشربها.»

وشربت الكونياك، واستشعرت الدفء حتى أعماق معدتي. وصبَّ رينالدي كأساً أخرى. كان أكثر هدوءاً الآن. ورفع الكأس وقال:

ـ «إلى جراحك الباسلة. إلى المدالية الفضية. قل لي، أيها الطفل، حين تستلقي هنا، طوال الوقت، في الجو الحار، ألا تثور ثائرتك؟»

ـ «بعض الأحيان.»

ـ «لست أستطيع أن أتخيَّل كيف يقدر المرء على الاستلقاء هكذا. إن ذلك يجعلني أفقد صوابي.»

ـ «أنت معتوه.»

ـ «أتمنى لو تعود. فلم أعد أجد من يرجع ليلاً من مغامرات قام بها. ولم أعد أجد من أمازحه. ولا من يقرضني مالاً. لم أعد أجد أخاً شقيقاً، ورفيق غرفة. لماذا عرَّضت نفسك للجراح؟»

ـ «في استطاعتك أن تمازح الكاهن.»

ـ «الكاهن! لست أنا الذي يسخر منه. إنه الكابتن. أنا أحبه. إذا كنت تريد كاهناً فليس أمامك غير ذلك الكاهن. سوف يجيء لزيارتك. إنه يقوم باستعدادات كبيرة.»

ـ «أنا أحبه.»

ـ «أوه، لقد عرفتُ ذلك. يخيَّل إليَّ في بعض الأحيان أنك وهو على هذه الشاكلة إلى حد ما. أنت تدري.»

ـ «لا. ليس هذا صحيحاً.»

ـ «أجل، إني أتصرّف في بعض الأحيان، على هذه الشاكلة قليلاً... مثل رقم الكتيبة الأولى من البريغاتا آنكونا.»

ـ «أوه، اذهبْ إلى الجحيم.»

ونهض، ولبس قفازيه، وقال:

ـ «أوه، أنا أحب أن أناكدك، أيها الطفل. فعلى الرغم من كاهنك، ومن فتاتك الإنكليزية، فإنك في أعماقك مثلي تماماً.»

ـ «لا. لست مثلك.»

ـ «بل نحن متماثلان. أنت إيطالي حقاً. كُلّك نار ودخان ولا شيء في الداخل. أنت تتظاهر مجرد تظاهر بأنك أميركي. نحن أخوان وإن أحدنا ليحبّ الآخر.»

فقلت:

ـ «كن عاقلاً أثناء غيابي.»

ـ «سوف أبعث إليك مس باركلي. إن سلوكك معها يكون أفضل حين لا أكون أنا موجوداً. أنت أطهر وألطف.»

ـ «أوه، اذهبْ إلى الجحيم!»

ـ «سوف أبعثها، إلاهتك الرائعة الباردة. إلاهتك الإنكليزية. يا إلهي، ما الذي يفعله الإنسان مع امرأة كهذه غير تقديسها وعبادتها؟ لأي شيء غير هذا تصلح المرأة الإنكليزية؟»

ـ «أنت إيطالي جاهل بذيء.»

ـ «ماذا؟»

ـ «إيطالي جاهل.»

ـ «وأنت؟ أنت إيطالي ذو وجه جليديّ...»

ـ «أنت جاهل. معتوه.»

لقد رأيت أن تلك الكلمة وخزتْهُ. فواصلت حملتي:

ـ «عديم الثقافة. عديم التجربة. معتوه بسبب من عدم الخبرة.»

ـ «حقاً؟ سوف أخبرك شيئاً عن نسائك الطيبات. عن إلاهاتك. هناك فرق واحد بين أن تمتلك فتاة كانت دائماً طيبة وبين أن تمتلك امرأة. وهو أن المسألة تكون مؤلمة مع الفتاة. هذا كل ما أعرفه.»

وصفع الفراش بقفازيه، ثم أردف:

ـ «وليس في استطاعتك أبداً أن تعلم هل ستحبّ الفتاة ذلك حقاً.»

ـ «لا تغضب!»

ـ «لست غاضباً. أنا أقول لك هذا، أيها الطفل، لمصلحتك ليس غير. لكي أوفِّر عليك المتاعب.»

ـ «أهذا هو الفرق الوحيد؟»

ـ «نعم، ولكن ملايين من البلهاء مثلك لا يعرفونه.»

ـ «إن إخبارك إياي بهذا كله ينطوي على كثير من اللطف.»

ـ «إننا لن نتشاجر، أيها الطفل. أنا أحبك أكثر مما ينبغي. ولكن لا تكن معتوهاً.»

ـ «لا. سوف أكون حكيماً مثلك.»

ـ «لا تغضب، أيها الطفل. إضحك. خذ كأساً. لقد آن لي أن أذهب.»

ـ «أنت غلام طيب.»

ـ «الآن أصبتَ، إننا، في أعماقنا، متماثلان. نحن رفيقا سلاح. قبّلني قبلة الوداع.»

ـ «أنت دَبق.»

ـ «لا. أنا شديد المودَّة. هذا كل ما في الأمر.»

واستشعرتُ أنفاسه تقترب مني:

ـ «إلى اللقاء. سأعود لزيارتك في وقت قريب.»

وابتعدت أنفاسه، وهو يقول:

ـ «لن أقبّلك إذا كنت غير راغب في ذلك. سوف أبعث إليك فتاتك الإنكليزية. إلى اللقاء، أيها الطفل. الكونياك تحت السرير. عجّل في الشفاء.»

ومضى لسبيله.

الكتاب الثاني

الفصل الحادي عشر

عند الغسق وصل الكاهن. كانوا قد جاءوا بالحساء ثم عادوا فأخذوا الآنية، وكنت مستلقياً أنظر إلى صفوف السُّرر، وأتطلَّع من خلال النافذة إلى قمة الشجرة التي تمايلت بعض الشيء مع نسيم المساء. كان النسيم يمرّ من خلال النافذة، وهبطت الحرارة مع هبوط الليل. والذباب يتعلّق على السقف وعلى أسلاك المصابيح الكهربائية المتدلية على أسلاك. كانت الأضواء لا تُنار إلا عندما يُدخل أحداً في الظلام أو عندما القيام بعمل ما. والواقع أن هبوط الظلام بعد الغسق جعلني أشعر أني رجعت فتى. كان ذلك أشبه بالإيواء إلى الفراش بعد عشاء مبكر. ودلف الممرض بين السرر، وتوقف. كان يرافقه شخص ما. وكان هذا الشخص هو الكاهن. لقد وقف هناك ضئيل الجسم، أسمر البشرة، مرتبكاً.

وسألني:

ـ «كيف حالك؟»

ووضع بعض الرزم على الأرض، غير بعيد عن السرير.

ـ «بخير، أيها الأب.»

وجلس على الكرسي التي جيء بها لرينالدي، ونظر من خلال النافذة في ارتباك. لقد لاحظت آثار التعب الشديد بادية على وجهه.

قال:

ـ «لن أستطيع البقاء غير دقيقة واحدة. لقد تأخرت.»

ـ «لا يزال أمامك متسع من الوقت. كيف حال رفاقنا الضباط؟»

فابتسم وإمارات التعب بادية على صوته أيضاً:

ـ «أنا لا أزال سخريتهم الكبيرة. أحمد اللّه على أنهم جميعاً بخير.»

ثم أضاف:

ـ «يسرني أن تكون أنت بخير. وأرجو أن تكون قد تخلّصت من الألم.»

لقد بدا مُتعباً جداً، وما كنتُ متعوَّداً أن أراه متعباً.

ـ «لم يبقَ ثمة أيما ألم.»

ـ «لقد أوحشني غيابك عن قاعة طعام الضباط.»

ـ «أتمنى لو أكون هناك. لقد كنت دائماً أجد متعة بالغة في الاستماع إلى حديثك.»

فقال وهو يتناول الرزم:

ـ «لقد جئتك ببعض الأشياء الصغيرة. هذه ناموسية. وهذه زجاجة فيرمرت. أنت تحب الفيرموت؟ وهذه بعض الصحف الإنكليزية.»

ـ «افتح هذا كله من فضلك.»

وسرَّه ذلك وفتح الرزم. وتناولت الناموسية بيديَّ. ورفع زجاجة الفيرموت حتى أتمكَّن من رؤيتها ثم وضعها على الأرض بجانب السرير. وأخذت واحدة من الصحف الإنكليزية. واستطعت أن أقرأ عناوينها الرئيسية بأن أدرتها على نحو يجعل الضياء النصفي المتسرِّب من النافذة يقع عليها. كانت صحيفة «أخبار العالم» News of the World

وقال:

ـ «الصحف الأخرى مصورة.»

ـ «سوف يسعدني كثيراً أن أطالعها. من أين جئت بها؟»

ـ «لقد أرسلت من جاء بها من ميستر. ولسوف أحصل على صحف أخرى.»

ـ «إنه لطف بالغ منك أن تجيء، أيها الأب. هل تشرب كأساً من الفيرموت؟»

ـ «شكراً. احتفظ بها. إنها لك.»

ـ «لا. إشرب كأساً.»

ـ «حسن. سوف آتيك بغيرها إذن.»

وجاء الممرض بكأسين، وفتح الزجاجة، ثم إنه كسر الفلينة، فكان عليه أن يدفع بجزئها السفلي إلى الزجاجة. كان في ميسوري أن أقرأ الاستياء على وجه الكاهن، ولكنه قال:

ـ «لا بأس. ليس لهذا أية أهمية.»

ـ «اسمح لي أن أشرب نخب صحتك، أيها الأب.»

ـ «واسمح لي أن أشرب نخب شفائك.»

وبعد ذلك أمسك بالكأس في يده، وتبادلنا النظرات. كنا في بعض الأحيان نستشعر أننا صديقان حميمان حين نتحدث معاً. أما في تلك الليلة فكان ذلك عسيراً.

ـ «ما المسألة، أيها الأب؟ أنت تبدو متعباً جداً.»

ـ «أنا متعب، ولكن ليس لي حق في أن أكون كذلك.»

ـ «إنها الحرارة.»

ـ «لا، إنه الربيع ليس غير. أنا أشعر بانحطاط شديد.»

ـ «أنت مصاب بالتقزز من الحرب.»

ـ «لا. ولكني أكره الحرب.»

فقلت:

ـ «وأنا لا أجد فيها متعة أيضاً.»

فهزَّ برأسه، وسرَّح بصره من خلال النافذة.

ـ «أنت لا تُبالي بها. أنت لا تراها. يجب أن تغفر لي. أنا أعلم أنك جريح.»

ـ «هذه مصادفة.»

ـ «وعلى الرغم من جراحك فإنك لا تراها. وفي استطاعتي أن أقول إني أنا أيضاً لا أراها، ولكني أحس بها قليلاً.»

ـ «حين جُرحت كنا نتحدث عن ذلك. لقد كان باسيني يتحدث.»

ووضع الكاهن كأسه. كان يفكِّر في شيء آخر.

وقال:

ـ «أنا أعرفهم لأني مثلهم.»

ـ «ومع ذلك فأنت مختلف عنهم.»

ـ «نعم، ولكني في أعماقي مثلهم.»

ـ «الضباط لا يرون أي شيء.»

ـ «بعضهم يرى. بعضهم حسَّاسون جداً وهم يستشعرون الأشياء على نحو أسوأ مما يستشعرها أي امرئ منا.»

ـ «إن معظمهم مختلفون عنك.»

ـ «ليست المسألة مسألة ثقافة أو مال. إنها شيء آخر. وحتى لو كانوا على ثقافة أو مال فإن رجالاً مثل باسيني لا يرغبون في أن يكونوا ضباطاً. وأنا أيضاً لا أرغب في أن أكون ضابطاً.»

ـ «أنت معتبر في عداد الضباط. وأنا أيضاً ضابط.»

ـ «أنا لست ضابطاً حقاً. وأنت لست حتى إيطاليا. أنت أجنبي، ولكنك أقرب إلى الضباط منك إلى الرجال.»

ـ «ما الفرق؟»

ـ «لست أستطيع توضيحه في يسر. إن ثمة أناساً يحبُّون أن

يخوضوا غمار الحرب. وفي هذه البلاد كثير مثل هؤلاء. وهناك أناس آخرون لا يحبون أن يخوضوا غمارها.»

ـ «ولكن الأولين يحملونهم على ذلك.»

ـ «نعم.»

ـ «وأنا أساعدهم.»

ـ «أنت أجنبي. أنت رجل وطني.»

ـ «والذين لا يريدون الحرب. هل يستطيعون وضع حد لها؟»

ـ «لست أدري.»

ونظر من خلال النافذة كرة أخرى. وراقبتُ وجهه.

ـ «هل استطاعوا في يوم من الأيام أن يضعوا حداً لها؟»

ـ «إنهم غير منظَّمين لكي يستطيعوا وضع حد للأشياء. وكلما وُفِّقوا إلى تنظيم أنفسهم باعهم زعماؤهم.»

ـ «وإذن فليس ثمة أمل؟»

ـ «إن ثمة، دائماً، أملاً. ولكني لا أستطيع أن آمل في بعض الأحيان. أنا أحاول دائماً أن أعتصم بالأمل ولكني لا أقوى في بعض الأحيان.»

ـ «لعل الحرب تنتهي قريباً.»

ـ «أرجو ذلك.»

ـ «ما الذي ستعمله عندئذ؟»

ـ «سوف أعود إلى آبروتزي إذا كان ذلك ممكناً.»

وأشرق وجهه، فجاءة، بالسعادة البالغة.

ـ «أنت تحب آبروتزي؟»

ـ «أجل، أنا أحبها أعظم الحب.»

ـ «وإذن فينبغي أن تذهب إلى هناك.»

ـ «إذا استطعت ذلك بلغتُ من السعادة أقصاها. أوه! هل أوفق إلى أن أذهب إلى هناك وأن أحب اللَّه وأخدمه!»

فقلت:

ـ «وأن أحظى بالاحترام.»

ـ «أجل، وأن أحظى بالاحترام. ولِمَ لا؟»

ـ «ليس هناك أيّ سبب يدعو إلى عكس ذلك. إن من حقك أن تكون موضع الاحترام.»

ـ «ليس هذا بالأمر المهم. ولكن، هناك في موطني، يسلَّم الناس بأن في إمكان المرء أن يحب اللَّه. إنهم لا يرون في ذلك نكتة قذرة.»

ـ «فهمتُ.»

ـ «ونظر إليّ، وابتسم:

ـ «أنت تفهم، ولكنك لا تحب اللَّه.»

ـ «لا.»

وسألني:

ـ «أنت لا تحبه البتة؟»

ـ «أنا أخافه في الليل بعض الأحيان.»

ـ «يتعيَّن عليك أن تحبه.»

ـ «ليس من طبعي أن أحب كثيراً.»

فقال:

ـ «بلى. أنت تحب. إن ما ترويه لي عن لياليك ليس حباً. هذا ليس إلا هوى وشهوة. فالمرء حين يحب يرغب في أن يعمل شيئاً في سبيل من يحبه. إنه يرغب في أن يضحي من أجل من يحبه. ويرغب في خدمته.»

ـ «أنا لا أحب..»

ـ «إنك سوف تحب. أنا أعلم أنك ستحب. وعندئذ تنعم بالسعادة.»

ـ «أنا سعيد. لقد كنت سعيداً دائماً.»

ـ «إنها سعادة. أنت لن تعرفها إلا حين تذوقها.»

فقلت:

ـ «حسن. إذا قُدِّر لي يوماً أن أتمتع بها أعلمتك بذلك.»

لقد مكثت أكثر مما ينبغي، وتكلمت أكثر مما ينبغي.»

كان بادي القلق بسبب من ذلك.

ـ «لا. لا تذهب. ما رأيك في حبنا للنساء؟ فلو أني أحببتُ امرأة ما حباً حقيقياً فهل يكون ذلك الحب من الضرب الذي تصفه؟»

ـ «لست أدري شيئاً عن ذلك. أنا لم أحب أي امرأة في حياتي.»

ـ «وأمك؟»

ـ «أجل، لا ريب أني قد أحببت أمي.»

ـ «هل أحببتَ اللّٰه دائماً؟»

ـ «منذ أن كنت غلاماً صغيراً.»

فقلت:

ـ «حسن.»

ولم أعرف ما ينبغي أن أقول. فأردفت:

ـ «أنت غلام رائع.»

فقال:

ـ «إذا كنتُ غلاماً، فلماذا تخاطبني بقولك: أيها الأب؟»

ـ «هذه لياقة.»

فابتسم. وقال

ـ «يجب عليَّ أن أذهب.»

ثم سألني وفي صوته مسحة من أمل:

ـ «هل تستبقيني من أجل شيء؟»

ـ «لا. لمجرد التحدث.»

ـ «سوف أحمل تمنياتك إلى رفاقك في حجرة الطعام.»

ـ «أشكرك على هداياك الكثيرة الرائعة.»

ـ «لا تذكر ذلك.»

ـ «أرجو أن تجيء لزيارتي مرة أخرى.»

ـ «إن شاء اللَّه. إلى اللقاء.»

وربَّت على يدي.

فقلت في اللهجة العامية:

ـ «إلى اللقاء.»

فكرَّر:

ـ «تشاو.»

كان الظلام مخيماً على الغرفة، فلم يكن من الممرض الذي كان قد جلس عند قدم السرير إلا أن نهض وخرج معه. لقد أحببته كثيراً وتمنيت لو يستطيع أن يعود إلى آبروتزي في يوم من الأيام. ولقد كانت حياته مع زمرة الضباط حياة بائسة ولكنه عرف كيف يحتملها في رحابة صدر. بيد أني تساءلت كيف يمكن أن تكون حاله في بلده. كان قد أخبرني أن في كاربراكوتا. في النهر الذي يجري تحت المدينة، كثيراً من الأطروط(*). وكان محظَّراً على الناس أن يعزفوا على الفلوت في الليل. فحين كان الشبان يُسرندون(**) كان الفلوت هو وحده الممنوع.

(*) الأطروط أو التروتة أو الترويت، وهو نوع من سمك الأنهار.

(**) ينشدون السرنادة Serenade وهي أنشودة خلوية يناجي بها المحب محبوبته في الليل.

وكنت قد سألته: لماذا؟ فأجاب: هناك ينادونك «أيها الدون» Don، وهم يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم كلما إلتقوا بك. وكان قد أخبرني أن والده يخرج للصيد كل يوم، ويعرج ليتناول الطعام في بيوت الفلاحين. كانوا يعتبرون ذلك شرفاً لهم دائماً. ولم يكونوا يسمحون للرجل الأجنبي بأن يتصيد إلا إذا أبرز شهادة تثبت أنه لم يسجن قط. وكان ثمة دببة في الـ «غران ساسو ديتاليا» ولكن هذه كانت نائية. وكانت (آكيلا) مدينة جميلة. وفي الصيف، كانت الليالي باردة، وكان الربيع في آبروتزي أجمل ربيع في إيطاليا كلها. أما الخريف فكان أروع من هذا كله. ففي هذا الفصل كان في ميسورك أن تنطلق للصيد في غابات الكستناء. وكانت الطير كلها جيدة لأنها تتغذّى بالعنب، ولم يكن المرء ليحمل غداءه إلى هناك لأن الفلاحين كانوا يعتبرون تناولك الطعام في بيوتهم شرفاً لهم دائماً. بعد فترة قصيرة استسلمت للرقاد.

الفصل الثاني عشر

كانت القاعة طويلة، ذات نوافذ من ناحية اليمين. وفي أقصاها باب يؤدي إلى حجرة التضميد. وكان صف الأسرَّة الذي ينهض فيه سريري يواجه النوافذ، وثمة صف آخر، تحت النوافذ، يواجه الجدار. فإذا استلقيت على جنبك الأيسر كان في ميسورك أن ترى باب غرفة التضميد. وكان في طرف القاعة الأقصى باب آخر يدخل منه الناس في بعض الأحيان. فإذا ما أشرف امرؤ على الموت طوَّقوا سريره بحجاب حاجز لكي لا تراه يموت، ولكن أحذية الأطباء والممرضين والعصائب الجلدية التي تغطي ربلات سيقانهم كانت وحدها تبدو عند أسفل الحجاب الحاجز، وفي بعض الأحيان كان يدور في أقصى الغرفة همس. وبعد ذلك كان كاهن يخرج من وراء الحجاب، ثم يعود الممرضون إلى ما وراء ذلك الحجاب ليخرجوا ثانية حاملين الميت وقد غطَّوه ببطانية، ويجتازوا به الممر القائم بين صفي الأسرَّة. وعندئذ كان شخص من الأشخاص يطوي الحجاب ويذهب به.

وذلك الصباح سألني المايجور المسؤول عن القاعة ما إذا كنت أشعر أني أستطيع السفر في اليوم التالي. فقلت إني أستطيع. فقال إنهم، إذن، سوف يرحِّلونني في الصباح الباكر. وقال إن من الخير لي أن أبدأ الرحلة الآن قبل أن تشتد الحرارة أكثر مما ينبغي.

كان في ميسورك، حين يرفعونك عن السرير ليحملوك إلى حجرة

التضميد أن تطل من النافذة فترى القبور الجديدة في الحديقة. وكان يجلس خارج الباب المؤدي إلى الحديقة جندي يصنع الصلبان ويدهن عليها أسماء الرجال الذين دفنوا فيها ورُتبهم والفِرق التي كانوا ينتسبون إليها. وكان ذلك الجندي يقصد إلى قاعتنا في بعض المهام، وفي أوقات فراغه كان يصنع قداحة من خرطوشة بندقية نمساوية. كان الأطباء لطفاء جداً، ويبدو أنهم بارعون جداً. كانوا راغبين في نقلي إلى ميلانو حيث أجهزة أشعة أكس أفضل، وحيث كان في إمكاني أن أفيد، بعد إجراء الجراحة، من أسباب الاستشفاء الآلي(*) وكنت أنا راغباً في الذهاب إلى ميلانو أيضاً. كانوا يريدون أن يرحِّلونا كلنا، وإلى أبعد مكان ممكن، لأنهم كانوا يتوقعون أن يحتاجوا، حالما يبدأ الهجوم، إلى جميع الأسرّة.

في الليلة التي سبقت مغادرتي مستشفى الميدان وفَد رينالدي لزيارتي مع مايجور الزمرة التي كنت آكل معها في غرفة واحدة. لقد قالا إني سوف أنقل إلى مستشفى أميركي أنشئ حديثاً في ميلانو. إن بعض وحدات الإسعاف الأميركية سوف تُرسل إلى هناك. ولسوف يُعنى هذا المستشفى بهم وبجميع الأميركيين العاملين في إيطاليا. كان كثير منهم يعملون مع الصليب الأحمر. فقد كانت الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على ألمانيا، ولكن ليس على النمسا.

كان الإيطاليون واثقين أن أميركا سوف تعلن الحرب على النمسا أيضاً، وكانوا شديدي الاهتمام بجميع الأميركيين الوافدين إلى بلادهم، حتى ولو كان هؤلاء الأميركيون عاملين مع الصليب الأحمر. لقد سألوني: هل أعتقد أن الرئيس ولسون سوف يعلن الحرب على النمسا؟ فأجبت أن هذه مسألة أيام ليس غير. أنا ما كنت أعرف ما الذي نأخذه على النمسا ولكن بدا لي أن من المنطق أن يُعلن

(*) أو رد العافية بالطرق الآلية.

الأميركيون الحرب عليها ما داموا قد أعلنوها على ألمانيا. وسألوني هل سنعلن الحرب على تركيا. فأجبت بأن ذلك موضع شك. لقد قلت إن تركيا(*) هي طائرنا الوطني. ولكن النكتة أخفقت عند ترجمتها، فاستبد بهم الدهش والارتياب إلى درجة دفعتني أن أقول نعم، أغلب الظن أننا سنعلن الحرب على تركيا. وعلى بلغاريا؟ كنا قد شربنا عدَّة كؤوس من البراندي، فقلت نعم، وحق الإله، على بلغاريا أيضاً وعلى اليابان أيضاً. ولكن اليابان، كذلك قالوا، هي حليفة لإنكلترة. أنت لا تستطيع أن تثق بالإنكليز الملعونين. فقلت: اليابانيون طامعون بهاوايي. أين تقع هاوايي؟ إنها في المحيط الهادي. لماذا يطمع بها اليابانيون؟ فقلت: إنهم لا يطمعون بها حقاً. هذه أقاويل ليس غير. اليابانيون شعب صغير رائع مولع بالرقص والخمور الخفيفة. فقال المايجور: مثل الفرنسيين. سوف نستردّ نيس وسافواي من الفرنسيين. فقال رينالدي: سوف نسترد كورسيكا وساحل الأدرياتي كله. وقال المايجور: إن إيطاليا سوف تُعيد أمجاد روما. فقلت إني لا أحب روما. إنها حارّة وملأى بالبراغيث. فقال المايجور: أنت لا تحب روما؟ أنا أحب روما. روما هي أُمّ الدنيا. أنا لن أنسى ما حييت رومولوس وهو يَرضع ثدي التيبر. ماذا؟ لا شيء. فلنذهب إلى روما. فلنذهب إلى روما الليلة من غير أن نرجع أبداً. إن روما مدينة جميلة. فقلت: روما أُمُّ الدول وأبوها. فقال رينالدي: روما مؤنثة. إنها لا يمكن أن تكون أباً. من هو الأب، إذن، الروح القدس؟ لا تجدِّف. أنا لم أكن أجدِّف. كنت أستعلم. أنت ثمل، أيها الطفل. من الذي جعلني ثملاً؟ فقال المايجور: أنا الذي جعلتك ثملاً. أنا جعلتك ثملاً لأني أحبك، ولأن أميركا قد خاضت الحرب. فقلت: حتى مقبَضِ السيف. فقال رينالدي: اذهبْ في الصباح، أيها الطفل. فقلت: إلى

(*) إن كلمة Turkey في الإنكليزية تعني الديك الرومي أيضاً. (المعرب)

روما: فقال المايجور: لا، بل إلى ميلانو. إلى ميلانو. إلى الكريستال بالاس، إلى الكوفا، إلى كامباريز، إلى بيفيز، إلى الغاليريا. أيها الغلام المحظوظ. فقلت: إلى الغران ايتاليا، حيث سأستعير المال من جورج. فقال رينالدي: إلى السكالا. إنك سوف تذهب إلى السكالا. فقلت: كل ليلة. فقال المايجور: لن يكون في طاقتك أن تذهب كل ليلة.

فقلت: إن التذاكر غالية جداً. سوف أسحب حوالة على جدّي. حوالة من تلك الحوالات التي تُدفع عند الاطّلاع. ماذا؟ حوالة تدفع عند الاطلاع. إن عليه أن يدفع وإلا دخلتُ السجن. إن مستر كاننغهام يتولى القيام بذلك في البنك. أنا أحيا على الحوالات التي تُدفع عند الاطلاع. هل يستطيع جَدٌ أن يسجن حفيداً وطنياً يموت لكي تحيا إيطاليا؟ فقال رينالدي: فليعش غاريبالي الأميركي. فقلت: فلتعش الحوالات التي تدفع عند الاطلاع. فقال المايجور: ينبغي أن نهدأ. لقد طُلب إلينا عدة مرات، حتى الآن، أن نهدأ. هل ستسافر غداً حقاً، يا فيديريكو؟ فقال رينالدي: سوف يذهب إلى المستشفى الأميركي، أقول لك. إلى الممرضات الجميلات. لا إلى «ممرضات» مستشفى الميدان ذوي اللحى! فقال المايجور: نعم، نعم، أنا أعلم أنه سيذهب إلى المستشفى الأميركي. فقلت: لا اعتراض عندي على لحاهم. إذا أراد أيُّ امرئ أن يربي لحيته فليفعل. لماذا لا تربي لحية، أيها السيد المايجور؟ إن من المتعذر إدخالها في قناع الوقاية من الغازات السامة. بل إن هذا ممكن. كل شيء يمكن إدخاله في هذا القناع. لقد تقيأتُ في قناع من أقنعة الغازات السامة. فقال رينالدي: لا ترفع صوتك إلى هذه الدرجة، أيها الطفل. نحن كلنا نعلم أنك كنت في الجبهة. أوه، أيها الطفل الرائع، ما الذي سوف أصنعه أثناء غيابك؟ فقال المايجور: يجب أن نذهب. ولقد أصبحت المسألة عاطفية. اسمع. لديَّ مفاجأة لك. إن فتاتك الإنكليزية، هل تعرف؟

فتاتك الإنكليزية التي تذهب لرؤيتها كل ليلة في المستشفى؟ إنها سوف تذهب إلى ميلانو أيضاً. سوف تذهب مع فتاة أخرى إلى المستشفى الأميركي. فالممرضات لم يصلن من أميركا بعد ولقد تحدثت اليوم مع رئيس الدائرة. إن لديهم عدداً كبيراً جداً من النساء هنا في الجبهة. ولسوف يعيدون بعضهن إلى ما وراء الخطوط. ما رأيك في ذلك، أيها الطفل؟ هذا لطيف، أليس كذلك؟ سوف تذهب لتحيا في مدينة كبيرة، ولسوف تكون فتاتك الإنكليزية هناك لكي تعانقك. لماذا لا أصاب أنا بجرح؟ فقلت: لعلك تصاب في المستقبل. فقال المايجور: يجب أن نذهب. إننا نشرب ونُحدث ضجة، ونزعج فيديريكو. لا تذهب. أجل، يجب أن نذهب. إلى اللقاء. حظاً سعيداً. إلى اللقاء. تشاو. تشاو. عُد إلينا في سرعة، أيها الطفل. وقبّلني رينالدي. إن رائحة الليزول تفوح منك. إلى اللقاء، أيها الطفل. إلى اللقاء. وربَّت المايجور على كتفي. وخرجا ماشيين على رؤوس أصابعهما. لقد أدركت أني ثمل جداً، ولكنني استسلمت للنوم.

* *

وفي صباح اليوم التالي رحلنا إلى ميلانو، فبلغناها بعد ثمان وأربعين ساعة. كانت رحلة شاقة. فقد توقفنا فترة طويلة في جانب الطريق قرب ميستر، وأقبل الغلمان ينظرون إلينا نظرات فاحصة. وكلفت غلاماً صغيراً أن يشتري لي زجاجة كونياك، ولكنه رجع فقال إنه لم يجد من أصناف الخمر غير الـ «غرابّا». فسألته أن يأتيني بزجاجة من هذا الصنف، وحين رجع منحتُهُ ما تبقّى من الورقة النقدية. فسكرتُ أنا والرجل الذي في جواري، ونمتُ حتى اجتزنا فيسينتزا حيث استيقظت وتقيأتُ كثيراً على أرض الحافلة. ولم يكن في ذلك بأس لأن جاري كان قد تقيأ قبل ذلك مرّات عديدة. وبعد ذلك بدا لي أني لن أستطيع الصبر على الظمأ، وحين توقّف القطار على أبواب فيرونا ناديت جندياً كان يذرع المكان، إلى جانب القطار، جيئة

وذهاباً، فحمل إليَّ شربة ماء. وأيقظتُ جورجيتي، وهو الثمل الآخر، وقدمت إليه قليلاً من الماء. فسألني أن أصبّه على كتفه واستسلم للرقاد من جديد. ورفض الجندي أن يأخذ البنس الذي قدَّمته إليه، وجاءني ببرتقالة كثيرة اللب. فمصَصْتُها، باصقاً لبّها، وراقبت الجندي وهو يذرع الأرض جئية وذهاباً أمام قطار من قطارات البضائع. وبعد فترة أحدث القطار اهتزازاً وانطلق.

الفصل الثالث عشر

وصلنا إلى ميلانو في الصباح الباكر فأنزِلنا في فِناء البضائع. ونقلتني سيارة إسعاف إلى المستشفى الأميركي. وفيما أنا ممدَّد في السيارة على نقالة، لم يكن في ميسوري أن أحزر أي أجزاء المدينة كنا نجتاز، ولكني شاهدت حين أنزلا النقالة سوقاً وخمَّارة مفتوحة وفتاة تكنسها. كانوا يرشّون الشارع بالماء. وكانت تفوح منه رائحة الصباح الباكر. ووضعا النقالة أمام الباب ودخلا. ثم إن البواب خرج معهما. كان له شاربان اشيبان، وكان يعتمر بقبعة بواب، ويرتدي رُدْنين واقيين. وتعذَّر إدخال النقَّالة إلى المصعد الكهربائي فتذاكروا في الأمر: أيرفعونني عن النقالة ويصعدون بالمصعد أم يحملون النقالة ويرتقون بها درجات السلَّم؟ وأصغيت إليهم وهم يتناقشون. وأخيراً آثروا المصعد. فرفعوني عن النقالة، فقلت لهم: «ترفقوا! لا تقسوا عليَّ.»

وحُشرنا في المصعد الكهربائي، وإذ التوت رجلاي فقد أصابني ألم شديد. وقلت لهم:

ـ «مدُّوا رجليَّ.»

ـ «لا نستطيع، أيها السيد الملازم. ليس هناك متسع.»

كان الرجل الذي قال هذا الكلام يطوقني بذراعه، وكانت ذراعي تطوِّق عنقه. كانت أنفاسه تصفع وجهي عابقة بالثوم والخمر الحمراء.

وقال الرجل الآخر:

- «ترفَّق وكن لطيفاً!»

- «ابنُ زانية مَن لا يترفق ولا يكون لطيفاً!»

وكرَّر الرجل الممسك برجليَّ:

- «ترفَّق وكن لطيفاً، أقول لك.»

ورأيت باب المصعد الكهربائي يُغلق، ثم الباب الداخلي ذا القضبان المشبّكة، ورأيت البواب يضغط على زر الدور الرابع. كانت إمارات القلق تبدو على وجه البواب. وارتفع المصعد بطيئاً بطيئاً.

وسألت الرجل العابقَ نفَسُهُ برائحة الثوم:

- «ثقيل؟»

فقال:

- «على الإطلاق.»

كان العَرق يتصبب من وجهه. ونخر، وارتفع المصعد الكهربائي سلساً ثم توقّف. وفتح الرجل الممسك برجليَّ باب المصعد، وخرج. ووجدنا أنفسنا في رواق. كان ثمة عدة أبواب بمقابض نحاسية. وضغط الرجل الذي كان يحمل قدميَّ على زر أحد الأجراس. وسمعنا رنين الجرس من وراء الباب. ولكن أحداً لم يأتِ. ثم إن البواب برز في أعلى السلَّم.

وسأله حاملا النقَّالة:

- «أين هم؟»

فقال البواب:

- «لست أدري. إنهم ينامون في الدور السفلي.»

- «نادِ شخصاً ما.»

رنَّ البواب الجرس، ثم فتح الباب ودخل. حتى إذا رجع كانت

معه امرأة عجوز تلبس نظارتين. كان شعرها غير مثبَّت بالدبابيس ويكاد يتهاوى. وكانت ترتدي ثوب ممرضة.

قالت:

ـ «أنا لا أستطيع أن أفهم. أنا لا أستطيع أن أفهم الإيطالية.»

فقلت:

ـ «في استطاعتي أن أتكلم الإنكليزية. إنهم يريدون أن يضعوني في مكان ما.»

ـ «ليس ثمة أية غرفة مهيَّأة لهذا الغرض. نحن لم نكن نتوقع مجيء أي مريض.»

وحاولت أن تثبت شعرها، وحدَّقت إليَّ بعينيها المصابتين بقصر البصر.

ـ «دليهم على أية غرفة يستطيعون أن يضعوني فيها.»

فقالت:

ـ «لست أدري. نحن ما كان نتوقع مجيء أي مريض. ليس في استطاعتي أن أضعك في إيما غرفة.»

فقلت:

ـ «لا مانع لديَّ من أن أوضع في أية غرفة من الغرف.»

ثم التفتُّ إلى البواب وقلت له بالإيطالية:

ـ «ابحث لي عن غرفة فارغة.»

فقال البواب:

ـ «جميع الغرف شاغرة. أنت أول مريض يفد علينا.»

لقد أمسك بقبعته في يده، ونظر إلى الممرضة العجوز.

ـ «إكراماً للمسيح، خذيني إلى غرفة ما.»

كان الألم قد اشتد واشتد بعد أن طُويتْ رجلاي، وكان في استطاعتي أن أحسّ به يسري في العظام ويغادرها. اجتاز البواب

العتبة، تتبعه المرأة الشائبة، ثم ارتد نحونا مسرعاً، وقال:

ـ «اتبعوني.»

وحملوني مجتازين بي رواقاً طويلاً حتى انتهوا بي إلى غرفة أغلِقت مصاريع نوافذها الخارجية. كانت تفوح من هذه الغرفة رائحة الأثاث الجديد. وكان فيها سرير وخزانة كبيرة ذات مرآة. ووضعوني على السرير.

قالت المرأة:

ـ «أنا لا أستطيع أن أضع عليه غطاء. جميع الأغطية مغلق عليها.»

ولم أتكلم معها. وقلت للبواب:

ـ «في جيبي دراهم. في جيبي المزرَّر.»

وأخرج البواب الدراهم. ووقف حاملا النقالة إلى جانب السرير ممسكين بقبعتيما. فقلت:

ـ «أعطِ كلاً منهما خمسة ليرات(*)، وخذ أنت خمسة ليرات، إن أوراقي هي في الجيب الأخرى. في استطاعتك أن تقدمها إلى الممرضة.»

وأدى حاملا النقالة التحية، وشكراني. فقلت:

ـ «إلى اللقاء. أشكركما شكراً كثيراً.»

أديا التحية مرة ثانية، وانصرفا.

وقلت للممرضة:

ـ «هذه الأوراق تصف حالي والمعالجة التي أخضِعتُ لها.»

فتناولت المرأة الأوراق، وأمعنت النظر إليها من خلال نظارتيها. كان ثمة ثلاث أوراق، وكانت مطويَّة.

(*) جمع لير، وهو وحدة النقد الإيطالية.

وقالت:

ـ «لست أدري ما ينبغي أن أفعل. أنا لا أستطيع أن أقرأ الإيطالية. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً بدون أمر الطبيب.»

وشرعت تبكي، ووضعت الأوراق في جيب مئزرها.

وسألتني من خلال عبراتها:

ـ «هل أنت أميركي؟»

ـ «نعم. أرجوكِ أن تضعي الأوراق على الطاولة المجاورة للسرير.»

كانت الغرفة مظلمة باردة بعض الشيء. وفيما كنت مستلقياً في الفراش كان في استطاعتي أن أرى المرآة الكبيرة في الجانب الآخر من الغرفة، ولكني لم أستطع أن أرى ما الذي عكسَتْهُ. لقد وقف البواب على مقربة من السرير. كان ذا وجه وسيم، وكان لطيفاً جداً.

قلت له:

ـ «في استطاعتك أن تنصرف.

وقلت للممرضة:

ـ «وفي استطاعتكِ أن تنصرفي أيضاً. ما اسمكِ؟»

ـ «مسز ووكر.»

ـ «في استطاعتكِ أن تذهبي، يا مسز ووكر. أحسب أني سأنام.»

كنت وحدي في الغرفة. وكانت الغرفة باردة في اعتدال، ولم يكن المرء يشمّ فيها رائحة المستشفيات. كانت الحشيَّة راسخة مريحة، وكنت أستلقي من غير حراك، وأتنفس في عُسر بالغ، سعيداً بأن الألم بدأ يخف. وبعد برهة قصيرة أردت أن أشرب، ووجدت الجرس المتصل بحبل قريب من السرير، فقرعته، ولكن أحداً لم يأتِ. واستسلمت للرقاد.

وحين استيقظتُ أجلت البصر في ما حولي. كانت أشعة الشمس

تتسرَّب من خلال المصاريع الخارجية. ورأيت الخزانة الكبيرة، والجدران العارية، وكرسيَّين. كانت رجلاي المعصوبتان بضمادات قذرة خارجتين من السرير على نحو مستقيم. وكنت أحاذر أن أحرِّكهما. واشتد بي الظمأ، فمددت يدي إلى الجرس. وضغطت على الزر. ثم إني سمعت الباب يُفتح، وتطلَّعت، فإذا بي أرى ممرضة. لقد بدت غضة الشباب وسيمة المحيا.

ـ «صباح الخير.»

فقالت وتقدمت نحو السرير:

ـ «صباح الخير. إننا لم نستطع أن نجد الطبيب. لقد ذهب إلى بحيرة كومو. إن أحداً ما كان يعرف أن مريضاً سوف يأتي ممَّ تشكو على أية حال؟»

ـ «أنا جريح. في الرجلين والقدمين. وهناك جرح في رأسي أيضاً.»

ـ «ما اسمك؟»

ـ «هنري. فريدريك هنري.»

ـ «سوف أغسل جسدك. ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً بالضمادات إلا بعد أن يجيء الطبيب.»

ـ «هل المس باركلي هنا؟»

ـ «لا. ليس عندنا أحد بهذا الاسم هنا.»

ـ «من هي المرأة التي انخرطت في البكاء عندموا وصلتُ إلى هنا؟»

وضحكت الممرضة وقالت:

ـ «هذه مسز ووكر. كانت هي المسؤولة عن الخدمة تلك الليلة، ولقد كانت مستسلمة للنوم. إنها لم تكن تتوقع أن يفدِ أحد إلى المستشفى.»

وفيما كنا نتحدث كانت هي تنزع ملابسي عن جسدي. حتى إذا أصبحت عارياً إلا من الضمادات، غسلتني في كثير من الرفق والتلطف. ولقد كانت عملية الغسل هذه موفقة جداً. كان ثمة ضمادة على رأسي، ولكنها غسلت كل ما حولها في براعة.

ـ «أين جُرحت؟»

ـ «على ضفة الأيزونزو، شمالي بلافا.»

ـ «وأين تقع هذه؟»

ـ «شمالي غوريتزيا.»

كان في ميسوري أن أرى أن أياً من هذه المواطن لم يَعْنِ شيئاً عندها.

ـ «هل يوجعك جرحك كثيراً؟»

ـ «لا. إنه لا يوجعني كثيراً الآن.»

ووضعتْ ميزان حرارة في فمي.

فقلت:

ـ «الإيطاليون يضعونه تحت الإبط.»

ـ «لا تتكلم.»

وحين أخرجت ميزان الحرارة، قرأته ثم نفضتْه.

ـ «كم بلغت الحرارة؟»

ـ «ليس مفروضاً فيك أن تعرف هذا.»

ـ «قولي لي كم بلغت؟»

ـ «إنها تكاد تكون سوية.»

ـ «أنا لم أعرف الحمى في حياتي قط. ورجلاي مليئتان بالحديد العتيق أيضاً.»

ـ «ماذا تعني؟»

ـ «إنهما مليئتان بشظايا القنابل، بالبراغي العتيقة، وبنوابض السرر وأشياء أخرى.»

وهزت رأسها وابتسمت.

ـ «لو كان في رجليك أجسام غريبة إذن لأحدثتْ إلتهاباً، وإذن لأصابتك الحمى.»

فقلت:

ـ «حسن. سوف نرى ما الذي سيخرج منهما.»

وغادرت الغرفة ثم رجعت تصحبها الممرضة العجوز التي رأيتها في الصباح الباكر. وسوّتا السرير معاً وأنا مستلق عليه. كان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة إليّ، وقد وجدته رائعاً.

ـ «مَن المسؤولة هنا؟»

ـ «مس فان كامبن.»

ـ «كم ممرضة هنا؟»

ـ «اثنتان ليس غير.»

ـ «ألن تلتحق بالمستشفى ممرضات أخريات؟»

ـ «إن بعض الممرضات الأخريات سوف يجئن قريباً.»

ـ «ومتى سوف يجئن؟»

ـ «لست أدري. أنت تطرح من الأسئلة أكثر مما ينبغي لغلام مريض أن يطرحه.»

فقلت:

ـ «أنا لست مريضاً. أنا جريح.»

كانتا قد انتهتا من تسوية السرير، وكنت أستلقي وغطاء نظيف ناعم من تحتي وغطاء نظيف ناعم من فوقي. وخرجت مسز ووكر ورجعت بسترة بيجاما. وألبستاني تلك السترة، واستشعرت أني حسن البزة، نظيف إلى حد بالغ.

فقلت:

ـ «لقد غمرتماني بلطفكما.»

وقهقهت الممرضة المدعوة مسز غايج.

وتساءلتُ:

ـ «هل أستطيع أن أفوز بكأس ماء؟»

ـ «طبعاً. وبعد ذلك تستطيع أن تتناول طعام الصباح.»

ـ «لست أريد أن أتناول طعام الصباح. هل أستطيع أن أطلب فتح المصاريع الخارجية؟»

كان الضوء باهتاً في الغرفة، حتى إذا فُتحت المصاريع الخارجية ملأ الغرفة ضياء الشمس الساطع. وسرَّحت طرفي من خلال النافذة فتراءت لي خلفها المداخن وسطوح البيوت القرميدية. ومن فوق السطوح القرميدية رأيت سُحباً بيضاء، ورأيت السماء شديدة الزرقة.

ـ «ألا تعرفين متى ستجيء الممرضات الأخريات؟»

ـ «لماذا؟ ألا نُعنى نحن بك عناية كافية؟»

ـ «أنتما لطيفتان جداً.»

ـ «هل تحب أن تستعمل حوض الماء الصغير؟»

ـ «سوف أحاول.»

وساعدتاني على الارتفاع بعض الشيء عن السرير، ولكن على غير طائل. بعد ذلك استلقيت، ونظرت من خلال الأبواب المفتوحة إلى الرواق.

ـ «متى يجيء الطبيب؟»

ـ «حين يرجع. لقد حاولنا أن نهاتفه إلى بحيرة كومو.»

ـ «أليس ثمة أطباء آخرون؟»

ـ «إنه هو طبيب المستشفى.»

وجاءت مس غايج بإبريق ماء وكوب. فشربتُ ثلاث كؤوس ثم

فارقتاني، فسرَّحتُ نظري من خلال النافذة فترة قصيرة، ثم استسلمت للرقاد مرّة أخرى. تناولت طعام الغداء. وعند الأصيل أقبلت مس فان كامبن، مديرة المستشفى، لتراني. ولم تحبّني مس فان كامين. ولم أحبها. كانت ضئيلة الجسم، كثيرة الشكوك، وأكثر طيبة من أن تحتل منصباً كهذا. لقد طرحت عليَّ أسئلة كثيرة، وبدت وكأنها تعتقد أن من المعيب بعض الشيء أن أخدم في الجيش الإيطالي.

وسألتها:

ـ «هل أستطيع أن أحتسي الخمر مع الطعام؟»

ـ «شرط أن يشير الطبيب بذلك.»

ـ «هل يعني هذا أني لا أستطيع احتساءها إلا بعد أن يجيء؟»

ـ «تماماً.»

ـ «هل تعتزمين استدعاءه في النهاية؟»

ـ «لقد اتصلنا به إلى بحيرة كومو.»

وغادرت الغرفة. وبعد ذلك مباشرة رجعت مس غايج وسألتني بعد أن أسدت إليّ خدمة ما في كثير من البراعة:

ـ «لماذا كنت فظاً مع مس فان كامبن؟»

ـ «لم أقصد أن أكون كذلك. ولكنها كانت متعجرفة في احتقار.»

ـ «لقد قالت إنك كنت متكبّراً وفظاً.»

ـ «لا، لم أكن. ولكن ما رأيك في مستشفى من غير طبيب؟»

ـ «إنه آت. لقد اتصلوا به إلى بحيرة كومو.»

ـ «ما الذي يفعله هناك؟ يسبح؟»

ـ «لا. إن له عيادة هناك.»

ـ «لماذا لا يعهدون بشؤون المستشفى إلى طبيب آخر؟»

ـ «هش. هش. كن ولداً عاقلاً، ولسوف يجيء.»

واستدعيت البواب، حتى إذا جاء قلت له بالإيطالية أن يشتري لي

من الخمارة زجاجة سينزانو، وقنينة كيانتي، وأن يشتري لي أيضاً صحف المساء. فمضى البواب، وأتاني بهما ملفوفتين بصحيفة من الصحف. ثم إنه أخرجهما من الصحيفة، وحين سألته أن يفتحهما نزع فلينتيهما ووضع الخمرة والفيرموت تحت السرير. وتُركت وشأني، فطالعت الصحف، وأنا مستلق على الفراش، فترة قصيرة، وقرأت أنباء الجبهة، ولائحة القتلى من الضباط، والأوسمة التي مُنحوها. ثم مددت يدي تحت السرير، فأخرجت زجاجة السينزانو، وأمسكتُ بها مستقيمة فوق معدتي، والكأس الباردة مسندة إلى بطني، وشربت جرعات صغيرة، مُحدثاً فوق معدتي حلقات ودوائر بسبب من إمساكي الزجاجة هناك، بين الجرعة والجرعة، وتأملت الليل وهو يهبط في الخارج فوق سطوح المدينة. وطوَّفت السنونو في السماء، وراقبتها هي وبعض الباشق تطير فوق السطوح، وشربت السنزانو. وحملتْ إليّ مس غايج كأساً فيها نوع من الشراب بالبيض eggnog(*). فخفضتُ زجاجة الفيرموت إلى الجانب الآخر من السرير عندما دخلتْ.

وقالت:

ـ «لقد وضعت لك مس فان كامبن بعض الشري(**) في هذا. يجب أن لا تكون فظاً معها. إنها ليست صغيرة السن، وهذا المستشفى يلقي على عاتقها مسؤولية كبيرة. إن مسز ووكر عجوز أكثر مما ينبغي، وهي لا تستطيع أن تقدِّم إلى مس فان كامبن عوناً يذكر.»

فقلت:

ـ «إنها امرأة رائعة، احملي إليها شكري العظيم.»

ـ «سوف آتيك بطعام العشاء، في الحال.»

فقلت: «حسن جداً. أنا لست جائعاً.»

(*) eggnog وهو يُخلط باللبن، ويضاف إليه بعض الخمر أحياناً. (المعرب)

(**) Sherry نوع من الخمر.

وحين جاءت بالصينية، ووضعتها على مائدة السرير، شكرتُها وتناولت قليلاً من الطعام. وبعد ذلك ساد الظلام في الخارج، وكان في ميسوري أن أرى أشعة الأضواء الكشافة تتحرك في السماء. وراقبتُ ذلك برهة قصيرة، ثم رقدت. لقد نمت نوماً عميقاً، ومع ذلك فقد أفقت مرة مذعوراً يتصبب العرق مني، ثم عدت إلى النوم محاولاً أن أفر من الحلم الذي رأيته. وأفقت بعد ذلك نهائياً قبل مطلع الفجر بكثير، فسمعت الديكة تصيح، وبقيت يقظان حتى بدأ الضياء يغمر الكون. كنت مُتعباً، وما إن عمَّ الضياء الكون حتى استسلمت للرقاد من جديد.

الفصل الرابع عشر

كانت أشعة الشمس المشرقة تغمر الغرفة عندما استيقظت. لقد خُيِّل إليَّ أني في الجبهة، فتمطيت في السرير. وآلمتني رجلاي، فنظرت إليهما وهما لا تزالان في الضمادات القذرة، وما إن رأيتهما حتى عرفت أين كنت. ومددتُ يدي إلى حبل الجرس، وضغطت على الزر. وسمعته يرن في الرواق، ثم سمعت شخصاً يمشي في الرواق على نعلين من مطاط. كانت هي مس غايج، ولقد بدت أكبر سناً، بعض الشيء، في أشعة الشمس المشرقة، وغير جميلة جداً.

وقالت:

ـ «صباح الخير. هل قضيت ليلة طيبة؟»

فقلت:

ـ «نعم. أشكرك شكراً كثيراً. هل أستطيع أن أستدعي حلاقاً؟»

ـ «لقد جئت لأراك فوجدتك نائماً ومعك هذه في السرير.»

وفتحت باب الخزانة وأرتني زجاجة الفيرموت. كانت فارغة تقريباً.

وقالت:

ـ «لقد وضعتُ هنا أيضاً الزجاجة الأخرى التي كانت تحت السرير. لِمَ لم تطلب مني كأساً؟»

ـ «كنت أخشى أن تضنّي علي بذلك.»

ـ «لا. لقد كان جديراً بي أن أشرب معك قليلاً.»

ـ «أنت فتاة رائعة.»

فقالت:

ـ «ليس من الخير لك أن تشرب وحدك. يجب أن لا تفعل ذلك بعد الآن.»

ـ «حسن.»

فقالت:

ـ «إن صديقتك مس باركلي قد جاءت.»

ـ «حقاً؟»

ـ «نعم. وأنا لم أحبها.»

ـ «سوف تحبينها. إنها لطيفة إلى حد بالغ.»

فهزت رأسها، وقالت:

ـ «أنا واثقة أنها لطيفة. هل تستطيع أن تبتعد قليلاً جداً إلى هذه الناحية؟ هذا رائع. سوف أغسلك استعداداً لطعام الصباح.»

وغسلتني بقماشة وصابون وماء حار. وقالت:

ـ «ارفع كتفك. هذا رائع.»

ـ «هل أستطيع أن أستدعي الحلاق قبل طعام الصباح؟»

ـ «سوف أبعث البواب لاستداعائه.»

وغادرت الغرفة ثم رجعت، وقالت وهي تغمس القماشة في حوض الماء:

ـ «لقد ذهب يستدعيه.»

وأقبل الحلاق مع البواب. كان رجلاً في نحو الخمسين ذا شاربين معقوفين. وكانت مس غايج قد أكملت غسلي وخرجت. وطرَّى الحلاق وجهي بالماء والصابون وشرع يحلق. كان صارم الوجه، ويحاذر أن يتكلم.

فقلت:

ـ «ما المسألة؟ أليس لديك أنباء؟»

ـ «أية أنباء؟»

ـ «كائناً ما كانت. ما الذي حدث في المدينة؟»

فقال:

ـ «نحن في حرب. إن للعدو آذاناً في كل مكان.»

ورفعت بصري إليه. فقال وهو يتابع عمله:

ـ «أرجوك، لا تحرك وجهك. أنا لن أقول شيئاً.»

فسألته:

ـ «ما بالك؟»

ـ «أنا إيطالي. أنا لا أستطيع أن أقوم بأي اتصال مع العدو.»

وآثرت الاكتفاء بهذا المقدار. فقد يكون الرجل مجنوناً. وفي هذه الحال يكون إسراعي في الخروج من تحت موساه خيراً وأبقى. وما كدت أحاول أن أنعم النظر إليه حتى قال:

ـ «احذر. الموسى حادة.»

وعندما أتمَّ عمله دفعت إليه أجره، وأعطيته بقشيشاً مقداره نصف لير. وأعاد إليَّ القطع النقدية.

ـ «لا. لن آخذ. صحيح أنا لست في الجبهة. ولكني إيطالي.»

ـ «أغربْ عن وجهي.»

فقال وهو يلف موساه بصحيفة:

ـ «بأذنك.»

وخرج تاركاً القطع النحاسية الخمس على الطاولة إلى جانب السرير. قرعت الجرس. فأقبلت مس غايج.

ـ «هل لك أن تستدعي البواب من فضلك؟»

ـ «حسن.»

ودخل البواب. كان يحاول أن يمسك نفسه عن الضحك.

ـ «هل ذلك الحلاق مجنون؟»

ـ «لا، سينيورينو. لقد ارتكب خطأ. إنه لا يفهم كثيراً، ولقد حسب أنك ضابط نمساوي.»

فقلت:

ـ «أوه!»

فضحك البواب:

ـ «أه أه أه! كان مضحكاً. لقد قال لي لو أنك تحركت حركة واحدة إذن لسارع إلى...»

وأمرَّ سبَّابته عبر حنجرته.

وحاول أن يمسك نفسه عن الضحك:

ـ «أه أه أه! حين قلت له إنك لست نمساوياً. أه أه أه.»

فقلت في مرارة:

ـ «أه أه أه! كان يكون الأمر مضحكاً، حقاً، لو احتزَّ حنجرتي. أه أه أه!»

ـ «لا، سينيورينو. لا، لا. المضحك هو ذعره الشديد ذاك من جندي نمساوي. أه أه أه!»

فقلت:

ـ «أه أه أه! أخرُجْ من هنا!»

وخرج، فسمعته يضحك في الرواق. وسمعت وقع قدمين تقتربان. وتطلَّعت إلى الباب. كانت هي كاثرين باركلي.

ودخلت الغرفة وتقدمتْ حتى السرير.

وقالت:

ـ «هالو، يا حبيبي!»

لقد بدت نضرة، فتيَّة، وجميلة جداً. وخيل إلي أني لم أرَ في يوم من الأيام شخصاً على مثل هذا الجمال.

وقلت:

ـ «هالو!»

وحين رأيتها شعرتُ أني متيَّم بحبها. لقد اضطرب كياني كله اضطراباً. ونظرتُ إلى الباب، ورأت أنه لم يكن ثمة أحد، فجلست على جانب السرير وانحنت فوقي وقبَّلتني. وجذبتُها إليّ وقبَّلتها. وقد شعرت بقلبها يخفق.

وقلت:

ـ «أيتها الحبيبة. ألست رائعة في عودتك هذه؟»

ـ «لم يكن ذلك عسيراً جداً. قد يكون من العسير أن أبقى.»

فقلت:

ـ «يجب أن تبقيْ. أوه، أنت رائعة.»

كانت مُدلَّها بها. ولم يكن في إمكاني أن أصدِّق أنها كانت هناك فعلاً، فهصرتها بين ذراعيَّ في قوة.

وقالت:

ـ «ينبغي لك أن لا تفعل. أنت مريض.»

ـ «بل أني لفي صحة جيدة. هيَّا!»

ـ «لا. أنت لا تزال ضعيفاً جداً.»

ـ «أنا موفور القوة. أوه، أرجوكِ.»

ـ «هل تحبني؟»

ـ «أنا أحبكِ حقاً. أنا متيَّم بك. هيا، أرجوك.»

ـ «اسمعْ قلبينا يخفقان.»

ـ «أنا لا أُبالي بقلبينا. أنا أريدكِ أنت. إني مجنون بك.»

ـ «هل تحبني حقاً؟»

ـ «لا تكرري ذلك. هيا. أرجوك. أرجوك يا كاثرين.»

ـ «حسن، شرط أن لا يتجاوز ذلك أكثر من دقيقة واحدة.»

فقلت:

ـ «لا بأس. أغلقي الباب.»

ـ «أنت لا تستطيع. هذا شيء لا ينبغي...»

ـ «تعالي. لا تتكلمي. تعالي، أرجوكِ.»

* *

وجلست كاثرين على كرسي إلى جانب السرير. كان الباب مفتوحاً على الرواق. وكانت بهيميَّتي قد زالت، ولقد شعرت بالنشاط أكثر مما شعرت به في أيما وقت مضى.

وسألتني:

ـ «والآن هل تصدّق أني أحبك؟»

فقلت:

ـ «أوه، أنتِ فاتنة. يجب أن تبقي. إنهم لا يستطيعون أن يُرجعوك. أنا مجنون بحبك.»

ـ «ينبغي أن نكون حذرَيْن إلى أبعد الحدود. لقد كان ذلك حماقة ليس غير. إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك.»

ـ «نستطيع ذلك في الليل.»

ـ «يجب أن نأخذ حذرنا إلى حد رهيب. وينبغي أن تأخذ حذرك أمام الناس.»

ـ «سوف أفعل.»

ـ «يتعيَّن عليك ذلك. إنك لطيف. أنت تحبني، أليس كذلك؟»

ـ «لا تقولي ذلك بعد الآن. أنت لا تعرفين أي أثر سيئ يتركه ذلك في نفسي.»

ـ «سوف أكون حذرة إذن. أنا لا أريد أن أزعجك أكثر مما فعلت. يجب أن أذهب الآن، أيها الحبيب، فعلاً.»

ـ «ارجعي في الحال.»

ـ «سوف أرجع حين أوفَّق إلى ذلك.»

ـ «وداعاً.»

ـ «وداعاً، أيها الحبيب!»

وغادرتِ الغرفة. واللّه يشهد أني لم أرِدْ أن أقع في حبها. أنا لم أرد أن أقع في حب امرأة ما. ولكن اللّه يشهد أني وقعت برغم ذلك في حبها. لقد استلقيت هناك على سرير المستشفى، في ميلانو، وطافت في رأسي ضروب الأشياء كلها. ولكنني شعرت بالنشاط إلى حد مدهش. وأخيراً دخلتْ عليّ مس غايج، وقالت:

ـ «الطبيب آت. لقد تلفن من بحيرة كومو.»

ـ «ومتى سيصل إلى هنا؟»

ـ «سوف يكون هنا عند الأصيل.»

الفصل الخامس عشر

ومنذ تلك اللحظة حتى الأصيل لم يحدث شيء ما. كان الطبيب رجلاً ضئيل الجسم، مهزولاً، هادئاً، وكان يبدو وكأن الحرب قد أوقعت الاضطراب في نفسه. لقد أخرج عدداً من الشظايا الفولاذية الصغيرة من فخذيَّ، في اشمئزاز رقيق مصقول. ولقد اصطنع مخدراً محلياً يدعونه «الثلج» أو شيئاً مثل ذلك، مخدِّراً يجلّد الأنسجة ويكبت الألم حتى اللحظة التي يبلغ فيها المسبار. أو المبضع، أو الكلاّب أعماق الجزء المتجمِّد. وحدَّد المنطقة المخدَّرة في وضوح، وبعد فترة قصيرة استُنفِدت وداعة الطبيب الهشَّة وقال إن من الأفضل أن نأخذ صورة بأشعة أكس، لأن نتائج السَّبْر لم تكن مُرضية.

وأخِذت هذه الصورة في «مستشفى ماغيور»، وكان الطبيب الذي قام بهذه المهمة، نشيطاً، مرحاً. ورُتِّب كل شيء بحيث يكون في ميسور المريض أن يرى بنفسه، من طريق رفع كتفيه، بعض الأجسام الغريبة الكبرى كما تبدو في الآلة. وقال الطبيب إنه سوف يبعث إلينا بالصورة. وسألني أن أدوّن في مفكرته اسمي، وفرقتي، وبعض انطباعاتي. لقد أعلن أن الأجسام الغريبة كانت بشعة، قذرة، ووحشية. إن النمساويين أبناء زنا. كم رجلاً قتلتَ منهم؟ أنا لم أقتل أحداً، ولكني كنت تائقاً إلى إيقاع الرضى في نفسه، فقلت إني قتلتُ كثيراً منهم. كانت مس غايج معي، ولقد طوقها الطبيب بذراعه وقال

إنها أجمل من كليوباترة. هل فهمَتْ ذلك؟ كليوباترة ملكة مصر القديمة. أجل، لقد كانت كذلك وحقّ الإله. ورجعنا إلى المستشفى الصغير في سيارة الإسعاف، وبعد فترة قصيرة وكثير من الرفع، انتهينا إلى الدور الأعلى ووجدت نفسي في السرير مرّة أخرى. وجاءت الصور أصيل ذلك اليوم، وكان الطبيب قد أقسم إنه سوف يبعث بها في الأصيل، ولقد وفى بما وعد. وأطلعتني كاثرين باركلي عليها. كانت محفوظة في مغلّفات حمراء، ولقد أخرجتها كاثرين من مغلّفاتها، ورفعتها باتجاه النور، ونظرنا إليها معاً.

ـ «هذه رجلك اليمنى.» قالت ذلك، ثم أعادت الصورة إلى المغلّف، وأضافت:

ـ «وهذه رجلك اليسرى.»

فقلت:

ـ «ضعيها جانباً وتعالَيْ إلى السرير.»

فقالت:

ـ «لا أستطيع. لقد جئت بها لأريك إياها لحظة ثم أعود.»

وغادرتِ الغرفة، وبقيت مستلقياً هناك وحدي. كان أصيلاً قائظاً، وكنت برِماً من الاستلقاء في السرير. وكلفت البواب أن يذهب لشراء الصحف، لشراء جميع الصحف التي يستطيع الحصول عليها.

وقبل أن يرجع دخل عليَّ الغرفة ثلاثة أطباء. لقد لاحظتُ أن الأطباء الذين يخفقون في ممارسة الطب ينزعون إلى التماس العون من زملائهم واصطحابهم حين يعودون المريض. فالطبيب العاجز عن استئصال زائدتك الدودية على الوجه الملائم يشير عليك في أغلب الظن بمراجعة طبيب عاجز عن استئصال لوزتيك في نجاح. وكان هؤلاء الأطباء الثلاثة من هذه الفئة بالذات.

وقال كبيرهم ذو اليدين الرقيقتين:

ـ «هذا هو الشاب.»

فقال الطبيب الطويل المهزول ذو اللحية:

ـ «كيف حالك؟»

أما الطبيب الثالث، الذي كان يحمل صور أشعة أكس في مغلّفاتها الحمراء فلم يقل شيئاً.

وتساءل الطبيب الملتحي:

ـ «هل ننزع الضمادات؟»

فقال الطبيب الرئيس موجِّهاً الخطاب إلى مس غايج:

ـ «طبعاً، انزعي الضمادات، أرجوكِ، أيتها الممرضة.»

فنزعت مس غايج الضمادات. وخفضت بصري إلى رجليَّ. لقد كان منظرهما، في مستشفى الميدان، كشرائح لحم مشوية غير ناضجة جداً. لقد عَلتْهما قشرة، وكانت الركبة متورمة، حائلة اللون، وكان باطن الساق غائراً ولكن لم يكن ثمة صديد. قال رئيس الأطباء:

ـ «نظيف جداً. نظيف جداً وجميل.»

فقال الطبيب ذو اللحية:

ـ «أمْمْمْمْ.»

ونظر الطبيب الثالث من فوق كتف الطبيب الرئيس.

وقال الطبيب الملتحي:

ـ «أرجوك أن تحرك ركبتك.»

ـ «لا أستطيع.»

فتساءل الطبيب الملتحي:

ـ «هل نختبر الحركة المفصلية؟»

كان يحمل على كمّه، إلى جانب النجوم الثلاثة، شريطاً، وهذا يعني أنه كان برتبة كابتن أول.

فأجابه الطبيب الرئيس:

ـ «من كل بد.»

وأمسك اثنان منهم برجلي اليمنى، في كثير من الرفق، ولَوَياها.

فقلت:

ـ «إن هذا يوجعني.»

ـ «نعم. نعم. إلوِها أكثر قليلاً أيها الطبيب.»

فقلت:

ـ «كفى. إنها لا تستطيع أن تلتوي أكثر من ذلك.»

فقال الكابتن الأول:

ـ «حركة مفصلية جزئية.»

وتصدَّر ثم أضاف:

ـ «هل أستطيع أن أرى الصورة مرة أخرى، أيها الطبيب؟»

فقدَّم إليه الطبيب الثالث إحدى الصور.

ـ «لا. الرِجل اليسرى من فضلك.»

ـ «هذه هي الرِجل اليسرى، أيها الطبيب.»

ـ «أنت على صواب. لقد كنت أنظر من زاوية مختلفة.»

قال ذلك، وأعاد الصورة. ثم إنه فحص الصورة الأخرى فترة من الزمن وأضاف:

ـ «هل ترى، أيها الطبيب؟»

وأشار إلى أحد الأجسام الغريبة التي تراءت في النور مستديرة واضحة. ودرس الطبيبان الصورة برهة قصيرة.

وقال الكابتن الأول ذو اللحية:

ـ «شيء واحد أستطيع أن أقوله. إنها مسألة وقت. ثلاثة أشهر، أو ربما ستة أشهر.»

ـ «طبعاً. إنها مسألة وقت. أنا لا أستطيع، ضميرياً، أن أفتح ركبة مثل هذه قبل أن تتكيَّس القذيفة.»

ـ «أنا من رأيك، أيها الطبيب.»

فسألت:

ـ «ستة أشهر من أجل ماذا؟»

ـ «ستة أشهر لكي تتكيَّس القذيفة قبل أن تُفتح الركبة على نحو مأمون.»

ـ «أنا لا أصدّق هذا.»

ـ «ألا تريد الاحتفاظ بركبتك، أيها الشاب؟»

فقلت:

ـ «لا.»

ـ «ماذا؟»

فقلت:

ـ «أريد أن أقطعها لكي أقيم عليها فخاً.»

ـ «ماذا تعني؟ فخّ؟»

فقال الطبيب الرئيس وهو يربِّت على كتفي في رقة بالغة:

ـ «إنه يمزح. هو يريد الاحتفاظ بركبته. هذا شاب شجاع جداً. لقد رُشِّح لنيل مدالية الشجاعة الفضية.»

فقال الكابتن الأول:

ـ «أقدِّم إليك تهانيّ كلها.»

وصافحني هازّاً يدي، وأضاف:

ـ «كل ما أستطيع قوله هو أن عليك، إذا أردت أن تكون في ائرة الأمان، أن تنتظر ستة أشهر قبل فتح ركبة كهذه. أنت حر طبعاً في أن تكوّن رأياً آخر.»

فقلت:

ـ «أشكرك كثيراً. أنا أقدر رأيك حق قدره.»

ونظر الكابتن الأول إلى ساعته. وقال:

ـ «يجب أن نذهب. أحسن تمنياتي.»

فقلت:

ـ «أحسن تمنياتي وشكراً جزيلاً.»

وصافحت الطبيب الثالث:

ـ «كابيتانو فاريني...»

ـ «تينانتي(*) هنري...»

وخرجوا كلهم من الغرفة.

وصحت:

ـ «مس غايج!»

فدخلت عليَّ، فقلت:

ـ «أرجوكِ، اطلبي إلى الطبيب الرئيس أن يعود لحظة واحدة.»

وأقبل الطبيب، ووقف إلى جانب السرير، وقال:

ـ «هل أبديت رغبتك في الاجتماع بي؟»

ـ «نعم. أنا لا أستطيع أن أنتظر ستة أشهر لإجراء العملية الجراحية. أستحلفك باللّه، أيها الطبيب، هل قُدِّر لك في يوم من الأيام، أن تبقى ستة أشهر في الفراش؟»

ـ «أنت لن تبقى طوال الوقت في الفراش. ينبغي أن تعرِّض جراحك، قبل كل شيء للشمس. وبعد ذلك يصبح في ميسورك أن تمشي على عكازين.»

ـ «طوال ستة أشهر، وبعد ذلك تجرى لي عملية جراحية؟»

(*) الليفتنانت أو الملازم الأول.

ـ «هذه هي الطريقة المأمونة. يجب أن نعطي الأجسام الغريبة وقتاً كافياً لتتكيَّس والسائل الزلالي متسعاً من الوقت ليتشكل من جديد. وبعد ذلك يكون من المأمون فتح الركبة.»

ـ «هل تعتقد فعلاً، أنت نفسك، أن عليَّ أن أنتظر هذه المدة كلها؟»

ـ «هذه هي الطريقة المأمونة.»

ـ «من هو ذلك الكابتن الأول؟»

ـ «إنه جراح ممتاز من جراحي ميلانو.»

ـ «هو كابتن أول، أليس كذلك؟»

ـ «أجل، ولكنه جراح ممتاز.»

ـ «أنا لا أريد أن يعبث برجلي كابتن أول. لو كانت له أية قيمة إذن لرُفِّع إلى رتبة مايجور. أنا أعرف ما معنى الكابتن الأول، أيها الطبيب.»

ـ «إنه جراح ممتاز، وأنا أفضل الأخذ برأيه على الأخذ برأي أي جراح أعرفه.»

ـ «هل يستطيع جراح آخر أن يراني؟»

ـ «طبعاً، إذا شئت. ولكني شخصياً آخذ برأي الدكتور فاريلاّ.»

ـ «هل لك أن تكلف جراحاً آخر بأن يجيء ويرى رجلي؟»

ـ «سوف أسأل فلانتيني أن يجيء.»

ـ «من هو؟»

ـ «إنه جراح من جراحي مستشفى ماغيور.»

ـ «حسن. سوف أقدِّر لك هذا العمل إلى أبعد حد. أنت ترى، أيها الطبيب، أني لا أستطيع البقاء في الفراش ستة أشهر.»

ـ «إنك لن تبقى في الفراش. سوف تعطى قبل كل شيء علاجاً

شمسياً. وبعد ذلك تُعطى تمرينات خفيفة. حتى إذا تمَّ التكيُّس أجرينا الجراحة.»

ـ «ولكني لا أستطيع أن أنتظر ستة أشهر.»

ونشر الطبيب أصابعه الدقيقة على القبعة التي كان يمسك بها وابتسم قائلاً:

ـ «هل أنت مستعجل إلى هذا الحد للعودة إلى الجبهة؟»

ـ «ولِمَ لا؟»

فقال:

ـ «هذا جميل جداً. أنت شاب نبيل.»

وانحنى فوقي، وطبع على جبيني قبلة رقيقة جداً، ثم أضاف:

ـ «سوف أستدعي فالانتيني. لا تقلق ولا تطلق العنان لأعصابك. كن ولداً عاقلاً.»

فسألته:

ـ «ما رأيك في كأس من الخمر؟

ـ «شكراً. أنا لا أشرب الكحول أبداً.

ـ «اشرب كأساً واحدة فقط.»

وقرعتُ الجرس للبواب لكي يأتيني بقدحين.

ـ «لا. لا. أشكرك. إنهم في انتظاري.»

فقلت:

ـ «إلى اللقاء.»

ـ «إلى اللقاء.»

وبعد ساعتين دخل الدكتور فالانتيني الغرفة. كان مستعجلاً جداً، وكان طرفا شاربيه منتصبين إلى أعلى. كان برتبة مايجور، وكان مسفوع الوجه بأشعة الشمس، وكان يضحك على نحو موصول.

وسألني:

ـ «كيف أصبت بهذا البلاء الملعون؟ دعني أرى الصورة. أجل. أجل. هذا هو. أنت تبدو سليم الصحة مثل معزاة. من هي هذه الفتاة الجميلة؟ أهي معشوقتك؟ لقد حسبت ذلك. أليست هذه حرباً لعينة؟ هل تحس بشيء؟ أنت فتى رائع. سوف أخلقك خلقاً جديداً. هل تشعر بألم؟ أنت تراهن أنها تؤلمك؟ ما أشد شغف أولئك الأطباء بإيلامك! ما الذي فعلوه من أجلك حتى الآن؟ ألا تستطيع تلك الفتاة الكلام باللغة الإيطالية؟ يجب عليها أن تتعلم. يا لها من فتاة بارعة الجمال! إن في استطاعتي أن أعلِّمها. سوف أدخل أنا بنفسي هذا المستشفى كمريض يلتمس المعالجة. لا. بل إني سوف أقوم بتوليدها بالمجان. هل تفهم هي ذلك؟ إنها سوف تُنجب لك غلاماً رائعاً. غلاماً أشقر مثلها. هذا رائع. هذا حسن. يا لها من فتاة بارعة الجمال. إسألها هل ترغب في أن تتناول طعام العشاء معي؟ لا، لا أريد أن أبعدها عنك. أشكرك. أشكرك كثيراً. أيتها الآنسة. هذا كل شيء.»

ـ «هذا كل ما أريد أن أعرفه.» وربَّت على كتفي. «لا تستعمل الضمادات بعد الآن.»

ـ «ما قولك في كأس، يا دكتور فالانتيني؟»

ـ «كأس؟ طبعاً. أنا على استعداد لأن أشرب عشرة كؤوس. أين هي؟»

ـ «في الخزانة. مس باركلي سوف تأتينا بالزجاجة.»

ـ «على صحتك! على صحتك، أيتها الآنسة. يا لها من فتاة بارعة الجمال! سوف أجيئك بكونياك أفضل من هذا.»

قال ذلك ومسح شاربيه.

ـ «متى نستطيع إجراء العملية الجراحية، في اعتقادك؟

ـ «غداً صباحاً، وليس قبل ذلك. يجب أن تُفْرَغ معدتك. يجب أن نعطيك مليِّناً. سوف أرى السيدة العجوز في الطابق السلفي وأترك لها التعليمات الضرورية. إلى اللقاء. سوف أراك غداً. سوف آتيك بكونياك أفضل من هذا. أنت تتمتع بقسط كبير من الراحة هنا. وداعاً. إلى الغد. نم نوماً عميقاً. سوف أراك في الصباح الباكر.»

وحين انتهى إلى العتبة لوَّح لي بيده. وانتصب شارباه على نحو مستقيم، وأشرق وجهه الأسمر بالابتسام. كان ثمة على ردن سترته نجمةٌ وسطَ مربَّع، لأنه كان برتبة مايجور.

الفصل السادس عشر

في تلك الليلة دخل خفاش الغرفة من خلال الباب المفتوح المؤدي إلى الشرفة والذي كنا نراقب منه الليل فوق سطوح المدينة. كانت غرفتنا مظلمة جداً، ولم يكن ثمة غير انعكاس نور الليل الباهت فوق المدينة، ولم يكن الخفاش مذعوراً، ولقد واصل قَنْصَهُ في الغرفة وكأنه في الخارج. كنا مُستلقين في سُرُرنا وكنا نراقبه، ولا أظن أنه رآنا لأنا اعتصمنا بالسكينة. وبعد أن غادر الغرفة رأينا ضوءاً كشافاً يخترق السماء، ثم يختفي ليسود الظلام من جديد. وهبَّت أنسام الليل، وسمعنا رجال المدفعية المضادة للطائرات يتحدثون فوق السطح المجاور. كان الجو بارداً بعض الشيء، وكان المدفعيون يرتدون معاطفهم. وخلال الليل خشيت أن يفاجئنا أحد، ولكن كاثرين قالت إنهم جميعاً نائمون. وفي وقت متأخر من الليل استسلمنا للنوم، حتى إذا استيقظتُ لم أجدها هناك، ولكني سمعتها تمشي في الرواق. وفُتح الباب، ورجعَتْ إلى السرير وقالت إن كل شيء على ما يرام، وإنها كانت في الدور الأرضي، وإن الجميع نائمون. لقد استرقتِ السمع من وراء باب مس فان كامبن. فسمعَتْها تتنفَّس في نومها. لقد جاءت ببعض البسكويت. فأكلنا ذلك كله واحتسينا قليلاً من الفيرموت. لقد كنا نتضور جوعاً، ولكنها قالت إن هذا كله يجب أن يُخْرجَ مني في الصباح. وعدتُ فاستسلمت للرقاد، عند الضحى، حتى إذا أفقتُ وجدتُ أنها قد غادرت الغرفة مرّة أخرى. ثم إنها أقبلتْ ناضرة فاتنة،

وجلست على السرير. وأشرقت الشمس وميزان الحرارة في فمي. شممنا رائحة الندى على السطوح، ثم رائحةَ القهوة التي كان المدفعيون يشربونها على السطح المجاور.

وقالت كاثرين:

ـ «أتمنى لو كان في استطاعتنا أن نتنزَّه قليلاً. ولو كان عندنا كرسي دوَّار إذن لأقعدتك عليه ودفعتك أمامي.

ـ «وكيف تستطيعين أن تجلسيني في ذلك الكرسي؟

ـ «لن يكون ذلك صعباً.»

فقلت، وأنا أطلّ ببصري من الباب المفتوح:

ـ «لو تمَّ لنا ذلك إذن لاستطعنا أن نخرج إلى الحديقة وأن نتناول طعام الصباح في الهواء الطلق.»

فقالت:

ـ «أجل، ولكن الذي سوف نقوم به فعلاً الآن هو إعدادك لصديقك الدكتور فالانتيني.»

ـ «لقد بدا لي أنه مُدهش.»

ـ «أنا لم أحبَّه بقدر ما أحببته أنت. ولكن يخيَّل إليَّ أنه طيّب جداً.»

فقلت:

ـ «ارجعي إلى السرير، أرجوكِ، يا كاثرين.»

ـ «لا أستطيع. ألم نقضِ ليلة حلوة؟»

ـ «وهل لا تستطيعين أن تكوني أنتِ صاحبة النوبة هذه الليلة أيضاً؟»

ـ «أغلب الظن أني سوف أستطيع. ولكنك لن تحتاج إليَّ.»

ـ «بلى سأحتاج إليكِ.»

ـ «لا. لن تحتاج إليَّ. أنت لم تخضع لأية جراحة من قبل، وأنك لا تدري أية حال ستكون حالك.»

ـ «سوف أكون في حال حسنة.»

ـ «إنك ستكون مريضاً، ولن أكون أنا ذات فائدة بالنسبة إليك.»

ـ «ارجعي الآن إذن.»

فقالت:

ـ «لا. يجب عليَّ أن أعِدَّ سجل حرارتك، أيها الحبيب، وأن أحضِّرك للعملية.»

ـ «أنتِ لا تحبينني حقاً. لو كنتِ تحبينني حقاً إذن لرجعت مرة ثانية.»

وقبَّلتني قائلةً:

ـ «أنت غلام أحمق. إن سجل حرارتك ممتاز. فحرارتك مستقرّة. إن حرارة جسمك رائعة إلى أبعد الحدود.»

ـ «وأنتِ، إن كل ما فيكِ رائع.»

ـ «أوه، لا. إن حرارتك هي الرائعة. إني شديدة الفخر بحرارتك إلى حد فظيع.»

ـ «لعل جميع أولادنا ستكون لهم حرارات رائعة.»

ـ «أغلب الظن إن أولادنا سوف تكون لهم حرارات بهيمية.»

ـ «وما الذي ستصنعينه من أجل إعدادي للدكتور فالانتيني؟»

ـ «ليس شيئاً كثيراً. ولكنه غير مستساغ.»

ـ «لكَم أتمنى أن لا تقومي أنتِ بذلك.»

ـ «أما أنا فلا أتمنى. أنا لن أدع أيما شخص آخر يمسَّك. أنا حمقاء. ولسوف تثور ثائرتي إذا ما مسَّتك أي منهن.»

ـ «وحتى فيرغوسون؟»

ـ «على الأخص فيرغوسون، وغايج، والأخرى، ما اسمها؟»

ـ «ووكر؟»

ـ «تماماً. إن الممرضات في هذا المستشفى يزدن عن حاجته. ويجب أن يفد إلينا بعض المرضى وإلا نُقِلنا من هنا. نحن في الوقت الحاضر أربع ممرضات.»

ـ «لعل بعض المرضى يجيئون قريباً. وعندئذ تمس الحاجة إلى هذا العدد من الممرضات. إنه مستشفى كبير.»

ـ «أرجو أن نستقبل مرضى إضافيين. ما الذي سوف أصنعه إذا نقلوني من هنا؟ لا بدَّ أن يقدموا على ذلك إن لم يأتنا زبائن جدد.»

ـ «عندئذ أرحل أنا أيضاً.»

ـ «لا تكن سخيفاً. ليس في استطاعتك الآن أن ترحل. كل ما عليك أن تفعله هو أن تسرع في الشفاء، حبيبي، وبعد ذلك نذهب إلى مكان ما.»

ـ «ثم ماذا؟»

ـ «لعل الحرب أن تنتهي. فلا يمكن أن تدور رحاها إلى الأبد.»

فقلت:

ـ «سوف أشفى. فالانتيني سوف يرممني.»

ـ «من غير شك. ما دام يحمل مثل هذين الشاربين! وأرجوك يا حبيبي حين يعطونك المخدر فكِّر في شيء آخر، لا تفكِّر فينا نحن. لأن المرء يصبح كثير الثرثرة تحت المخدِّر.»

ـ «ما الذي يجب أن أفكِّر فيه؟»

ـ «أي شيء. أي شيء سوانا. فكِّر في أهلك، بل في أية فتاة أخرى.»

ـ «لا.»

ـ «ردد صلواتك إذن. إن ذلك لا بدَّ أن يترك انطباعة رائعة.»

ـ «ولكنني قد لا أتكلم التبة.»

ـ «هذا صحيح. إن الناس كثيراً ما يتكلمون.»

ـ «أنا لن أتكلم.»

ـ «لا تتبجَّح، أيها الحبيب. أرجوك أن لا تتبجح. أنت لطيف جداً، ولستَ مضطراً إلى التبجح.»

ـ «أنا لن أقول كلمة.»

ـ «لا. أنت تتبجح، يا حبيبي. أنت تعلم أنك في غير حاجة إلى التبجح. كل ما عليك أن تفعله هو أن تبدأ بتلاوة صلواتك أو أشعارك حالما يطلبون إليك أن تأخذ نَفَساً عميقاً. إنك ستكون على تلك الصورة لطيفاً جداً، ولسوف أكون شديدة الاعتزاز بك. إني لفخورة بك على أية حال. فحرارتك رائعة جداً، وأنت تنام مثل طفل صغير وذراعك حول الوسادة ظناً منك أنها أنا. أو ظناً منك أنها فتاة أخرى، فمن يدري؟ فتاة جميلة من فتيات إيطاليا...»

ـ «إنها أنتِ.»

ـ «طبعاً. أوه، إني لأحبك، وأن فالانتيني سوف يحسن إصلاح رجلك. أنا سعيدة لعدم اضطراري إلى مراقبة ذلك.»

ـ «وستكون نوبة العمل من نصيبك الليلة.»

ـ «أجل. ولكن ذلك لن يهمَّك.»

ـ «انتظري وانظري.»

ـ «والآن، حبيبي. أنت بالغ النظافة من الداخل ومن الخارج. قل لي. كم امرأة قدِّر لك أن تحب؟»

ـ «لم أحب أية امرأة.»

ـ «حتى أنا لم تحبني؟»

ـ «أجل. لقد أحببتك أنتِ.»

ـ «وكم فتاة غيري؟»

ـ «أنا لم أحب أية فتاة قبلك.»

ـ «مع كم فتاة أخرى ـ كيف تعبِّر عن ذلك؟ ـ عشْتَ قبلي؟»

ـ «لم أعش مع أية فتاة.»

ـ «أنت تكذب عليّ.»

ـ «نعم.»

ـ «حسن. استمر في الكذب عليَّ. ذلك هو ما أريده. هل كنَّ جميلات؟»

ـ «أنا لم أعش مع أية فتاة قط.»

ـ «مفهوم. هل كنَّ فاتنات إلى حد بعيد؟»

ـ «لست أدري شيئاً عن ذلك.»

ـ «أنت مِلْكٌ لي أنا. هذا صحيح، وأنت لم تكن في أيما يوم من الأيام مِلكاً لأحد. ولكني لا أُبالي إذا ما كنت في يوم من الأيام ملكاً لبعض الفتيات. أنا لست خائفة منهن. ولكن لا تحدِّثني عنهن. عندما يمكث المرء مع فتاة من الفتيات متى تُعلمه بالثمن الذي يتعيَّن عليه دفعه؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «طبعاً. هل تقول له إنها تحبه؟ أنبئني بذلك. أنا أريد أن أعرف ذلك.»

ـ «نعم. إذا كان يريد منها أن تقول له هذا.»

ـ «هل يقول لها إنه يحبها؟ قل لي من فضلك. إن هذا مهمّ.»

ـ «إنه يفعل إذا كان راغباً في ذلك.»

ـ «ولكنك لم تفعل، أليس كذلك؟»

ـ «لا.»

ـ «حقاً؟ أصدقني القول.»

فكذبتُ قائلاً:

ـ «لا.»

فقالت:

ـ «أوه، كنت أعلم جيداً أنك لم تُقدم على مثل هذا الصنيع قط.»

وفي الخارج، كانت الشمس قد ارتفعت فوق السطوح، وكان في استطاعتي أن أرى أنوف الكاتدرائية وأشعة الشمس فوقها. كنت نظيفاً من الداخل ومن الخارج، وكنت في انتظار الطبيب.»

وقالت كاثرين:

ـ «هكذا إذن؟ إنها تقول ما يريدها أن تقول تماماً؟»

ـ «ليس دائماً.»

ـ «ولكني سأفعل. سوف أقول ما تريدني أن أقوله تماماً، وبعد ذلك لن تكون في حاجة إلى فتيات أخريات أبد الدهر، أليس كذلك؟»

ونظرت إليّ في سعادة بالغة، وأضافت:

ـ «سوف أفعل ما تريد، وأقول ما تريد، وبذلك أستطيع أن أنعم بالفوز العظيم. أليس كذلك؟»

ـ «نعم.»

ـ «أي شيء تريدني أن أفعله الآن وقد أصبحتَ على أتم الاستعداد؟»

ـ «أن ترجعي إلى السرير كرة أخرى.»

ـ «حسن. ها أناذا.»

فقلت:

ـ «أوه، يا حبيبتي، يا حبيبتي، يا حبيبتي!»

فقالت:

ـ «أرأيت؟ أنا أفعل كل ما تريده.»

ـ «أنتِ فاتنة إلى أبعد الحدود.»

ـ «أخشى أن لا أكون قد اتقنتُ ذلك بعد.»

ـ «أنتِ فاتنة.»

ـ «أنا أريد ما تريد. لم يعد ثمة شيء اسمه أنا. لم يبق غير رغبتك.»

ـ «حبيبتي!»

ـ «أنا طيبة. ألست طيبة؟ إنك لن تشتهي بعد اليوم أية فتاة أخرى، أليس كذلك؟»

ـ «لا.»

ـ «أرأيت؟ أنا طيبة. أنا أفعل ما تأمرني به.»

الفصل السابع عشر

وحين أفقت بعد العملية الجراحية أدركت أني لم أفقد الحياة. إنك لا تفقد الحياة. إنهم يخنقونك ليس غير. وهذا لا يشبه الموت أبداً. إنه مجرد خنق كيميائي يلجأون إليه لكي لا تحسَّ بشيء. وفوق هذا فإنه أشبه ما يكون بالسكْر الشديد مع فارق واحد وهو أنك عندما تقيء لا يخرج من جوفك غير الصفراء ثم لا تستشعر شيئاً من النشاط بعد ذلك. لقد رأيت عند أدنى السرير أكياس رمل كانت تتدلى من أنابيب منبثقة من القالب الجصِّي. وبعد برهة رأيت مس غايج، فقالت لي:

ـ «كيف أنت الآن؟»

فقلت:

ـ «أحسن.»

ـ «لقد أجرى لركبتك عملية رائعة.»

ـ «كم استغرقت؟»

ـ «ساعتين ونصف.»

ـ «ألم أقل شيئاً سخيفاً؟»

ـ «لم تقل شيئاً. لا تتكلم الآن. إلزم الهدوء.»

كنت خائر القوى، وكانت كاثرين على حق. إني لم أبال بالممرضة المكلفة بالخدمة تلك الليلة.

* *

كان ثمة، الآن، في المستشفى، ثلاثة مرضى آخرين: فتى من جورجيا يعمل في الصليب الأحمر، وكان مهزول الجسم يشكو الملاريا، وفتى لطيف من نيويورك، وكان مهزول الجسم أيضاً يشكو من الملاريا واليرقان، وفتى بارع حاول أن يفك غطاء قنبلة من قنابل شربنيل ذات الانفجار العالي، لكي يحتفظ بذلك كتذكار. وكانت ذات رأس ينطلق بعد انفجار القنبلة وينفجر عند أول احتكاك.

وأحبَّت الممرضات كاثرين باركلي حباً عظيماً لأنها كانت مستعدة دائماً للنهوض بعبء الخدمة الليلية. ولم يكن لديها غير عمل قليل مع الغلامين المصابين بالملاريا، وكان الغلام الذي فكّ لولب الغطاء صديقاً لنا، ولم يكن يقرع الجرس في الليل إلا عند الضرورة. وهكذا كنا نقضي الأوقات ما بين المهمة والمهمة معاً. لقد أحببتها حباً جماً، ولقد أحبتني هي. كنت أنام في ساعات النهار، وكنا نكتب خلال أويقات يقظتنا من النهار رسائل يبعث بها أحدنا إلى الآخر من طريق فيرغوسون. لقد كانت فيرغوسون فتاة طيبة. ولم أعرف قط شيئاً عنها، باستثناء أن لها أخاً في الفرقة الثانية والخمسين وأخاً في العراق، ولقد كانت مخلصة جداً لكاثرين باركلي.

وقلت لها مرة:

ـ «هل ترغبين في أن تشهدي حفلة زواجنا في المستقبل، يا فيرغي؟»

ـ «إنكما لن تتزوجا أبداً.»

ـ «بلى، سنتزوج.»

ـ «لا. لن تتزوَّجا.»

ـ «ولِمَ لا؟»

ـ «سوف تتخاصمان قبل أن تتزوَّجا.»

ـ «إننا لا نتخاصم أبداً.»

ـ «لا يزال أمامكما متسع من الوقت.»

ـ «إننا لن نتخاصم.»

ـ «سوف تموت أنت إذن. إما الخصام وإما الموت. ذلك ما يفعله الناس. إنهم لا يتزوجون.»

وبسطتُ يدي إلى يدها. فقالت:

ـ «لا تلمسني. أنا لا أبكي. لعلكما أن تَسلما أنتما الاثنين. ولكن انتبه. حذارِ أن توقعها في بلاء ما. إذا ما أوقعتها في بلاء ما، فعندئذ أقتلك.»

ـ «لن أوقعها في أي بلاء.»

ـ «انتبه جيداً إذن. أرجو أن تكون في خير. هل تقضيان وقتاً طيباً؟»

ـ «أجل. نحن نقضي وقتاً طيباً.»

ـ «لا تقاتل إذن، ولا توقِعْها في البلاء.»

ـ «إني لن أوقعها.»

ـ «خذ حذرك. أنا لا أريد أن أراها مع أي من غلمان الحرب هؤلاء.»

ـ «أنت فتاة رائعة، يا فيرغي.»

ـ «لا. لستُ كذلك. لا تحاول أن تتملَّقني. كيف رِجلك؟»

ـ «ممتازة.»

ـ «ورأسك؟»

ومسَّت أعلاه بأصابعها. كان حسَّاساً مثل رِجْل أصابها التنميل.

ـ «إنه لم يزعجني قط.»

ـ «في استطاعة ورم مثل هذا أن يُطير صوابك. وتقول إنه لم يزعجك قط؟»

ـ «لا. لم يزعجني.»

ـ «أنت شاب محظوظ. هل أنهيت رسالتك؟ سوف أنزل إلى تحت.»

ـ «ها هي الرسالة.»

ـ «يجب أن تطلب إليها أن لا تقوم بمهام الخدمة الليلية فترة قصيرة. لقد أمست متعبة جداً.»

ـ «حسن. سوف أفعل.»

ـ «لقد عرضت عليها أن أحلَّ محلها ولكنها تأبى. والممرضات الأخريات سعيدات بتركها تنهض بهذا العبء. إن من الخير أن تعطيها فترة راحة قصيرة ليس غير.»

ـ «حسن.»

ـ «لقد تحدثت مس فان كامبن مرة فقالت إنك تظل نائماً حتى الظهر..»

ـ «لا استغرب ذلك.»

ـ «من الأفضل أن تريحها من الخدمة الليلية فترة قصيرة.»

ـ «هذا ما أرغب فيه.»

ـ «لا. أنت لا ترغب. ولكن إذا استطعت حملها على ذلك ازددت احتراماً لك.»

ـ «سوف أحملها على ذلك.»

ـ «لست أصدق هذا.»

وأخذتِ الرسالة وخرجتْ. وقرعتُ الجرس، فأقبلت مس غايج في الحال.

ـ «ما المسألة؟

ـ «لا شيء. ولكني أردت أن أتحدث إليك. ألا تعتقدين أن مس باركلي يجب أن تبدّل الخدمة الليلية فترة قصيرة؟ إنها تبدو مُتعبة إلى حدٍّ رهيب. لماذا تسهر الليالي على هذا النحو منذ زمن بعيد؟»

فحدَّقت مس غايج إليَّ، وقالت:

ـ «أنا صديقتك. أنت في غير حاجة إلى أن تتحدث معي على هذه الشاكلة.»

ـ «ماذا تعنين؟»

ـ «لا تتظاهر بالبله. أهذا كل ما أردته مني؟»

ـ «هل ترغبين في كأس من الفيرموت؟»

ـ «حسن. وبعد ذلك يتعين عليَّ أن أذهب.»

وأخرجت الزجاجة من الخزانة، وجاءت بكأس.

فقلت:

ـ «خذي الكأس أنت. أما أنا فسأشرب من الزجاجة.»

فقالت مس غايج:

ـ «على صحتك!»

ـ «ماذا قالت فان كامبن عن نومي حتى ساعة متأخرة من الصباح؟»

ـ «لا شيء. مجرد ثرثرة. إنها تدعوك مريضنا المدلَّل.»

ـ «فلتذهب إلى الجحيم!»

فقالت مس غايج:

ـ «إنها ليست خبيثة. إنها عجوز وعصبية المزاج ليس غير. إنها لم تحبك في يوم من الأيام.»

ـ «أعرف ذلك.»

ـ «حسناً. أما أنا فعلى العكس. أنا صديقة لك. لا تنسَ هذا.»

ـ «أنت رائعة إلى حد رهيب.»

ـ «لا. أنا أعرف من هي الرائعة في نظرك. ولكني صديقتك. كيف رجلك الآن؟»

ـ «جيدة جداً.»

ـ «سوف آتي بشيء من الماء المعدني البارد لأسكبه عليها. لا ريب في أنها تحكّك تحت هذا القالب الجصّي. الجو حار في الخارج.»

ـ «أنت رائعة، رائعة إلى حد رهيب.»

ـ «هل تحكّك كثيراً؟»

ـ «لا. إنها جيدة.»

وانحنت قليلاً وقالت:

ـ «سوف أسوّي هذه الأثقال على نحو أفضل. أنا صديقة لك.»

ـ «أعرف ذلك.»

ـ «لا. أنت لا تعرف. ولكنك سوف تعرف في يوم من الأيام.»

وهجرت كاثرين باركلي الخدمة الليلية ثلاث ليال متواصلة ثم استأنفتها من جديد. لقد شعرنا وكأننا التقينا ثانية بعد أن قام كل منا برحلة طويلة.

الفصل الثامن عشر

لقد قضينا وقتاً طيباً، ذلك الصيف. وحين كان في ميسوري مغادرة الغرفة كنت أركب متن عربة وأطوف في الحديقة العامة. أنا أذكر العربة، والجواد يمشي وئيداً، وظهر السائق أمامنا، وقد اعتمر بقبعته العالية المُفرْنشة، وكاثرين باركلي جالسة بقربي. كان تماسً أيدينا، مجردُ التقاء جانب يدي بجانب يدها، كافياً لأن يثير اهتياجنا. وبعد ذلك حين أمسى في استطاعتي أن أسير على عكازين كنا نذهب لتناول طعام العشاء في مطعم «بيفي» أو «الغران إيتاليا»، وكنا نجلس إلى الموائد الممدودة في الخارج على أرضية الرواق. كان النُدُل يدخلون ويخرجون، وكان ثمة أناس يروحون ويجيئون، وكانت على الموائد شموع تلقي ظلالها على الأغطية، وبعد أن قررنا أننا نؤثر «الغران إيتاليا» حجز لنا جورج، كبير الندل، إحدى الموائد. كان نادلاً بارعاً، وكنا نسأله أن يطلب لنا الطعام فيما نحن ننظر إلى الناس وإلى الرواق الكبير في الغسق، وفيما نحن نتبادل النظرات أيضاً. لقد شربنا «كابري» أبيض غير حلو مثلجاً في دلو، على الرغم من أننا جرَّبنا كثيراً من الخمور الأخرى، كالفريزا، والباربيرا، وبعض الخمور الحلوة البيضاء. ولم يكن عندهم ساقي خمر بسبب من الحرب، وكان جورج يبتسم في خجل كلما سألته عن خمور مثل الفريزا.

وقال:

ـ «تخيَّل أن بلداً يصنع ضرباً من الخمر لأن مذاقها كمذاق الفريز.»»

فتساءلت كاثرين:

ـ «ولِمَ لا؟ يبدو لي أن ذلك شيء رائع.»

فقال جورج:

ـ «ذوقيها، أيتها السيدة، إذا شئت. ولكن دعيني أحمل زجاجة صغيرة من المارغو إلى الملازم الأول.»

ـ «سوف أذوقها أنا أيضاً، يا جورج.»

ـ «سيدي، أنا لا أستطيع أن أنصحك بذلك. إنها خلوٌ حتى من نكهة الفريز.»

فقالت كاثرين:

ـ «من يدري؟ ولا ريب في أنها تكون رائعة إذا كان لها مثل تلك النكهة.»

فقال جورج:

ـ «سوف آتي بها، حتى إذا نالت سيدتي كفايتها منها أرجعتها.»

إنها لم تكن خمراً بالمعنى الصحيح. ولم يكن لها، كما قال جورج، حتى نكهة الفريز. ورجعنا إلى كابري. وذات ليلة أعوزني المال، فأقرضني جورج مئة لير وقال:

ـ «لا بأس، أيها الملازم. أنا أعرف كيف يحدث ذلك. أنا أعرف كيف يفتقد المرء المال. إذا احتجت أنت أو السيدة إلى مال فإن لديَّ دائماً بعض المال.»

وبعد العشاء تمشيَّنا في الرواق مجتازين المطاعم الأخرى والمخازن التجارية وقد أنزِلت مصاريع نوافذها الحديدية، ووقفنا عند الدكان الصغير الذي يبيعون فيه الساندويش: ساندويشات لحم

الخنزير، وساندويشات الخس، وساندويشات الأنشوفة(*) المصنوعة من أرغفة صغيرة جداً سمراء مصقولة لا يزيد طولها على طول إصبعك. وكانت هذه الساندويشات مُعدَّة للأكل في وقت متأخر من الليل حين يستبدُّ بنا الجوع. ثم إننا امتطينا عربة مكشوفة خارج الرواق تجاه الكاتدرائية ورجعنا إلى المستشفى. وعند باب المستشفى أقبل البواب لكي يساعدني على الوقوف على العكازين. ودفعت الأجرة إلى السائق، ثم صعدنا بالمصعد. وغادرت كاثرين المصعد عند الطابق الثاني حيث تسكن الممرضات، وتابعت أنا صعودي واجتزت البهو، على عكَّازيَّ، إلى غرفتي. كنت في بعض الأحيان أخلع ملابسي وآوي إلى فراشي، وكنت في أحيان أخرى أجلس على الشرفة رافعاً رجليَّ على كرسي آخر وأراقب السنونو فوق السطوح وأنتظر كاثرين. حتى إذا ارتقت السلم كنت استشعر وكأنها رجعت من رحلة طويلة، وأجتاز الردهة معها على عكَّازيَّ. كنت أحمل الطسوت وأنتظر خارج الأبواب، أو أدخل الغرفة معها. وكل ذلك كان يتوقف على الجماعة ومدى صداقتها لنا، حتى إذا أتمَّت كل ما كان يتعيَّن عليها أن تفعله جلسنا على الشرفة خارج غرفتي، وبعد ذلك كنت آوي إلى فراشي. حتى إذا نام القوم كلهم، ووثقتُ من أن أحداً لن يستدعيها، انسلَّت إلى غرفتي. كنت أحب أن أحل شعرها، وكانت تجلس على السرير وتعتصم بالسكينة البالغة، منحنية لتقبِّلني وأنا أفعل ذلك، فكنت أسحب الدبابيس وأضعها على غطاء السرير فيتهدل شعرها» فأراقبها وهي معتصمة بالسكوت البالغ، ثم أسحب الدبوسين الأخيرين فينهار شعرها كله، فتخفض رأسها فإذا بشعرها يحتوينا، أنا وهي، وكأننا داخل خيمة أو خلف شلال.

كان لها شعر جميل إلى حد رائع، فكنت أستلقي بعض الأحيان

(*) الأنشوفة نوع من السمك. ويعرف أيضاً بالأنشوا.

وأراقبها وهي تفتله في الضياء المنبعث من الباب المفتوح، ولقد كان يلتمع حتى في الليل كما يلتمع الماء قبيل الفجر في بعض الأحيان. وكان لها وجه وسيم وجسد فاتن وبشرة ناعمة بهية أيضاً. كنا أحياناً نستلقي على السرير معاً، فألمس وجنتيها وجبينها وما تحت عينيها وذقنها وحنجرتها بأناملي وأقول: «ناعمة مثل أصابع البيانو»، فتلمس هي ذقني بإصبعها وتقول: «ناعمة مثل ورق الصِّنفرة(*) وقاسية جداً على أصابع البيانو!»

ـ «أهي خشنة؟»

ـ «لا، يا حبيبي، كنت أمزح ليس غير.»

كانت الليالي رائعة، وكنا نشعر بفيض من السعادة إذا ما وفق أحدنا إلى أن يمس الآخر. وعلاوة على لحظات البهجة الكبرى كان لدينا كثير من الطرائق الصغيرة للتعبير عن حبنا، ولقد حاولنا أن ننقل ما يجول في خاطر أحدنا إلى خاطر الآخر حين نكون في غرفتين مختلفتين. وبدا وكأننا نجحنا في ذلك أحياناً. ولكن هذا كان راجعاً، في أرجح الظن، إلى أننا كنا نفكِّر في الشيء نفسه في آن معاً.

وقال كل منا للآخر أننا متزوجان منذ اليوم الأول لمجيئها إلى المستشفى، وكنا نعد الشهور ابتداء من يوم زفافنا. لقد أردت أن أكون متزوجاً فعلاً، ولكن كاثرين قالت إننا إذا فعلنا ذلك أبعدوها عن المستشفى، وإننا إذا بدأنا باتخاذ الإجراءات الشكلية فلا بدَّ أن يراقبوها وأن يشوِّش ذلك حياتنا. كان علينا أن نعقد القِران وفقاً للقانون الإيطالي، وكانت الإجراءات الشكلية فظيعة. كنت راغباً في الزواج الفعلي لأني خشيت، كلما فكَّرت في ذلك، أن ننجب ولداً، ولكنا خيَّلنا لنفسينا أننا متزوجان، ولم نشغل بالنا بذلك كثيراً،

(*) ورق الصنفرة هو المعروف عند العوام بـ «ورق القزاز» ويستعمل لصقل الخشب وغيره.

وأحسب أني كنت سعيداً بعدم الزواج حقاً، وأذكر أنَّا تحدثنا في هذا الموضوع ذات ليلة، فقالت كاثرين:

ـ «ولكنهم سوف يبعدونني، يا حبيبي!»

ـ «ومن يدري، قد لا يفعلون.»

ـ «بلى، سيفعلون. إنهم سوف يرسلونني إلى بلادي، وعندئذ يُفَرَّق ما بيننا حتى نهاية الحرب.»

ـ «سوف أزوركِ في إجازة.»

ـ «إنك لن تجد متسعاً من الوقت للمجيء إلى اسكتلندا والعودة منها خلال الأيام المعدودة لإجازتك. وإلى هذا، فأنا لن أتركك. وأي فائدة تعود علينا من الزواج الآن؟ نحن متزوجان فعلاً. أنا لا أستطيع أن أكون متزوجة أكثر مني الآن.»

ـ «لقد أردت ذلك من أجلكِ أنتِ.»

ـ «ليس هناك شيء اسمه أنا. أنا أنت. لا تجعل مني كينونة مستقلة.»

ـ «لقد حسبتُ أن الفتيات يرغبن دائماً في الزواج.»

ـ «أجل، إنهن يرغبن في ذلك. ولكني متزوجة، يا عزيزي. أنا متزوجة منك. ألستَ تعتبرني زوجة طيبة؟»

ـ «أنتِ زوجة فاتنة.»

ـ «أنت تعلم، يا حبيبي، أنه قُدِّر لي قبل اليوم أن أنتظر عقد قراني.»

ـ «لا أريد أن أسمع شيئاً عن ذلك.»

ـ «أنت تعرف أني لا أحب أحداً غيرك. ينبغي أن لا تغضب إذا ما أحبني رجل آخر.»

ـ «إن ذلك يغضبني.»

ـ «ينبغي أن لا تأخذك الغيرة من رجل ميت في حين أنك تملك كل شيء.»

ـ «لا، ولكني لا أريد أن أسمع شيئاً عن ذلك.»

ـ «يا حبيبي المسكين! أنا أعلم أنك عشت مع جميع أنواع النساء ولا أجد في ذلك أي بأس.»

ـ «أليس في استطاعتنا أن نتزوج سراً بطريقة أو بأخرى؟ حتى إذا ما أصابني شيء أو وضعتِ أنتِ ولداً...»

ـ «ليس ثمة غير طريقتين للزواج: الطريقة الكنسية والطريقة المدنية. نحن متزوجان سراً. ولقد كان خليقاً بي، أيها الحبيب في أن أعلِّق أهمية كبيرة على ذلك لو كان لي أيما دين. ولكني لا دين لي.»

ـ «لقد قدَّمتِ إليَّ القديس أنطوني.»

ـ «كان ذلك من أجل الحظ. لقد قدَّمه إليَّ شخص ما.»

ـ «وإذن فليس هناك ما يثير قلقك؟»

ـ «مجرد التفكير بأني قد أُفصَل عنك. أنت ديني. أنت كل ما أملك.»

ـ «حسن. ولكني سأتزوجكِ يومَ ترغبين في ذلك.»

ـ «لا تتكلم وكأنه كان عليك أن تجعل مني امرأة شريفة. أنا امرأة شريفة جداً. إنك لا تستطيع أن تخجل من شيء إذا كنت سعيداً به معتزاً بامتلاكه. ألست أنت سعيداً؟»

ـ «ولكنكِ لن تتركيني مفضلة عليَّ شخصاً آخر؟»

ـ «لا يا حبَيبي. أنا لن أفضل عليك شخصاً آخر. إني أتوقع أن تُلم بنا ضروب الأشياء الرهيبة. ولكن في استطاعتك أن تطمئن من هذه الناحية.»

ـ «أنا مطمئن. ولكني أحبك حباً جماً، ولقد أحببتِ أنتِ شخصاً آخر من قبل.»

ـ «وماذا أصابه؟»

ـ «لقد مات.»

ـ «أجل، ولو لم يفعل لما قدِّر لي أن أجتمع بك. أنا لست خائنة، أيها الحبيب. إن لي أخطاء كثيرة، ولكني شديدة الإخلاص. ولسوف تزعجك شدة إخلاصي.»

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أرجع إلى الجبهة في وقت قريب جداً.»

ـ «لن نفكِّر في ذلك حتى تذهب. أنت ترى أني سعيدة، أيها الحبيب، وأننا نقضي وقتاً رائعاً. أنا لم أعرف السعادة منذ عهد بعيد، وحين التقيت بك كدت أصاب بالجنون. بل لعلي جُننت حقاً. أما الآن فنحن سعيدان، وكلٌّ منا ليحب الآخر. لنكن سعيدين، بكل بساطة. أنت سعيد، أليس كذلك؟ هل أقوم أنا بأي عمل لا تحبه؟ هل أستطيع أن أفعل شيئاً ما لكي أرضيك؟ أتحب أن أحل شعري؟ أتحب أن تلعب؟»

ـ «نعم، وتعالي إلى السرير.»

ـ «حسن. سوف أذهب وأرى المرضى أولاً.»

الفصل التاسع عشر

وانقضى الصيف على هذا النحو. ولست أتذكر شيئاً كثيراً عن الأيام، باستثناء أنها كانت حارة. وأنه كان ثمة انتصارات عسكرية كثيرة في الصحف. لقد كنت أتمتع بصحة جيدة جداً، ولقد شفِيَت رجلاي بسرعة، فلم تكد تنقضي فترة قصيرة على استعمالي للعكازين حتى استغنيت عنهما وأخذت أمشي على عصا. وبعد ذلك خضعت للمعالجة في مستشفى ماغيور من أجل ثَنْي الركبتين: معالجة ميكانيكة، انشواء في صندوق من المرايا مفعم بالأشعة البنفسجية، وتدليك، وحمامات. وكنت أذهب إلى هناك عند الأصيل، وبعد ذلك كنت أعرِّج على المقهى فأشرب كأساً وأطالع الصحف. ولم أكن أطوِّف في المدينة. بل كنت أرغب في العودة إلى غرفتي في المستشفى حال خروجي من المقهى. كل ما كنت أطمع فيه هو أن أرى كاثرين. وفي ما عدا ذلك، لم أكن أفكِّر إلا في قتل الوقت. وفي معظم الأحوال كنت أنام في الأصباح، وفي ساعات الأصيل، وفي بعض الأحيان كنْت أشهد سباق الخيل، وعند المساء أمضي لأخضع للمعاجلة الميكانيكية. ومرة بعد مرة كنت أعرِّج على النادي الأنجلو أميركي واسترخي في كرسي عميق مفروش بالجلد، تجاه النافذة، وأطالع المجلات. لقد كان محظَّراً علينا أن نتنزه معاً، بعد استغنائي عن العكازين، لأنه لم يكن من اللائق أن تُرى إحدى الممرضات، غير مصحوبة بوصيفة ما، مع جريح لا يبدو محتاجاً إلى رعاية، وهكذا ما

كنا نجتمع كثيراً في ساعات الأصيل. ومع ذلك، فقد كان في استطاعتنا، أحياناً، أن نغادر المستشفى ونتناول طعام العشاء إذا ما رافقتنا فيرغوسون. كانت مس غان كامبن قد تقبَّلت وضعنا كصديقين حميمين لأنها كانت تفوز من كاثرين بمقدار كبير من العمل. كانت تعتقد أن كاثرين تنتمي إلى أسرة رفيعة جداً، وهذا ما جعلها تحابي كاثرين آخر الأمر. فقد كانت مس فان كامبن تُعلِّق أهمية كبرى على مسألة الأسرة، وكانت هي نفسها تنتسب إلى أسرة ممتازة. وكان المستشفى غاصاً بالمرضى أيضاً، وهذا ما أبقاها مشغولة دائماً. ولم يكن الصيف صيفاً قائظاً، ولقد عرفت كثيراً من الناس في ميلانو، ولكني كنت شديد التوق دائماً إلى غرفتي في المستشفى حالما تؤذن الشمس بالمغيب. في الجبهة كانت القوات الإيطالية تتقدم في نجاد الـ «كارسو»، وكانت قد استولت على «كوك»، من الناحية الأخرى من «بلافا»، وشرعوا في الاستيلاء على نجاد بينسيزا. أما الجبهة الغربية فلم تَبْدُ على مثل هذا الإشراق. لقد تراءى وكأن الحرب سوف تستمر دهراً طويلاً. وكانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب الآن، بيد أني أعتقدت أننا نحتاج إلى عام كامل لكي نستقدم عدداً كبيراً من المحاربين وندرِّبهم على القتال. إن السنة التالية سوف تكون سنة رديئة، ومن يدري فقد تكون سنة طيبة. كان الإيطاليون قد دفعوا إلى المعركة عدداً هائلاً من الرجال. وما كنت لأفهم كيف يمكن لذلك الوضع أن يستمر. وحتى ولو استولوا على كامل البينسيزا وجبل سان غابرييل فعندئذ تظل في أيدي النمسويين، وراءهما، جبال كثيرة. لقد رأيتُ تلك الجبال. كانت جميع الجبال الأكثر ارتفاعاً واقعة خلف البينسيزا وسان غابرييل. وفي نجاد الـ «كارسو» كانوا يتقدمون. ولكن في السفوح، المجاورة للبحر، هناك سباخ ومستنقعات. لقد كان خليقاً بنابوليون أن يجلد النمسويين في السهول، ولكنه ما كان ليحاربهم في الجبال أبداً. أغلب الظن أنه كان قميناً بأن يدعهم يهبطون ويهزمهم

قرب ڤيرونا. ومن يدري، لعل الحروب ما عادت تُكسَب بعد اليوم، لعلَّها أمست تستمر إلى الأبد. لعلها كانت حروب مئة عام جديدة. وأعدت الجريدة إلى موضعها وغادرت النادي. وهبطت درجات السلم في احتراس وعدت فصعدت في الـ «فيا مانزوني». وأمام «الأوتيل الكبير» التقيت ميارز العجوز وزوجته يترجَّلان من عربة. كانا عائدين من سباق الخيل. وكانت هي امرأة ضخمة الصدر ترتدي ملابس من الساتان الأسود. كانت قصيرة القامة، عجوزاً، ذات شاربين أبيضين، وكانت تمشي مبسوطة القدمين متوكئة على عصا.

ـ «كيف حالك؟ كيف حالك؟»

قالت ذلك وصافحتني.

ثم قال ميارز:

ـ «هالو!»

ـ «كيف كانت حفلة السباق؟»

ـ «رائعة. رائعة فعلاً. إن ثلاثة من الجياد التي راهنت عليها جاءت مجلية.»

وسألتُ ميارز قائلاً:

ـ «وأنت. كيف كان حظك؟»

حسن. لقد جاء واحد من الجياد التي راهنت عليها مجلياً.»

فقالت السيدة ميارز:

ـ «أنا لا أعرف شيئاً عن حاله. إنه لا يخبرني البتة.»

فقال ميارز في لهجة ودية:

ـ «أنا بخير. إن عليك أن تغادر المستشفى.»

وفيما كنا نتحدث كان يخيّل إليَّ أن ميارز لم يكن ينظر إليَّ، أو أنه كان يحسبني رجلاً آخر.

فقلت:

ـ «سوف أفعل.»

فقالت السيدة ميارز:

ـ «لقد جئت إلى المستشفى لأراك. إن عندي أشياء لأولادي. أنتم جميعاً أولادي. أنتم من غير شك أولادي الأعزاء.»

ـ «إنهم سوف يكونون سعداء برؤيتك.»

ـ «يا لأولادي الأعزاء! وأنت أيضاً! أنت أحد أولادي.»

فقلت:

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أرجع.»

ـ «أبلغْ حبي لجميع أولئك الغلمان الأعزاء. إن عليَّ أن أحمل إليهم أشياء كثيرة. إن عندي «مارسالا» و«كاتو» من النوع الفاخر.»

فقلت:

ـ «إلى اللقاء. إنهم سوف يسعدون برؤيتك إلى حد فظيع.»

فقال ميارز:

ـ «إلى اللقاء. تعال إلى الـ «غاليريا». أنت تعرف أين مائدتي. نحن جميعاً نذهب إلى هناك كل أصيل.»

وصعدت في الشارع. لقد أردت أن أشتري من الـ «كوفا» شيئاً أقدمه إلى كاثرين. وهكذا اشتريت من الـ «كوفا» علبة من الشوكولا، وفيما الفتاة تلفُّها لي مضيت إلى المشرب. كان ثمة إنكليزيان وبضعة طيارين. فاحتسيت وحدي شيئاً من المارتيني، ودفعت الثمن، ثم أخذت علبة الشوكولا من المنضدة الخارجية، ورجعت إلى غرفتي في المستشفى. وأمام البار الصغير غير البعيد عن الـ «سكالا» كان أناس أعرفهم: نائب قنصل، وشخصان يدرسان الغناء، وايتور موريتي وهو إيطالي من سان فرانسسكو يخدم في الجيش الإيطالي. احتسيت معهم كأساً. وكان هناك أحد المغنين يدعى رالف سيمونز، ويتخذ الاسم الفني: آنريكو ديلكريدو. ولم أدرِ قط مدى إجادته للغناء، ولكنه كان

دائماً على أهبة حدث هائل. كان بديناً، وكان يبدو ناصل اللون حول الأنف وكأنه مصاب بحمَّى القَش. كان قد غنَّى في الـ «بيياسنتزا» ورجع. كان قد غنَّى «توسكا»، ولقد كان موفقاً في أدائها إلى حد رائع.

قال:

ـ «لا ريب في أنك لم تسمعني قط أغني.»

ـ «متى ستغني هنا؟»

ـ «سوف أعمل في الـ «سكالا» في الخريف.»

فقال ايتور:

ـ «أراهن أنهم سوف يقذفونك بالمقاعد الخشبية. هل سمعت كيف قذفوه بالمقاعد الخشبية في مودينا؟»

ـ «إنها كذبة لعينة.»

ـ «لقد قذفوه بالمقاعد الخشبية. أنا كنت هناك. لقد قذفته أنا نفسي بستة مقاعد.»

ـ «أنت لست غير دجال من فريسكو.»

فقال ايتور:

ـ «هو لا يحسن النطق بالإيطالية. وحيثما ذهب قذفوه بالمقاعد.»

فقال الصادح الآخر:

ـ «البياسانتزا من أقذر الصالات في شمال إيطاليا. صدقني إذا قلت لك إنها علبة صغيرة يكاد يتعذر على المغني الإنشاد فيها.»

كان هذا الصادح يدعى إدغار ساوندرز، وكان اسمه الفني إدواردو جييوفاني.

فقال ايتور:

ـ «أتمنى لو أكون هناك لكي أراهم يقذفونك بالمقاعد الخشبية. أنت لا تستطيع الغناء بالإيطالية.»

فقال إدغار ساوندرز:

ـ «إنه أحمق. القذف بالمقاعد، هذا كل ما يقدر على قوله.»

فقال ايتور:

ـ «هذا كل ما يقدرون على فعله عندما تغنيان أنتما الاثنان. وبعد ذلك عندما تعودان إلى أميركا فسوف تتحدثان عن انتصاراتكما في الـ «سكالا». إنهما لن يتركوكما تُنهيان النغمة الأولى في السكالا.»

فقال سيمونز:

ـ «سوف أغني في الـ «سكالا». سوف أغني «توسكا» في تشرين الأول.»

فقال ايتور لنائب القنصل:

ـ «سوف نذهب إلى هناك، أليس كذلك يا ماك؟ إنهما سيكونان في حاجة إلى من يحميهما.»

فقال نائب القنصل:

ـ «لا مانع.»

ووجَّه ايتور الخطاب إليَّ فقال:

ـ «سمعت أنك سوف تُمنح المدالية الفضية. أيّ نوع من التقدير سوف تنال؟»

ـ «لست أدري. لست أعلم أني سأنال وساماً.»

ـ «بل ستنال وساماً. أوه، أيها الغلام، إن فتيات الـ «كوفا» سوف يَجذْنك رائعاً عندئذ. سوف يعتقدن كلهن أنك قتلتَ مئتي نمسوي واستوليت بنفسك على خندق كامل. صدِّقني، لقد كان عليَّ أن أسعى للحصول على أوسمتي.»

فسأله نائب القنصل:

كم وساماً تحمل؟»

فقال سيمونز:

ـ «إنه يحمل الأوسمة كلها. إنه الفتى الذي تدور رحى الحرب من أجله.»

فقال ايتور:

ـ «لقد نلتُ المدالية البرونزية مرتين، والمدالية الفضية ثلاث مرات. ولكن لم تصلني حتى الآن غير براءة إحدى هذه المداليات.»

فسأله سيمونز:

ـ «والبراءات الأخرى؟»

فقال ايتور:

ـ «لم ينجح العمل. وحين لا ينجح العمل فإنهم يحتجزون المداليات جميعاً.»

ـ «كم مرة جُرحت يا ايتور؟»

ـ «ثلاث مرات جراحاً خطيرة. أنا أحمل ثلاثاً من أشرطة الجراح. هل ترى؟»

قال ذلك ورفع كمّه. كانت الأشرطة ثلاثة خطوط فضية متوازية على خلفية سوداء خيطت إلى قماش الكمّ تحت الكتف بثمانية إنشات.

فالتفت ايتور إليَّ وقال:

ـ «وأنت أيضاً تحمل شريطاً من مثل هذه الأشرطة. صدقني إذا قلت لك إنها رائعة. أنا أفضِّلها على المداليات. صدقني، أيها الغلام، أنك حين تفوز بثلاثة تكون قد فزت بشيء. إن المرء لا يُمنح شريطاً منها إلا لقاء جرح يبقيه طريح المستشفى ثلاثة أشهر.»

فسأله نائب القنصل:

ـ «أين جُرحت يا ايتور؟»

فرفع ايتور كمّه كاشفاً عن الندبة الحمراء العميقة الملساء، وقال:

ـ «هنا. وهنا في رجلي. أنا لا أستطيع أن أريك هذه لأني أطوِّق ساقي بوَاقٍ، وفي القدم. إن في قدمي عظماً ميتاً لا يزال منتناً حتى هذه اللحظة. وكل صباح انتزعُ قطعاً صغيرة جديدة، وهو يُنتن دائماً.»

فسأله سيمونز:

ـ «بأي شيء جُرحت؟»

ـ «قنبلة يدوية. إحدى ساحقات البطاطا تلك. لقد أطارت جانباً كاملاً من قدمي. أنت تعرف ساحقات البطاطا تلك، أليس كذلك؟»

قال ذلك والتفت إليَّ.

ـ «طبعاً.»

فقال ايتور:

ـ «لقد رأيت ابن الزانية يقذف بها. لقد صرعتني، وظننت أني قد متُّ في الحال، ولكن ساحقات البطاطا اللعينات هذه ليس في جوفها شيء. وقتلت ابنُ الزانية بنار بندقيتي. أنا أحمل بندقية، دائماً، لكي لا يدركوا أني ضابط.»

فسأله سيمونز:

ـ «كيف بدا عندئذ؟»

فتابع ايتور كلامه قائلاً:

ـ «كانت تلك هي القنبلة الوحيدة التي يملكها. ولست أدري لماذا قذف بها. يخيَّل إليَّ أنه كان يطمح دائماً إلى أن يلقي قنبلة من القنابل.. ولعله لم يشهد قط قتالاً حقيقياً. لقد قتلتُ ابن الزانية في الحال.»

فسأله سيمونز:

ـ «كيف بدا حين قتلته؟»

فقال ايتور:

ـ «يا للجحيم! ومن أين أعرف؟ لقد أصبته في بطنه، لقد خشيت أن أخطئ الهدف إذا صوبت النار إلى رأسه.»

فسألته:

ـ «منذ متى رقيت إلى درجة ضابط، يا ايتور؟

ـ «منذ سنتين. سوف أصبح رئيساً (كابتن). منذ متى أصبحت أنت ملازماً أول؟»

ـ «منذ ثلاث سنوات.»

فقال ايتور:

ـ «ليس في إمكانك أن تصبح رئيساً (كابتن) لأنك لا تعرف اللغة الإيطالية معرفة حسنة. أنت تستطيع أن تتكلم، ولكن لا تحسن القراءة والكتابة. ينبغي أن تنعمَ بثقافة ما لكي تكون رئيساً. لماذا لا تلتحق بالجيش الأميركي؟

ـ «من الجائز أن أفعل.»

ـ «يا إلهي. كم أتمنى لو أستطيع أنا ذلك. كم يبلغ راتب الكابتن، يا ماك؟»

ـ «لست أدري على وجه الضبط. حوالي مئتين وخمسين دولاراً، في ما أظن.»

ـ «يا للمسيح! ما أكثر الأشياء التي أستطيع القيام بها بمئتين وخمسين دولاراً! من الخير لك أن تسارع إلى الالتحاق بالجيش الأميركي، يا فَرْدْ ولعلك تجد وسيلة لإدخالي أنا أيضاً.»

ـ «حسن.»

ـ «أنا أستطيع أن أقود سرية بالإيطالية. وفي ميسوري أن أتعلم كيف أفعل ذلك بالإنكليزية، في سهولة.»

فقال سيمونز:

ـ «ولسوف تصبح جنرالاً.»

ـ «لا. إن ثقافتي لا تؤهلني لرتبة جنرال. الجنرال يجب أن يعرف أشياء كثيرة إلى حد رهيب. أنتم فتية مضحكون. إنكم تحسبون أن الحرب مهزلة. أنتم لا تملكون من المخ مقداراً يؤهلكم لأن تكونوا عُرَفاء من الدرجة الثانية!»

فقال سيمونز:

ـ «أحمد اللّه على أني لا أحتاج إلى ذلك.»

ـ «قد تصبح في حاجة إلى ذلك إذا ما عبّأوكم كلكم، أنتم المتقاعسين، أوه، كم أتمنى أن أراكما، أنتما الاثنين، في شرذمتي. و«ماك» أيضاً. سوف أجعلك مرافقي العسكري. يا ماك.»

فقال ماك:

ـ «أنت فتى عظيم، يا ايتور. ولكني أخشى أن لا تكون رجلاً عسكري الروح.»

فقال ايتور:

ـ «سوف أصبح كولونيلاً قبل أن تنتهي الحرب.»

ـ «إذا لم يقتلوك.»

ـ «إنهم لن يقتلوني.»

قال ذلك ومسَّ بإبهامه وسبابته النجوم التي على رقبة ثوبه.

ثم أضاف:

ـ «أترى ماذا أفعل؟ إننا نلمس نجومنا كلما أشار أحد إلى الموت في ساحة المعركة.»

فقال ساوندرز وهو ينهض واقفاً:

ـ «فلنذهب يا سيم.»

ـ «حسن.»

فقلت:

ـ «إلى اللقاء. يتعين عليَّ أنا أيضاً أن أذهب.» كانت الساعة التي في داخل المشرب تشير إلى السادسة إلا ربعاً. «تشاو، ايتور!»

فقال ايتور:

ـ «تشاو، فرَدْ! يسعدني جداً أنك ستفوز بالمدالية الفضية.»

ـ «لست أعلم أني سأفوز بها.»

- «بل إنك ستفوز بها من غير شك. يا فرد. لقد سمعت أنك سوف تفوز بها من غير شك.»

فقلت:

- «حسناً، إلى اللقاء. ابتعد عن المتاعب، يا ايتور.»

- «لا تقلق عليَّ. أنا لا أحتسي الخمر ولا أتسكع. أنا لست عبداً من عبيد الخمر ولا موكَّلاً ببائعات اللذة أتبعهن حيثما وُجدن. إني أعرف ما هو صالح لي.»

فقلت:

- «إلى اللقاء! يسعدني أنك سوف ترقَّى إلى رتبة كابتن.»

- «أنا لست في حاجة إلى الانتظار حتى أرقَّى. سوف أمنح هذه الرتبة جزاء ما أبليت في الحرب من بلاء حسن. أنت تدري. ثلاثة نجوم مع السيفين المُتَصالبيْن والتاج من فوقهما. ذلك أنا!»

- «حظاً سعيداً!»

- «حظاً سعيداً. متى سترجع إلى الجبهة؟»

- «قريباً جداً.»

- «حسناً. سوف أراك هناك.»

- «إلى اللقاء. واجتنبِ ارتكاب المعاصي.»

وهبطت شارعاً خلفياً قادني إلى طريق مختصرة انتهت بي إلى المستشفى. كان ايتور في الثالثة والعشرين. وكان أحد أعمامه قد نشَّأه في سان فرنسسكو، وكان زيارة لوالديه في تورينو عندما أعلنت الحرب. كانت له أخت أُرسِلت معه إلى أميركا يوم أُرسل هو بالذات لكي تحيا إلى جانب عمها، وكانت على عتبة التخرج من مدرسة المعلمين والمعلمات تلك السنة. كان من ذلك الصنف من الأبطال الذين يُسئمون كل من يجتمع بهم. ولم يكن في ميسور كاثرين أن تحتمله.

وقالت:

ـ «إن عندنا أبطالاً أيضاً. ولكنهم على العموم، يا حبيبي، أكثر رصانة.»

ـ «أنا لا أنزعج منه.»

ـ «وأنا ما كنت لأنزعج منه لو لم يكن على هذا الغرور، ولو لم يكن يُسئمني، ويسئمني، ويسئمني.»

ـ «إنه يسئمني أيضاً.»

ـ «لطفٌ منك أن تقول هذا، أيها الحبيب. ولكنك في غير حاجة إلى ذلك. أنت تستطيع أن تتصوره في الجبهة وأنت تعرف أنه ذو غنى، ولكنه يمثل عندي نوع الفتيان الذي أكرهه.»

ـ «أدري.»

ـ «جميل منك إلى حد فظيع أن تدري. وأنا أبذل جهدي كي أحبه، ولكنه فتى رهيب، رهيب حقاً.»

ـ «لقد قال، هذا الأصيل. إنه سوف يرقّى إلى رتبة كابتن.»

فقالت كاثرين:

ـ «أنا سعيدة. لا ريب في أن هذا سوف يسره.»

ـ «ألا تتمنين أن أرقّى إلى رتبة أجلَّ شأناً؟»

ـ «لا أيها الحبيب. كل ما أبتغيه أن تنعم برتبة كافية للسماح لنا بالدخول إلى مطاعم أفضل.»

ـ «تلك هي، بالضبط، الرتبة التي أحملها.»

ـ «إن رتبتك رائعة. أنا لا أريد لك أية رتبة إضافية. قد تسوِّل لك نفسك ذلك. أوه، أيها الحبيب، أنا سعيدة جداً بكونك غير مغرور. ولقد كان خليقاً بي أن أتزوجك حتى ولو كنت مغروراً، ولكن مما يوقع السكينة في نفس المرأة أن يكون زوجها رجلاً غير مغرور.»

كنا نتحدث، في رفق، على الشرفة. وكنا نتوقّع أن يظهر القمر،

ولكن كان ثمة ضباب يغشى المدينة، فلم يظهر القمر، وما هي إلا لحظة حتى شرع الرذاذ يسقط، فدخلنا. وفي الخارج تحوَّل الضباب إلى مطر، وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى هطل المطر غزيراً، فسمعناه ينقر على السطح نقراً. فنهضتُ ووقفتُ لدى الباب لأرى أيتسرّب المطر إلى الداخل أم لا. وإذ وجدتُ أنه لا يتسرب تركت الباب مفتوحاً.

وسألتني كاثرين:

ـ «ومن رأيت أيضاً؟»

ـ «السيد والسيدة ميارز.»

ـ «إنهما مخلوقان غريبان.»

ـ «يقولون إنه كان في وطنه في إصلاحية المجرمين. وإن السلطة أجازت له الخروج من البلاد ليموت.»

ـ «ومنذ ذلك الحين عاش سعيداً في ميلانو.»

ـ «سعيداً؟ لست أدري إلى أي حد.»

ـ «سعيداً إلى حد كاف بعد السجن على ما أعتقد.»

ـ «إنها سوف تحمل بعض الأشياء إلى هنا.»

ـ «إنها تحمل أشياء رائعة. هل كنت ولدها العزيز؟»

ـ «أحد أولادها.»

فقالت كاثرين:

ـ «أنتم جميعاً أولادها الأعزاء. إنها تفضل الأولاد الأعزاء. استمع إلى المطر.»

ـ «إنه يهطل بغزارة.»

ـ «ولسوف تحبني أنت دائماً، أليس كذلك؟»

ـ «نعم.»

ـ «ولن يُحدث المطر أي فرق؟»

ـ «لا.»

ـ «هذا حسن. لأني خائفة من المطر.»

فقلت:

ـ «لماذا؟»

كان النعاس قد غلب عليّ. وفي الخارج كان المطر يهطل في اطراد.

ـ «لست أدري، يا حبيبي. لقد كنت طوال عمري أخشى المطر.»

ـ «أنا أحبه.»

ـ «أنا أحب النزهة أثناء المطر. ولكنه شديد القسوة على الحب.»

ـ «سوف أحبك دائماً.»

ـ «سوف أحبك في المطر، وفي الثلج، وفي البَرَد...»

«و ـ ماذا أيضاً؟»

ـ «لست أدري. أحسب أني نعسان.»

ـ «أمضِ إلى النوم، يا حبيبي، ولسوف أحبك أياً كان الأمر.»

ـ «أنتِ لستِ خائفة من المطر حقاً، أليس كذلك؟»

ـ «ليس حين أكون معك.»

ـ «لماذا تخافين المطر؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «قولي لي.»

ـ «لا تحملني على ذلك.»

ـ «قولي لي.»

ـ «لا.»

ـ «قولي لي.»

ـ «حسن. أنا أخاف المطر لأني أرى نفسي، أحياناً، وقد متُّ وهو يهطل.»

ـ «لا.»

ـ «وفي بعض الأحيان يتراءى لي أنك متَّ وهو يهطل.»

ـ «هذا أقرب إلى المعقول.»

ـ «لا، لا، يا حبيبي. لأن في استطاعتي أن أصونك من الخطر. أنا أعلم أني قادرة على ذلك. ولكن المرء لا يستطيع أن يصون نفسه وينقذها.»

ـ «كفى، أرجوك. أنا لا أريد أن أراك تتكلمين مثل امرأة اسكتلندية ومثل مجنونة في هذه الليلة. إن أيام لقائنا توشك على الانتهاء.»

ـ «لا. ولكني أسكتلندية ومجنونة. ومع هذا فسوف أكف عن ذلك. إنه كله هراء.»

ـ «أجل إنه كله هراء.»

ـ «إنه كله هراء. إنه ليس إلاّ هراء. أنا لست خائفة من المطر. أنا لست خائفة من المطر. أوه، أوه، يا إلهي، إني أتمنى أن أكون غير خائفة.»

كانت تبكي. وواسيتها، فأقلعت عن البكاء. ولكن المطر استمرَّ يهطل في الخارج.

الفصل العشرون

ذات يوم ذهبنا، عند الأصيل، لنشهد سباق الخيل. ولقد ذهبت فيرغوسون معنا أيضاً، وكذلك كرولويل رودجرز، وهو الفتى الذي جُرحت عيناه في انفجار القنبلة الصغيرة. وارتدت الفتاتان ملابسهما بعد طعام الغداء، على حين جلست أنا وكرولويل رودجرز على السرير في غرفته وطالعنا النتائج التي حققتها الخيل في الحفلات السابقة ونبوءات صحيفة السباق. كان رأس كرولويل معصوباً، ولم يكن يبالي كثيراً بهذه السباقات، ولكنه كان يُطالع الصحيفة على نحو دائم، ويحرص على متابعة أنبائها كلها قتلاً للوقت. لقد قال إن الخيل لا تساوي شيئاً، ولكنا لا نملك حق الاختيار. وكان ميبارز العجوز يحبه ويعطيه بعض «المعلومات» الخاصة. وكان ميبارز يكسب في كل شوط تقريباً. ولكنه يكره إعطاء المعلومات لأن ذلك يخفض الأسعار. وكان السباق أبعد ما يكون عن الإستقامة. فالرجال الذين طُردوا من حلبة السباق في كل مكان أقبلوا للتسابق في إيطاليا. وكانت «معلومات» ميبارز جيدة ولكني كنت أكره أن أسأله لأنه كان لا يجيب في بعض الأحيان. ولأنه كان في استطاعتك دائماً أن ترى أن إجابته على سؤالك تزعجه. ولكنه استشعر أنه مضطر لإخبارنا لسبب ما، وكان كرهه لتزويد كرولويل بمعلوماته أقل على كل حال. كانت عينا كرولويل قد أوذيتا، وكانت الإصابة التي نزلت بإحداهما خطيرة. وكان ميبارز يشكو من مرض في العينين، ومن أجل ذلك أحبَّ كرولويل. وكان

ميبارز لا يخبر زوجته على أي الخيول يراهن، البتة، وكانت هي تكسب وتخسر، تخسر في أكثر الأحيان من الأحوال، وتتحدث طوال الوقت.

وانطلقنا نحن الأربعة إلى سان سيرو في عربة مكشوفة. كان نهاراً رائعاً، ولقد اجتزنا الحديقة العامة، واتَّبعنا خط الترام، ثم غادرنا المدينة حيث كانت الطريق مغبرَّة. كان ثمة بيوت ذات أسيجة حديدية، وحدائق غناء واسعة، وخنادق تجري فيها المياه وبساتين يعلو الغبار أوراق نباتاتها الخضراء. كان في ميسورنا أن ننظر عبر السهل ونرى البيوت الريفية والمزارع الغنية الخضراء بمجاري الريِّ التي تخترقها، والجبال القائمة إلى الشمال. كانت ثمة عربات كثيرة تنطلق إلى ميدان السباق، ولقد أجاز لنا المراقبون الواقفون بالباب أن ندخل من غير بطاقات لأننا كنا نرتدي البزّة العسكرية. وترجلنا من العربة واشترينا نسخاً من برنامج الحفلة، ومشينا عبر الباحة الداخلية، ثم عبر حلبة السباق الملساء الكثيفة إلى المرتع (البادوك). كانت المدرجات خشبية عتيقة، وكانت أكشاك المراهنة تحت المدرجات، في صف ممتد قرب الأصاطب(*). وكان يحتشد على طول سياج الباحة الداخلية جمعٌ من الجند غفير. وكان المرتع مكتظاً بالناس، وكانوا يطوفون بالخيل في ساحة مستديرة قائمة تحت الأشجار، وراء المدرج الكبير، لقد رأينا أناساً نعرفهم، وجئنا بكرسيين لفيرغوسون وكاثرين، وشرعنا نتأمل الجياد.

لقد دارت، واحداً إثر واحد، مطأطئة رؤوسَها، يقود كلاً منها سائسُه. وكان أحد الجياد ذا لون أسود ضارب إلى الإرجواني، ولقد أقسم كروويل أغلظ الأيمان أن القوم صبغوه بذلك اللون صبغاً. وراقبناه، فظهر لنا أن كلام كروويل جائز. وكان ذلك الجواد قد خرج

(*) جمع اصطبل.

في اللحظة التي أعلن فيها الجرس ضرورة امتطاء الفرسان صهوات الجياد. وبحثنا عنه في البرنامج مسترشدين بالرقم الذي على ذراع سائسه، فإذا بنا نقرأ أنه جواد مخصيّ يدعى جابالاك. وكان الشوط خاصاً بالجياد التي لم تربح قط جائزة مقدارها ألف لير أو يزيد. وكانت كاثرين واثقة أن لونه قد غُيِّر. وقالت فيرغوسون إنها لا تستطيع أن تقطع برأي. أما أنا فاعتقدت أنه يبدو مُريباً. واتفقنا كلنا على أن من واجبنا أن نراهن عليه، ففعلنا بمئة لير. وكانت لوائح الأرباح المحتملة تُظهر أنه سوف يعود على المراهنين بربح تبلغ نسبته 35 إلى 1. ومضى كرووِيل واشترى البطاقات، فيما كنا نحن نراقب الفرسان يقومون بدورة أخيرة ثم يتجهون، تحت الأشجار، إلى الحلْبة، ويَجْرون في تؤدة نحو المنعطف الذي ستنطلق منه الجياد.

وارتقينا المدرَّج لنراقب السباق. ولم يكن عندهم في سان سيرو حاجز متمغَّط آنذاك، فما كان من معطي الإشارة إلا أن صفَّ جميع الجياد، التي بدت في موقفها من الحلبة صغيرة جداً، ثم أذِن لها بالانطلاق بضربة من سوطه الطويل. ومرَّت الجياد أمامنا يتقدمها الجواد الأسود بمرحلة لا بأس بها، وعند المنعطف كانت الشقة بينه وبين سائر الجياد بعيدة. وتابعتُ الجياد بنظارتيَّ المقرِّبتين وهي تندفع في الجانب البعيد، فرأيتُ فارس الجواد الأسود يناضل لكبح جماحه، ولكنه لم يستطع كبحه، حتى إذا دارت الجياد حول المنعطف واندفعت في خط مستقيم كان الجواد الأسود يتقدمها كلها بخمسة عشر طولاً. واستمر في عَدْوه الخاطف حتى استدار حول المنعطف بعد أن بلغ الغاية.

فقالت كاثرين:

ـ «أليس هذا رائعاً؟ سوف نكسب أكثر من ثلاثة آلاف لير. ينبغي أن يكون جواداً مدهشاً.»

فقال كرووِيل:

ـ «أرجو أن لا ينحلّ لونه قبل أن يدفعوا إلينا ما كسبناه.»

فقالت كاثرين:

ـ «لقد كان جواداً بديعاً حقاً، وأني لأتساءل هل راهن مستر ميبارز عليه؟»

فرفعت صوتي مخاطباً ميبارز:

ـ «هل راهنت على الجواد الفائز؟»

فهزَّ برأسه أن نعم.

فقالت مسز ميبارز:

ـ «أما أنا فلم أراهن عليه. على أي جواد راهنتم، يا أولادي؟»

ـ «على جابالاك.»

ـ «فعلاً؟ لقد أعطى ليرُهُ خمسة وثلاثين ليراً.»

ـ «لقد أحببنا لونه.»

ـ «أنا لم أحبه. لقد بدا لي أنه مرهَق لا روح فيه. لقد نصحوني بأن لا أراهن عليه.»

فقال ميبارز:

ـ «إنه لن يعود على المراهنين بربح كثير.»

فقلت:

ـ «لقد أشارت اللوائح إلى أن كل لير سوف يعود على حاملي الأوراق بخمسة وثلاثين ليراً.»

فقال ميبارز:

ـ «إنه لن يعود عليه بربح وفير. لقد راهنوا عليه، في الدقيقة الأخيرة، بكثير من المال.»

ـ «من هم هؤلاء؟»

ـ «كيمبتون والغلمان. سوف ترى. إن اللير الواحد لن يعود على المراهنين بليرين اثنين.»

فقالت كاثرين:

ـ «وإذن فلن نفوز بثلاثة آلاف لير. أنا لا أحب هذه السباقات الملتوية الفاسدة!»

ـ «سوف نفوز بمئتي لير.»

ـ «هذا مبلغ تافه لا قيمة له. لقد حسبتُ أننا سوف نفوز بثلاثة آلاف.»

فقالت فيرغوسون:

ـ «هذا وضع ملتو مثير للاشمئزاز.»

فقالت كاثرين:

ـ «طبعاً، لو لم يكن الوضع ملتوياً لما راهنَّا على ذلك الجواد البتة. ولكني مع ذلك كان يمكنني أن أحب الثلاثة آلاف لير.»

فما كان من كروويل إلا أن قال:

ـ «فلننزل ونشرب كأساً وبعد ذلك نرى كم سيدفعون.»

وهبطنا المدرَّج، وقصدنا إلى حيث نصبوا الأرقام، وقُرِع الجرس إيذاناً بالدفع، ووضعوا الرقم 1,850 أمام جابالاك، مجلياً. ومعنى ذلك أن اللير الواحد قصَّر عن إعطاء المراهنين حتى ليريْن اثنين.

ومضينا إلى المشرب، تحت المدرَّج الكبير، وشربنا كأساً من الويسكي الممزوجة بالصودا. وهناك وجدنا شخصين إيطاليين نعرفهما، وماك آدمز نائب القنصل، فرافقونا عندما رجعنا إلى حيث كانت كاثرين وفيرغوسون تنتظران. كان الإيطاليان بالغَيْ التهذيب، ولقد تحدَّث ماك آدمز إلى كاثرين عندما هبطنا لنراهن على جياد جديدة. كان مستر ميارز واقفاً قرب كشك الرهان التبادلي.

وقلت لكروويل:

ـ «إسأله عن أي جواد راهنَ؟»

فسأله كروويل:

- «على أي جواد راهنت، يا مستر ميبارز؟»

فأخرج ميبارز برنامج السباق وأشار بقلمه الرصاصي إلى رقم خمسة.

فقال له كرooويل:

هل يزعجك أن نراهن عليه أيضاً؟»

- «بادر إلى ذلك. بادر إلى ذلك، ولكن لا تخبر زوجتي أني دلَلْتك عليه.»

فسألتُه «هل ترغب في كأس؟»

- «لا، شكراً. أنا لا أحتسي الخمر أبداً.»

وراهنَّا بمئة لير على الجواد رقم خمسة مجلياً، وبمئة لير عليه مصلِّياً، ثم شربنا كأساً أخرى من الويسكي الممزوجة بالصودا. كنت أستشعر نشاطاً بالغاً. وتلقَّفنا إيطاليَيْن إضافيين، تناول كل منهما كأساً معنا، ورجعنا إلى الفتاتين. وكان هذان الإيطاليان بالغي التهذيب أيضاً، وقد ضارعا في ذلك الرجلين الإيطاليين اللذين التقيناهما من قبل. وما هي إلا لحظة حتى لم يعد في ميسور أحد أن يقعد. وقدَّمتُ الأوراق إلى كاثرين.

- «على أي جواد راهنتم؟»

- «لست أدري. لقد اختاره لنا مستر ميبارز.»

- «ألا تعرف اسم الجواد؟»

- «لا. في استطاعتك أن تجديه في البرنامج. رقم خمسة على ما أظن.»

فقالت:

- «إن لك إيماناً مؤثراً.»

وكسب رقم خمسة السباق، ولكنه لم يعد على المراهنين بشيء. واستبدَّ الغضب بميبارز.

وقال:

ـ «إن عليك أن تدفع مئتي لير لكي تربح عشرين. عشرة ليرات من أجل اثني عشر. هذا شيء لا يستحق العناء. لقد خسرت زوجتي عشرين ليراً.»

فقالت كاثرين لي:

ـ «سوف أذهب معك.»

ونهض الإيطاليون. وهبطنا المدرج، وتقدمنا نحو المرتع (البادوك).

وسألتني كاثرين:

ـ «هل يعجبك هذا؟»

ـ «نعم، يخيَّل إليَّ ذلك.»

فقالت:

ـ «كل شيء على ما يرام، في ما أحسب. ولكني، أيها الحبيب، لا أحتمل أن أرى كل هؤلاء الناس.»

ـ «نحن لا نرى كثيراً من الناس.»

ـ «لا. ولكن الزوجين ميبارز هذين وذلك الرجل المصرفيَّ وزوجته وبناته...»

فقلت:

ـ «إنه يدفع حوالاتي حالَ اطلاعه عليها.»

ـ «أجل، ولكن شخصاً آخر سوف يفعل ذلك إذا أحجم هو عنه. لقد كان هؤلاء الفتية الأربعة الأخيرون فظيعين.»

ـ «في استطاعتنا أن نبقى هنا ونراقب السباق من وراء الحاجز.»

ـ «ذلك شيء رائع. ولنراهن، يا حبيبي، على جواد لم نسمع به قط، جواد لن يراهن عليه مستر ميبارز.»

ـ «حسن.»

وراهنّا على جواد يدعى «لايت فور مي» Light for me فجاء رابعاً بين جياد خمسة. واتكأنا على الحاجز، وراقبنا الجياد وهي تنطلق، مُقَعْقعة بحوافرها، ورأينا الجبال في المدى البعيد، وميلانو وراء الأشجار والحقول.

ـ «أنا أستشعر الآن أني أبهج نفساً من ذي قبل.» كذلك قالت كاثرين. كانت الجياد تنقلب على أعقابها، من خلال الباب، مبلّلة بالعرق المتصبب من أجسادها، وكان الفرسان يهدِّئون من هياجها، ويتقدمون بها نحو الأشجار حيث ترجّلوا عنها.

ـ «ألا ترغب في كأس؟ في استطاعتنا أن نشرب ههنا شيئاً وأن نراقب الجياد في وقت واحد.»

فقلت:

ـ «حسن. سوف آتي بكأسين.»

فقالت كاثرين:

ـ «لا. النادل سوف يأتي بهما.»

ورفعت يدها، فأقبل النادل من الـ «باغو دا بار» المجاور للأصاطب، وجلسنا إلى مائدة حديدية مستديرة.

ـ «ألا تستمتع بالشراب، أكثر، حين نكون وحدنا؟»

فقلت:

ـ «نعم.»

ـ «لقد شعرت بوحشة بالغة عندما كنّا جميعاً هناك.»

فقلت:

ـ «يلوح لي أن هذا المكان عظيم.

ـ «نعم. وإنه لسباقٌ رائع حقاً.»

ـ «إنه جميل.»

ـ «لا تَدَعني أفسد عليك متعتك، يا حبيبي. سوف أرجع في أية لحظة تشاء.»

فقلت:

ـ «لا. سوف نبقى هنا ونحتسي كأسينا. ثم نهبط حتى الخندق المائي لنشهد سباق الحواجز.»

فقالت:

ـ «أنت لطيف معي إلى حد فظيع.»

وبعد أن أمضينا فترة على إنفراد نازعتنا النفس إلى رؤية الآخرين من جديد. لقد قضينا وقتاً طيباً.

الفصل الحادي والعشرون

في أيلول (سبتمبر) أقبلت أولى الليالي الباردة، ثم اعتدل الجو في النهارات، وبدأت الأوراق في الحدائق العامة تصفرُّ، وأدركنا أن الصيف قد انقضى. كان القتال في الجبهة يسير على نحو سيئ جداً، وكانوا قد عجزوا عن احتلال سان غابرييل. وكان القتال من أجل الاستيلاء على نجد بينسيزّا قد انتهى، وحوالي منتصف الشهر كان القتال من أجل سان غابرييل قد أوشك على الانتهاء أيضاً. إذ لم يستطيعوا احتلاله. وكان ايتور قد رجع إلى الجبهة، وكانت الجياد قد أرسلت إلى روما، ولم يعد ثمة حفلات سباق. وكرورويل كان قد ذهب إلى رومة أيضاً تمهيداً لإعادته إلى أميركا. وقامت المظاهرات ضد الحرب مرَّتين في المدينة، أما في تورين فكانت المظاهرات خطيرة جداً. وفي النادي أخبرني مايجور بريطاني أن الإيطاليين خسروا مئة وخمسين ألف رجل في نجد بينسيزًّا وفي سان غابرييل. وقال إنهم خسروا، بالإضافة إلى ذلك، أربعين ألفاً في الـ «كارسو». لقد شربنا معاً، واسترسل في الحديث. قال إن القتال هناك قد انتهى في ما يتعلق بهذا العام، وأن الإيطاليين قد نهشوا أكثر مما يستطيعون أن يمضغوا. وقال إن الهجوم في الفلاندر على وشك الإخفاق. وإذا ما خسر الحلفاء عدداً من الرجال موازياً للذي خسروه هذا الخريف فعندئذ يهلكون بعد عام واحد. لقد قال إن الهلاك قد حلَّ بنا كلنا، ولكننا نظل في حال لا بأس بها ما دمنا نجهل ذلك. لقد هلكنا جميعاً. ولكن

المهم أن لا نتبيَّن هذه الحقيقة. وكانت الدولة التي تدرك هذا، بعد سائر الدول، هي القمينة بأن تكسب الحرب. واحتسينا كأساً أخرى. هل كنت أنتسب إلى أركان حرب ما؟ لا. أما هو فكان. كانت كلها عبثاً ولعباً. كنا وحدنا في النادي، جالسين على إحدى الأرائك الجلدية الكبيرة. وكان حذاؤه العسكري ذو الجلد الداكن مصقولاً صقلاً حسناً. كان حذاء عسكرياً جميلاً. لقد قال إنها كانت كلها عبثاً ولعباً. إنهم لا يفكرون إلا بالفِرَق وما تملكه الدولة من القوى البشرية. وهم يتشاحنون حول الفِرَق، حتى إذا فازوا بها عملوا على ذبحها ذبحاً. كان الهلاك قد حلَّ بهم جميعاً. وكان الألمان يكسبون الانتصارات. وحق الرب إنهم لجنود. لقد كان الهونيُّ القديم جندياً. ولكن الهلاك قد ألمَّ بهم أيضاً. لقد ألمَّ بنا الهلاك جميعاً. وسألته عن الروس. فقال إن الهلاك قد أصابهم منذ حين. ولسوف ترى وشيكاً أنهم قد هلكوا. والنمساويون أيضاً قد ألمَّ بهم الهلاك وهم لن يستطيعوا الخلاص من هذه الورطة إلا بمعونة بعض الفِرَق الهونية.(*) هل كان يعتقد أنهم سيشنّون هجوماً في هذا الخريف؟ طبعاً، سيفعلون. وكان الهلاك قد نزل بالإيطاليين. كل امرئ كان يعرف هذه الواقعة. إن الهون القدماء سوف يهبطون من خلال الترنتينو ويقطعون السكة الحديدية عند فيسانتزا وعندئذ ماذا يفعل الإيطاليون؟ فقلت: لقد جربوا ذلك عام 16. فقال: ليس مع الألمان. فقلت: بلى. فقال: ولكنهم لن يفعلوا ذلك في أرجح الظن. الأمر بسيط أكثر مما ينبغي. إنهم سوف يحاولون شيئاً معقداً ثم يُهزمون على نحو ملوكي. قلت: يتعيَّن عليَّ أن أذهب. يتعيَّن عليَّ أن أرجع إلى المستشفى. فقال: إلى اللقاء. ثم أضاف في ابتهاج: أتمنى لك حظاً سعيداً! كانت ثمة مغايرة كبيرة بين تشاؤمه العالمي ومرحه الشخصي.

(*) المراد بالفِرق الهونية الفِرق الألمانية. (المعرب).

وعرَّجتُ على مزين، فحلقت لحيتي، وانقلبت إلى غرفتي في المستشفى. كانت رجلي في حال حسنة ما كنت أطمع في مثلها. وكنت قد ذهبت قبل ثلاثة أيام لفحصها. وكان عليَّ أن أخضع لبعض المعالجات قبل أن أقلع عن التردد إلى مستشفى ماغيور، فمشيت في محاذاة الرصيف وأنا أبذل غاية الجهد لكي لا أعرُج. كان تحت القناطر رجل عجوز يحمل أوراقاً سوداء يرسم عليها بمقصه صوراً من النوع المعروف بـ «السيلوويت». . ووقفت أراقبه. كانت فتاتان قد اتخذتا وضعاً ملائماً للتصوير، ولقد قصَّ صورتيهما المظلَّلتين (سيلوويت) معاً مُعملا مقصَّه في سرعة بالغة، ناظراً إليهما و هو يميل رأسه. كانت الفتاتان تضحكان. وأراني الصورتين المظلَّلتين قبل أن يلصقهما على ورق أبيض ويقدِّمهما إلى الفتاتين.

وقال:

ـ «إنهما جميلتان. ما رأيك في أن أصنع لك صورة مماثلة، أيها الملازم؟»

مشت الفتاتان وهما تتأملان صورتيهما المظللتين وتضحكان. كانتا فتاتين وسيمتين. وكانت إحداهما تعمل في الحانة القائمة تجاه المستشفى.

فقلت:

ـ «حسن.»

ـ «ارفع قبعتك عن رأسك.»

ـ «لا. صوِّرني وهي على رأسي.»

فقال الرجل العجوز:

ـ «لن تكون جميلة جداً.»

ثم أشرق وجهه وأضاف:

ـ «ولكنها ستكون أكثر عسكرية.»

وقصَّ الورقة السوداء، ثم فصل ما بين الكثافتين، وألصق الصورة على لوح من الورق المقوَّى وقدَّمها إليَّ.

ـ «كم؟»

فلوَّح بيده قائلاً:

ـ «لا شيء على الإطلاق. لقد أحببت أن أقدِّمها إليك هدية.»

وقدمت إليه بعض القطع النحاسية قائلاً:

ـ «أرجوك. لا تحرمني هذه المتعة.»

ـ «لا. لقد صنعتُ لك تلك الصورة لمجرَّد المتعة ليس غير. أعطها لفتاتك.»

ـ «شكراً جزيلاً. وإلى اللقاء القريب.»

ـ «إلى اللقاء.»

ومضيت إلى المستشفى. كان ثمة بعض الرسائل: رسالة رسمية ورسائل أخرى. لقد مُنحت إجازة نقاهة تمتدّ لثلاثة أسابيع، أرجع بعد انقضائها إلى الجبهة. وأعدت تلاوة الرسالة في عناية. حسناً، ذلك كان مضمونها. بدأت الإجازة في الرابع من أكتوبر عندما أتممت برنامج المعالجة. إن ثلاثة أسابيع تساوي واحداً وعشرين يوماً. يعني أن الإجازة سوف تنقضي في الخامس والعشرين من أكتوبر. أعلمت إدارة المستشفى أني لن أعود لتناول العشاء، ومضيت إلى المطعم الواقع غير بعيد عن المستشفى، لكي أتعشى. وقرأتُ الرسائل التي وردتني والـ «كورييرديلا سيرَّا»، على المائدة. كانت ثمة رسالة من جدي تنطوي على أنباء عائلية، وتشجيع وطنيّ، وشيك بمئتي دولار، وبعض قصاصات من الصحف. وكانت هناك أيضاً رسالة باردة من كاهن زمرتنا، ورسالة من صديق طيَّار يعمل في سلاح الجو الفرنسي فهو يتحدث عن أعمال الفِرقة التي كان عضواً فيها، ومذكرة من رينالدي يسألني فيها إلى متى سأظل مختبئاً في ميلانو، وما هي الأخبار

كاملة، لقد رجاني أن أحمل إليه بعض إسطوانات الفونوغراف مرسلاً إليَّ بياناً بها. وشربت زجاجة صغيرة من نبيذ كيانتي مع الطعام، ثم تناولت بعد ذلك فنجاناً من القهوة وكأساً من الكونياك. أنهيت تلاوة الصحيفة ووضعت رسائلي في جيبي، وتركت الصحيفة على المائدة مع البقشيش وخرجت. وفي غرفتي في المستشفى نزعت ثيابي، وارتديت بيجامة ومبذلاً (روب دو شامبر)، وأسدلت الستائر على الباب المؤدي إلى الشرفة، وقعدت في سريري أقرأ في صحف بوسطن التي كانت السيدة ميارز قد تركتها لأولادها في المستشفى. كان فريق «شيكاغو هوايت سوكس» قد ربح بطولة «العصبة الأميركية»، وكان فريق «عمالقة نيويورك» يتقدم الجميع في «العصبة الوطنية». وكان بايب روث «قاذفاً» يلعب مع فريق بوسطن. كانت الصحف مسئمة، والأنباء محلية عتيقة. وكانت أخبار الحرب كلها قديمة. أما الأنباء الأميركية فلم تكن تتحدث إلا عن معسكرات التدريب. وكنت سعيداً لعدم وجودي في معسكر تدريب. أخبار لعبة البايسبول هي كل ما استطعت أن أقرأه، وهذه الأخبار نفسها لم تثر في ذات نفسي أي شوق. كان من المستحيل عليَّ أن أقرأ مجموعة الصحف هذه كلها في شوق. فقد أمست عتيقة بعض الشيء. ولكني سرَّحت النظر فيها فترة قصيرة، وتساءلت هل دخلت أميركا الحرب فعلاً. وما إذا كان ذلك سيحملها على تعطيل الاتحادات الرياضية الكبرى. أغلب الظن أنها لن تفعل. كانت سباقات الخيل لا تزال تُجرى في ميلانو وقد انتهت الحرب إلى وضع ليس في الإمكان أن تنتهي إلى أسوأ منه. وكانوا قد عطلوا سباقات الخيل في فرنسا ومن هناك بالذات أقبل جوادنا «جابالاك». لم يكن من المنتظر أن تبدأ كاثرين خدمتها الليلة إلا في الساعة التاسعة. وسمعت وقع قدميها عندما مضت لمباشرة خدمتها هذه، ورأيتها مرة تجتاز الرواق. لقد قصدت إلى بضع غرف أخرى، وأخيراً وفدت على غرفتي.

قالت:

ـ «لقد تأخرتُ عليك، يا حبيبي. كانت لدي شواغل كثيرة. كيف حالك؟»

حدَّثتها عن الأوراق وعن الإجازة.

فقالت:

ـ «هذا رائع. إلى أين تريد أن تذهب؟»

ـ «لن أذهب إلى أي مكان. أريد أن أبقى هنا.»

ـ «هذه حماقة. اختر مكاناً تذهب إليه وعندئذ أذهب معك.»

ـ «وكيف تعتزمين أن تتدبري ذلك؟»

ـ «لست أدري. ولكني سأجد الوسيلة.»

ـ «أنت رائعة إلى حد بعيد.»

ـ «لا، لست رائعة. ولكن الحياة ليست صعبة العيش حين لا يكون لديك ما تخسره.»

ـ «ماذا تعنين؟»

ـ «لا شيء. كنت أفكّر فقط إلى أي حد تبدو صغيرة تلك العقبات التي كانت في وقت من الأوقات ضخمة جداً.»

ـ «يخيَّل إليَّ أنه سيكون من العسير عليك أن تتدبري الأمر.»

ـ «لا، لا، يا حبيبي. إني عند الحاجة مستعدة لأن أقدم استقالتي، والسلام. ولكن المسألة لن تصل إلى هذا الحد.»

ـ «إلى أين يجب أن نذهب؟»

ـ «لا فرق عندي. إلى أي مكان تريده أنت. إلى أي مكان لا نعرف فيه أحداً من الناس.»

ـ «أليس من فرق عندك حقاً؟»

ـ «مطلقاً..سوف أحب أي مكان نذهب إليه.»

لقد بدت قلقة متوترة الأعصاب.

ـ «ما بالك، يا كاثرين؟»

ـ «لا شيء. لا شيء على الإطلاق.»

ـ «بلى، إن ثمة شيئاً.»

ـ «لا، لا شيء. لا شيء فعلاً.»

ـ «أنا أعرف أن هناك شيئاً. أخبريني، يا حبيبتي. في استطاعتك أن تخبريني.»

ـ «ليس ثمة شيء.»

ـ «أخبريني.»

ـ «لست أرغب في ذلك. أنا أخشى أن أعكر صفو سعادتك أو أن أثير قلقك.»

ـ «لن يصيبني شيء من ذلك إن لم يكن فيه ما يقلقك أنت»

ـ «لست أريد أن أفضي بذلك إليك.»

ـ «بلى.»

ـ «أنا حامل، يا حبيبي. منذ ثلاثة أشهر تقريباً. إن هذا لم يقلقك، أليس كذلك؟ أرجو أن لا تقلق. ليس في هذا ما يوجب قلقك.»

ـ «أهذا مؤكد؟.»

ـ «فعلاً؟»

ـ «من غير شك.»

ـ «لقد فعلتُ كل شيء. لقد تناولتُ كل شيء، ولكن عبثاً.»

ـ «أنا لست قلقاً.»

ـ «لم يكن في ميسوري أن أجتنب ذلك، يا حبيبي، ولم أقلق من جراء ذلك. ينبغي أن لا تقلق أو تحزن.»

ـ «أنا قلق عليك ليس غير.»

ـ «ذلك هو. ذلك ما لا ينبغي لك أن تفعله. إن النساء يحملن كل

يوم. كل امرأة تحمل وتنجب أولاداً. هذه مسألة طبيعية.»

- «أنت رائعة.»

- «لا، لستُ كذلك، ولكن ينبغي أن لا تبالي، يا حبيبي. سوف أحاول أن لا أورثك أيما بلاء. أنا أعلم أني أورثتك بلاء الآن، ولكن ألم أكن فتاة طيبة حتى هذه اللحظة؟ أنت لم تعرف ذلك قط من قبل، أليس كذلك؟»

- «لا.»

- «سوف يكون الأمر كله هكذا. كل ما عليك أن تفعله هو أن لا تقلق. في استطاعتي أن أرى إمارات القلق على محياك. اقلع عن هذا. ما رأيك في كأس من الخمر، يا حبيبي؟ أنا أعرف أن كأس الخمر قادرة دائماً على إدخال البهجة إلى فؤادك.»

- «لا. أنا أحسُّ أني مبتهج. إنك رائعة إلى حد بعيد.»

- «لا لستُ كذلك. سوف أتدبر الأمر لكي نذهب معاً إلى أي مكان تختار الذهاب إليه. إن الجو سوف يكون رائعاً في تشرين الأول (أكتوبر). ولست أشك في أنّا سوف نقضي وقتاً طيباً، حبيبي، ولسوف أكتب إليك كل يوم بعد أن تمضي إلى الجبهة.»

- «أين ستكونين؟»

- «لست أدري حتى الآن. ولكن في مكان ما، في مكان جميل، سوف أهتم بهذا كله.»

وران علينا الهدوء فترة ولم ننطق بكلمة. كانت كاثرين قاعدة على السرير، وكنت أنظر إليها، ولكن أياً منا لم يلمس الآخر. كنا منفصلين مثل شخصين استبدَّ بهما الارتباك لأن ثالثاً دخل عليهما الغرفة فجأة. وبسطتْ يدها وأمسكت يدي.

- «أنت لست غاضباً، أليس كذلك يا حبيبي؟»

- «لا.»

- «ولا تشعر أنك قد وقعت في شرك؟»

ـ «ربما قليلاً. ولكن ليس من جانبكِ أنتِ.»

ـ «أنا لم أقصد من جانبي. ينبغي أن لا تكون أبله. لقد عنيتُ مجرد الوقوع في الشرك.»

ـ «إن المرء ليشعر دائماً أنه قد وقع في الشرك، بيولوجياً.»

ولم تتحرك، ولم تسحب يدها، ولكني شعرت أنها قد ذهبت إلى بعيد، إلى بعيد جداً.

ـ «أإ «دائماً» ليست لفظة لطيفة.»

ـ «آسف.»

ـ «لا بأس. ولكنك ترى أني لم أرزق قط ولداً من قبل، بل لم أحب قط أحداً من قبل. ولقد بذلت غاية جهدي لكي أكون وفق ما تشتهي وبعد هذا كله تقول «دائماً».»

فاقترحت:

ـ «أنا على استعداد لأن أقطع لساني!

ـ «أوه، يا حبيبي!» قالت ذلك، ورجعت من المكان النائي الذي كانت قد ذهبت إليه. «يجب أن لا تؤاخذني.» وتلامسنا مرّة أخرى، وزال الارتباك كله. «نحن في الحقيقة شخص واحد، وليس ينبغي لنا أن نسيء الفهم عمداً.»

ـ «ولكن الناس يفعلون. إنهم يتحابون ثم يسيئ أحدهم فهم الآخر عمداً، ويتشاجرون، وفجأة لا يعودون شخصاً واحداً.»

ـ «إننا لن نتشاجر.»

ـ «ليس ينبغي لنا أن نفعل. لأننا وحدنا نحن الاثنين وفي العالم يوجد سائر الناس. فإذا ما حصل بيننا شيء هلكنا، واستردَّنا الناس من جديد.»

فقلت:

ـ «إنهم لن يستردونا. لأنك بالغة الشجاعة، وليس يصيب الشجعان شيء إبداً.»

ـ «إنهم يموتون طبعاً.»

ـ «نعم، ولكن مرة واحدة.»

ـ «لست أدري. من قال ذلك؟»

ـ «الجبان يموت ألف ميتة، ولكن الشجاع لا يموت إلا ميتة واحدة.»

ـ «طبعاً. من قال ذلك؟»

ـ «لست أدري.»

وقالت:

ـ «لعل قائل هذا الكلام رجل جبان. لقد عرف أشياء كثيرة عن الجبناء، ولكنه لم يعرف شيئاً عن الشجعان. إن الشجاع قد يموت ألفَيْ ميتة إذا كان ذكياً. كل ما في الأمر أنه لا يتحدث عن ذلك البتة.»

ـ «لست أدري. إن من العسير على المرء أن ينفذ إلى عقل الشجاع.»

ـ «أجل. ذلك يفسر لك كيف يظلُّون هكذا.»

ـ «أنتِ ثقة في الموضوع.»

ـ «أصَبت، يا حبيبي. إني أستحق هذه الصفة.»

ـ «أنتِ شجاعة.»

فقالت:

ـ «لا. ولكني أتمنى لو أكون.»

فقلت:

ـ «أما أنا فلا أتمنى ذلك. أنا أعرف واقعي. لقد خبرتُ الحياة خبرة طويلة ساعدتني على الفوز بهذه المعرفة. أنا أشبه شيء بلاعب بايسبول يُسجِّل بضرباته مئتين وثلاثين ويعلم أنه لا يُحْسن خيراً من ذلك.»

ـ «وما هو لاعب البايسبول الذي يُسجِّل مئتين وثلاثين؟ ذلك شيء مثير إلى حد فظيع.»

ـ «لا، على الإطلاق. إن هذا يعني أنه لاعب بايسبول متوسط.»

فوخزتني قائلة:

ـ «ولكنه لاعب.»

فقلت:

ـ «أعتقد أننا كلينا مغروران. ولكنكِ أنتِ شجاعة.»

ـ «لا. ولكني أتمنى لو أكون.»

فقلت:

ـ «كلانا شجاع، وأنا أكون بالغ الشجاعة حين أشرب كأساً.»

فقال كاثرين:

ـ «نحن رائعان.»

ومضت إلى الخزانة، وجاءتني بزجاجة البراندي وبكأس، وقالت:

ـ «اشرب كأساً، يا حبيبي. لقد كنت لطيفاً إلى حد بعيد.»

ـ «لا. أنا لا أشعر بالحاجة إلى ذلك.»

ـ «خذ واحدة.»

ـ «حسن.»

فملأتُ ثلث الكوب بالكونياك واجترعتهُ دفعة واحدة.

فقالت:

ـ «لقد كانت هذه جرعة كبيرة جداً. أنا أعرف أن البراندي جُعلت للأبطال، ولكن عليك أن لا تغالي في ذلك.»

ـ «أين سنسكن بعد الحرب؟»

فقلت:

ـ «في مأوى للعجزة، في أغلب الظن. فمنذ ثلاث سنوات وأنا أتطلع، على نحو صبياني متطرف، إلى انتهاء الحرب في عيد الميلاد. أما الآن فأنا لا أتوقع انتهاءها إلا بعد أن يصبح إبننا ضابطاً في البحرية.»

ـ «لعله يصبح جنرالاً.»

ـ «إذا قدِّر لهذه الحرب أن تصبح حرب «مئة عام» أخرى فسوف يكون لديه متسع من الوقت ليجرب الخدمة في كل من الجيش والبحرية.»

ـ «ألا تريدين أن تشربي كأساً؟»

ـ «لا. إنها تجعلك سعيداً، دائماً، يا حبيبي، ولكنها لا توقع في رأسي إلا الدوار.»

ـ «ألم تشربي شيئاً من البراندي في حياتك قط؟»

ـ «لا، يا حبيبي. أنا زوجة محافظة جداً.»

ومددت يدي إلى أرض الغرفة التماساً للزجاجة وملأت كأساً أخرى.

فقالت كاثرين:

ـ «من الخير لي أن أذهب وألقي نظرة على مواطنيك. ربما تقرأ الصحف ريثما أعود.»

ـ «أيتعين عليك حقاً أن تذهبي؟»

ـ «عاجلاً أو آجلاً.»

ـ «حسن. اذهبي الآن إذن.»

ـ «سوف أرجع بعد قليل.»

فقلت:

ـ «وعندئذ أكون قد أنهيت قراءة الصحف»

الفصل الثاني والعشرون

انخفضت الحرارة تلك الليلة، وفي اليوم التالي هطل المطر. وفي طريق عودتي من مستشفى ماغيور إلى الغرفة اشتد تهاطل المطر حتى بلغتُها وأنا مبلل نديٌّ. وهناك في غرفتي كان المطر يتساقط على الشرفة في غزارة، وكانت الريح تقذفه نحو الأبواب الزجاجية. غيَّرت ملابسي، وشربت شيئاً من البراندي، ولكن البراندي لم تبدُ طيبة المذاق. واستشعرت، خلال الليل، بغثيان. وفي الصباح، بعد أن تناولت الفطور، تقيأت.

قال طبيب المستشفى:

ـ «ليس في ذلك شك. انظري إلى بياض عينيه، يا آنسة.»

ونظرت مس غايج. وكلَّفاني أن أنظر في مرآة. كان «بياض» عيني أصفر، وكنت مصاباً باليرقان. بقيت مريضاً بهذا الداء أسبوعين اثنين. ومن أجل ذلك لم نقضِ إجازة نقاهة معاً. كنا قد اعتزمنا الذهاب إلى بالانتزا، على بحيرة «لاغو ماغيور». فالجو جميل، هناك، في الخريف عندما تذري أوراق الشجر. إن ثمة نزهات تستطيع أن تقوم بها، وإن في إمكانك أن تتصيد سمك الأطروط في البحيرة. كان الذهاب إلى بالانتزا خيراً من الذهاب إلى ستريزا لأن الناس في بالانتزا كانوا أقل. إن من اليسير جداً على المرء أن ينتقل من ميلانو إلى ستريزا، وهذا ما يجعل هذه الأخيرة حافلة دائماً بأناس تعْرِفهم، وهناك في بالانتزا قرية

جميلة، وفي استطاعتك أن تذهب بالمركب إلى الجزر التي يسكنها الصيادون. وإنك لواجد في كبرى تلك الجزر مطعماً. ولكننا لم نذهب.

وذات يوم، وكنت طريح الفراش باليرقان، دخلت عليَّ مس فان كامبن، وفتحت الخزانة، فرأت الزجاجات الفارغة هناك. كنت قد كلفت البواب بأن يخرج من غرفتي عدداً كبيراً منها، وأحسب أنها رأته وهو يمضي بها، فوفدت عليَّ فوجدت مقداراً آخر منها. كانت في المحل الأول زجاجات فيرموت، وزجاجات مارسالا، وزجاجات كابري، وقوارير كيانتي فارغة، وبضع زجاجات كونياك. وكان البواب قد أخرج الزجاجات الضخمة، تلك التي كانت تحتوي الفيرموت وقوارير الكيانتي المغطاة بالقش، وترك زجاجات البراندي إلى الأخير. وكان ما عثرت عليه مس فان كامبن هو زجاجات البراندي وزجاجة على شكل دب كانت تحتوي على شراب الـ «كوميل». وأثارتها هذه الزجاجة التي على شكل دب إثارة خاصة. فرفعتها عالياً. كان الدب قاعداً على مؤخرته رافعاً قدميه إلى أعلى. وكان في رأسه الزجاجي فلينة، وبضع بلورات دبقة في قعره. ورحتُ أضحك.

وقلت:

ـ «كان فيها كوميل. إن أفضل الكوميل يجيء في هذه الزجاجات المصنوعة على شكل دب. إنها ترِدُ من روسيا.»

وسألتني مس فان كامبن:

ـ «هذه كلها زجاجات براندي، أليس كذلك؟»

فقلت:

ـ «لا أستطيع أن أراها كلها. ولكنها زجاجات براندي في أرجح الظن.»

ـ «منذ متى أقدمتَ على هذا الصنيع؟»

فقلت:

ـ «لقد اشتريتها وحملتها إلى هنا بنفسي. كان يزورنا بين الفينة والفينة ضباط إيطاليون، ولقد احتفظت بالبراندي لأقدمها إليهم.»

فقالت:

ـ «ألم تكن تشربها؟»

ـ «لقد شربتُها أيضاً.»

فقالت:

ـ «براندي؟ إحدى عشرة زجاجة فارغة من البراندي، وهذا الشراب الدبِّي!»

ـ «كوميل.»

ـ «سوف أكلف أحداً بإخراجها من هنا. هل هذا كل ما عندك من زجاجات فارغة؟»

ـ «في الوقت الحاضر.»

ـ «وكنت أشفق عليك لإصابتك باليرقان! يا لضياع الشفقة فيك!»

ـ «شكراً.»

ـ «أحسب أن المرء لا يستطيع أن يلومك لعدم رغبتك في العودة إلى الجبهة. ولكني أود لو أراك تجرب وسيلة أدلَّ على الذكاء من تعريض نفسك للإصابة باليرقان من طريق الإسراف في الشراب.»

ـ «من طريق ماذا؟»

ـ «من طريق الإسراف في الشراب. لقد سمِعْتَني جيداً على ما أظن.»

فلم أنبس ببنت شفة. وأضافت:

ـ «أخشى أن تضطر للعودة إلى الجبهة حال شفائك من اليرقان... اللهم إلا إذا اكتشفت وسيلة أخرى. ولست أعتقد أن اليرقان المفتعل افتعالاً يؤهلك للفوز بإجازة نقاهة.»

ـ «لا تعتقدين؟»

ـ «لا.»

ـ «هل أصبتِ ذات يوم باليرقان، يا مس فان كامبن؟»

ـ «لا. ولكني رأيت كثيرين مصابين به.»

ـ «هل لاحظتِ كيف يستمتع المرضى بدائهم ذاك؟»

ـ «أحسب أن هذا خير من الجبهة.»

فقلت:

ـ «مس فان كامبن، هل عرفتِ ذات يوم رجلاً حاول أن يفتعل العجز من طريق رَفْس نفسه على الخصيتين؟»

وتجاهلت مس فان كامبن السؤال. كان عليها إما أن تتجاهله وإما أن تغادر الغرفة. ولم تكن مستعدة لمغادرة الغرفة لأنها أبغضتني منذ زمن طويل وكانت هذه فرصة نادرة للتشفي مني.»

وقالت:

ـ «لقد عرفت رجالاً كثيرين فروا من الجبهة بأن عمدوا إلى جرح أنفسهم بأنفسهم.»

ـ «لم يكن هذا هو السؤال. أنا أيضاً رأيت رجالاً جرحوا أنفسهم بأنفسهم. لقد سألتكِ هل رأيت في يوم من الأيام رجلاً حاول أن يفعتل العجز بأن راح يرفس نفسه على الخصيتين؟ لأن هذا هو أقرب الأحاسيس إلى اليرقان، وهو إحساس لم يعرفه غير عدد قليل جداً من النساء في ما أعتقد. وهذا ما حملني على أن أسألك هل أصبت، ذات يوم، باليرقان يا مس فان كامبن، لأن...»

وغادرت مس فان كامبن الغرفة. وبعد ذلك بقليل دخلت مس غايج.

ـ «ماذا قلت لفان كامبن؟ كانت ثائرة.

ـ «كنا نقارن بين الأحاسيس. كنت أعتزم أن أشير إلى أنها لم تعرف المخاض قط. . .»

فقالت غايج:

ـ «أنت مجنون. إنها سوف تسلخ جلدك.»

ـ «لقد سلختهُ. لقد أضاعت عليَّ إجازة نقاهتي، وقد تسعى لتقديمي للمحاكمة أمام المجلس الحربي. إنها من الانحطاط بحيث لا تتورع عن ذلك.»

فقالت غايج:

ـ «إنها لم تحبك في يوم من الأيام. علام هذا كله؟»

ـ «هي تزعم أني أسرفت في الشراب لكي أصيب نفسي باليرقان، وبذلك أتخلص من العودة إلى الجبهة.»

فقالت غايج:

ـ «أنا مستعدة لأن أقسم أنك لم تشرب خمراً قط. كل أمرئ سوف يقسم أنك لم تشرب خمراً قط.»

ـ «لقد عثرتْ على الزجاجات.»

ـ «قلت لك مئة مرة أن لا تبقي هذه الزجاجات هنا. أين هي الآن؟»

ـ «في الخزانة.»

ـ «أعندك حقيبة ثياب؟»

ـ «لا. ضعيها في ذلك الخُرْج.»

ووضعت مس غايج الزجاجات في الخرج، وقالت:

ـ «سوف أعطيها إلى البواب.»

وتقدمتْ نحو الباب.

ولكن مس فان كامبن برزت فجأة وقالت:

ـ «دقيقة واحدة. سوف آخذ أنا هذه الزجاجات.»

كان البواب معها، ووجهت إليه الخطاب قائلة:

ـ «أحملها من فضلك. أريد أن أطلع الطبيب عليها قبل أن أضع تقريري.»

وابتعدت مجتازة الرواق. وحمل البواب الخرج. لقد عرف أي شيء كان فيه.

ولم يحدث شيء غير خسارتي إجازة النقاهة.

الفصل الثالث والعشرون

وفي الليلة التي كنت أعتزم فيها العودة إلى الجبهة أرسلت البواب ليحجز لي مقعداً في القطار القادم من تورين. وكان ذلك القطار ينطلق من تورين، ويصل إلى ميلانو حوالي الساعة العاشرة والنصف ليلاً فيمكث في المحطة حتى انطلاقه منها عند منتصف الليل. وكان عليك أن تكون هناك عند وصوله لكي تفوز بمقعد.. وأصطحب البواب صديقاً له، مدفعياً يقضي إجازته ويعمل في دكان خياط. وقد أكد البواب أن في إمكانه، بمعونة ذلك الصديق أن يحجز لي مقعداً. وأعطيتهما مبلغاً من المال يشتريان به تذكرتين تخوّلانهما الدخول إلى رصيف المحطة، وعهدت إليهما بنقل أمتعتي. كان ثمة خُرج كبير وجرابان.

وحوالي الساعة الخامسة ودَّعت أهل المستشفى ومضيت لسبيلي. كان البواب قد وضع أمتعتي في حُجَيْرته فأخبرته أني سوف أفد على المحطة قبل منتصف الليل بقليل. ونادتني زوجته «سينيورينو» وأنشأت تبكي. ثم كفكفت عبراتها، وصافحتني، وانخرطت في البكاء من جديد. عندئذ ربَّتّ على ظهرها فبكت مرّة أخرى. كانت قد رتقت ملابسي وجواربي، وكانت امرأة بدينة شديدة القِصر بهيجة الطلعة ذات شعر أشيب. وحين بكت، إنهار وجهها كله. هبطتُ الطريق حتى الزاوية التي تقوم عندها إحدى الحانات وانتظرت في داخلها مطلاً من

النافذة. كان الظلام قد هبط، والجو بارداً شديد الضباب. دفعت ثمن القهوة والـ «غرابًا» وراقبت الناس، على ضوء النور المنبعث من النافذة، وهم يروحون ويجيئون. رأيت كاثرين فنقرتُ على زجاج النافذة. فالتفتت، فرأتني، وابتسمتْ وخرجت أنا للقائها. كانت قد طرحت على كتفيها رداء أزرق داكناً، وكانت تعتمر بقبعة من لبَّاد ناعم. وتمشيًّنا معاً على الرصيف، مجتازَيْن بالحانات، ثم عبرنا ساحة السوق، وصعدنا في الشارع، واجتزنا الطريق المقنطر حتى انتهينا إلى ساحة الكاتدرائية. كانت ثمة خطوط ترامواي، وكانت الكاتدرائية قائمة خلف هذه الخطوط. بيضاء وندِيَّة في الضباب. عبَرْنا خطوط الترامواي. وإلى يسارنا كانت الدكاكين والمحلات التجارية، مضاءة النوافذ، وعند مدخل الـ «غاليريا». كان الضباب يرين على الساحة؛ وحين اقتربنا من صدر الكاتدرائية وجدناه ضخماً جداً ووجدنا حجارته رطبة.

ـ «هل ترغبين في الدخول؟»

فقالت كاثرين:

ـ «لا.»

وتابعنا سيرنا. كان ثمة جندي يقف مع صديقة له في ظل نِصف قنطرة حجرية أنصاف القناطر السائدة التي أمامنا. واجتزنا الجندي وصاحبته. كانا ملتصقين بالعمود الحجري، وكان الجندي يلف الفتاة بمعطفه.

قلت:

ـ «إنهما مثلنا.»

فقالت كاثرين:

ـ «لا أحد مثلنا.»

كان في ملاحظتها كآبة بالغة.

ـ «أتمنى لو كان لديهما مكان يذهبان إليه.»

ـ «جائز أن لا يفيدهما ذلك شيئاً.»

ـ «لست أدري. ينبغي أن يكون لكل امرئ مكان يذهب إليه.»

فقالت كاثرين:

ـ «إن لديهما الكاتدرائية.»

كنا قد ابتعدنا عن الكاتدرائية الآن. فعبَرْنا الطرف الأقصى من الساحة والتفتنا إلى الكاتدرائية. كانت رائعة وسط الضباب. وكنا نقف تجاه محل من محلات بيع الأدوات الجلدية. كان ثمة في واجهة المحل حذاء فارس وخُرْج، وحذاء تزلج. وبدت كلٌ من هذه السلع وكأنها معروضة على حدة. كان الخرج في الوسط، وكان حذاء الفارس في ناحية، وحذاء التزلج في أخرى. وكان الجلد داكناً ومزيَّتاً فهو ناعم مثل سَرْج مستعمل. وعلى هذا الجلد الداكن المزيَّت ألقى النور الكهربائي أضواء ساطعة.

ـ «سوف نتزلج في يوم من الأيام.»

فقالت كاثرين:

ـ «بعد شهرين يبدأ التزلج في مورين.»

ـ «دعينا نذهب إلى هناك.»

فقالت:

ـ «حسن.»

واجتزنا واجهات أخرى، وانعطفنا هابطَيْن شارعاً فرعياً.

ـ «إن قدميَّ لم تطأ هذا الشارع قط من قبل.»

فقلت:

ـ «هذه هي الطريق التي أسلكها كلما ذهبت إلى المستشفى.»

كانت طريقاً ضيقة، وقد لزمنا جانبها الأيمن. كان ثمة كثير من

الناس يمشون في الضباب. وكانت هناك محال تجارية، وكانت جميع الواجهات مضاءة. تأملنا واجهة بائع جبن. ثم وقفت تجاه دكان تاجر أسلحة، وقلت:

ـ «فلندخل دقيقة. يجب أن أشتري سلاحاً.»

ـ «أي نوع من السلاح؟»

ـ «غدّارة.»

دخلنا، وحللت حمالتي ووضعتها، بجرابها الفارغ الخاص بالغدارة، على منضدة العرض. وكانت خلف المنضدة امرأتان. وجاءتني المرأتان بعدة غدارات.

وقلت وأنا أفتح جراب الغدارة:

ـ «يجب أن تتلاءم مع هذا الجراب.»

كان جراباً جلدياً رمادياً، وكنت قد اشتريته مستعملاً لكي ألبسه في المدينة.

وسألتني كاثرين:

ـ «هل عندهم غدارات جيدة؟»

فقلت:

ـ «كلها متماثلة تقريباً.»

ثم التفتُّ إلى المرأة وسألتها:

ـ «هل أستطيع أن أجرِّب هذه؟»

فقالت:

ـ «ليس لديَّ الآن مكان لإطلاق النار. ولكنها جيدة جداً. إنك لن تخطئ الهدف بها أبداً.»

وضغطت على «لسان» الغدارة، وخفضت «كلبها». كان النابض قاسياً ولكنه يعمل في سلاسة. سدَّدت الغدارة وضغطت على «اللسان» من جديد.

فقالت المرأة:

ـ «إنها مستعملة. وكان صاحبها القديم ضابطاً بارعاً في الرماية.

ـ «وكنتِ أنتِ التي بعته إياها؟

ـ «من العسكري المرافق له.»

فقلت:

ـ «لعلَّ غدارتي عندكِ أيضاً. كم ثمن هذه؟

ـ «خمسون ليراً، إنها رخيصة جداً.

ـ «حسن. أريد حافظتَي خرطوش إضافيتين وعلبة خراطيش.»

جاءتني بما طلبت من تحت منضدة العرض.

وسألتني:

ـ «هل تحتاج إلى سيف؟ إن لديَّ بعض السيوف المستعملة الرخيصة.»

فقلت:

ـ «أنا ذاهب إلى الجبهة.»

فقالت:

ـ «أوه. نعم. وإذن فلن تكون في حاجة إلى سيف.»

ودفعت ثمن الخراطيش والغدارة، وملأت «الخزان» وأعدته إلى مكانه، ثم وضعت الغدارة في جرابها الفارغ، وملأت الحافظتين الإضافيتين بالخراطيش، ووضعتهما في الفجوتين اللتين فوق الجراب، ثم لبستُ الحِمالة.

لقد استشعرتُ الغدارةَ ثقيلةً على الحمالة. ولكني قلت في نفسي إن من الخير أن أحمل مثل هذه الغدارة.

وقلت:

ـ «ها قد أصبحت كامل السلاح. ذلك هو العمل الوحيد الذي

كان يتعين عليَّ أن أتذكَّر القيام به. لقد سرق أحدهم غدارتي الأخرى وأنا في طريقي إلى المستشفى.»

فقالت كاثرين:

- «أرجو أن تكون غدارة جيدة.»

وسألتني المرأة:

- «هل تريد شيئاً آخر؟»

- «لست أعتقد ذلك.»

فقالت:

- «إن للغدارة حبلاً في طرفه كلاّبة.»

- «لقد لاحظت ذلك.»

كانت المرأة تريد أن تبيعني شيئاً آخر.

- «ألا تحتاج إلى صفَّارة؟»

- «لست أعتقد ذلك.»

وودعتنا المرأة، وخرجنا نمشي على الرصيف. ونظرت كاثرين إلى النافذة، فأطلَّت المرأة علينا وانحنت تحية لنا.

- «ما هذه المرايا الصغيرة المنزَّلة في تلك الألواح الخشبية؟»

- «إنها وسيلة لاجتذاب الطيور. إنهم يفتلونها في الحقول، فتراها القبَّرات، فتندفع نحوها، فيطلق الإيطاليون النار عليها.»

فقالت كاثرين:

- «إنهم شعب ذكي. أنتم لا تطلقون النار على القبَّرات في أميركا، أليس كذلك يا حبيبي؟»

- «لسنا نستهدفها على وجه التخصيص.»

وعبرنا الشارع وبدأنا نمشي في الجانب الآخر منه.

قالت كاثرين:

ـ «إني أشعر بارتياح الآن. كان الضيق يستبد بي عندما انطلقنا.»

ـ «إننا نشعر بالارتياح كلما كنا معاً.»

ـ «ولسوف نكون دائماً معاً.»

ـ «نعم، باستثناء أني سأمضي لسبيلي في منتصف الليل.»

ـ «لا تفكر في ذلك، يا حبيبي.»

وصعدنا في الشارع. كان الضباب قد جعل الأضواء صفراء.

سألتني كاثرين:

ـ «ألم تتعب؟»

ـ «وأنتِ؟»

ـ «أنا في أحسن حال. من الطريف أن يمشي المرء.»

ـ «ولكن يحسن بنا أن لا نسرف في ذلك.»

ـ «كما تريد.»

انعطفنا هابطين شارعاً فرعياً لا أضواء فيه. ومشينا في ذلك الشارع فترة. ثم وقفت وقبّلت كاثرين. وفيما أنا أقبّلها استشعرت يدها على كتفي. كانت قد جذبت الرداء المطروح على ظهري وأحاطت نفسها به حتى لقد غطى كلاً منا. كنا واقفين في الشارع مستندين إلى جدار عال.

وقلت:

ـ «فلنذهب إلى مكان ما.»

فقالت كاثرين:

ـ «حسن.»

واصلنا طريقنا حتى انتهت بنا تلك الطريق إلى شارع أعرض ممتد على ضفة قناة. وعلى الجانب الآخر من ذلك الشارع كان جدار آجري وأبنية. وتجاهنا، في أقصى الشارع، رأيت تراماً يعبر جسراً.

ـ «في استطاعتنا أن نفوز بعربة خيل عند الجسر.»

وقفت على الجسر. وسط الضباب، انتظر عربة، ومرَّت بضع حافلات ترام ملأى بأناس عائدين إلى بيوتهم. ثم إنَّ عربة أقبلت، ولكنها كانت تقلُّ شخصاً ما. كان الضباب يتحول إلى مطر.

وقالت كاثرين:

ـ «في استطاعتنا أن نذهب سيراً على الأقدام أو أن نأخذ الترام.»

أوقف السائق فرسه، وخفض الإشارة المعدنية على عدَّاده الآلي. كان غطاء العربة مرفوعاً، وكانت على سترة السائق قطرات ماء. كانت قبعته المُفَرنَشة تلتمع تحت المطر. وجلسنا معاً في المقعد الخلفي، فوجدنا نفسينا ـ تحت غطاء العربة ـ في ظلام حالك.

ـ «إلى أين سألتَه أن يذهب؟

ـ «إلى المحطة. إن ثمة تجاه المحطة فندقاً نستطيع أن نقصد إليه.»

ـ «وهل نستطيع أن نذهب على هذه الحال، من غير أمتعة؟»

فقلت:

ـ «أجل.»

كانت طريقنا إلى المحطة طويلة، وكان علينا أن نجتاز عدداً من الشوارع الفرعية تحت المطر.

وسألتني كاثرين:

ـ «ألن نتعشى؟ أنا أخشى أن يستبدَّ بي الجوع.»

ـ «سوف نتعشَّى في غرفتنا.»

ـ «ليس لديَّ ما ألبسه. بل ليس لديَّ حتى قميص نوم.»

فقلت:

ـ «سوف نذهب ونشتري واحداً.»

ووجهت الخطاب إلى سائق العربة:

- «اذهب إلى الـ «فيا مانزوني» واصعد بنا ذلك الشارع.»

فهز رأسه، وانعطف إلى اليسار عند أول زاوية. وفي الشارع الكبير أنشأت كاثرين تبحث عن دكان ما.

وقالت:

- «هو ذا محل.»

وأوقفتُ السائق، وترجلتْ كاثرين، واجتازت الرصيف ودخلت المحل. وقبعتُ في مقعد العربة الخلفي انتظرها. كان المطر يهطل، وكان في ميسوري أن أشمّ عبق الشارع النديّ ورائحة الفرس وقد تصاعد البخار من جسده تحت المطر. ورجعتْ كاثرين حاملة رزمة، وامتطت متن العربة، فانطلقنا.

وقالت:

- «كنت مبذِّرة جداً، يا حبيبي، ولكنه قميص نوم رائع.»

حتى إذا وصلنا إلى الفندق سألتُ كاثرين أن تبقى في العربة ريثما أدخل الفندق وأتحدَّث إلى مديره. كان ثمة عدد كبير من الغرف الشاغرة. فرجعت إلى العربة، ودفعت إلى السائق أجرته، ودخلت الفندق أنا وكاثرين. حمل غلام الفندق الرزمة. ورافقنا المدير، في حفاوة بالغة، حتى المصعد الكهربائي. كان ثمة مقادير وافرة من النحاس والقطيفة الحمراء. ودخل المدير في المصعد معنا.

- «هل يرغب السيد والسيدة في تناول طعام الغداء في غرفتهما؟»

فقلت:

- «نعم. هل لك أن تبعث بلائحة الطعام إلى الغرفة؟»

- «هل ترغبان في شيء خصوصي للعشاء، بعض الطيور أو عجَّة «سُوفليه» مثلاً؟»

اجتاز المصعد ثلاثة أدوار، مشيراً إلى كل منها بتكَّة خافتة. ثم إنه تكَّ تكَّة أخيرة ووقف:

ـ «ما عندك من صنوف الطير؟»

ـ «في استطاعتي أن أقدِّم إليكما دُرَّاجاً أو ودقوقاً(*)»

فقلت:

ـ «نريد ودقوقاً.»

وهبطنا الرواق. كانت السجادة بالية. وكان ثمة كثير من الأبواب. وكف المدير عن السير وأخرج مفتاحاً فتح به أحد الأبواب.

ـ «هي ذي غرفة فاتنة.»

وضع غلام الفندق الرزمة على مائدة كانت في وسط الغرفة. وأزاح المدير الستائر.

وقال:

ـ «الضباب كثيف في الخارج.»

كان أثاث الغرفة من القطيفة الحمراء. وكان فيها عدد كبير من المرايا، وكرسيان، وسرير عريض ذو غطاء من الأطلس. وكان ثمة باب يؤدي إلى الحمام.

وقال المدير:

ـ «سوف أبعث إليكما بلائحة الطعام.»

ثمّ انحنى وخرج.

مضيت إلى النافذة، ثم سحبت حبلاً أسدل الستائر القطيفية الكثيفة. كانت كاثرين جالسة على السرير تتأمل الثريا البلورية. كانت قد نزعت قبعتها، فتوهج شعرها تحت الضوء. رأت نفسَها في إحدى المرايا، ورفعت يديها إلى شعرها. ورأيتها في ثلاث مرايا أخرى. لقد بدت غير سعيدة. ولقد تركتْ «شالها» يسقط على السرير.

ـ «ما بالك، يا حبيبتي؟»

(*) Woodcock.

فقالت:

ـ «أنا لم أشعر قط في يوم من الأيام وكأني بائعة لذة.»

وقصدتُ إلى النافذة، وأزحت الستار جانباً، ونظرت إلى الخارج. لم يخطر لي ببال أن الأمر قد يبدو على هذه الشاكلة.

وقلت:

ـ «ولكنك لست بائعة لذة.»

ـ «أعرف ذلك، يا حبيبي. ولكن ليس من السائغ أن تستشعر المرأة وكأنها بائعة لذة.»

كان صوتها جافاً صدئاً.

وقلت:

ـ «لقد كان هذا خير فندق نستطيع أن نقصد إليه.»

وأطللت من النافذة. وعبر الساحة، كانت أضواء المحطة. وكانت العربات تجتاز الشارع، ولقد رأيت الأشجار في الحديقة العامة. وانعكست أضواء الفندق على الرصيف النديّ. قلت في نفسي: أوه، يا للجحيم، أينبغي لنا أن نتجادل الآن؟

قالت كاثرين:

ـ «تعال إلى هنا، أرجوك.»

كان الصدأ قد زايل صوتها وأردفت:

ـ «تعال، أرجوك. لقد عدتُ فتاة طيبة.»

ونظرتُ إلى السرير. كانت تبتسم.

وتقدَّمت نحوها، وجلست على السرير إلى جانبها، وقبَّلتها.

ـ «أأنتِ فتاتي الطيبة؟»

فقالت:

ـ «أنا لك من غير ريب.»

وإثر تناولنا الطعام شعرنا بانتعاش. وبعد ذلك غلب علينا

الابتهاج الشديد. وما هي إلا فترة حتى شعرنا وكأن تلك الغرفة بيتنا. كانت غرفتي في المستشفى هي بيتنا، وهذه الغرفة كانت بيتنا أيضاً بالطريقة نفسها.

وفيما نحن نأكل طرحت كاثرين صُدْرتي على منكبيها. كنا جائعين جداً، وكان الطعام جيداً، وشربنا زجاجة كابري، وزجاجة «سان ايستيف». لقد شربت القدر الأعظم، ولكن كاثرين شربت بعض الشيء، ولقد أبهج ذلك فؤادها. كان عشاؤنا يتألف من ديك من النوع المعروف بالـ «ودقوق» مع بطاطا «سوفليه»، ومصفًّى الكستناء، وسلطة، وأخيراً زاباغليون(*) كحلوى.

قالت كاثرين:

إنها غرفة رائعة. كان ينبغي أن نقضي فيها جميع أيامنا في ميلانو.»

- «إنها غرفة مضحكة. ولكنها حسنة.»

وقالت كاثرين:

- «الرذيلة شيء مُذهل. وهذه القطيفة الحمراء رائعة من غير شك. والمرايا جذابة جداً.»

- «أنت فتاة عظيمة.»

- «إني لأتساءل كيف يكون شعور المرء حين يفيق صباحاً بعد نومه في هذه الغرفة. ولكنها في الواقع غرفة رائعة.»

وأترعتُ كأساً أخرى بشراب «سان ايستيف.»

- «أتمنى لو نستطيع أن نقترف إثماً حقيقياً. إن كل ما نفعله يبدو بريئاً وبسيطاً إلى أبعد الحدود. أنا لا أستطيع أن أعتقد أننا نقترف أيَّ إثم.»

(*) Zabaglone.

ـ «أنتِ فتاة عظيمة.»

ـ «كل ما في الأمر أني جائعة. جائعة إلى حد فظيع.»

فقلت:

ـ «أنتِ فتاة بسيطة رائعة.»

ـ «أنا فتاة بسيطة. إن أحداً لم يفهم هذه الحقيقة غيرك.»

ـ «لقد قضيتُ أصيلاً كاملاً، ذات يوم ـ ولعل ذلك كان بُعَيْد اجتماعنا لأول مرة ـ وأنا أفكِّر كيف يمكن أن نذهب معاً إلى فندق كافور، وكيف سيكون شعورنا لو ذهبنا.»

ـ «لقد كانت هذه جسارة بالغة منك. نحن لسنا الآن في فندق كافور، أليس كذلك؟»

ـ «لا. إنهم ما كانوا ليَقْبلونا هناك.»

ـ «سوف يَقْبلوننا في وقت ما. ولكن هذا هو الذي يجعلنا شيئاً مختلفاً، يا حبيبي. أنا لم أفكِّر قط في أيما شيء.»

ـ «ألم تفكري في شيء البتة؟»

فقالت:

ـ «قليلاً.»

ـ «أوه، أنت فتاة قريبة إلى الفؤاد.»

وأترعتُ كأساً أخرى.

فقالت كاثرين:

ـ «أنا فتاة بسيطة جداً.»

ـ «لم أحسَبْكِ هكذا بادئ الأمر. لقد حسبتكِ فتاة طائشة.»

ـ «لقد كنت طائشة بعض الشيء. ولكني لم أكن طائشة على صورة معقدة. أنا لم أربكك، أليس كذلك، يا حبيبي؟»

فقلت:

ـ «الخمر شيء عظيم. إنها تُنسيك كل ما هو رديء.»

فقالت:

ـ «إنها لذيذة. ولكنها أصابت والدي إصابة خطيرة بداء النقرس.»

ـ «ألك أب؟»

فقالت كاثرين:

ـ «نعم. إنه مصاب بالنقرس. ولن تكون مضطراً أبداً إلى الاجتماع به. أليس لك أب؟»

ـ «لا. أن لي زوج أمّ.»

ـ «هل تعتقد أني سأحبه؟»

ـ «لن يكون من واجبك أن تجتمعي إليه.»

فقالت كاثرين:

ـ «نحن سعيدان جداً. أنا لا أبالي بأيما شيء منذ اليوم. أنا سعيدة جداً بأن أكون زوجتك.»

وأقبل النادل، واسترجع الصحون والأطباق. وبعد فترة هيمن علينا السكون، وكان في ميسورنا أن نسمع المطر يهطل. وتحت، في الشارع، زمّرت سيارة.

وقلت:

ـ «ولكني أسمع من ورائي دائماً

عربة الزمان المجنحة تقترب مسرعة.»

وقالت كاثرين:

ـ «أنا أعرف هذه القصيدة. إنها من نظم مارفيل. ولكنها تتحدث عن فتاة تأبى الحياة مع رجل.»

وغلب الصفاء البالغ على رأسي، وأستعدت هدوئي، واستشعرت الرغبة في التحدث عن الواقع.

ـ «أين تعتزمين أن تلدي؟»

ـ «لست أدري. في أفضل مكان أستطيع أن أجده.»

ـ «وكيف تعتزمين أن تتدبري ذلك؟»

ـ «على أحسن وجه استطيعه. لا تقلق، يا حبيبي. قد ترزَق عدة أولاد قبل أن تنتهي الحرب.»

ـ «لقد حان وقت السفر أو كاد..»

ـ «أدري. وفي استطاعتنا الذهاب الآن إذا شئت.»

ـ «لا.»

ـ «إذن لا تقلق، يا حبيبي. لقد كنت رائعاً الآن، فعلام هذا القلق الذي يستبد بك؟»

ـ «لست قلقاً. هل ستكتبين إليَّ كثيراً؟»

ـ «كل يوم. هل يطلعون على بريدك؟»

ـ «إنهم لا يحسنون قراءة الإنكليزية إلى درجة تُنزل الأذى بأحد.»

فقالت كاثرين:

ـ «سوف أجعلها مبهمة جداً.»

ـ «ولكن ليس أكثر مما ينبغي.»

ـ «سوف أكتفي بجعلها مبهمة قليلاً.»

ـ «يخيَّل إليَّ أن لحظة الانطلاق قد حانت.»

ـ «حسن يا حبيبي.»

ـ «أنا أكره مفارقة بيتنا الرائع.»

ـ «وأنا أيضاً.»

ـ «ولكن علينا أن نمضي.»

ـ «حسن. ولكنا لم يقدَّر لنا قط أن نستقر في بيتنا دهراً طويلاً.»

ـ «سوف نحظى بذلك يوماً.»

ـ «سوف أعدُّ لكَ بيتاً رائعاً عندما ترجع.»

ـ «من يدري، لعلّي أرجع في الحال.»

ـ «ربما أصبتَ بجرح طفيف في القدم.»

ـ «أو في شحمة الأذن.»

ـ «لا. أنا أريد أن تظل أذناك على حالهما.»

ـ «وقدماي؟ ألا تريدين أن تظلا على حالهما؟»

ـ «لقد جُرحتْ قدماك قبل اليوم.»

ـ «ينبغي أن نذهب، يا حبيبي. لم يعد في إمكاننا أن نتأخر.»

ـ «حسن. أخرج أنت أولاً.»

الفصل الرابع والعشرون

وهبطنا السلم بدلاً من أن ننزل بالمصعد الكهربائي. كانت السجادة التي تكسو السلَّم بالية. وكنت قد دفعت نفقات العشاء حين جيء به إلى الغرفة، وكان النادل الذي حمله إلينا جالساً على كرسي قرب الباب. وما إن رآنا حتى وثب وانحنى احتراماً، فمضيت معه إلى الغرفة الجانبية ودفعت له فاتورة الغرفة. وكان مدير الفندق قد تذكَّرني كصديق من أصدقائه ورفض أن أدفع له الأجرة مقدماً، ولكنه حين انسحب تذكَّر أيضاً أن يطلب إلى النادل أن يرابط لدى الباب لكي لا أخرج من غير دفع. وأحسب أن ذلك قد حدث في مرات سابقة، حتى مع أصدقائه. إن للمرء في زمن الحرب عدداً كبيراً جداً من الأصدقاء.

وسألت النادل أن يحضر لنا عربة، فأخذ رزمة كاثرين من يدي، وخرج حاملاً مظلة. وفي الخارج رأيناه من خلال النافذة يعبر الشارع تحت المطر. لقد وقفنا في الغرفة الجانبية، وسرَّحنا الطرف عبر النافذة.

ـ «ما الشعور الذي يسيطر عليكِ، يا كات؟»

ـ «النعاس.»

ـ «أما أنا فأحس بالفراغ والجوع.»

ـ «هل لديك ما تأكله؟»

ـ «بلى. في جرابي.»

ورأيت العربة مقبلة. ووقفتْ. وخفض الفرس رأسه تحت المطر. وترجَّل النادل، وفتح مظلته، وتقدَّم نحو الفندق. والتقيناه لدى الباب، وخرجنا تحت المظلة، فاجتزنا الرصيف إلى حيث كانت العربة واقفة عند حافة الطريق. كانت المياه تجري في القناة.

قال النادل:

ـ «رزمتك هناك. على المقعد.»

وظل واقفاً، والمظلة في يده، حتى دخلنا العربة وأخذ البقشيش.

قال:

ـ «شكراً كثيراً. ورحلة ممتعة.»

هزَّ الحوذي الزمام، فانطلق الفرس. واستدار النادل تحت المظلة ورجع إلى الفندق. وراحت العربة تهبط بنا الشارع. وانعطفنا نحو اليسار، ثم وقفنا إلى اليمين، تجاه المحطة. كان اثنان من الجنود القربينيين(*) واقفين تحت الضوء، مجتنبَيْن المطر بشق النفس. والتمع الضوء على خوذتيهما. وبدا المطر واضحاً وشفافاً وسط الضياء المنبعث من المحطة. وأقبل من المحطة أحد الحمالين رافعاً منكبيه في وجه المطر.

قلت:

ـ «لا. شكراً. لست في حاجة.»

ورجع يتقي المطر تحت مدخل المحطة المسقوف. والتفتُّ إلى كاثرين. كان وجهها في الظل، تحت غطاء العربة المرفوع.

ـ «والآن نستطيع أن نقول إلى اللقاء.»

ـ «ألا أستطيع أن أدخل؟»

ـ «لا.»

(*) carabinieri وقد شرحناها في هامش سابق.

ـ «إلى اللقاء، يا كات.»

ـ «هل لك أن تعطيه عنوان المستشفى؟»

ـ «من غير ريب.»

وأعطيت الحوذي العنوان الذي ينبغي أن يوصلها إليه. فهز برأسه.

وقلت:

ـ «إلى اللقاء. أعتني جيداً بنفسكِ وبكاثرين الصغيرة.»

ـ «إلى اللقاء يا حبيبي.»

فقلت:

ـ «إلى اللقاء.»

وترجلتُ تحت المطر، وانطلقت العربة. وانحنت كاثرين، فرأيت وجهها في الضياء. وابتسمت لي ولوَّحت بيدها. وصعدت العربة في الشارع. وأومأت كاثرين إلى مدخل المحطة. فنظرت، فلم أجد غير الجنديين القريبنيين ومدخل المحطة. وأدركت أنها ترغب إليّ أن أدخل المحطة اجتناباً للمطر. دخلتُ، ووقفتُ أراقب العربة وهي تنعطف عند الزاوية. ثم إني عبرت المحطة، وهبطت المجاز نحو القطار.

كان بواب المستشفى على رصيف المحطة يبحث عني. وتبعتُه إلى القطار، وشققتُ طريقي وسط الحشد، وعلى طول المعبر. حتى دخلت باباً قادني إلى المقصورة الملأى التي كانت المدفعي يحتلُّ إحدى زواياها. كان خُرْجي وجراباي فوق رأسه في شبكة الأمتعة. وكان كثير من الناس واقفين في الرواق، ولم نكد ندخل المقصورة حتى راح كلٌّ من فيها ينظر إلينا. لم يكن في القطار أماكن كافية، وكان القوم كلهم متجهِّمي الوجوه. ونهض المدفعي لي لكي أجلس مكانه. وربَّت شخص ما على كتفي. فأجلت طرفي في ما حولي، فإذا هو كابتن مدفعية فارع الطول، مهزول الجسم، على خده ندبة حمراء. كان قد نظر ـ وهو بعدُ في المجاز ـ من خلال الزجاج، ثم دخل.

وسألته:

ـ «ماذا تريد؟»

كنت قد استدرت وواجهتُهُ. كان أطول مني، وكان وجهه مهزولاً جداً تحت خوذته، وكانت الندبة جديدة ملتمعة. كان كل امرئ في المقصورة ينظر إليّ.

وقال:

ـ «ليس لك الحق في أن تفعل هذا. ليس لك الحق في أن تكلف جندياً بحجز مقعد لك.»

ـ «ومع ذلك فقد أقدمتُ على هذا.»

بلع ريقه. ورأيت حنجرته تعلو ثم تهبط. ووقف المدفعي تجاه المقعد. ونظر إلينا آخرون من خلال الزجاج. ولم ينبس أحدٌ ممن كانوا في المقصورة ببنت شفة.

ـ «ليس لك الحق في أن تفعل ذلك. لقد جئت إلى هنا قبل مجيئك بساعتين.»

ـ «ماذا تريد؟»

ـ «المقعد.»

ـ «وأنا أيضاً أريده.»

وراقبت وجهه، وكان في ميسوري أن أستشعر أن كل من في المقصورة ضدي. ولم أستطع أن ألومهم. فقد كان الرجل مُحقّاً. ولكني أردت المقعد. ومع ذلك، فإن أحداً لم ينطق بكلمة.

وقلت في ذات نفسي: «أوه، يا للجحيم!»

ثم قلت:

ـ «اجلس، سينيور كابيتانو!»

وأفسح المدفعي طريقاً للكابتن الفارع الطور، فجلس. ونظر إليّ. كان متجهم الوجه. ولكنه كان قد فاز بالمقعد.

وقلت للمدفعي:

ـ «ايتِ بأمتعتي.»

وخرجت إلى الرصيف. كان القطار حاشداً، وعرفت أن لا أمل لي في الفوز بمقعد. وأعطيت كلاً من البواب والمدفعي عشر ليرات. فاجتازا المَعْبر وهبطا إلى الرصيف ناظرَيْن إلى النوافذ، ولكن لم يكن ثمة مقاعد شاغرة.

وقال البواب:

ـ «لعل بعضهم يغادر القطار في بريسيا.»

فقال المدفعي:

ـ «بل إن ركاباً إضافيين سوف يركبون القطار في بريسيا.»

وصافحتهما مودعاً، وانصرفا. كانا مبتئسَيْن. وفي داخل القطار كنا كلنا واقفين في الممرّ عندما انطلق القطار. وراقبت أضواء المحطة والأفنية أثناء انطلاقه. كان المطر لا يزال يهطل، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبحت النوافذ مبللة، ولم يعد في ميسورك أن ترى شيئاً. وبعد ذلك نمت على أرض الممرّ. لقد وضعت محفظتي المنطوية على دراهمي وأوراقي داخل قميصي وبنطلوني بحيث انتهت إلى ساق بنطلوني. ونمت طول الليل، ولم أستيقظ إلا في بريسيا وفيرونا عندما ركب الحافلة أناسٌ جُدُد، ولكني سرعان ما عدت فاستسلمت للرقاد. لقد وضعت رأسي على أحد الجرابَيْن وإحدى ذراعيَّ حول الأخرى، وكنت استشعر ثقل الكيس على جسدي. كان في ميسور كل امرئ أن يخطو من فوقي إذا لم يرغب في أن يطأني بقدميه. وكان كثير من الرجال نائمين على الأرض على طول الممرّ. في حين وقف آخرون ممسكين بقضبان النوافذ أو متكئين على الأبواب. فقد كان هذا القطار مزدحماً طوال الوقت.

الكتاب الثالث

الفصل الخامس والعشرون

كان الفصل فصل الخريف. وكانت الأشجار كلها عارية، والطرق موحلة. من يودين ركبت شاحنة أوصلتني إلى غوريتزيا. وفي الطريق اجتزنا بشاحنات أخرى، وسرَّحت طرفي في الريف. كانت شجرات التوت عارية من أوراقها، وكانت الحقول سمراء. وعلى الطريق أوراق ندية ميتة تساقطت من صفوف الأشجار الجرداء، وكان الرجال يعملون في الطريق فهم يملأون الأخاديد بحجارة مكسَّرة كدِّست أكواماً أكواماً على جانب الطريق بين الأشجار. ورأينا المدينة وقد علاها الضباب الذي حجب الجبال. عبرنا النهر، ورأيت أنه يجري هادراً عالي الموج. كان المطر قد هطل، وما يزال، في الجبال. ودخلنا المدينة، بعد أن اجتزنا المصانع أولاً، وتبدَّت لنا البيوت والدارات، وقد لاحظت أن عدداً إضافياً كبيراً من البيوت قد أصيب بأذى. وفي أحد الشوارع الضيقة اجتزنا بسيارة إسعاف من سيارات الصليب الأحمر البريطاني. كان السائق يعتمر بقلنسوة من النوع الذي ندعوه «كاسكيت»، وكان وجهه مهزولاً برونزياً لوّحته الشمس. ولم أعرفه. ترجلت من الشاحنة في الساحة الكبيرة تجاه منزل رئيس البلدية. وناولني السائق خُرجي فوضعته على ظهري، ومضيتُ مؤرجحاً جرابيَّ الاثنين، إلى دارتنا. إني لم أشعر بمثل شعور المرء العائد إلى بيته.

هبطتُ الممرّ ذا الحصباء الندية، ناظراً إلى الدارة من خلال

الأشجار. كانت النوافذ كلها موصدة، ولكن الباب كان مفتوحاً. ودخلت، فوجدت المايجور جالساً إلى طاولة الحجرة العاريةِ المعلَّقِ على جدرانها خرائطُ وبيانات مطبوعة بالآلة الكاتبة.

قال:

- «هالو! كيف أنت؟»

لقد بدا أكبر سناً وأكثر جفافاً.

فقلت:

- «بخير. كيف تجري الأمور؟»

فقال:

- «انتهى كل شيء. ضع أمتعتك واجلس.»

فوضعت خرجي وجراباي على الأرض، ووضعت قلنسوتي على الكيس. ثم إني جئت بالكرسي الآخر، وكان على مقربة من الحائط، وجلست إلى المكتب.

قال المايجور:

- «لقد كان صيفاً سيئاً. هل أنت معافى الآن؟»

- «نعم.»

- «هل حصلت على سمات الشرف؟»

- «نعم. لقد حصلت عليها. شكراً جزيلاً.»

- «دعني أراها.»

وحللت أزرار معطفي وأزحته بحيث استطاع أن يرى الشريطتين.

- «هل حصلت على المداليات؟»

- «لا. على براءاتها فقط.»

- «المداليات سوف تأتي في ما بعد. إن ذلك يستغرق وقتاً إضافياً.»

- «ماذا تريد مني أن أفعله الآن؟»

- «السيارات كلها ليست هنا. إن ستاً منها في الشمال، في كابوريتو. هل تعرف كابوريتو؟»

- «نعم.»

لقد تذكّرتُ أنها بلدة صغيرة بيضاء واقعة في أحد الأودية، وأن فيها برج أجراس. كانت بلدة صغيرة نظيفة، وكان في ساحتها العامة نافورة ماء رائعة.

- «إننا نعمل هناك في هذه الأيام. إن ثمة كثيراً من الجرحى. لقد انتهى القتال.»

- «وأين السيّارات الأخرى؟»

- «هناك اثنتان في الجبال، وأربع لا تزال في بينسيزا. وفريقا الإسعاف الآخران ينشطان في الـ «كارسو» مع الجيش الثالث.»

- «ما الذي تريد مني أن أفعله؟»

- «تستطيع أن تذهب إلى بينسيزا وتتولى أمر السيارات الأربع إذا شئت. لقد أمضى جينو فترة طويلة وهو يعمل هناك. أنت لا تعرف تلك المواطن، أليس كذلك؟»

- «لا.»

- «لقد جرت الأمور فيها على نحو سيئ. لقد خسرنا ثلاث سيارات.»

- «سمعت بذلك.»

- «أجل، لقد كتب إليك رينالدي وأخبرك بذلك.»

- «أين رينالدي؟»

- «إنه هنا في المستشفى. لقد قضى أيام الصيف والخريف وهو يعمل على نحو متواصل.»

- «في استطاعتي أن أصدِّق ذلك.»

وقال المايجور:

ـ «كانت الأحوال سيئة. وليس في استطاعتك أن تصدّق مبلغ السوء الذي انتهت إليه. لقد كنتُ أعتقد دائماً أنه كان من حسن حظك أن تُجْرَح يوم جُرِحت بالذات.»

ـ «أعرف هذا.»

فقال:

ـ «العام القادم سوف يكون أسوأ. من الجائز أن يشنوا هجوماً الآن. هم يقولون إنهم سوف يهجمون ولكني لا أستطيع أن أصدق ذلك. لقد فات الأوان. هل رأيت النهر؟»

ـ «نعم. لقد ارتفع منسوبُهُ.»

ـ «لست أعتقد أنهم سوف يهجمون الآن، بعد أن بدأت الأمطار في التهاطل. والثلج سوف يتساقط وشيكاً. لكن حدثني عن مواطنيك. هل تعتقد أن أميركيين آخرين سوف يعملون في صفوفنا مثلك؟»

ـ «إنهم يدربون جيشاً مؤلفاً من عشرة ملايين.»

ـ «أرجو أن نفوز ببعضهم. ولكن الفرنسيين سوف يستولون عليهم كلهم. إننا لن نفوز بأحد منهم هنا. حسن. إبق هنا الليلة، واذهب غداً بالسيارة الصغيرة واطلب إلى جينو أن يعود. سوف أبعث معك من يعرف الطريق. جينو سوف يخبرك بكل شيء. إنهم لا يزالون يطلقون النار من مدافعهم، بعض الشيء، ولكن كل شيء قد انتهى. أنت لا بدَّ راغب في أن ترى البينسيزا.»

ـ «أنا سعيد بأن أراها. وأني لسعيد بالعودة إلى العمل معك، يا سيدي المايجور.»

وابتسم قائلاً:

ـ «لطفٌ كثير منك أن تقول هذا. لقد سئمتُ هذه الحرب إلى أبعد الحدود. ولو أني كنت بعيداً لما رجعت إلى هنا، على ما أعتقد.»

ـ «هلى الوضع رديء إلى هذا الحد؟»

ـ «نعم. بل إنه أردأ من ذلك. اذهبْ واغتسل وابحث عن صديقك رينالدي.»

وخرجتُ وصعدت السلم حاملاً أمتعتي. لم يكن رينالدي في الغرفة، ولكن أمتعته كانت هناك. قعدت على السرير، وفككت وِقاءَ ساقي، ونزعت الحذاء عن رجلي اليمنى. ثم استلقيت على السرير. كنت متعباً، وكانت ساقي اليمنى تؤلمني. لقد بدا من الحمق أن استلقي على السرير وإحدى رجليَّ حافية، وهكذا قعدت وحَلَلْتُ فردة الحذاء الأخرى، وطرحتها على الأرض، ثم استلقيت على البطانية. كانت نافذة الغرفة موصدة وكان هواؤها حبيساً كريه العبق، ولكني كنت من التعب بحيث تقاعست عن النهوض لفتح النافذة. ورأيت أن أشيائي كلها كانت في إحدى زوايا الغرفة. وفي الخارج كان الليل يهبط. لقد استلقيت على السرير وفكّرت في كاثرين، وانتظرت رينالدي. كنت أعتزم أن أحاول عدم التفكير في كاثرين إلا في الليل قبل أن آوي إلى النوم. ولكني كنت الآن متعباً ولم يكن لدي ما أعمله، وهكذا استلقيت على السرير وفكّرت فيها. كنت أفكر فيها عندما دخل رينالدي. كان هو هو لم يتغيّر فيه شيء. ولعل جسمه أن يكون قد هَزُل بعض الشيء.

وقال:

ـ «وأخيراً، أيها الطفل!»

واستويت قاعداً على السرير، فأقبل نحوي، وجلس، وطوّقني بذراعه. وأضاف:

ـ «أيها الطفل العجوز الطيب!»

ـ وضربني على ظهري ضربة مرنانة، فأمسكت بكلتا ذراعيه.

وقال:

ـ «أيهاالطفل العجوز. دعني أرى ركبتك.»

- «ينبغي أن أنزع بنطلوني.»

- «انزع بنطلونك، أيها الطفل. نحن كلنا أصدقاء هنا. أري أن أرى أي نوع من العمل أجْرَوْه عليها.»

فوقفت، ونزعت بنطلوني، ورفعت طوق الركبة. جلس رينالدي على الأرض، ولوى الركبة في رفق إلى وراء وإلى أمام. ثم أمرَّ إصبعه على طول الندبة. ووضع إبهاميه معاً على رَضْفة الركبة. وهزَّ الركبة بأصابعه في رفق.

- «أهذا أقصى تَمَفْصُل(*) تَقْدِر عليه؟»

- «نعم.»

- «من الإجرام أن يعيدوك إلى القتال. كان ينبغي أن يتمَّ لك قبل ذلك تَمَفْصُلٌ كامل.»

- «إنها اليوم أحسن مما كانت بكثير. لقد كانت صلبة مثل لوح من خشب.»

ولواها رينالدي أكثر. وراقبت يديه. كانت له يدا جرَّاح بارع. ونظرت إلى أعلى رأسه. كان شعره لماعاً، مسرَّحاً تسريحاً حسناً. ولوى ركبتي أكثر مما ينبغي.

فصرخت:

- «آي!»

فقال رينالدي:

- «ينبغي أن تخضع لمعالجة إضافية بواسطة الآلات.»

- «إنها اليوم أفضل مما كانت.»

- «أرى ذلك، أيها الطفل. هذا شيء أعرف عنه أكثر مما تعرف أنت.»

(*) articulation أو مدى حركة المفاصل.

ونهض، وقعد على السرير، ثم أضاف:

ـ «الركبة في ذات نفسها لا بأس بها.» (كان قد انتهى من الركبة) «حدثني كل شيء عن كل شيء.»

فقلت:

ـ «ليس هناك ما أخبرك به. لقد عشت حياة هادئة.»

فقال:

ـ «أنت تسلك مسلك رجل متزوج. ماذا جرى لك؟»

فقلت:

ـ «لا شيء. وأنت ماذا جرى لك؟»

فقال:

ـ «إن هذه الحرب تقتلني. إنها توقع في نفسي غماً شديداً.»

وطوى يديه على ركبته.

فقلت:

ـ «أوه!»

ـ «ما بالك؟ ألا يجوز لي أن أعرف حتى بعض الحوافز البشرية؟»

ـ «لا. أستطيع أن أرى أنك كنت تقضي وقتاً طيباً. هات حدثني عن ذلك.»

ـ «لقد أمضيت الصيف كله والخريف كله في إجراء العمليات الجراحية. أنا أعمل بشكل متواصل. أنهض بأعمال الناس جميعاً. إنهم يتركون لي جميع الجراحات الصعبة. وحق الرب، أيها الطفل، أنا في سبيلي إلى أن أصبح جراحاً مدهشاً.»

ـ «مثل هذا النبأ يسرني أكثر.»

ـ «أنا لا أفكّر أبداً. لا، وحق الإله، أنا لا أفكّر. أنا أجري عمليات جراحية.»

ـ «هذا صحيح.»

ـ «أما الآن، أيها الطفل، فقد انتهى كل شيء. أنا لا أجري عمليات جراحية الآن، وهذا هو ما يضايقني إلى أبعد حد. إن هذه الحرب حرب فظيعة، أيها الطفل. صدقني عندما أقول لك ذلك. إنك ترفع من معنوياتي. هل جئتني بالإسطوانات؟»

ـ «نعم.»

كانت ملفوفة بالورق ضمن صندوق من الكرتون موضوع في جرابي. وكنت من التعب بحيث تقاعست عن إخراجها منه.

ـ «وأنت، ألست تستشعر النشاط والارتياح، أيها الطفل؟»

ـ «إني أستشعر الجحيم!»

فقال رينالدي:

ـ «هذه الحرب فظيعة. هيا. سوف نسكر كلانا، ونأخذ بأسباب الابتهاج. وعندئذ نطرد الهموم ونستشعر النشاط.»

وقلت:

ـ «لقد أصبت باليرقان. أنا لا أستطيع أن أسرف في الشراب.»

ـ «أوه، أيها الطفل، وإذن فهكذا رجعت إليَّ: رصيناً وذا كبد مريضة. أقول لك إن هذه الحرب شيء رديء. لماذا خضنا غمارها على أية حال؟»

ـ «سوف نشرب كأساً. أنا لا أريد أن أسكر ولكني سأشرب كأساً.»

وعبر رينالدي الغرفة متجهاً نحو المنضدة وجاء بكأسين وزجاجة كونياك. وقال:

ـ «إنه كونياك نمساوي. كونياك النجوم السبعة. إن هذا هو الشيء الوحيد الذي استولوا عليه في سان غابرييل.»

ـ «هل كنت معهم هناك؟»

ـ «لا. أنا لم أكن في أي مكان. لقد كنت هنا طوال الوقت

أجري عمليات جراحية. انظر، أيها الطفل، هذا كوب فرشاة أسنانك العتيقة. لقد احتفظت به هذه المدة كلها ليُذكرني بك.»

- «لكي يُذكرك بتنظيف أسنانك بالفرشاة.»

- «لا. إن عندي كوبي الخاص. لقد احتفظت به ليُذكرني بما كنت تفعله في الصباح. إنه يريني إياك، مقسماً الإيمان، ملتهماً الأسبرين، لاعناً البغايا، محاولاً أن تمسح عن أسنانك آثار الـ «فيلا روسًا». إني كلما رأيت هذا القدح فكَّرتُ في جهودك من أجل تنظيف ضميرك بفرشاة أسنان.»

قال ذلك واقترب من السرير، ثم أضاف:

- «قبّلني مرة وقلّ لي أنت لم تصبح رجلاً رصيناً.»

- «أنا لن أقبلك أبداً. أنت قرد.»

- «أدري. أنت نموذج الفتى الأنكلوسكسوني الطيب. أدري. أنت فتى الندامة وتوبيخ الضمير، أدري. سوف أنتظر حتى أرى الأنكلوسكسوني يمسح العهارة بفراشة أسنان.»

- «صب قليلاً من الكونياك في الكأس.»

وقرع كل منا كأسه بكأس صاحبه. وهزأ رينالدي بي.

- «سوف أسقيك حتى تسكر، وانتزع كبدك، وأضع لك مكانها كبداً إيطالية جيدة تُعيد إليك رجولتك.»

رفعت الكأس التماساً لمقدار إضافي من الكونياك. وفي الخارج كان الظلام حالكاً، ومضيت، والكأس في يدي، وفتحت النافذة. كان المطر قد كف عن التهاطل. والجو قد أمسى أكثر برداً في الخارج، وكان الضباب يغشى الأشجار.

قال رينالدي:

- «لا تقذف بالكونياك من النافذة. إذا كنت لا تستطيع أن تشربه فأعطني إياه.»

ـ «غامِرْ أنت بنفسك.»

كنت سعيداً بأن أرى رينالدي من جديد. لقد أمضى سنتين وهو «ينكرزني» ويناكدني، ولقد أحببت ذلك منه دائماً. إن كلاً منا قد فهم الآخر جيداً.

وسألني من السرير:

ـ «هل أنت متزوج؟»

كنت مستنداً إلى الجدار قرب النافذة.

ـ «لم أفعل بعد.»

ـ «هل أنت عاشق؟»

ـ «نعم.»

ـ «لتلك الفتاة الإنكليزية؟»

ـ «نعم.»

ـ «أيها الطفل المسكين! وهل هي لطيفة معك؟»

ـ «طبعاً»

ـ «أعني هل هي معك على نحو عملي؟..»

ـ «إخرس.»

ـ «سأخرس. سوف ترى أني رجل مهذب إلى أبعد حد. أهي...»

فقلت:

ـ «ريني. أرجوك أن تخرس. إذا أردت أن تكون صديقي فاخرس.»

ـ «أنا لا أريد أن أكون صديقك. إني صديقك فعلاً.»

ـ «إذن فاخرس.»

ـ «حسن.»

ومضيت وقعدت إلى جانبه. كان ممسكاً بكأسه محدقاً إلى الأرض.

ـ «لقد فهمت، يا ريني، أليس كذلك؟»

ـ «أوه، نعم. لقد واجهت، طول حياتي، مسائل لا يجوز الخوض فيها. أما معك فلم يُتح لي ذلك إلا قليلاً. وأحسب أنه لا بد أن يكون لديك شيء منها أيضاً.»

قال ذلك وعاود النظر إلى الأرض.

ـ «وأنت أليس لديك مثل هذه المسائل؟»

ـ «لا.»

ـ «على الإطلاق؟»

ـ «لا.»

ـ «هل أستطيع أن أقول كيت عن أمك وأن أقول كيت عن أختك؟»

فسارع رينالدي إلى القول:

ـ «أو عن أختك!»

وانفجر كلانا بالضحك.

وقلت:

ـ «يا للسوبرمان العجوز!»

فقال رينالدي:

ـ «لعلي أستشعر الغيرة منك.»

ـ «لا. أنت لا تستشعر ذلك.»

ـ «أنا لا أعني هذا النوع من الغيرة. إني أقصد شيئاً آخر. هل لك أصدقاء متزوجون؟»

فقلت:

ـ «نعم.»

فقال رينالدي:

ـ «أنا ليس لي أصدقاء متزوجون. بل ليس لي أصدقاء عشاق.»

ـ «لماذا؟»

ـ «إنهم لا يحبونني.»

ـ «لماذا؟»

ـ «أنا الأفعى. أنا أفعى العقل.»

ـ «لقد التبس عليك الأمر. كانت التفاحة هي العقل.»

ـ «لا. الأفعى كانت العقل.»

قال ذلك وغدا أكثر ابتهاجاً.

وقلت:

ـ «إنك تكون أفضل بكثير حين لا تفكّر تفكيراً عميقاً إلى هذا الحد.»

فقال:

ـ «أنا أحبك، أيها الطفل. إنك تزيل وَرَمي عندما أصبح مفكّراً إيطالياً عظيماً. ولكني أعرف أشياء كثيرة لا أستطيع أن أقولها. أنا أعرف أكثر مما تعرف أنت.»

ـ «نعم، هذا صحيح.»

ـ «ولكنك سوف تكون أسعد حالاً. حتى مع تبكيت الضمير سوف تكون أسعد حالاً.»

ـ «لست أظن ذلك.»

ـ «أوه، بلى. هذا صحيح. فأنا اليوم لا أستشعر السعادة إلا حين أنصرف إلى العمل.»

وعاود النظر إلى الأرض من جديد.

ـ «سوف تتغلب على ذلك.»

ـ «لا. أنا لا أحب إلا شيئين آخرين أحدهما يضر بعملي والآخر

ينقضي في نصف ساعة أو خمس عشرة دقيقة. وفي بعض الأحيان أقلّ.»

ـ «وأحياناً أقل من ذلك بكثير.»

ـ «لعليّ قد أحرزت تقدماً، أيها الطفل. أنت لا تدري. ولكن ليس هناك غير هذين الشيئين وعملي.»

ـ «سوف تكتشف أشياء جديدة.»

ـ «لا. إن المرء لا يكتشف أي شيء أبداً. إننا نولد مزوَّدين بكل ما نملك، ونحن لا نتعلم شيئاً البتة. إننا لا نكتشف أيما شيء جديد. نحن كلنا نبدأ كاملين. يجب أن تسرَّ لأنك لست لاتينياً.»

ـ «ليس هناك شيء اسمه الرجل اللاتيني. أعني التفكير اللاتيني. أنت شديد الاعتزاز بنقائصك.»

ورفع رينالدي بصره عن الأرض. وضحك.

ثم قال:

ـ «سوف نكف عن النقاش، أيها الطفل. لقد تعبت من التفكير إلى هذا الحد.» كان قد بدا متعباً عندما دخل الغرفة. «لقد حان وقت الطعام، تقريباً. أنا سعيد بعودتك. أنت أفضل أصدقائي، وأخي في السلاح.»

فسألته:

ـ «ومتى يأكل الإخوة في السلاح؟»

ـ «في الحال. سوف نشرب كأساً أخرى إكراماً لكبدك.»

ـ «مثل القديس بولس.»

ـ «هذا غير دقيق. إن ما تشير إليه كان يتصل بالخمر والمعدة. اشرب قليلاً من الخمر إكراماً لمعدتك.»

فقلت:

ـ «سوف أشرب أي شيء اشتملت عليه الزجاجة. إكراماً لأي شيء تنص عليه.»

فقال رينالدي:

ـ «إكراماً لفتاتك.»

ورفع كأسه.

ـ «حسن جداً.»

ـ «لن أقول بعد اليوم شيئاً قذراً عنها.»

ـ «لا تُجْهد نفسك.»

وكرع الكونياك. وقال:

ـ «أنا طاهر. أنا مثلك، أيها الطفل. سوف أفوز بفتاة إنكليزية أيضاً. الواقع أني عرفت فتاتك قبل أن تعرفها أنت. ولكنها كانت طويلة بعض الشيء، بالنسبة إليّ. طويلة إلى حد تصلح معه لأن تكون أختاً لي.»

فقلت:

ـ «إن لك عقلاً طاهراً إلى حد فاتن.»

ـ «أليس كذلك؟ من أجل هذا يدعونني رينالدو بوريسّيمو.»

ـ «رينالدو بوريسيسّيمو(*).»

ـ «هيا، أيها الطفل، سوف ننزل ونأكل ما دام عقلي طاهراً.»

وغسلت يديَّ ووجهي، وسرَّحت شعري، وهبطنا السلم. كان رينالدي مخموراً بعض الشيء. وفي الحجرة التي كنا نأكل فيها، لم يكن الطعام جاهزاً تماماً.

قال رينالدي:

ـ «سوف أذهب وأجيء بالزجاجة.»

(*) صيغة تحبُّب بالإيطالية.

وغادر الحجرة وارتقى السلم. ولم أكد أجلس إلى المائدة حتى رجع بالزجاجة وصبَّ لكل منا كأساً من الكونياك.

فقلت:

ـ «هذا كثير.»

ورفعت الكأس، ونظرت نحو المصباح الذي على المائدة.

ـ «ليس كثيراً بالنسبة إلى معدة فارغة. إنه شيء رائع. إنه يحرق المعدة حرقاً كاملاً. وليس ثمة ما هو أسوأ منه لك.»

ـ «حسن جداً.»

وقال رينالدي:

ـ «تدمير ذاتي، يوماً فيوماً. إنه يدمر المعدة ويجعل اليد ترتعش. وهو الشيء الذي يحتاج إليه الجرَّاح على وجه الضبط.»

ـ «هل تنصح به؟»

ـ «بكل حماسة. أنا لا أفعل غير ذلك. تَجَرَّعهُ، أيها الطفل، وارتقبْ أن يلمَّ بك المرض عمَّا قريب.»

وشربت نصف الكأس. وفي الرواق سمعت النادل يصيح: الحساء! الحساء جاهز!»

ودخل المايجور، وأومأ إلينا برأسه، وقعد، لقد بدا وراء المائدة ضئيل الجسم إلى حد بعيد.

وتساءل:

ـ «ألسنا أكثر عدداً من ذلك؟»

ووضع النادل وعاء الحساء على المائدة. فملأ صحنه.

قال رينالدي:

ـ «لا. إلا إذا جاء الكاهن. لو عرف أن فيديريكو هنا لجاء في الحال.»

فسألته:

ـ «أين هو؟»

فقال المايجور:

ـ «إنه في رقم 307»

كان منهمكاً بحسائه. ومسح فمه، مجففاً في عناية شاربَهُ الأشيب المعقوف. ثم أضاف:

ـ «سوف يجيء في ما أعتقد. لقد تلفنتُ لهم، وسألتهم أن يخبروه أنك هنا.»

فقلت:

ـ «إني أفتقد ضجة مطعمنا القديمة.»

فقال المايجور:

ـ «أجل. إنه اليوم هادئ.»

فقال رينالدي:

ـ «سوف أكون أنا صخّاباً.»

قال المايجور:

ـ «اشرب شيئاً من الخمر، يا آنريكو.»

وأترع كأسي. وجيء بالسباغيتي (المعكرونة) وانهمكنا كلنا في إلتهامها. ولم نكد نأتي عليها حتى أقبل الكاهن. كان هو هو، ضئيل الجسم أسمر، مكتنزاً. نهضت، وصافحته. فوضع يده على كتفي وقال:

ـ «لقد جئت حالما سمعت بعودتك.»

فقال المايجور:

ـ «اجلس. لقد تأخرتَ.»

قال رينالدي:

ـ «مساء الخير، أيها الكاهن Priest.»

واستعمل اللفظة الإنكليزية. وكانت تلك عادة من العادات أطلقها

الإنكليزية.

فقال الكاهن:

ـ «مساء الخير، رينالدي.»

وجاءه النادل بالحساء، ولكنه قال إنه يفضل أن يستهل طعامه بالسباغيتي (المعكرونة).

وسألني:

ـ «كيف أنت؟»

فقلت:

ـ «في خير حال. وأنت؟»

قال رينالدي:

ـ «ما رأيك في شيء من الخمر، أيها الكاهن Priest؟ اشرب قليلاً من الخمر إكراماً لمعدتك. سنَّة سنَّها القديس بولس، كما تعرف.»

فقال الكاهن في كياسة:

ـ «أجل، أعرف.»

وملأ رينالدي له كأساً، وقال:

ـ «ذلك القديس بولس! إنه هو مصدر المتاعب كلها.»

نظر الكاهن إليّ وابتسم. كان في ميسوري أن أرى أن المداعبة المريرة لم تمسَّهُ الآن.

وتابع رينالدي:

ـ «ذلك القديس بولس! لقد كان فاسقاً سكيراً، حتى إذا فقد الحرارة قال إن هذا كله شرّ. وعندما أصبح رجلاً متهدماً وضع القواعد لنا نحن الذين ما يزال الدم يجري حاراً في عروقنا. أليس هذا صحيحاً، يا فيديريكو؟»

ابتسم المايجور. كنا نتناول الآن صحناً من اللحم والخضر.
قلت:
ـ «من عادتي أن لا أبدي رأيي في قديس من القديسين بعد أن يهبط الليل.»
فرفع الكاهن بصره عن صحنه وابتسم لي.
وقال رينالدي:
ـ «عجيبٌ، إنه يقف الآن في صف الكاهن. أين مداعبو الكاهن القدماء الطيبون؟ أين كافالكانتي؟ أين بروندي؟ أين سيزار؟ هل كُتب عليَّ أن أداعب هذا الكاهن، وحدي، من غير نصير؟»
فقال المايجور:
ـ «إنه كاهن طيب.»
فقال رينالدي:
ـ «أجل إنه كاهن طيب. ولكنه كاهن على كل حال. إني أحاول أن أعيد إلى زمرتنا بهجة الأيام الخالية. إني أريد أن أجعل فيديريكو سعيداً. إلى الجحيم بك، أيها الكاهن.»
ورأيت المايجور ينظر إليه ويلاحظ أنه سكران. كان وجهه المهزول شاحباً، وكان شعره يبدو فاحماً بالنسبة إلى بياض جبينه
وقال الكاهن:
ـ «حسن، يا رينالدو. حسن.»
فقال رينالدي:
ـ «إلى الجحيم بك. إلى الجحيم بهذه المهنة اللعينة كلها.»
واستوى في كرسيه.
فقال لي المايجور:
ـ «إنه مرهَق رازح تحت ثقل الإجهاد.»
وأتى على صحن اللحم، ومسح الصلصة بقطعة من الخبز.

قال رينالدي للمائدة:

ـ «أنا لا أبالي مثقال ذرة. إلى الجحيم بالمهنة اللعينة كلها!»

وأجال بصره حول المائدة، في تحدّ. كانت عيناه شاردتين، وكان وجهه شاحباً.

فقلت:

ـ «حسن. إلى الجحيم بالمهنة اللعينة كلها.»

وقال رينالدي:

ـ «لا. لا. لا تستطيع أن تفعل ذلك. لا تستطيع أن تفعل ذلك. أقول لا تستطيع أن تفعل ذلك. أنت جاف، وأنت فارغ، وليس ثمة شيء آخر. أقول لك ليس هناك شيء آخر. ولا أقلّ شيء. أنا أعرف ذلك عندما أكفّ عن العمل.»

هزّ الكاهن رأسه. وأقبل النادل وأخذ صحن اللحم.

والتفت رينالدي إلى الكاهن وقال:

ـ «لماذا تأكل اللحم؟ ألا تعرف أن اليوم الجمعة؟»

فقال الكاهن:

ـ «اليوم الخميس.»

ـ «هذا كذب. اليوم الجمعة. أنت تأكل جسد الرب. إنه لحم اللّه. إنه لحم جندي نمساوي. ذلك هو ما تأكله.»

فقلت متمماً النكتة القديمة:

ـ «اللحم الأبيض هو لحم ضبّاط.»

وضحك رينالدي. وأترع كأسه. وقال:

ـ «أرجو أن تغضوا الطرف عني. أنا مخبول بعض الشيء.»

فقال الكاهن:

ـ «ينبغي أن تأخذ إجازة.»

وهز المايجور رأسه. وحدّق رينالدي إلى الكاهن.

ـ «تعتقد أن عليَّ أن آخذ إجازة؟»

فهز المايجور رأسه للكاهن. وواصل رينالدي تحديقه إليه.

وقال الكاهن:

ـ «كما تشاء. لا تأخُذْ إجازة إذا كانت غير راغب في أخذها.»

فقال رينالدي:

ـ «إلى الجحيم بك! أنت تحاول أن تتخلص مني. كل ليلة يحاولون التخلص مني. ولكني أذودهم عن نفسي. وأي بأس إذا أخذت إجازة؟ الناس كلهم يأخذون إجازات. أولاً...»

واسترسل متخذاً وضع المحاضر:

ـ «أولاً، يكون ثمة بثرة صغيرة ليس غير. وبعد ذلك نلاحظ طفحاً بين الكتفين. ثم لا نلاحظ أي شيء على الإطلاق. إننا نضع ثقتنا في الزئبق.»

فاعترضه المايجور في هدوء:

ـ «أو في السالفارسان(*)...»..

فقال رينالدي، وقد بدا شديد الاعتزاز الآن:

ـ «نتاج زئبقيّ. أنا أعرف شيئاً أفضل من ذلك كله. أيها الكاهن العجوز الطيب، أنت لن تصاب بذلك أبداً. الطفل سوف يصاب به. إنه حادثُ عمل. حادث عمل بسيط.»

وجاء الخادم بالحلوى والقهوة. كانت الحلوى ضرباً من الكاتو المصنوع من لب الخبز. وكان المصباح يرسل دخاناً، وكان الدخان الأسود يرتفع صُعُداً في داخل الزجاجة.

وقال المايجور:

ـ «إئتِ بشمعتين، وارِحْنا من هذا المصباح.»

(*) مستحضر طبي لمعالجة الأمراض الزهرية.

فجاء الخادم بشمعتين مضاءتين كلٌ منهما في صحن، وأخرج المصباح ونفخ عليه ابتغاء إطفائه. كان رينالدي هادئاً الآن، وكان يبدو سويّاً. وتحدَّثنا، وبعد القهوة قصدنا جميعاً إلى الرواق.

قال رينالدي:

ـ «أنت تريد أن تتحدث مع الكاهن. أما أنا فيجب أن أذهب إلى المدينة. طاب مساؤك أيها الكاهن Priest.»

فقال الكاهن:

ـ «طاب مساؤك، يا رينالدو.»

وقال رينالدي:

ـ «سوف أراك يا فَريدي.»

فقلت:

ـ «نعم. لا تتأخر في العودة.»

فكشَّر ساخراً مني ونظر نحو الباب.

كان المايجور واقفاً معنا، فقال:

ـ «إنه مُرْهق جداً، مُجْهَد جداً. وهو يظن أنه مصاب بالسفلس أيضاً. ولست أصدق ذلك، ولكنه قد يكون مصاباً به. إنه يعالج نفسه بما يعالَجُ به ذلك الداء. أنت سوف تفارقنا قبل طلوع الشمس، أليس كذلك يا آنريكو؟»

ـ «نعم.»

فقال:

ـ «وداعاً أيها السيد المايجور.»

ـ «وداعاً. إنهم يتحدثون عن هجوم نمساوي ولكني لا أصدق ذلك. أنا أرجو أن لا يحدث شيء مثل هذا. وعلى أية حال فإنه لن يقع هنا. جينو سوف يخبرك بكل شيء. التلفون يعمل الآن جيداً.»

ـ «سوف أتلفن لك على نحو نظامي.»

ـ «أرجوك أن تفعل. طاب مساؤك. لا تَدع رينالدي يسرف في الشرب إلى هذا الحد.»

ـ «سوف أحاول ذلك.»

ـ «طاب مساؤك أيها الكاهن.»

ـ «طاب مساؤك، أيها السيد المايجور.»

ومضى إلى مكتبه.

الفصل السادس والعشرون

تقدمت نحو الباب وأطللت منه. كان المطر قد انقطع، ولكن كان ثمة ضباب.

وسألت الكاهن:

ـ «ما رأيك في الصعود إلى الدور العلوي؟»

ـ «لن أستطيع البقاء إلا قليلاً.»

ـ «هيًّا نصعد.»

وارتقينا السلم. ومضينا إلى غرفتي. واستلقيت على سرير رينالدي. وقعد الكاهن على سريري الصغير الذي كان الخادم قد أقامه.

كان الظلام يهيمن على الغرفة. وقلت:

ـ «حسناً، كيف أنت فعلاً؟»

ـ «بخير. أنا متعب الليلة.»

ـ «وأنا متعب أيضاً، ولكن لغير ما سبب.»

ـ «وما رأيك في الحرب؟»

ـ «أعتقد أنها سوف تنتهي وشيكاً. لست أدري لماذا، ولكني أحسُّ ذلك.»

ـ «كيف تحسه؟»

ـ «هل سبق لك أن رأيت المايجور على هذا اللطف؟ إن كثيراً من الناس أصبحوا مثله الآن.»

فقلت:

ـ «أنا نفسي أستشعر مثل هذا التطور أيضاً.»

قال الكاهن:

ـ «لقد كان صيفاً فظيعاً». كان أكثر وثوقاً من نفسه الآن منه يوم رحلتُ. «أنت لا تستطيع أن تصدق كيف كان ذلك الصيف. ولكنك على أية حال كنت هناك وفي استطاعتك أن تتخيل على أي نحو انقضت تلك الأيام. إن كثيراً من الناس لم يدركوا حقيقة الحرب إلا هذا الصيف. وكثير من الضباط الذين حسبتُ أنهم لن يدركوا حقيقتها البتة أصبحوا يدركونها الآن.»

ـ «ما الذي سيحدث؟»

قلت ذلك ورحت أربّت بيدي على البطانية.

فأجاب:

ـ «لست أدري، ولكني لا أعتقد أن في إمكانها أن تستمر أكثر مما استمرت بكثير.»

ـ «ما الذي سيحدث؟»

ـ «سوف يكفُّون عن القتال.»

ـ «مَنْ؟»

ـ «كلا الفريقين.»

فقلت:

ـ «أرجو ذلك.»

ـ «ألا تعتقد هذا؟»

ـ «أنا لا أعتقد أن كلا من الفريقين سوف يكفّ عن القتال في الحال.»

ـ «وأنا أيضاً لا أعتقد. فهذا أكثر مما يستطيع المرء أن يتوقعه. ولكني حين أرى التغيُّرات الطارئة على الناس يتبدَّى لي أن الحرب لا يمكن أن تستمرّ.»

ـ «من الذي ربح الجولة هذا الصيف؟»

ـ «لا أحد.»

فقلت:

ـ «لقد ربحها النمساويون. لقد حالوا بينهم وبين الاستيلاء على سان غابرييل. لقد كسبوا. إنهم لم يكفّوا عن القتال.»

ـ «إذا شعروا بمثل ما نشعر به نحن فقد يكفّون. لقد عانوا مثل ما عانينا.»

ـ «لم يسجل التاريخ أن أحداً كفَّ عن القتال وهو منتصر.»

ـ «أنت توقع اليأس في نفسي.»

ـ «أنا لا أستطيع أن أقول إلا ما أعتقده.»

ـ «وإذن فأنت تعتقد أنها سوف تستمر وتستمر؟ وإن شيئاً لن يحدث أبداً؟»

ـ «لست أدري. كل ما أعتقده هو أن النمساويين لن يكفّوا عن القتال بعد أحرزوا نصراً. إننا لا نصبح مسيحيين إلا في حال الهزيمة.»

ـ «النمساويون مسيحيون، باستثناء البشناق.(*)»

ـ «أنا لا أعني مسيحيين بالمعنى الحرفي. لقد قصدت مثل المسيح.»

فلم يقل شيئاً.

ـ «نحن أكثر لطفاً، الآن، لأننا هُزِمنا. كيف كان يمكن للسيد المسيح أن يكون لو أن بطرس أنقذه في «حديقة الزيتون»؟»

(*) البشناق هم سكان البوسنة.

ـ «كان يظل كما نعرفه تماماً.»

فقلت:

ـ «لست أظن ذلك.»

فقال:

ـ «أنت توقع اليأس في نفسي. أنا أعتقد أن شيئاً سوف يحدث، وأصلّي من أجل ذلك. ولقد أحسست بأن حدوثه سيكون وشيكاً.»

فقلت:

ـ «إن شيئاً قد يحدث. ولكنه لن يحدث إلا لنا. ولو أنهم يحسُّون بمثل إحساسنا إذن لكان كل شيء حسناً. ولكنهم هزمونا. إنهم يحسُّون إحساساً آخر.»

ـ «إن كثيراً من الجند قد استشعروا دائماً مثل هذا الشعور. وليس مرد ذلك إلى أنهم قد هزموا.»

ـ «لقد هزموا منذ البدء. لقد هزموا عندما انتزعوهم من مزارعهم وأدخلوهم في الجيش. ذلك هو السبب الذي من أجله يتمتع الفلاح بالحكمة: لأنه قد هُزِم منذ البداية. سلِّمهُ مقاليد السلطة وانظر مبلغ حكمته.»

ولم يقل شيئاً. كان يفكّر.

وقلت:

ـ «إن معنوياتي أنا منحطة الآن. وهذا ما يجعلني لا أفكّر في هذه الأمور البتة. أنا لا أفكّر أبداً، ومع ذلك فحين أشرع في الحديث أقول ما أكتشفته بعقلي من غير تفكير.»

ـ «لقد كنت أرجو شيئاً.»

ـ «الهزيمة؟»

ـ «لا. شيئاً أكثر.»

ـ «ليس ثمة شيء أكثر من الهزيمة. ما عدا النصر. والنصر قد يكون أسوأ.»

ـ «لقد رجوت، طوال فترة مديدة، أن ننعم بالنصر.»

ـ «وأنا أيضاً.»

ـ «أما الآن فلست أدري.»

ـ «لا بدَّ من واحد منهما، آخر الأمر.»

ـ «أنا لم أعد أؤمن بالنصر.»

ـ «وأنا أيضاً. ولكني لا أؤمن بالهزيمة. على الرغم من أن الهزيمة قد تكون أفضل.»

ـ «ما الذي تؤمن به؟»

فقلت:

ـ «أؤمن بالنوم.»

فنهض قائلاً:

ـ «آسف جداً لبقائي هذه المدة كلها. ولكني أحب أن أتحدث إليك.»

ـ «من الجميل جداً أن نتحدث مرّة ثانية. لقد قلت ما قلته عن النوم من غير أن أعني شيئاً.»

ونهضنا، وتصافحنا في الظلام.

وقال:

ـ «أنا أبيت في رقم 307 الآن.»

ـ «سوف أنطلق إلى مراكز الإسعاف في ساعة مبكرة من صباح غد.»

ـ «سأراك عندما ترجع.»

ـ «ولسوف نتمشى ونتحدث معاً.»

وسرتُ معه حتى الباب.

ـ «لا تنزل. أنا سعيد جداً بعودتك، على الرغم من أن هذه العودة لا تبعث الارتياح في نفسك.»

ووضع يده على كتفي.

فقلت:

ـ «سيان عندي. طاب مساؤك.»

ـ «طاب مساؤك، سيياوو!»

فقلت:

ـ «تشاو!»

كان النعاس يكاد يقتلني.

الفصل السابع والعشرون

أفقت عندما دخل رينالدي الغرفة، ولكنه لم يتكلم، فاستسلمت للرقاد من جديد. وفي الصباح ارتديت ملابسي ومضيت لسبيلي قبل أن تشرق الشمس. إن رينالدي لم يستيقظ عندما غادرت الغرفة.

لم أكن قد رأيت مقاطعة الـ «بينسيزا» من قبل، ولقد وجدت أن من الغريب أن أصعد في هذا المنحدر الذي كان يحتله النمساويون، وراء البقعة التي جُرحت فيها عند ضفة النهر. كان ثمة طريق جديدة شديدة الانحدار، وكثير من الشاحنات. ووراء ذلك أمست الطريق مستوية، ورأيت وسط الضباب غابات وكثباناً شديدة الانحدار. كان ثمة غابات احتُلَّت في سرعة فلم تُسْحَقْ سحقاً. وأبعد إلى الوراء، حيث الطريق غير مصونة بالكثبان، كان يحجب هذه الطريق من جانبيها ومن أعلاها ضرب من البساط الكثيف. وكانت الطريق تنتهي بقرية مدمرة. وكانت خطوط القتال تمتد في مرتفع وراء ذلك بقليل. وحول هذه الخطوط انتشرت المدافع في كثرة. كانت البيوت مدمرة تدميراً ماحقاً، ولكن كل شيء كان منظماً تنظيماً حسناً جداً، وكان ثمة لوحات إعلانية في كل مكان. وعثرنا على جينو، فجاءنا بشيء من القهوة، وبعد ذلك ذهبت معه واجتمعت إلى أناس مختلفين، وتفقَّدت مراكز الإسعاف. قال جينو إن السيارات البريطانية كانت تعمل في الـ «رافن»، تحت الـ «بينسيزا» بقليل. كان شديد الإعجاب بالبريطانيين. وقال إنه لا يزال

هناك قصف متقطّع من المدافع ولكن عدد الجرحى قليل. ولسوف يتكاثر عدد المرضى عما قريب بعد أن شرع المطر في التهاطل. وكان من المفروض أن يشنّ النمساويون هجوماً، ولكن جينو لم يكن يعتقد أنهم سيفعلون، وكان من المفروض أن نشن نحن هجوماً أيضاً، ولكنهم لم يجيئوا بأية قوات جديدة، وهذا ما جعله يعتقد، كذلك، أن هذا الهجوم لن يقع. كان الطعام نادراً، وكان يُسعده أن يتناول وجبة طعام كاملة في غوريتزيا. أي نوع من العشاء كان العشاء الذي تناولته؟ وأجبته عن سؤاله هذا، فقال إن هذا خليق به أن يكون شيئاً رائعاً. ولقد تأثر على نحو أخص بالـ «دولس». ولم أصفه له في تفصيل، بل اكتفيت بالقول إنه يدعى «دولس»، وأحسب أنه اعتقد أن هذا «الصحن» اللذيذ كان أكثر أناقة من «كاتو» لبِّ الخبز.

هل كنت أعرف إلى أين كان يعتزم أن يذهب؟ فقلت لا، ولكني أعرف أن بعض السيارات الأخرى كانت في كابوريتو. فقال إنه يرجو أن يصعد في ذلك الاتجاه. كانت بقعة صغيرة لطيفة، وكان يحب الجبل الشامخ القائم خلفها. كان فتى قريباً إلى النفس، وكان كل امرئ يحبه في ما يبدو. لقد قال إن الجحيم الفعلي كان في سان غابرييل. وفي الهجوم الذي شنَّ وراء «لوم» والذي أخفق إخفاقاً كبيراً. وقال إن للنمساويين قوات مدفعية ضخمة في الغابات، على قمة تيرنوفا وراءنا وفوقنا، وكانوا يقصفون الطريق قصفاً عنيفاً بعد أن يهبط الليل. وكانت ثمة بطارية مدافع بحرية أثارت أعصابه إلى أبعد الحدود. كان في ميسور المرء أن يتبيَّنها بسبب من خط سيرها المنخفض. وكان دوي الانفجار يُسْمع أولاً ثم يعقبه الصفير في الحال تقريباً. فمن عادتهم أن يطلقوا النار من مدفعين في آن معاً. أحدهما في أثر الآخر، وكانت شظايا الانفجار هائلة. وأراني واحدة منها، قطعة معدنية مصقولة مسنَّنة يزيد طولها على قدم. لقد بدت أشبه شيء بالمعدن المضاد للاحتكاك.

وقال جينو:

ـ «أنا لا أعتقد أنها ذات فعالية كبيرة، ولكنها تلقي الرعب في فؤادي. إنها كلها تبدو وكأنها قادمة مباشرة من أجلك. إنك تسمع الهدير أولاً، وبعد ذلك في الحال تسمع الصفير والانفجار. أي فائدة من عدم إصابتك بجرح ما، إذا كانت تلك القنابل تروّعك حتى الموت؟»

وقال إنه كان ثمة في الخطوط المواجهة لنا الآن كرواتيون وبعض المجر. وإن قواتنا لا تزال في مواقع هجومية. ولم يكن ثمة جهاز اتصال لاسلكي يُذكر، ولا مكان نستطيع أن نرتدَّ إليه إذا ما قام النمساويون بهجوم. كانت هناك مواقع دفاعية ممتازة على طول الجبال المنخفضة المنبثقة من النّجاد، ولكن أيما شيء لم يُعمَل من أجل إعدادها للدفاع. وسألني جينو آخر الأمر رأيي في مقاطعة بينسيزا على أية حال.

فأجبته أني كنت أتوقع أن أجدها أكثر استواء، أشبه بنجد من النجاد. أنا لم أتصوّر من قبل أنها مكسَّرة إلى هذا الحد.

فقال جينو:

ـ «بيانو عال، ولكن من غير بيانو.»

ورجعنا إلى حيث كان يقطن في قبو أحد المنازل. قلت إني كنت أحسب أن سلسلة النجاد التي تستوي عند قمتها وذات العمق الضئيل يمكن أن يُدافع عنها على نحو أكثر سهولة مما يُدافعُ عن سلسلة من الجبال الصغيرة. وأضفت قائلاً إن الهجوم فوق جبل ما ليس أشد عسراً من الهجوم فوق الأرض المستوية. فقال:

ـ «ذلك يتوقف على طبيعة الجبال. انظر إلى سان غابرييل مثلاً.»

فقلت:

ـ «نعم، ولكن المتاعب بدأت على القمة حيث الأرض مستوية. لقد تسلَّقوا القمة في كثير من السهولة.»

فقال:

- «لا. لم يكن الأمر سهلاً إلى هذا الحد.»

فقلت:

- «أنا معك. ولكن هذه الحالة كانت حالة خاصة، لأن سان غابرييل قلعة أكثر منه جبلاً، على أية حال. لقد سلخ النمساويون سنوات طويلة في تحصينه.»

وكنت أعني أنه من وجهة النظر التكتيكية وفي حرب تتميّز ببعض الحركة لا تساوي سلسلة الجبال شيئاً كخط يُدافع عنه لأن من اليسير جداً الالتفاف حولها، ينبغي أن يتمتع الجيش بالقدرة على شيء من الحركة، والجبل ليس مَرِناً جداً. وإلى هذا فالمرء يطلق النار دائماً على نحو مرتفع جداً عندما يكون هو في مكان منخفض. فإذا ما قام العدو بحركة التفاف فعندئذ تُترك خيرة المقاتلين في أشد القمم شموخاً. أنا ما كنت أؤمن بحرب تدور رحاها في الجبال. وقلت إنني كنت قد فكّرت في ذلك كثيراً، إنك تنتزع من العدو جبلاً، وينتزعون منك جبلاً، ولكن ما إن يجدّ الجد حتى يضطرَّ كل من الفريقين إلى الهبوط إلى السهل.

وسألني:

- «ماذا كنت تفعل لو كانت لديك حدود جبلية؟»

فقلت:

- «أنا لم أدرس هذه المسألة بعد». وضحكنا كلانا. «ولكن في الأيام السالفة كان النمساويون يُهْزمون دائماً في الأراضي شبه المربَّعة المجاورة لفيرونا. كانوا يستدرجونهم إلى السهل ويُنْزِلون بهم الهزيمة هناك.»

فقال جينو:

- «أجل. ولكن هؤلاء كانوا فرنسيين، ومن اليسير على المرء حلّ المشاكل العسكرية حين يحارب في أراضي الأعداء.»

فوافقته على ذلك قائلاً:

ـ «هذا صحيح. ولكن حين يحارب المرء في وطنه يعجز عن معالجة الأشياء معالجة علمية إلى هذا الحد.»

ـ «لقد فعل الروس ذلك لكي يوقعوا نابوليون في الفخ.»

ـ «صحيح. ولكن بلادهم واسعة جداً. ولو أنك حاولت التراجع لإيقاع نابوليون في الفخ في إيطاليا إذن لوجدت نفسك في برنديزي.»

فقال جينو:

ـ «مدينة فظيعة. هل زرتها في يوم من الأيام؟»

ـ «زيارة خاطفة.»

فقال جينو:

ـ «أنا رجل وطني. ولكني لا أستطيع أن أحب برنديزي أو تارانتو.»

فسألته:

ـ «هل تحب البينسيزا؟»

فقال:

ـ «التربة مقدسة. ولكن أتمنى لو أنها تُنبت مقداراً أعظم من البطاطا. هل تدري؟ إننا عندما جئنا إلى هنا وجدنا حقول بطاطا كان النمساويون قد زرعوها.»

ـ «هل كانت ثمة أزمة مواد غذائية فعلاً؟»

ـ «أنا شخصياً لم أجد قط كفايتي من الطعام. ولكني أكول ضخم، ومع ذلك فلم أذق طعم الجوع. إن مقادير الطعام متوسطة. والجنود المقاتلون في خط النار ينعمون بتغذية جيدة. أما جنود الاحتياط فلا يفوزون بمثل تلك التغذية. إن ثمة خطأ، في مكان ما. يجب أن يكون هناك طعام وفير.»

ـ «الضباط الخنازير يبيعونه في مكان آخر.»

ـ «نعم. إنهم يقدمون إلى الكتائب المقاتلة في خط النار كل ما يستطيعون أن يقدموه، ويهملون الجنود العاملين في الخطوط الخلفية فهم يَشْكون نقصاً كبيراً في الغذاء. لقد التهموا مقادير البطاطا النمساوية كلها، وكستناء الغابات. إن عليهم أن يغذوهم تغذية أفضل. نحن أكولون من الطراز الأول. أنا واثق من أن ثمة طعاماً وافراً. وإنه لمما يؤذي الجند إلى أبعد الحدود أن يواجهوا نقصاً في الغذاء. هل لاحظتَ في يوم من الأيام الفَرق الذي يُحدثه ذلك في طريقة تفكيرك؟»

فقلت:

ـ «أجل، إن هذا ليس قادراً على أن يكسب حرباً، ولكنه قادر على أن يخسر حرباً.»

ـ «لن نتكلم عن خسارة الحرب. كفانا ما يدور من حديث عنها. إن ما تمَّ عمله في هذا الصيف لا يمكن أن يذهب سدى.»

لم أنطق بكلمة. فقد كنت أرتبك دائماً لدى سماعي هذه الكلمات: مقدَّس، مجيد، تضحية، وتعبير «يذهب سدى». لقد سبق لنا أن سمعناها، ونحن واقفون أحياناً تحت المطر، بعيداً عن مجال السمع تقريباً، بحيث ما كان يبلغ آذاننا غير الكلمات المهتوف بها. وسبق لنا أن قرأناها في البيانات الجدارية التي كان ملصقو الإعلانات يلصقونها منذ عهد بعيد فوق بيانات أخرى. ولم أكن قد رأيت أي شيء مقدَّس. والأشياء التي كانت مجيدة، لم يكن فيها شيء من المجد، والتضحيات كانت أشبه بمسالخ شيكاغو، مع هذا الفارق؛ وهو أن اللحم هنا يُدفن في الأرض ليس غير. لقد كان ثمة كلمات كثيرة ليس في استطاعتك احتمال سماعها، وكانت أسماء الأماكن هي وحدها ذات شرف وكرامة في آخر الأمر. والشيء نفسه كان يصح على بعض الأرقام وبعض التواريخ، بالإضافة إلى أن أسماء الأماكن كانت كل ما تستطيع أن تقوله وأنت واثق من أنه ينطوي على معنى. إن الكلمات المجردة، مثل المجد والشرف والشجاعة والقداسة، كانت

مقذعة بالقياس إلى الأسماء العينية الخاصة بالقرى. وأرقام الشوارع، وأسماء الأنهار، وأرقام الكتائب العسكرية، وتواريخ الأيام. إن جينو كان رجلاً وطنياً، ومن أجل ذلك كان يقول أشياء تفرِّق ما بيننا. ولكنه كان أيضاً فتى لطيفاً، وكنت أفهم وطنيَّته. لقد وُلد وطنياً. وفارقني مستقلاً السيارة مع بيدوزي لكي يرجع إلى غوريتزيا.

كانت العواصف تهب طوال ذلك النهار. وساقت الريح الأمطار بسياطها، وفي كل مكان كان وحل ومياه راكدة. كان جصّ المنازل المهدَّمة رمادياً رطباً. وفي ساعة متأخرة من الأصيل كفَّ المطر عن التهاطل، ومن مركز الإسعاف الثاني رأيت الريف وقد جعله الخريف عارياً نديّاً. وكللت السحب قمم الكثبان، والحُصُر تظلِّل الطُرق رطبة يقطر منها الماء. وأطلت الشمس رأسها مرة قبل أن تغرب، والتمعت فوق الغابات العارية وراء الكثبان. كانت ثمة مدافع نمساوية كثيرة في الغابات فوق تلك الكثبان. ولكن عدداً قليلاً منها فحسب كان يطلق النار. راقبتُ هبَّات الدخان المستديرة المنبعثة من قنابل الشَّرْبْنيل(*) والتي كانت تظهرفي السماء، فجأة فوق بيت ريفي متهدم قرب خط النار. كانت هبَّات خفيفة في وسطها وميض أبيض ضارب إلى الصفرة. وكنت تلمح الوميض، ثم تسمع الانفجار، ثم ترى كُرة الدخان وقد شوَّهتها الريح وبدَّدتها. وكانت أنقاض البيوت حافلة بكُرات قنابل الشربنيل الحديدية، وكذلك كانت الطريق المحاذية للبيت المهدَّم - حيث كان مركز الإسعاف - حافلة بتلك الكرات أيضاً، ولكن النمساويين لم يصوبوا النار على المركز في ذلك الأصيل، وحمَّلنا سيارتين اثنتين، وهبطنا الطريق المحجوبة بالحصر، واخترقت أشعة الشمس الأخيرة فجوا تالحصر. وقبل أن ننتهي إلى الطريق المكشوفة وراء التل، كانت الشمس قد غربت. هبطنا الطريق المكشوفة، وحين

(*) Shrapnel.

انعطفت بنا عند زاوية قادتنا إلى ساحة محجوبة بالحصر، شرع المطر يهطل كرة أخرى.

هبت الريح في الليل. وفي الساعة الثالثة صباحاً، وتحت وابل من المطر الغزير، بدأ قصف المدافع، وزحف الكرواتيون عبر المروج الجبلية وعبر الغابات الصغيرة، حتى خط النار. لقد قاتلوا في الظلام، تحت المطر، ولكن هجوماً معاكساً قام به رجال مذعورون من خط النار الثاني، ردَّهم على أعقابهم. كانت المدافع تقصف على نحو متواصل، وكانت الصواريخ تنطلق في المطر، ونيران الرشاشات والبنادق تدوي على طول الجبهة. ولم يعاود الكرواتيون الهجوم، وأصبحت الجبهة أهدأ من ذي قبل، وبين عصَفات الريح والمطر كان في ميسورنا أن نسمع صدى قصف هائل منبعث من مكان بعيد من ناحية الشمال.

كان الجرحى يفدون إلى مركز الإسعاف. كان بعضهم يُحملون على نقالات، وبعضهم يمشون، وبعضهم يُنقلون على ظهور جنود تقدَّموا بهم عبر الحقول. كانوا مبللين كلهم ومروَّعين. وملأنا سيارتين بجرحى محمولين على نقالات جيء بهم من قبو المركز. وفيما أنا أوصد باب السيارة الثانية وأحكم إغلاقه استشعرت المطر على وجهي يتحول إلى ثلج. كانت رقاقات الثلج تتساقط ثقيلة وسريعة وسط المطر.

عندما أشرقت الشمس كانت العاصفة لا تزال تهبُّ، ولكن تساقط الثلج كان قد انقطع. وقد ذاب حالَ سقوطه على الأرض الرطبة، وكان المطر قد بدأ يهطل من جديد. وبعد إشراق الشمس مباشرة شُنَّ هجوم جديد ولكنه لم يكن ناجحاً. وطوال النهار توقعنا هجوماً آخر، ولكنه لم يقع إلا مع غروب الشمس. وبدأ القصف من ناحية الجنوب تحت سلسلة الكثبان الطويلة المليئة بالغابات، حيث كانت مدافع النمساويين محتشدة في تركيز. وتوقعنا أن تمطرنا المدافع بنيرانها، ولكن ذلك لم يحدث. كان الليل قد شرع يهبط. وأطلِقت نيران

المدافع في الحقل، خلف القرية، فكان للقنابل الساقطة بعيداً دويّ مُريع.

وسمعنا أن الهجوم في الجنوب كان مخفقاً. إنهم لم يهجموا تلك الليلة، ولكننا سمعنا أنهم قد أحدثوا ثغرة في خطوطنا الشمالية. وفي وقت متأخر من الليل جاءنا الأمر بالاستعداد للتراجع. لقد أخبرني الكابتن بذلك، في مركز الإسعاف. كان قد تلقى ذلك الأمر من قيادة اللواء. وبعد فترة قصيرة فارق خط التلفون وقال إن ذلك كان كذباً. كان اللواء قد تلقى أوامر تطلب إليه الاحتفاظ بخط البينسيزا مهما كلف الأمر. وسألت عن الثغرة التي أحدثها النمساويون في خطوطنا، فقال إنه سمع في اللواء أن النمساويين اخترقوا مواقع الجيش السابع والعشرين قرب كابوريتو. كانت معركةٌ كبيرةٌ قد دارت رحاها في الشمال طوال النهار.

وقال:

ـ «إذا تركهم أبناء الزنا يمرُّون حلَّت بنا الهزيمة.»

فقال أحد الضباط الأطباء:

ـ «الألمان هم الذين يقومون بالهجوم.»

وكانت كلمة «الألمان» شيئاً يوقع الرعب في النفس. وكنا لا نريد أن تكون لنا أية صلة بالألمان.

قال الضابط الطبيب:

ـ «إن ثمة خمس عشرة فرقة من الألمان. لقد اخترقوا خطوطنا، ولسوف يقطعون علينا خط الرجعة.»

ـ «في اللواء يقولون إن علينا أن نحتفظ بهذا الخط. إنهم يقولون إن العدو لم يخترق مواقعنا على نحو خطير، وإننا سوف نقيم خطاً دفاعياً عبر الجبال، ابتداء من مونت ماغيور.»

ـ «من قال لهم هذا؟»

ـ «قيادة الفرقة.»

ـ «إن الأمر بالتراجع جاء من قيادة الفرقة.»

فقلت:

ـ «إننا نعمل بإمرة قائد الفيلق. أما هنا فإني أتلقى الأوامر منك. وطبيعيّ أني سوف أذهب إذا سألتني أن أذهب. ولكن حاوِل أن تحصل على أوامر واضحة لا لُبْسَ فيها.»

ـ «الأوامر تقضي بأن نبقى هنا. وعليك أن تنقل الجرحى من هنا إلى مركز الإجلاء.»

فقلت:

ـ «إننا في بعض الأحيان نجلو عن مركز الإجلاء إلى مستشفيات الميدان أيضاً. قل لي، فأنا لم أشهد قط تراجعاً ـ إذا ما اضطر جيش إلى التراجع فكيف يُجْلى جميع الجرحى؟»

ـ «إننا لا نُجلي الجرحى كلهم. إننا ننقل أكبر عدد منهم نستطيع نقله ونخلِّف الباقين وراءنا.»

ـ «وما الذي يتعيَّن عليَّ أن أحمله في السيارات؟»

ـ «معدَّات المستشفى.»

فقلت:

ـ «حسن.»

وفي الليلة التالية بدأ التراجع. كنا قد سمعنا أن الألمان والنمساويين قد اخترقوا خطوط دفاعنا في الشمال، وأنهم يهبطون أودية الجبال نحو «سيفيدال» و«يودين». كان التراجع نظامياً، مأتمياً، ففي وقت متأخر من الليل، ونحن نمضي وئيداً فوق الطُرق الحاشدة، مررنا بقوات تسير تحت المطر، وبمدافع، وخيول تجر بعض العربات، وبغال وشاحنات، وكان كل أولئك يتقهقر مبتعداً عن الجبهة. لم يعد ثمة فوضى واختلاط أكثر مما يكون في الزحف من فوضى واختلاط.

تلك الليلة ساعَدْنا على إخلاء مستشفيات الميدان التي أقيمت في قرى النجد الأقل خراباً، هابطين بالجرحى إلى بلافا، عند مجرى النهر. وفي اليوم التالي أمضينا النهار بطوله، تحت وابل المطر، ونحن نكدح لإخلاء المستشفيات ومركز الإجلاء في بلافا. كانت الأمطار تهطل على نحو موصول، ولقد غادر جيش البينسيزا النجد تحت مطر تشرين الأول (أكتوبر)، وعَبَرَ النهر، هناك حيث كانت الانتصارات الكبرى قد بدأت في ربيع تلك السنة نفسها. ووصلنا إلى غوريتزيا في ظهيرة اليوم التالي. كان المطر قد انقطع، وكانت المدينة خالية تقريباً. وفيما نحن نصعد في الشارع كان القوم يرحِّلون بنات الماخور الخاص بالجند على متن إحدى الشاحنات. كان عددهن سبعاً، وكنَّ يعتمرن بقبعاتهن ويرتدين معاطفهن، ويحملن حقائب ثياب صغيرة. كانت اثنتان منهن تبكيان. ومن بين الأخريات ابتسمت واحدة لنا، وأخرجت لسانها. كانت لها شفتان غليظتان ممتلئتان وعينان سوداوان.

أوقفت السيارة، ومضيت فتحدثت إلى القيِّمة. لقد قالت إن البنات العاملات في الماخور الخاص بالضباط غادرن المكان في ساعة مبكرة من ذلك الصباح. إلى أين كن ذاهبات؟ فأجابت: إلى كونيغليانو. وأدير محرك الشاحنة. ومرة ثانية أخرجت الفتاة ذات الشفتين الغليظتين لسانها لنا. ولوَّحت القيِّمة بيدها. وواصلت البنتان عويلهما. أما الأخريات فنظرن إلى المدينة في تطلّع وشوق. وعدت أنا إلى السيارة.

وقال بونيلو:

ـ «يجب أن نذهب معهن. مثل هذه الرحلة خليقة بأن تكون رحلة جميلة.»

فقلت:

ـ «ورحلتنا سوف تكون جميلة أيضاً!»

ـ «لا، إنها ستكون مزعجة إلى حد جهنمي.»

فقلت:

ـ «هذا ما أعنيه.»

واتخذنا سبيلنا إلى الدارة.

وقلت:

ـ «كم أتمنى لو أكون هناك عندما يثب واحد من أولئك الغلمان الجُفاة إلى الشاحنة ويحاول مغازلتهن.»

ـ «أتظن أنهم سوف يفعلون؟»

ـ «من غير ريب. إن كل امرئ في الجيش الثاني يعرف تلك القيِّمة.»

كنا قد انتهينا إلى الجزء الخارجي من الدارة.

وقال بونيلو:

ـ «إنهم يدعونها الأم العليا. البنات جديدات، أما هي فكل امرئ يعرفها. لا ريب أنهم قد جاءوا بالبنات قبل التراجع مباشرة.»

ـ «لا بد أن ينعمن بحظ أفضل في وقت قريب.»

ـ «هذا صحيح. وأني لأتمنى لو أهبط عليهن بدون مقابل. إن الرسم فاحش في ذلك الماخور، على أية حال. ويخيَّل إليَّ أن الحكومة تستغلنا وتبتز أموالنا.»

قلت:

ـ «أخرج السيارة وكلّف الميكانيكيين أن يفحصوها. غيِّر الزيت، وتأكد من سلامة جهاز توزيع القوة على العجلات (الدفيرانسيال). املأها حتى الشفة، واذهب ونم قليلاً.»

ـ «حسن، أيها السيد الملازم.»

كانت الدارة خالية. كان رينالدي قد انتقل مع المستشفى. وكان المايجور قد مضى مصطحباً هيئة المستشفى العاملة في السيارة الخاصة بتلك الهيئة. ووجدت على النافذة مذكرة موجَّهة إليَّ تكلفني بأن أملأ السيارات بالمواد المركومة في الرواق وبأن أتوجه نحو بوردينون. كان

الميكانيكيون قد غادروا المكان قبل ذلك. فرجعت أدراجي إلى المرآب. وأقبلت السيارتان الأخريان وأنا هناك، وترجَّل سائقاهما منهما. كانت السماء قد بدأت تمطر من جديد.

وقال بياني:

ـ «أنا نعسان إلى درجة جعلتني أستسلم للرقاد ثلاث مرات منذ غادرنا بلافا. ما الذي نعتزم أن نفعله، أيها الملازم؟»

ـ «سوف نغير الزيت ونشحِّم السيارات، ونملأها حتى الشفة، ثم نقودها إلى مدخل الدارة لكي نحمِّلها بسقط المتاع الذي خلَّفوه وراءهم.»

ـ «عندئذ ننطلق؟»

ـ «لا. سوف ننام ثلاث ساعات.»

فقال بونيلو:

ـ «أنا سعيد بأن أنام، وحق المسيح. لقد عجزت عن البقاء يقظان وأنا أقود السيارة.»

وسألت:

ـ «كيف سيارتك، يا ايمو؟»

ـ «حسنة جداً.»

ـ «إئتني بسترة سعدان(*). أريد أن أساعدك في تزييت السيارة.»

فقال ايمو:

ـ «لا تزعج نفسك بذلك، أيها الملازم. إنه ليس شيئاً يستحق هذا العناء. اذهب واحزم أمتعتك.»

فقلت:

ـ «أمتعتي كلها محزومة. سوف أذهب وأخرج ما تركوه لنا من

(*) Monkey Suit سترة ضيقة كان البحارة يرتدونها.

سقط المتاع. قودوا السيارات إلى مدخل الدارة حالما تصبح جاهزة.»

وقادوها إلى مدخل الدارة، فملأناها بمعدات المستشفى المركومة في الرواق. وحين تمَّ لنا ذلك اصطفت السيارات الثلاث في الممرّ المنحدر، تحت الأشجار والأمطار، ودخلنا إلى الدارة.

وقلت:

ـ «أوقدوا ناراً في المطبخ، وجفِّفوا ثيابكم.»

فقال بياني:

ـ «أنا لا يهمني أن تكون ثيابي جافة. أريد أن أنام.»

وقال بونيلو:

ـ «وأنا سوف أنام في سرير المايجور.»

فقال بياني:

ـ «إني لا أبالي أين أنام.»

فتحت الباب وقلت:

ـ «يوجد هنا سريران.»

فقال بونيلو:

ـ «طالما تساءلتُ ما الذي كان يوجد في هذه الغرفة.»

فقال بياني:

ـ «كانت هذه هي غرفة صاحب الوجه العجوز الشبيه بوجه السمكة.»

فقلت:

ـ «ناما أنتما الاثنان هنا. وسوف أوقظكما.»

فقال بونيلو:

ـ «النمساويون سوف يوقظوننا إذا نمتَ أكثر مما ينبغي، أيها الملازم.»

ـ «أنا لا أنام أكثر مما ينبغي أبداً. أين ايمو؟»

ـ «ذهب إلى المطبخ.»

فقلت:

ـ «اذهبا إلى النوم.»

فقال بياني:

ـ «سوف أنام. لقد أمضيت النهار بطوله وأنا نائم في مقعدي. كان الجزء الأعلى من رأسي يسقط فوق عينيَّ طوال الوقت.»

وقال بونيلو:

ـ «انزع حذاءك العالي. إن هذا سرير صاحب الوجه الشبيه بوجه السمكة.»

ـ «إن صاحب ذلك الوجه لا يساوي شيئاً في نظري.»

قال ذلك واستلقى على السرير بحذائه الموحل، ووضع رأسه على ذراعه. ومضيت إلى المطبخ. كان ايمو قد أشعل ناراً في الموقد، ووضع فوقها غلاّية ماء.

وقال:

ـ «لقد خطر لي أن أشرع في صنع شيء من الـ «باستا آسسييوتا». سوف نكون جائعين عندما نستيقظ.»

ـ «ألست نعسان، يا بارتولوميو؟»

ـ «بعض الشيء فقط. وعندما يغلي الماء سوف أتركه. وبعد ذلك تخمد النار.»

فقلت:

ـ «من الأفضل لك أن تأوي إلى النوم. في استطاعتنا أن نأكل شيئاً من الجبن ولحم البقر المعلَّب.»

فقال:

ـ «هذا أفضل. إن الشيء السَّاخن سوف يكون مفيداً لهذين الفوضويين اذهب أنت ونم، أيها الملازم.»

- «هناك سرير في غرفة المايجور.»

- «نم أنت هناك.»

- «لا. سوف أصعد إلى غرفتي القديمة. هل ترغب في شيء من الشراب، يا بارتولوميو؟»

- «عندما نذهب، أيها الملازم. إن معاقرة الخمر لن تفيدني الآن شيئاً.»

- «إذا استيقظتَ في مدى ثلاث ساعات ووجدتني لا أزال نائماً فأيقظني، هل عندك مانع؟»

- «ليس لديَّ ساعة، أيها الملازم.»

- «هناك ساعة معلقة على الجدار في غرفة المايجور.»

- «حسن.»

عندئذ اجتزت حجرة الطعام والوراق، ثم ارتقيت السلم الرخامية إلى الغرفة التي كنت أبيت فيها مع رينالدي. كان المطر يهطل. مضيت إلى النافذة، ونظرت إلى الخارج. كان الليل قد بدأ يهبط، ورأيت السيارات الثلاث مصطفة تحت الأشجار. كانت الأشجار تَقْطر تحت المطر. وكان الجو بارداً، وكانت القطرات تتدلى من الأغصان. رجعت إلى سرير رينالدي، واستلقيت عليه، واستسلمت للرقاد.

أكلنا في المطبخ قبل أن ننطلق. كان إيمو قد أعدَّ لنا طبقاً من السباغيتي المضاف إليها بعض البصل واللحم المعلَّب المفروميْن. جلسنا حول المائدة وشربنا زجاجتين من الخمر كانتا قد خُلِّفتا في الدارة. كانت الظلمة مسيطرة في الخارج، وكان المطر ما يزال يهطل. وجلس بياني إلى المائدة والنعاس يستبد به.

قال بونيلو:

- «أنا أحب التراجع أكثر مما أحب الزحف. في التراجع يُتاح لنا أن نعاقر الباربيرا.»

فقال ايمو:

ـ «نحن نشربها الآن. أما غداً فقد نشرب ماء المطر.»

ـ «غداً سوف نكون في يودين. سوف نشرب الشامبانيا. إن يودين هي مدينة المتهربين من الخدمة العسكرية. استيقظ، يا بياني! سوف نشرب الشامبانيا غداً في يودين!»

فقال بياني:

ـ «أنا يقِظ.»

وملأ طبقه بالسباغيتي واللحم. ثم أضاف:

ـ «ألم تستطع أن تجد شيئاً من مرق البندورة المتبَّل، يا بارتو؟»

ـ «لم يكن ثمة شيء من ذلك.»

وقال بونيلو:

ـ «سوف نشرب الشامبانيا في يودين.»

وأترع كأسه بالباربيرا الحمراء الصافية.

فقال بياني:

ـ «قد نشرب الـ... قبل أن نصل إلى يودين.»

وسألني ايمو:

ـ «هل أكلت حتى الشبع، أيها الملازم؟»

ـ «لقد شبعت. أعطني الزجاجة، يا بارتولوميو.»

فقال ايمو:

ـ «عندي لكل منا زجاجة أبقيتها إلى حين ننطلق بالسيارات.»

ـ «هل نعمت بشيء من النوم؟»

ـ «أنا لا أحتاج إلى كثير من النوم. لقد نمت قليلاً.»

فقال بونيلو وقد استخفه الشراب وأبهج فؤاده:

ـ «غداً سوف ننام في سرير الملك.»

فقال بياني:

ـ «بل قد ننام غداً في الـ. . .»

فقال بونيلو:

ـ «سوف أنام مع الملكة.»

ونظر إليّ ليرى صدى النكتة في نفسي.

فقال بياني والنعاس يداعب عينيه:

ـ «سوف تنام مع الـ. . .»

فقال بونيلو:

ـ «هذه خيانة، أيها الملازم. أليست هذه خيانة؟»

فقلت:

ـ «إخرس. إن قليلاً من الخمر أضاع صوابك.»

في الخارج كان المطر يهطل بغزارة. ونظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى التاسعة والنصف.

فقلت:

ـ «لقد آن لنا أن ننطلق.»

ونهضت واقفاً. فسألني بونيلو:

ـ «مع من تعتزم أن تركب، أيها الملازم؟»

ـ «ما ايمو. ولسوف تتبعنا أنت. أما «بياني» فيمضي في أثرنا. سوف نسلك الطريق المؤدية إلى كورمونس.»

فقال بياني:

ـ «أنا أخشى أن يغلبني النعاس فأنام.»

ـ «حسن. سوف أركب معك. ويتبعنا بونيلو، ثم ايمو.»

فقال بياني:

ـ «هذه هي الطريق الفضلى. لأني نعسان جداً.»

ـ «سوف أقود السيارة، وعندئذ سيكون في استطاعتك أن تنام فترة قصيرة.»

ـ «لا. أنا أستطيع أن أقود السيارة ما دمت عارفاً أن ثمة من سيعمد إلى إيقاظي إذا استسلمت للنوم.»

ـ «أنا سوف أوقظك. أطفئ الأنوار يا بارتو.»

فقال بونيلو:

ـ «ولِمَ لا تتركها مضاءة؟ إننا لن نحتاج إلى هذا المنزل بعد اليوم؟»

فقلت:

ـ «إن في غرفتي صندوق سفر عسكرياً صغيراً. هل لك أن تساعدني على إنزاله، يا بياني؟»

فقال بياني:

ـ «سوف نأخذه، هيا، يا آلدو.»

وانطلق إلى الرواق مع بونيلو. وسمعتهما يرتقيان السلم.

قال بارتولوميو ايمو:

ـ «لقد كان هذا مكاناً رائعاً.» ووضع زجاجتي خمر وقطعة من الجبن في كيسه. «إننا لن نجد مكاناً مثله بعد اليوم. إلى أين سوف ينسحبون أيها الملازم؟»

ـ «إلى ما وراء التاغليامانتو، كما يقولون. المستشفى وقطاع القيادة يجب أن يكونا في بوردينون.»

ـ «إن هذه البلدة أفضل من بوردينون.»

فقلت:

ـ «أنا لا أعرف بوردينون. لقد مررتُ بها مجرد مرور.»

فقال ايمو:

ـ «إنها ليست بالمكان الرائع.»

الفصل الثامن والعشرون

اجتزنا المدينة تحت المطر والظلام. كانت المدينة خالية مهجورة. ولم يكن هناك غير بعض القوات والمدافع التي تعبر بالشارع الرئيسي. كان ثمة كثير من الشاحنات أيضاً وبعض العربات المنطلقة في الشوارع الأخرى والمتجهة نحو الطريق الرئيسية. وحين انتهينا إلى الطريق الرئيسية بعد أن اجتزنا المدابغ، كانت العساكر والشاحنات وعربات الخيل والمدافع تشكّل خطاً طويلاً يتحرك في بطء. وتقدمنا في تؤدة ولكن في إطراد تحت المطر، ومقدَّم سيارتنا يكاد يصطدم بمؤخرة شاحنة مثقلة بأحمال عالية، وقد غُطيت تلك الأحمال بقطع من الخيش الرطب. ثم إن الشاحنة وقفت. فوقفت القافلة كلها. ثم انطلقت الشاحنة من جديد، فتقدَّمنا بعض الشيء، ثم توقفنا. ترجلت من السيارة ورحت أسير قُدُماً في خط متعرج بين الشاحنات والعربات وتحت أعناق الخيل المبللة. كانت العقبة التي اعترضت سبيل القافلة لا تزال بعيدة. وفارقتُ الطريق، وعبرت الخندق على لوح خشبي، واتخذت سبيلي عبر الحقول. وفيما أنا أمضي قُدُماً عبر الحقول كان في ميسوري أن أرى القافلة المحتجزة، بين الأشجار، تحت المطر. اجتزت نحواً من ميل. ولم يتحرك خط السير، ومع ذلك، فمن الناحية الثانية وراء العربات المحتجزة، استطعت أن أرى العساكر تتقدم. ورجعتُ إلى السيارات. إن هذه العقبة التي تعترض سبيلنا قد تمتد حتى يودين نفسها. وكان بياني نائماً فوق المقود. فصعدت وقعدت إلى

جانبه واستسلمت للرقاد أيضاً. وبعد بضع ساعات سمعت الشاحنة التي أمامنا تهدر هدير الانطلاق. فأيقظت بياني، وانطلقنا، متقدِّمين بضع ياردات، ثم توقّفنا، ثم انطلقنا من جديد. كان المطر لا يزال يهطل.

تعطل سير القافلة مرّة أخرى في الليل، فلم تستطع بعدُ تقدُّماً. ترجَّلت من السيارة وارتددت لأرى ايمو وبونيلو. كان يقعد إلى جانب بونيلو في سيارته مهندسان برتبة رقيب. ولم يكادوا يرون إليَّ مقبلاً نحوهم حتى أصلحوا من جلستهم.

وقال بونيلو:

ـ «لقد تُركا ليفعلا شيئاً لأحد الجسور. ولكنهما عجزا عن اللحاق بوحدتهما فأركبتهما معي.»

ـ «إذا سمح سيدي الملازم.»

فقلت:

ـ «لا بأس.»

وقال بونيلو:

ـ «الملازم أميركي. إنه مستعد لأن يسمح لأي أمرئ بالركوب.»

وابتسم أحد الرقيبين. أما الآخر فسأل بونيلو ما إذا كنت إيطاليا من أميركا الشمالية أو أميركا الجنوبية.

ـ «إنه ليس إيطالياً. إنه أميركي شمالي من أصل إنكليزي.»

كان الرقيبان لطيفين ولكنهما لم يصدقا ما قاله بونيلو. وفارقتهم ورجعت إلى ايمو. كان إلى جانبه على المقعد فتاتان، وكان هو جالساً في الزاوية الخلفية يدخن.

وقلت:

ـ «بارتو! بارتو!»

فانفجر ضاحكاً وقال:

ـ «تحدَّث إليهما أيها الملازم. أنا لا أستطيع أن أفهمهما. هاي!»
ثم إنه قرص الفتاة قرصة ودية. فما كان من الفتاة إلا أن أحكمت وضع «شالها» حول جسمها، وردَّت يده عنها.
وقال:
ـ «هاي! قولي للملازم ما اسمك وما الذي تعملينه هنا.»
نظرت الفتاة إليَّ في ضراوة. أما الفتاة الأخرى فأطرقت ولم ترفع عينيها. وقالت الفتاة التي نظرت إليَّ كلاماً ما في لهجة لم أفهم كلمة منها. كانت مكتنزة الجسم، سمراء، وكانت تبدو في نحو السادسة عشرة.
وقلت وأشرت إلى الفتاة الأخرى:
ـ «سوريلا؟»
فأومأت برأسها وابتسمت.
قلت:
ـ «حسن.»
وربّتُّ على ركبتها. واستشعرت أنها تصلبت حين مَسَسْتها. أما أختها فلم ترفع عينيها المطرقتين قط. ومن يدري، فلعلها كانت تبدو أصغر من أختها بسنة واحدة. وراح ايمو يداعب الفتاة الكبرى، ولكنَّها ردَّته عنها. وسخر منها وقال مشيراً إلى ذاته:
ـ «رجل طيب.»
ثم أضاف مشيراً إليَّ:
ـ «رجل طيِّب. لا تقلقي.»
ونظرت الفتاة إليَّ نظرة شرسة. كانت كل من الفتاتين أشبه بطائر برِّي غير مستأنس.
وتساءل ايمو:
ـ «وعلام ركبت معي إذا كانت لا تستلطفني؟ لقد صعدتا إلى

السيارة في اللحظة التي دعوتهما فيها.» والتفت إلى الفتاة وأضاف: «لا تقلقي. لا خوف من...» واستعمل كلمة غير لائقة، «لا مجال لـ...»

كان في ميسوري أن أرى أنها فهمت الكلمة، وكان ذلك كل شيء. وتطلعت عيناها إليه في ذعر بالغ. وأحكمت لفَّ نفسها بالشال.

وتابع ايمو:

ـ «السيارة ملأى. لا خوف من... لا مجال لـ...»

كانت الفتاة تجفل بعض الشيء كلما لفظ تلك الكلمة. ثم إنها قعدت متصلبة ونظرت إليه وشرعت تبكي. لقد رأيت شفتيها ترتعشان، والدموع تنحدر بعد ذلك على وجنتيها المكتنزتين. ومن غير أن ترفع أختها عينيها، أمسكت بيدها، وظلَّتا هكذا قاعدتين جنباً إلى جنب. ثم إن الكبرى، التي كانت جدَّ شرسة. شرعت تنتحب.

وقال ايمو:

ـ «يخيَّل إليَّ أني قد روَّعتها. أنا لم أقصد إلى ترويعها.»

وأخر بارتولوميو حقيبته وقطع قطعتين من الجبن، وقال:

ـ «خذي. اقلعي عن البكاء!»

هزت الأخت الكبرى رأسها وواصلت بكاءها، ولكن الصغرى أخذت الجبن وراحت تأكل. وبعد برهة وجيزة قدَّمت الصغرى إلى أختها قطعة الجبن الثانية، فأكلت الأختان معاً. وظلَّت الأخت الكبرى تنتحب بعض الشيء.

وقال أيمو:

ـ «لا بد أن يزايلها الاضطراب بعد قليل.»

وخطرت له فكرة فسأل الفتاة التي إلى جانبه:

ـ «عذراء؟».

فهزت برأسها في قوة. وأشار إلى أختها قائلاً:

ـ «عذراء أيضاً؟»

فأومأت الفتاتان برأسيهما، وقالت الكبرى كلاماً ما باللغة العامية.

فقال بارتولوميو:

ـ «حسن جداً. حسن جداً.»

عندها بدا أن كلتا الفتاتين قد داخلهما الابتهاج.

تركتهما جالستين معاً وقد قعد ايمو في الزاوية الخلفية، ورجعت إلى سيارة بياني. لم تتحرك قافلة السيارات والعربات، ولكن الجنود واصلوا تقدمهم إلى جانب الطريق. كان المطر لا يزال يهطل مدراراً، وتراءى لي أن توقف القافلة مرَّة بعد مرة ناشئ عن الأثر الذي أحدثته المياه في المحركات. وأرجح الظن أنه ناشئ عن استسلام الخيل أو الرجال للنوم. ومع ذلك فإن السير قد يتعرقل في المدن عندما يكون كل الناس في حالة حركة. لقد كان مردّ ذلك إلى تمازج الخيل والسيارات. لقد تعارضا ولم يُسعف أي منهما الآخر. وزادت عربات الفلاحين الطين بلّة. الفتاتان اللتان مع بارتو كانتا فتاتين رائعتين. إن الجيش المتقهقر لا يتسع لفتاتين عذراوين. فتاتين عذراوين حقاً. ومن يدري فلعلهما كانتا شديدتي التديُّن أيضاً. وأغلب الظنّ أنه لولا الحرب لكنا جميعاً في السرير. في السرير حيث أريح رأسي على وسادة. فراش ولوح خشب. متصلب مثل لوح خشب في فراش. لقد كانت كاثرين الآن في فراشها بين بطانيتين اثنتين، إحداهما فوقها والثانية تحتها. على أي جانب كانت نائمة؟ لعلها لم تكن نائمة. لعلها كانت مستلقية في سريرها تفكِّر بي. أعصفي، أعصفي، أيتها الرياح الغربية. حسناً، لقد عصفت. ولم يكن ذلك الذي هطل هو المطر الصغير. لا. كان هو المطر الكبير. لقد أمطرت السماء طوال الليل. وأيُّ مطر كان ذلك! أيُّ مطر! أنظر إليه. آه، يا إلهي، ليتني كنت وحبيبتي بين ذراعيَّ في السرير، حبيبتي كاثرين. ليت حبيبتي الحلوة

كاثرين تستطيع أن تتحول إلى مطر. احمليها أيتها الرياح إليَّ. حسناً لقد كنا فيه. كان كل امرئ أسيره، ولم يستطع المطر الصغير أن يُسوِّي الأشياء. وقلت بصوت عال، «طاب مساؤك يا كاثرين. أرجو أن تنامي نوماً عميقاً. وإذا لم يكن ذلك مزعجاً كثيراً، أيتها الحبيبة، فإني أسألك أن تنامي على الجانب الآخر، سوف آتيك بشيء من الماء البارد. بعد فترة قصيرة يطلع الصبح، ولن يكن الحال على هذا السوء كله. يؤسفني أن تكوني منزعجة إلى هذا الحد. حاولي أن تنامي، يا حبيبتي.»

فقالت:

ـ «كنت نائمة طوال الوقت. ولقد كنت تتكلم وأنت نائم. هل أنت بخير؟»

ـ «أأنت هنا حقاً؟»

ـ «طبعاً أنا هنا. أنا لن أبتعد عنك. إن هذا لن يعكِّر حبناً أبداً.»

ـ «أنت رائعة وحلوة إلى أبعد الحدود. أنتِ لن تمضي لسبيلك في الليل، أليس كذلك؟»

ـ «طبعاً، أنا لن أمضي لسبيلي. أنا هنا دائماً. سوف أجيء كلما أردت أنت أن أجيء.»

وجاء بياني:

ـ «... لقد انطلقت القافلة من جديد.»

قلت:

ـ «لقد كنتُ مستسلماً للرقاد.»

ونظرتُ إلى ساعتي. كانت الساعة الثالثة صباحاً. ومددت يدي إلى ما وراء المقعد بحثاً عن زجاجة من الباربيرا.

فقال بياني:

ـ «لقد تكلمت بصوت عال.»

فقلت:

ـ «كنت أرى مناماً باللغة الإنكليزية.»

كان المطر قد تراخى، وكُنَّا نتخذ سبيلنا قُدُماً. وقبل انبلاج الفجر توقّفت القافلة مرّة أخرى. وحين أرسلت الشمس أولى أشعتها وجدنا أنفسنا في مرتع من الأرض، ووقع بصري على طريق الانكفاء ممتدَّة أمامنا على مدى النظر، وكان كل شيء مسمَّراً في مكانه، ما عدا قوات المشاة التي كانت تواصل سيرها. انطلقنا من جديد، ولكني أدركت ـ بعد أن رأيت سرعة التقدم في ضوء النهار ـ أننا سوف نضطر أن نسلك تلك الطريق الرئيسية، ونمضي عبر الحقول إذا كنا نطمع في الوصول إلى يودين.

في الليل انضمَّ إلى القافلة كثير من الفلاحين تدفقوا من مختلف أنحاء الريف، فإذا بنا نرى في القافلة عربات مثقلة بالأدوات المنزلية. كان ثمة مرايا ناتئة بين الفُرش والحشايا، ودجاج وبط مشدودة إلى العربات. وكان ثمة ماكينة خياطة في العربة التي أمامنا، تحت المطر. كانوا قد استنقذوا أثمن الأشياء. وفي بعض العربات قعدت النسوة محتشدات لاتّقاء المطر، ومشى بعضهن إلى جانب العربات غير مبتعدات عنها إلا قليلاً. كان في القافلة الآن عدد من الكلاب. وكانت هذه الكلاب تمشي بين عجلات العربات في الطريق موحلة، وكانت الخنادق المحاذية ملأى بالماء. ووراء الأشجار التي تنكشف الطريق من جانبها بَدت الحقول مبتلة جداً إلى حد يجعل محاولة اجتيازها أمراً بالغ العسر. وترجلتُ من السيارة، وصعدت في الطريق بعض الشيء، متطلعاً إلى مكان استطيع أن أرى فيه إلى بعيد بحثاً عن طريق فرعية نستطيع أن نجتازها عبر الحقول. كنت أعرف أن هناك كثيراً من الطرق الفرعية، ولكني لم أكن راغباً في طريق مسدود لا يقود إلى شيء. وما كان في استطاعتي أن أتذكر تلك الطرق لأننا كنا نجتازها دائماً بالسيارة، منطلقين على الطريق الرئيسية بأقصى السرعة، وكانت كلها

تبدو متشابهة إلى حد بعيد. وكنت على يقين أنه علينا أن نعثر على إحدى تلك الطرق إذا ما طمعنا في الوصول إلى المكان الذي نقصد. ولم يكن أحد يدري أين كان النمساويون. ولا كيف كانت الحال في جبهة القتال، ولكنني كنت واثقاً من أنه إذا توقّف المطر وأقبلت الطائرات وقذفت تلك القافلة بقنابلها فعندئذ ينتهي كل شيء. ولن يقتضينا الموقف غير مغادرة بضعة جنود لسياراتهم ومصرع عدد من الخيل حتى تتعطل الحركة على الطريق تعطلاً كاملاً.

لم يكن المطر يهطل في غزارة بالغة، الآن، ولقد خُيِّل إليَّ أن السماء سوف تصحو. وتابعت سبيلي على حافة الطريق، حتى إذا وجدت درباً يقود إلى الشمال بين حقلين يكتنفهما من كل جانب سياج من الأشجار بدا لي أن من الأفضل لنا أن نسلكه، وأسرعتُ عائداً إلى السيارات. وطلبت إلى بياني أن ينعطف في الاتجاه الآخر. ورجعت لأخبر بونيلو وأيمو.

وقلت:

ـ «إذا ظهر لنا أن الطريق غير نافذة ففي ميسورنا أن نستدير من جديد ونعاود اللحاق بالقافلة.»

وسألني بونيلو:

ـ «ماذا نفعل بهذين؟»

كان الرقيبان جالسين إلى جانبه على المقعد. كان شعر لحيتهما قد نبت، ومع ذلك فقد كان سَمْتُهما عسكرياً في ذلك الصباح الباكر.

فقلت:

ـ «سوف يساعداننا في دفع العربات إلى أمام.»

ورجعت إلى ايمو وقلت له إننا سنحاول الانطلاق عبر الحقول.

فسألني ايمو:

ـ «وما الذي سأفعله بفتاتيَّ العذراوين؟»

كانت الفتاتان مستسلمتين للرقاد.

فقلت:

ـ «إنهما لن تفيدانا كثيراً. والأفضل لك أن تُقلَّ بسيارتك أشخاصاً يستطيعون أن يدفعوها.»

فقال ايمو:

ـ «في استطاعتنا أن نضعهما في المقعد الخلفي. هناك متسع لهما في السيارة.»

فقلت:

ـ «لا بأس في ذلك إذا كنت راغباً فيهما. ولكن حاول أن تتلقَّف شخصاً عريض الظهر قادراً على مساعدتك في دفع السيارة إلى أمام.»

فابتسم ايمو وقال:

ـ «سأتلقَّف واحداً من البيرساغليري. إن لهم أعرض الظهور. ذلك أن السلطات العسكرية تقيس ظهورهم. كيف أنت أيها الملازم؟»

ـ «ممتاز. وأنت؟»

ـ «ممتاز. ولكني جائع جداً.»

ـ «لا بد أن نجد شيئاً في نهاية هذه الطريق، ولسوف نقف هناك ونأكل.»

ـ «وكيف رِجْلك أيها الملازم؟»

فقلت:

ـ «ممتازة.»

وقفت على جنب السيارة، وتطلَّعت إلى بعيد، فكان في استطاعتي أن أرى سيارة بياني تستدير وتبتعد في الطريق الفرعي الصغير. لقد بَدت سيارته وهي تنطلق خلال الأشجار الجرداء القائمة على الجانبين. واستدار بونيلو بسيارته ولحق به. ثم إن ايمو استدار، بدوره، سالخاً نفسه من القافلة سلخاً، وتبِعنا سيارتَي الإسعاف على الطريق الضيقة، وسط سياج الأشجار. وانتهت بنا تلك الطريق إلى

مزرعة. وهناك وجدنا بياني وبونيلو وقد توقَّفا في الفناء. كان البيت منخفضاً وطويلاً. وكانت تعلو الباب خيمة خشبية امتدت عليها أغصان الكرمة. وكان في الفناء بئر، وراح بياني يمتح الماء منه لكي يملأ مشعاع السيارة (الرادياتور). إن اضطراره إلى الإكثار من السير محتفظاً بناقل السرعة في الموضع الذي يكون فيه عادة عند الانطلاق، قد بخَّر كل ما في المشعاع من ماء. كان البيت مهجوراً. ونظرت إلى وراء. كان البيت قائماً على مرتفع يسير فوق السهل، وكان في ميسورنا أن نشرف على الريف كله، فرأينا الطريق، والأسيجة، والحقول، وخط الأشجار الممتد على طول الطريق الرئيسية حيث كانت قواتنا تتراجع. كان الرقيبان قد دخلا إلى البيت مستكشفَيْن. وكانت الفتاتان قد استيقظتا وراحتا تنظران إلى الفناء، وإلى البئر، وإلى سيارتي الإسعاف الواقفتين أمام البيت، وإلى السائقين الثلاثة المجتمعين حول البئر. وخرج واحدٌ من الرقيبين وفي يده ساعة حائط.

وقلت:

ـ «أعدْها إلى مكانها.»

فنظر إليَّ وارتدَّ إلى المنزل، ثم رجع من غير أن تكون تلك الساعة في يده.

وسألته:

ـ «أين رفيقك؟»

ـ «لقد ذهب إلى المرحاض.»

ووثب فاتخذ لنفسه مكاناً في السيارة. كان يخشى أن نخلِّفه وراءنا.

وتساءل بولينو:

ـ «وفطور الصباح، أيها الملازم؟ في استطاعتنا أن نأكل شيئاً ما. إن ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً.»

ـ «هل تعتقد أن هذه الطريق الممتدة في الجانب الآخر سوف تنتهي بنا إلى مكان ما؟»

ـ «من غير شك.»

ـ «حسن. فلنأكل.»

ومضى بياني وبونيلو فدخلا البيت.

وقال ايمو للفتاتين:

ـ «هلمَّا!»

وبسط يده إليهما لكي يساعدهما على الترجل من السيارة.

هزَّت الأخت الكبرى رأسها. لقد رفضتا الذهاب إلى بيت مهجور. ولقد اكتفت كل منهما بأن أتْبَعتْنا نظرَها.

فقال ايمو:

ـ «إنهما صعبتا المراس.»

ودخلنا البيت الريفي معاً. كان بيتاً واسعاً قاتماً. يعطي انطباعة موحشة. كان بونيلو وبياني في المطبخ.

فقال بياني:

ـ «ليس لدينا شيء كثير نأكله. لقد «نظفوا» البيت تنظيفاً.»

وأنشأ بونيلو يقطع قرصاً كبيراً من الجبن الأبيض فوق طاولة المطبخ الثقيلة.

ـ «وأين كان هذا الجبن؟»

ـ «في القبو. لقد وجد بياني خمراً أيضاً وتفاحاً.»

ـ «هذا فطور صباحيٌّ جيد.»

كان بياني ينتزع السدادة الخشبية عن دنٍّ خمر مغطى بأغصان مجدولة.

أمال الدنَّ وملأ بالخمر قدراً نحاسية.

وقال:

ـ «إن رائحتها زكية. هاتِ بعض الكؤوس يا بارتو.»

ودخل الرقيبان.

وقال بونيلو:

ـ «دونكما بعض الجبن، أيها الرقيبان.»

قال أحد الرقيبين، وهو يأكل شيئاً من الجبن ويشرب كأساً من الخمر:

ـ «ينبغي أن نذهب.»

فقال بونيلو:

ـ «سوف نذهب. لا تقلق.»

فقلت:

ـ «الجيش يزحف على معدته.»

فتساءل الرقيب:

ـ «ماذا؟»

ـ «من الأفضل أن نأكل.»

ـ «أجل، ولكن الوقت ثمين.»

فقال بياني:

ـ «أعتقد أن ابنَيْ الزنا قد أكلا من قبل.»

ونظر الرقيبان إليه. كانا يكرهاننا كلنا.

وسألني أحدهما:

ـ «هل تعرف الطريق؟»

فقلت:

ـ «لا.»

وتبادلا النظرات.

وقال أولهما:

ـ «من الأفضل لنا أن ننطلق.»

فقلت:

ـ «نحن منطلقون.»

وتجرعتُ كأساً أخرى من النبيذ. كان مذاقُهُ ممتازاً بعد الجبن والتفاح.

وقلت:

ـ «احملوا الجبن.»

وخرجتُ. وخرج بونيلو حاملاً دنَّ النبيذ.

وقلت:

ـ «هذا أكبر مما ينبغي.»

نظر إليه في أسف، وقال:

ـ «أظن ذلك. أعطني حافظات الماء المعدنية حتى أملأها.

وملأ تلك الحافظات، فسال بعض النبيذ على حصباء الفناء. ثم إنه تناول الدنَّ ووضعه وراء الباب مباشرة.

وقال:

ـ «في استطاعة النمساويين أن يجدوه من غير أن يكسروا الباب.»

قلت:

ـ «فلننطلق. أنا وبياني سوف نمضي في المقدمة.»

كان المهندسان قد أخذا مكانهما إلى جانب بونيلو. وكانت الفتاتان تأكلان جبناً وتفاحاً. أما ايمو فكان يدخن. وانطلقنا هابطين الطريق الضيقة. والتفتُّ إلى السيارتين اللاحقتين بنا وإلى البيت الريفي. كان بيتاً حجرياً جميلاً، منخفضاً، متيناً، وكان الجزء الحديدي من البئر جيداً جداً. وأمامنا امتدَّت الطريق ضيقة موحلة، وكان ثمة سياج عال يكتنف كلا الجانبين. وخلفنا، كانت السيارات تتبعنا وكأنها لاصقة بنا.

الفصل التاسع والعشرون

عند الظهر تورَّطنا في طريق موحلة تبعد، على قَدْر ما استطعنا أن نتصوَّر، نحواً من عشرة كيلو مترات عن يودين. كان المطر قد توقّف خلال الأصيل، وثلاث مرّات كنا قد سمعنا الطائرات مُقبلة، ورأيناها تمرّ فوق سَمْت الرأس، وراقبناها تمضي بعيداً إلى اليسار حيث سمعناها تقصف الطريق الرئيسية بقنابلها. اتخذنا سبيلنا في عسر، عبر شبكة من الطُرق الثانوية. والواقع أننا وجدنا أنفسنا أمام كثير من الطرق غير النافذة، ولكننا كنا في هذه الحال نرتدُّ إلى الوراء فنعثر على طريق جديدة، وهكذا كنا نقترب من يودين على نحو متواصل. وفيما كانت سيارة ايمو ترتد على هذا النحو للخروج من أحد الدروب المسدودة انتهت إلى أرض ليّنة بالوحل على جانب الطريق، فإذا بالدواليب تنزلق وتنغرز في التربة أعمق فأعمق حتى لقد استقرت السيارة على «الديفيرانسيال». ولم يكن أمامنا الآن إلاّ أن نحفر حول الدواليب وأن نضع أغصاناً يابسة حتى يكون في إمكان السلاسل أن تُمْسك، وعندئذ ندفع السيارة حتى نعيدها إلى الطريق. كنا كلنا قد ترجَّلنا ووقفنا حول السيارة. ونظر الرقيبان إليها وتفحَّصا العجلات ثم هبطا الطريق منصرفين من غير أن يقولا كلمة. ولحقتُ بهما.

وقلت:

ـ «تعالا. اقطعا بعض الأغصان.»

فقال أحدهما:

ـ «إن علينا أن نذهب.»

فقلت:

ـ «شمّرا عن سواعدكما، واقطعا بعض الأغصان.»

فقال واحد منهما:

ـ «علينا أن نذهب.»

أما الآخر فلم يقل شيئاً. كانا يتعجّلان المضيَّ. ولم يجرآ على النظر إليَّ.

قلت:

ـ «إني آمركما بالعودة إلى السيارة وبقطع الأغصان.»

فاستدار أحد الرقيبين وقال:

ـ «يتعين علينا أن نمضي في سبيلنا. فما هي إلا فترة يسيرة حتى تُطوَّقوا. إنك لا تستطيع أن تأمرنا. أنت لست ضابطنا.»

فقلت:

ـ «إني آمركما بقطع الأغصان.»

فاستدارا، وهبطا الطريق.

فصحت:

ـ «قفا!»

فواصلا هبوط الطريق الموحلة، بين السياجين المحيطين بها من الجانبين.

ـ «آمركما بأن تقفا!»

فأسرعا في مسيرهما بعض الشيء. وفتحتُ حافظة الغدارة الجلدية، وأخرجت الغدارة، وسدَّدتها إلى ذلك الذي كان أكثرهما كلاماً، وأطلقت النار، وأخطأتُهُ، وعندئذ أطلق الاثنان ساقيهما للريح. وأطلقت النار ثلاث مرّات، فجندلتُ واحداً منهما. في حين ولّى الثاني عبر السياج وغاب عن البصر. وصوبت إليه النار من خلال

السياج فيما كان يعدو عبر الحقل. وفرغتِ الغدارة، فزوَّدتها بمخزن خراطيش جديد. ورأيت أن الرقيب الثاني أمسى أبعد من أن تصوَّب إليه النار. كان يعدو بعيداً عبر الحقل، مطأطئاً رأسه. وبدأت أشحن مخزن الخراطيش عندما برز بونيلو أمامي وقال:

ـ «دعني أجهز عليه.»

فناولته الغدارة، فهبط إلى حيث كان الرقيب الهندي منطرحاً عبر الطريق مستقبلاً الأرض بوجهه. وانحنى بونيلو فوقه، ووضع فم الغدارة على رأس الرجل، وضغط على الزناد. ولكن الغدارة أبت أن تعمل.

وقلت:

ـ «يتعيَّن عليك أن تردَّ الزناد إلى وراء.»

فردَّه إلى الوراء، وأطلق النار مرتين. وأمسك برجليْ الرقيب، وسحبه إلى جانب الطريق حتى أمسى في محاذاة السياج، ثم إنه رجع وأعاد الغدَّارة إليَّ.

وقال:

ـ «ابن الزنا!»

ونظر إلى الرقيب، ثم أضاف:

ـ «لقد رأيتني أجهز عليه، أليس كذلك أيها الملازم؟»

فقلت:

ـ «يتعين علينا أن نقطع الأغصان في سرعة. هل أصابت ناري الرقيب الآخر؟»

فقال ايمو:

ـ «لست أعتقد ذلك. كان أبعد من أن يصاب بغدارة من الغدارات.»

فقال بياني:

ـ «يا للوغد القذر!»

كنا كلنا نقطع أفناناً وأغصاناً. كان كل شيء قد أخرج من السيارة. وكان بونيلو يحفر أمام الدواليب. وحين أنجزنا استعدادنا هذا أدار ايمو المحرك ووضع ناقل السرعة في المواضع الذي يكون فيه عند الانطلاق. ودارت الدواليب على نفسها مُطلقة وحولاً وأغصاناً. ودفعت السيارة أنا وبونيلو حتى شعرنا وكأن مفاصلنا تطقطق. ولكن السيارة أبت أن تتحرك.

وقلت:

ـ «هزَّها إلى وراء وإلى أمام، يا بارتو.»

فرجع بالسيارة إلى وراء ثم تقدَّم بها إلى أمام. فما كان من الدواليب إلا أن أمعنت في الوحل غرزاً. وعندئذ عادت السيارة فاستقرت على «الديفيرانسيال» من جديد، وأخذت الدواليب تدور دوراناً حراً في الحفر التي سبق لها أن أحدثتْها.

قلت:

ـ «فلنجرب أن نسحبها بحبل.»

ـ «لا أعتقد أن ذلك سوف يفيدنا شيئاً، أيها الملازم. إننا لن نستطيع سحبها في خط مستقيم.»

ـ «يتعيَّن علينا أن نجرّب ذلك. إنها لن تخرج من الوحل بأية طريقة أخرى.»

ولم تستطع سيارتا بياني وبونيلو شيئاً. وشددنا إحدى السيارتين إلى الأخرى بحبل، ورحنا نشدّ. فلم يكن من الدواليب إلا أن ضغطت على جوانب الأثلام ليس غير.

وصحت:

ـ «كفى. لقد أخفقت التجربة.»

وترجَّل بياني وبونيلو من سيارتيهما، وارتدَّا نحونا. وترجل ايمو.

أما الفتاتان فكانتا جالستين على جدار حجري، عند حافة الطريق، على بُعدْ أربعين ياردة تقريباً.

وسألني بونيلو:

ـ «ما قولك، أيها الملازم؟»

فقلت:

ـ «سوف نحفر حول الدواليب، ونجرِّب الإفادة من الأغصان كرة أخرى.

نظرت إلى الطريق. لقد كانت الغلطة غلطتي. فأنا الذي قُدْتهم إلى هنا. وكانت الشمس على وشك أن تنبثق من وراء السحب، وكانت جثة الرقيب مطروحة إلى جانب السياج.

ـ «سوف نضع سترته ومعطفه تحت الدواليب.»

ومضى بونيلو ليأتي بهما. وقطعت بعض الأغصان، وراح ايمو وبياني يحفران أمام الدواليب وبينها. وقطعت المعطف ثم شرطتُه قسمين، ووضعتهما تحت الدواليب في الوحل، ثم كوَّمت الأغصان لكي تتمكن الدواليب من الجري فوقها. كنا على استعداد للانطلاق، وصعد ايمو إلى مقعد السيارة ودفعنا. ولكنْ على غير طائل.

وقلت:

ـ «قضي الأمر. هل ثمة أيما شيء تريد أخذه من السيارة، يا بارتو؟»

امتطى ايمو متن السيارة ـ حاملاً الجبن وزجاجتين من خمر ومعطفه ـ إلى جانب بونيلو. وكان بونيلو، الجالس وراء المقود، يتحرَّى جيوب سترة الرقيب.

قلت:

ـ «من الأفضل لك أن تطرح هذه السترة. أين فتاتا بارتو العذراوان؟»

فقال بياني:

ـ «في استطاعتهما أن تقعدا في الجزء الخلفي. أنا لا أعتقد أن رحلتنا ستكون طويلة بعد الآن.»

وفتحتُ باب السيارة الخلفي.

وقلتُ:

ـ «هلمَّا! أدخلا!»

صعدت الفتاتان إلى السيارة وقعدتا في الزاوية. لقد بدا أنهما لم تنتبها إلى إطلاق النار. واستدرت لكي ألقي نظرة على الطريق. كان الرقيب منطرحاً بقميصه التحتي القذر الطويل الكمّين. وامتطيت متن السيارة إلى جانب بياني، وانطلقنا. كنا نعتزم أن نحاول اجتياز الحقل. وحين امتدت الطريق في الحقل ترجّلت، ومشيت أمام السيارتين. إننا إذا وُفِّقنا إلى اجتياز الحقل وجدنا طريقاً جديدة على الجانب الآخر. ولكننا لم نستطع أن نعبر الحقل. كانت أرضه ليِّنة جداً، وكانت موحلة إلى حد جعل ذلك أمراً متعذراً على السيارتين، وحين سُمِّرت السيارتان نهائياً وعلى نحو كامل، بعد أن غرزت دواليبهما حتى محاورِها، تركناهما في الحقل ومضينا على أقدامنا في اتجاه يودين.

وحين انتهينا إلى الطريق المؤدية إلى الطريق الرئيسية أشرتُ إليها لافتاً نظر الفتاتين بقولي:

ـ «اسلكا تلك الطريق. إنكما لا بدَّ أن تلقيا أناساً.»

ونظرتا إليَّ. وأخرجتُ حافظة نقودي وأعطيت كلاً منهما ورقة نقدية من فئة الليرات العشر. ثم أضفت مشيراً بإصبعي:

ـ «اسلكا تلك الطريق. أصدقاء. أسْرة!»

ولم تفهما، ولكنهما ضغطتا أصابعهما على الورقتين النقديتين، وراحتا تهبطان الطريق، والتفتتا إلى الوراء وكأنهما كانتا تخافان أن

أسترجع المال منهما. وراقبتهما وهما تهبطان الطريق، وقد طوقتْ كل منهما نفسها بشالها تطويقاً محكماً، وأخذت تتلفت نحونا في ذعر. كان السائقون الثلاثة يضحكون.

وسألني بونيلو:

ـ «كم تعطيني إذا ذهبت في ذلك الاتجاه، أيها الملازم؟»

فقلت:

ـ «من الخير لهما، إذا قُبض عليهما، أن لا تكونا وحدهما بل أن تكونا وسط جمهرة من الناس!»

فقال بونيلو:

ـ «أعطني مئتي لير أرجع سائراً على قدميَّ نحو النمسا.»

فقال بياني:

ـ «ولكنهم سوف ينتزعون ذلك المبلغ منك.»

فقال ايمو:

ـ «من يدري؟ لعل الحرب تنتهي.»

كنا نصعد في الطريق بأسرع ما نستطيع التصعيد. وكانت الشمس تحاول أن تطل من وراء السحب. وعلى جانب الطريق انتصبت شجرات توت. ومن خلال الأشجار كان في ميسوري أن أرى سيارتينا الكبيرتين غارزتين في تراب الحقل. والتفت بياني إلى الوراء أيضاً.

وقال:

ـ «سوف يتعيَّن عليهم أن ينشئوا طريقاً لكي يخرجوهما.»

وقال بونيلو:

ـ «أتمنى، وحق المسيح، لو كان عندنا دراجات هوائية.»

فسألني ايمو:

ـ «هل يركبون الدراجات الهوائية في أميركا؟»

ـ «كانوا يفعلون ذلك في الماضي.»

فقال ايمو:

ـ «إنها شيء عظيم هنا. الدراجة شيء رائع.»

وقال بونيلو:

ـ «أتمنى، وحق المسيح، لو كان عندنا دراجات. أنا لست ممن يصبرون على المشي.»

وتساءلت:

ـ «أيكون هذا إطلاق نار؟»

لقد بدا لي أني سمعت صدى نار تطلق من مكان بعيد.

فقال ايمو:

ـ «لست أدري.»

وأصغى.

فقلت:

ـ «أظن أنه إطلاق نار.»

فقال بياني:

ـ «إن ما سنراه هو سلاح الفرسان.»

ـ «لست أظن أن عندهم سلاح فرسان البتة.»

فقال بونيلو:

ـ «أتضرع إلى المسيح أن لا يكون عندهم مثل ذلك السلاح. أنا لا أريد أن أُطعن برمح فارس من الفرسان.»

فقال بياني، وكنا نغذُّ الخطى:

ـ «إنك أنت الذي قتلت ذلك الرقيب من غير شك، أيها الملازم.»

فقال بونيلو:

ـ «أنا الذي قتلته. أنا لم أقتل أحداً قط في هذه الحرب، ولقد تمنيت طوال عمري أن أقتل رقيباً.»

فقال بياني:

ـ «لقد قتلتهُ في هدوء. إنه لم يكن يعدو بسرعة عندما قتلتهُ.»

ـ «لا بأس. هذا شيء لن أنساه في حياتي أبداً. لقد قتلتُ ذلك الرقيب الوغد.»

فسأله ايمو:

ـ «وماذا ستقول في الاعتراف أمام الكاهن؟»

ـ «سوف أقول: باركني، يا أبتاه، لقد قتلتُ رقيباً.»

فضحكو جميعاً.

وقال بياني:

ـ «إنه فوضوي، إنه لا يذهب إلى الكنيسة.»

فقال بونيلو:

ـ «وبياني فوضوي أيضاً.»

وسألتهم:

ـ «هل أنتم فوضويون فعلاً؟»

ـ «لا، أيها الملازم. نحن اشتراكيون. نحن من ايمولا.»

ـ «ألم تذهب إلى هناك في يوم من الأيام؟»

ـ «لا.»

ـ «وحق المسيح، إنها موطن جميل، أيها الملازم. يجب أن تذهب إلى هناك بعد الحرب، ولسوف نريك شيئاً جديراً بالمشاهدة.»

ـ «هل أنتم كلكم اشتراكيون؟»

ـ «كلنا.»

ـ «أهي مدينة جميلة؟»

ـ «رائعة. إنك لم تَرَ مدينة في مثل روعتها.»

ـ «وكيف اتفق لكم أن أصبحتم اشتراكيين؟»

ـ «نحن كلنا اشتراكيون. كل امرئ هو اشتراكي. لقد كنا دائماً اشتراكيين.»

ـ «تعال أيها الملازم. سوف نجعلك اشتراكياً أيضاً.»

وأمامنا، انعطفت الطريق إلى اليسار، وكان ثمة كثيب صغير. ووراء سور حجري كانت حديقة تفاح. وفيما الطريق تصعد في الكثيب، كفُّوا عن الكلام. لقد مشينا معاً، في سرعة بالغة، وكأننا نسابق الزمن.

الفصل الثلاثون

وبعد ذلك بلغنا طريقاً تؤدي إلى نهر. وكان ثمة على هذه الطريق، الصاعدة إلى الجسر، صف طويل من الشاحنات والعربات المهجورة. لم يكن من حولنا أحد. وكان النهر فائضاً، والجزء الأوسط من الجسر قد نُسِف. كانت القنطرة الحجرية قد سقطت في النهر، والمياه السمراء تجري فوقها. صعدنا في الضفة باحثين عن مكان نستطيع العبور عنده. وكنت أعلم أن أمامنا، إذا واصلنا التصعيد، جسر سكة حديدية، ولقد بدا لي أننا قد نوفق في العبور هناك. كان الممر موحلاً. ولم يقع بصرنا على جنود البتة، لقد رأينا شاحنات وذخائر مهجورة ليس غير. وعلى طول ضفة النهر لم يكن شيء غير الأغصان النديَّة والتربة الموحلة. واصلنا تصعيدنا في الضفة، وأخيراً رأينا جسر السكة الحديدية.

قال ايمو:

ـ «يا له من جسر جميل!»

كان جسراً حديدياً بسيطاً طويلاً يمتد عبر ما كان في العادة حوضاً جافاً من أحواض الأنهار.

وقلت:

ـ «من الخير لنا أن نستعجل، ونعبر قبل أن ينسفوه.»

فقال بياني:

- «ليس هناك من ينسفه. لقد رحلوا كلهم.»

فقال بونيلو:

- «أغلب الظن إنه ملغوم. اعبُرْ أنت أولاً، أيها الملازم.»

فقال ايمو:

- «اسمع إلى الفوضوي. أطلُبْ إليه أن يعبر هو أولاً.»

فقلت:

- «سوف أعبر. ليس من المعقول أن يُلْغَم على نحو يجعله ينفجر إذا مسَّته قدما رجل واحد.»

فقال بياني:

- «أسمعت؟ هذا دماغ. أليس عندك دماغ أيها الفوضوي؟»

فقال بونيلو:

- «لو كان عندي دماغ لما كنتُ هنا.»

فقال ايمو:

- «هذا جواب جميل، أيها الملازم»

فقلت:

- «أجل، إنه جواب جميل.»

كنا في تلك اللحظة قد حاذينا الجسر. وكانت السحب قد تراكمت في السماء، كرة أخرى، وهطل المطر رذاذاً. لقد بدا الجسر طويلاً صلباً. وصعدنا إلى رصيف الجسر.

قلتُ:

- «تقدَّموا واحداً واحداً.»

وبدأت أعبر الجسر. لقد راقبتُ العوارض الخشبية والخطوط الحديدية بحثاً عن أيما أسلاك أو إمارات تدل على وجود متفجرات ولكني لم أرَّ شيئاً البتة. وتحت قدميَّ، بين فجوات العوارض الخشبية، جرى النهر موحلاً مندفعاً. وإلى الأمام، عبر الريف، كان

في استطاعتي أن أرى يودين. ونظرتُ من الناحية الأخرى من الجسر. كان في عالية النهر، غير بعيد عني، جسر آخر. وفيما أنا أتأمل ذلك الجسر عَبَرَتْهُ سيارة صفراء ملونة بلون الوحل. كان جانبا الجسر عاليين، ولم تكد السيارة تنطلق حتى غاب هيكلها عن البصر. ولكني رأيت رأسَيْ السائق والرجل الجالس إلى جانبه، ورأسَيْ الرجلين الجالسين في المقعد الخلفي. كانوا كلهم يعتمرون بخوَذ ألمانية. ثم إن السيارة اجتازت الجسر وغابت عن البصر خلف الأشجار وخلف العربات المهجورة. ولوَّحت بيدي إلى ايمو، وكان قد أمسى فوق الجسر، وإلى الآخرين بأن يتقدموا. ثم إني انطرحت على الأرض في محاذاة رصيف الخط الحديدي. وجثم ايمو معي أيضاً.

وسألته:

ـ «هل رأيت السيارة؟»

ـ «لا. كنا نراقبك.»

ـ «إن سيارة من سيارات القيادة الألمانية قد عبرت الجسر الأعلى.»

ـ «سيارة من سيارات القيادة؟»

ـ «نعم.»

ـ «باسم مريم العذارء!»

وأقبل الآخرون، وانبطحنا كلنا في الوحل خلف الرصيف، ناظرين عبر الخط الحديدي إلى الجسر، وإلى صف الأشجار، والخندق، والطريق.

ـ «هل تعتقد، إذن، أنهم قطعوا علينا خط الرجعة، أيها الملازم؟»

ـ «لست أدري. كل ما أدريه هو أن سيارة من سيارات القيادة الألمانية قد اجتازت تلك الطريق.»

ـ «ألا تشعر أنك مضحك بعض الشيء، أيها الملازم؟ أليس في رأسك أحاسيس عجيبة؟»

ـ «لا تمزح، يا بونيلو.»

وتساءل بياني:

ـ «ما رأيكم في كأس من الشراب؟ إذا كنا قد حُوصرنا حقاً فعندئذ يكون من الخير لنا أن نحتسي كأساً.»

وفتح حافظة شرابه ونزع الفلينة عنها.

وقال ايمو مشيراً إلى الطريق:

ـ «انظر! انظر!»

وعلى طول حواجز الجسر الحجري، كان في ميسورنا أن نرى خوذاً ألمانية تتحرك. كانوا منحنين إلى أمام، وكانوا يتقدمون في بطء يكاد يكون خارقاً للعادة. حتى إذا اجتازوا الجسر رأيناهم. كانوا كتيبة من ركاب الدراجات الهوائية، ولقد رأيت وجهي الجنديين اللذين كانا يتقدمانهم جميعاً. كانا متوردي الخدود ناضجَيْن بالعافية. وكانت خوذتاهما منخفضتين، فوق الجبين، وفوق جانب من الوجه. وكانت قربينتاهما(*) مُعلَّقتين بهيكلَيْ دراجتيهما، وكانت قنابلُ عصويَّةٌ تتدلى، ومقابضها إلى أدنى، من حزاميهما، كانت خوذتاهما وملابسهما العسكرية الرمادية رطبة. وكانا ينطلقان في رشاقة متطلِّعين إلى أمام وإلى اليمين والشمال. كان ثمة اثنان ـ ثم صف مؤلف من أربعة ثم اثنان، ثم دزينة تقريباً، ثم دزينة أخرى ـ ثم واحد ليس غير. إنهم لم يتكلموا قط. وإلى هذا فقد كان خرير النهر يحول بيننا وبين سماعهم. كانوا الآن قد بلغوا أعلى الطريق وغابوا عن الأنظار.

وقال ايمو:

(*) القربينة Carbine: نوع من الغدارات أو البنادق.

ـ «باسم السيدة العذراء!»

وقال بياني:

ـ «لقد كانوا ألماناً. إنهم لم يكونوا نمساويين.»

فقلت:

ـ «ولكن لماذا لم يكن ههنا أحدٌ ليوقفهم؟ لماذا لم ينسفوا الجسر؟ لماذا لم ينصبوا المدافع على طول هذا الرصيف؟»

فقال بونيلو:

ـ «هذا سؤال يحسن بك أنت أن تجيب عنه.»

وكنت مغضباً جداً. فقلت:

ـ «المسألة كلها حماقة في حماقة. هناك، في سافلة النهر، نسفوا جسراً صغيراً. وهنا يتركون جسراً قائماً على الطريق الرئيسية. إلى أين ذهبوا؟ لماذا لا يحاولون أن يوقفوا زحفهم؟»

فقال بونيلو:

ـ «أجبْنا أنت أيها الملازم.»

والتزمتُ الصمت. فلم يكن ذلك الأمر يعنيني على أية حال. كل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أصل إلى بوردينون مع ثلاث من سيارات الإسعاف. وكنت قد أخفقت في ذلك. وكل ما كان عليَّ أن أفعله الآن هو أن أبلغ برودينون. ومن يدري، فمن المحتمل أن لا أتمكن من الوصول حتى إلى بودين. وأي بأس في ذلك؟ المهم الآن أن أحتفظ بهدوئي، وأن أجتنب الموت برصاص العدو أو الوقوع في الأسر.

وسألتُ بياني:

ـ «ألم تفتح حافظة شراب؟»

وقدَّمها إليَّ، فأخذت جرعة طويلة، وقلت:

ـ «من الخير لنا أن ننطلق. ومع ذلك، فليس ثمة ما يدعو إلى العجلة. هل تريدون أن تأكلوا شيئاً؟»

فقال بونيلو:

ـ «ليس ثمة مكان نستطيع البقاء فيه.»

ـ «حسناً. سوف ننطلق.»

ـ «هل نلتزم هذا الجانب؟ بعيداً عن مدى البصر؟»

ـ «من الأفضل أن نمشي فوق. إنهم قد يعرّجون على هذا الجسر أيضاً. نحن لا نريد أن يبرزوا فوقنا قبل أن نراهم.»

ومشينا في محاذاة السكة الحديدية. وعلى جانبينا امتد السهل الندي. وأمامنا، عبر السهل، كان كثيب يودين. لقد انهارت سقوف القصر على الكثيب. ولقد كان في ميسورنا أن نرى برج الأجراس وبرج الساعة. وفي الحقول كان عدد وافر من شجرات التوت. وأمامنا رأيت مكاناً نُزعت منه خطوط السكة الحديدية. كانت العوارض الخشبية التي تدعِّم السكة قد نُزعت أيضاً وطرحت على الرصيف.

وقال ايمو:

ـ «انطرحوا أرضاً! انطرحوا أرضاً!»

وانطرحنا في محاذاة الرصيف. كان ثمة عدد آخر من ركاب الدراجات الهوائية يجتازون الطريق. وأطللتُ من وراء الحافة، ورأيتهم يمضون قُدُماً.

وقال ايمو:

ـ «لقد رأونا ولكنهم تابعوا سبيلهم.»

فقال بونيلو:

ـ «سوف نلقى حتفنا هناك، أيها الملازم.»

فقلت:

ـ «إنهم لا يريدوننا. إنهم يبحثون عن شيء أخر. ولسوف نكون في خطر إذا ما فاجأونا.»

فقال بونيلو:

ـ «أنا أفضل أن أمشي هنا، بعيداً عن الأنظار.»

ـ «حسن. سوف نمشي في محاذاة الخط الحديدي.»

فتساءل ايمو:

ـ «هل تعتقد أن في ميسورنا أن ننجو؟»

ـ «من غير ريب. إن عددهم لم يتكاثر حتى الآن. سوف ننجو في الظلام.»

ـ «أي شيء كانت تفعله سيارة القيادة تلك؟»

فقلت:

ـ «اللَّه أعلم.»

وواصلنا تقدمنا في محاذاة الخط الحديدي. تعب بونيلو من السير في وحل الرصيف فأقبل ليسير معنا. كان الخط الحديدي يتجه الآن نحو الجنوب مبتعداً عن الطريق الرئيسية، ولم يعد في ميسورنا أن نرى ما الذي كان يجري على طول الطريق. وانتهينا إلى جسر صغير فوق إحدى القنوات. كان ذلك الجسر قد نُسف، ولكنا تابعنا طريقنا عبر ما بقي من العقْد. لقد سمعنا النار تطلق أمامنا.

وعدنا فالتزمنا السير في محاذاة الخط الحديدي من جانب القناة الأخر. لقد اتجه الخط إلى المدينة مباشرة، عبر الحقول المنخفضة. وتجاهنا كان في ميسورنا أن نرى خط السكة الحديدية الآخر. وإلى الشمال كانت الطريق الرئيسية حيث سبق لنا أن رأينا راكبي الدراجات. وإلى الجنوب كانت طريق فرعية صغيرة تمتد عبر الحقول وقد اكتنفتها الأشجار الكثيفة من جانبيها الاثنين. وخطر لي أن من الأفضل أن نتجه نحو الجنوب، وأن نتقدم عبر الريف ـ بعد أن ندور حول المدينة ـ إلى كامبوفورميو وإلى طريق تاغليامانتو الرئيسية. وكان في إمكاننا أن نجتنب طريق الانسحاب الرئيسية بالتزام الطرق الثانوية الجانبية. وهكذا هبطت رصيف السكة الحديدية.

وقلت:

ـ «هيًّا!»

إننا سوف نتجه نحو الطريق الجانبية ونحاول الوصول إلى جنوب المدينة، وهبطنا كلنا رصيف السكة الحديدية. وأطلقت علينا النار من ناحية الطريق الجانبية. ولكن الرصاصة غارت في وحل الرصيف.

وصحت:

ـ «ارتدّوا إلى الوراء.

ـ «ورحت أصعد في الوحل الزلق. كان السائقون يتقدمونني. ارتقيت الرصيف بأسرع ما استطعت الانطلاق. وأقبلت رصاصتان أخريان من وراء الدغل الكثيف. وفيما كان ايمو يعبر الخط الحديدي، ترنَّح وزلت قدمه وخرَّ مستقبلاً الأرض بوجهه. سحبناه من جانب الخط الآخر وقَلَبْناه على ظهره. وقلت «ينبغي أن نجعل رأسه إلى أعلى». فما كان من بياني إلا أن عدَّل وضعه وفقاً لما أشرتُ به. كان منطرحاً في الوحل، في جانب الرصيف، ورجلاه مسددتان إلى أدنى الكثيب. كان تنفسه غير منتظم. وكان كلما تنفس جرى الدم من أنفه. وقَرْفصنا ثلاثتنا حوله، تحت المطر. لقد أصابته الرصاصة في الجزء الأدنى من مؤخر العنق، وكانت الرصاصة قد ارتفعت إلى أعلى، ثم خرجت من تحت العين اليمنى. لقد مات فيما كنت أحاول وقف النزف الدموي من جرحيه. وخفض بياني رأس القتيل، ومسح وجهه بقطعة من ضمادات النجدة، ثم تركه وشأنه.

وقال:

ـ «اللئام!»

فقلت:

ـ «إنهم لم يكونوا ألماناً. ليس ممكناً أن يكون ههنا أي ألماني.»

فقال بياني مستعملاً الكلمة كنَعتٍ أو صفة:

ـ «إيطاليون، إيطالياني! Italiani.»

ولم يقل بونيلو شيئاً. كان قاعداً إلى جانب ايمو غير ناظر إليه. والتقط بياني قبعة ايمو التي كانت قد تدحرجت بعيداً عن الرصيف ووضعها على رأس ايمو. ثم أخرج حافظة شرابه.

ـ «هل تريد أن تأخذ جرعة؟»

وقدَّم بياني الحافظة إلى بونيلو.

فقال بونيلو:

ـ «لا.»

واستدار نحوي، وقال:

ـ «كان من الجائز أن يصيبنا مثل ذلك عند خط السكة الحديدية في أي لحظة من اللحظات.»

فقلت:

ـ «لا. لقد حدث هذا لأننا بدأنا نعبر الحقل.»

وهز بونيلو رأسه، وقال:

ـ «لقد مات ايمو. ترى، دور أي منا سوف يجيء، بعده، أيها الملازم؟ ما الذي سوف نفعله الآن؟»

فقلت:

ـ «الذين أطلقوا النار كانوا إيطاليين. إنهم لم يكونوا ألماناً.»

فقال بونيلو:

ـ «يخيل إليَّ أنهم لو كانوا ألماناً إذن لقتلونا جميعاً.»

فقلت:

ـ «إن الخطر ليتهددنا من جانب الإيطاليين أكثر مما يتهددنا من جانب الألمان. ذلك أن حرس المؤخرة يخشى كل شيء. أما الألمان فيعرفون ماذا يريدون.»

فقال بونيلو:

ـ «هذا منطق صائب، أيها الملازم.»

فتساءل بياني:

ـ «إلى أين سنذهب الآن؟»

ـ «من الأفضل لنا أن نختبئ في مكان ما إلى أن يهبط الظلام. إذا استطعنا أن ننتهي إلى الجنوب كان ذلك حسناً جداً.»

فقال بونيلو:

ـ «قد يتعيَّن عليهم أن يقتلونا جميعاً لكي يثبتوا أنهم كانوا على صواب في المرة الأولى. أنا لن أعرِّض نفسي لرصاصهم أبداً.»

ـ «فلنحاول أن نجد مكاناً نختبئ فيه، وليكن أقرب ما يكون إلى يودين، ثم ننطلق بعد أن يهبط الظلام.»

فقال بونيلو:

ـ «فلنذهب إذن.»

وهبطنا الجانب الشمالي من الرصيف. ونظرت إلى الوراء. كان ايمو منطرحاً في الوحل عند منحدر الرصيف. لقد بدا صغيراً جداً. وكانت ذراعاه ممددتين إلى جانبيه. وكانت ساقاه مطوقتين بعصابتين جلديتين. إن كل فردة من حذائه العالي الساق كانت تواجه الفردة الأخرى، وعلى وجهه كانت قبعته. لقد بدا وكأنه ميِّت منذ زمن بعيد. كان المطر ينهمر. كنت قد أحببت ايمو كما لم أحب أحداً ممن قدِّر لي أن أعرفهم في أيما وقت مضى. وكانت أوراقه في جيبي. ولسوف أكتب إلى أسرته. وتجاهنا، عبر الحقول، كان بيت ريفي. كانت تحيط به الأشجار، وكانت أبنية المزرعة مشيدة على مقبرة دانية جداً من البيت. وكان للدور الثاني شرفة تقوم على عدة أعمدة.

قلت:

ـ «من الأفضل أن يبتعد بعضنا عن بعض ابتعاداً طفيفاً. سوف أمضي أنا في المقدمة.»

وتقدمت نحو المنزل الريفي. كان ثمة ممرّ يمتد عبر الحقل

وفيما كنت أجتاز الحقل بدا لي أن شخصاً ما قد يطلق علينا النار من وراء الأشجار المحيطة بالبيت الريفي أو من البيت الريفي نفسه. ومشيت نحو ذلك البيت، ورأيته في وضوح شديد. كانت شرفة الدور الثاني تتصل بمخزن العلف، وكانت حزم التبن تنبثق من بين الأعمدة. كان الفناء مبلَّطاً، وكانت جميع الأشجار تَقْطُرُ مطراً. وكان ثمة عربة ضخمة فارغة ذات دولابين، وكانت يدا هذه العربة مرفوعتين إلى أعلى في وجه المطر. تقدمت فدخلت. ودخل بونيلو وبياني في أثري. كان البيت مظلماً. ودخلت إلى المطبخ. كان ثمة رماد في الموقد الكبير المفتوح. وكانت القدور تعلو الرماد، ولكنها كانت فارغة. وأجلت البصر في ما حولي، ولكني لم أستطع أن أجد شيئاً يؤكل.

وقلت:

ـ «ينبغي أن نختبئ في مخزن العلف. هل تعتقد أن في استطاعتنا أن نجد شيئاً نأكله، يا بياني، وأن تجيئنا به إلى هناك؟»

فقال بياني:

ـ «سأبحث.»

وقال بونيلو:

ـ «وأنا سوف أبحث أيضاً.»

فقلت:

ـ «حسن. سوف أصعد وألقي نظرة على مخزن العلف.»

ووجدت سلماً حجرية ترتفع درجاتها الأولى عند الاصطبل. كانت تنبعث من الاصطبل رائحة جافة وسائغة في المطر. وكانت الماشية قد ولَّت، وأغلب الظن أن القوم ساقوها أمامهم عندما ركنوا للفرار. وكان مخزن العلف نصف مليء بالتبن. كان ثمة نافذتان في السطح، واحدة كانت مسدودة بألواح خشبية، والأخرى لم تكن غير

كوة مستديرة ضيقة في الجانب الشمالي. وكان ثمة منحدر يمكّن القوم من قذف التبن إلى الماشية. وكانت روافدُ خشبية ضخمة تعترض الباب الذي يُرفع باليد والذي كانت العربات تقف تحته عندما كان يُرفع إلى أعلى المخزن. سمعت وقع المطر على السطح، وشممت رائحة التبن، وعندما هبطت السلم شممت رائحة الروث الجاف النظيفة في الاصطبل. استطعنا أن ننزع أحد الألواح الخشبية، وأن نطل من النافذة الجنوبية على فناء البيت. كانت النافذة الأخرى تطل على الحقل نحو الشمال. وكان في ميسورنا أن ننفذ من أي من النافذتين إلى السقف ومن ثم نهبط إلى الأرض، أو أن نهبط منحدر التبن إذا كانت السلم غير قابلة للاستعمال. كان مخزنَ علف كبيراً، وكان في ميسرونا أن نختبئ في التبن إذا ما سمعنا صوت امرئ ما. لقد بدا وكأنه مكان صالح. وكنت واثقاً من أنه كان في استطاعتنا أن نصل إلى الجنوب لو لم يطلقوا النار علينا. لقد كان من المستحيل أن يكون هناك جنود ألمان. كانوا يَفِدون من الشمال ويهبطون الطريق من سيفيدال. إنهم ما كان يمكن أن يفدوا من ناحية الجنوب. والواقع أن الإيطاليين كانوا أشد علينا خطراً. لقد كانوا مذعورين يطلقون النار على أيما شيء يقع تحت أبصارهم. والبارحة خلال التراجع، سمعنا أن كثيراً من الألمان المرتدين ملابس عسكرية إيطالية اندسوا في صفوف المنسحبين. ولم أصدق أنا ذلك. إنها إشاعة من تلك الإشاعات التي يسمعها المرء دائماً. إنك لم تسمع أن أحداً من الجند المرتدين ثياباً عسكرية ألمانية قد اندس بينهم ليوقع الاضطرب في صفوفهم. لعل بعضهم قد فعل، ولكن ذلك بدا ـ في نظري ـ شيئاً عسيراً. أنا لم أصدِّق أن الألمان قد أقدموا على ذلك، بل لم أكن أؤمن أنهم كانوا مضطرين إلى مثل ذلك. فلم تكن ثمة حاجة إلى زرع الفوضى في تراجعنا. إن ضخامة الجيش وقلّة الطرق تكفَّلتا بذلك. إن أحداً لم يُصدر أية أوامر، فلنترك الألمان وشأنهم. ومع هذا، فقد

كانوا يطلقون النار علينا وهم يحسبوننا ألماناً. لقد صرعوا ايمو. كانت رائحة التبن مستطابة، وكان الاختباء في مخزن للعلف، وسط التبن، كافياً لأن يجعلك تنسى جميع السنوات السالفة. كم من مرة اختبأنا في التبن وتحدثنا واصطدنا عصافير الدوري ببنادقنا العاملة بالهواء المضغوط عندما كانت تغطُّ على المثلث المفتوح في الجزء الأعلى من جدار مخزن العلف. كان ذلك المخزن قد زال الآن، وفي إحدى السنوات كانوا قد قطعوا غابة الشوكران، فلم يبقَ فيها غير الأرومات، ورؤوس الأشجار اليابسة، والأغصان، والأعشاب التي تنبت في المواطن المحترقة حديثاً. لم يكن في ميسورنا أن نعود من حيث أتينا. وإذا لم نتقدم إلى أمام ما الذي سوف يحدث؟ إن علينا أن لا نفكر بالعودة إلى ميلانو. وإذا ما رجعنا إلى ميلانو ما الذي سوف يحدث؟ وأصختُ إلى إطلاق النار، في الشمال، في اتجاه يودين. كان في ميسوري أن أسمع طلقات المدافع الرشاشة. لم يكن ثمة قصف مدافع. وكان هذا شيئاً ذا مغزى. لا ريب في أنهم قد وجدوا بعض القوات على الطريق. وحدَّقت في ضياء المخزن النصفي، فرأيت بياني واقفاً على الباب الأفقي الذي يُفتح باليد. كان يحمل تحت ذراعه قطعة نقانق (سجق) طويلة، وإبريقاً مليئاً بشيء ما، وزجاجتي خمر.

قلت:

ـ «اصعد. هذه هي السلم.»

ثم أدركت أن عليَّ أن أساعده في حمل تلك الأشياء. فنزلت. كان دوار طفيف قد أصاب رأسي بسبب من استلقائي على التبن. كنت نائماً تقريباً.

وسألته:

ـ «أين بونيلو؟»

فقال بياني:

ـ «سوف أخبرك.»

ارتقينا السلم. وهناك فوق التبن وضعنا ما كان معنا من أشياء. وأخرج بياني مدية ذات نازعة للسدادات، ونزع السدادة عن إحدى زجاجتي الخمر.

وقال:

ـ «إن عليهما خاتماً شمعياً أيضاً. لا بد أن تكونا من صنف جيد.»

وابتسم.

كررت السؤال:

ـ «أين بونيلو؟»

فنظر إليَّ، وقال:

ـ «لقد ذهب. إنه يريد أن يستسلم للعدو»

ولم أقل شيئاً ما.

ـ «كان يخشى أن نُقتل.»

تناولت زجاجة الخمر ولم أقل أي شيء.

ـ «وهكذا ترى أننا لا نؤمن بالحرب على أية حال، أيها الملازم.»

سألته:

ـ «ولماذا لم تذهب أنت؟»

ـ «لم أرد أن أفارقك.»

ـ «إلى أين ذهب؟»

ـ «لست أدري، أيها الملازم. لقد ولى»

فقلت:

ـ «حسناً. أرجو أن تقطِّع النقانق»

فحدق إليَّ بياني في ذلك الضياء النصفي، وقال:

- «لقد قطَّعتهُ.»

جلسنا وسط التُبن، وأكلنا النقانق، واحتسينا الخمر. إنها من غير شك خمر احتفظوا بها لعُرس من الأعراس. كانت عتيقة جداً حتى لقد بدأ لونها يَنْصُل.

قلت:

- «أطلَّ أنت من هذه النافذة، يا لويجي. ولسوف أذهب أنا وأطل من النافذة الأخرى.»

كان كل منا قد شرْع يحتسي الخمر من إحدى الزجاجتين. فأخذت زجاجتي معي، ومضيت فاستلقيت على التبن وأطللت من النافذة الضيقة على الريف الندي. لست أدري ما الذي توقعتُ أن أراه، ولكني لم أرَ غير الحقول، وشجرات التوت الجرداء، والمطر المنهمر. شربت الخمر، ولكنها لم توقع في نفسي أثراً ما. كانوا قد احتفظوا بها منذ عهد طويل، وكانت قد أمست أشلاء وفقدت جودتها ولونها. وراقبت الظلمة وهي تخيم في الخارج، لقد هبطَتْ في سرعة بالغة. كانت تلك الليلة مظلمة جداً بسبب المطر. حتى إذا هيمن الظلام لم تبقَ فائدة تُرْجى من المراقبة. فمضيت نحو بياني. كان نائماً. ولم أوقظه، بل قعدت إلى جانبه فترة من الزمن. كان رجلاً ضخم الجسم، ولقد نام نوماً عميقاً. وبعد برهة يسيرة أيقظته، وانطلقنا.

كانت تلك ليلة غريبة جداً. أنا لا أدري أي شيء توقعتُه، ولعلي توقعت الموت أو إطلاق النار في الظلام ثم الفرار. ولكن شيئاً لم يحدث. انتظرنا، منطرحين على طولنا وراء الخندق المحاذي للطريق الرئيسية ريثما مر فوج ألماني. حتى إذا توارى الفوج عن الأنظار، عبرنا الطريق واتجهنا نحو الشمال. ومرتين متواليتين، تحت المطر، وجدنا أنفسنا على مقربة دانية من بعض الجنود الألمان، ولكنهم لم

يرونا. اجتزنا المدينة في اتجاه الشمال من غير أن نرى أي جندي إيطالي، وبعد فترة يسيرة انتهينا إلى خطوط التراجع الرئيسية، وأمضينا الليل بطوله ونحن نمشي نحو تاغليامانتو. والحق أني لم أكن قد أدركت من قبل مبلغ ضخامة التراجع. كانت البلاد كلها تولي الأدبار. لا الجيش وحده. مشينا طوال الليل، مُسْرعين أكثر من العربات. وآلمتني رجلاي وكنت مرهقاً، ومع ذلك تقدّمنا في خطى ثابتة. لقد كان بونيلو على حماقة بالغة عندما قرر الاستسلام للعدو. فلم يكن ثمة أي خطر. كنا قد شققنا طريقنا عبر جيشين اثنين من غير أن يصيبنا حادث ما. ولو أن ايمو لم يُقتل، إذا لما شعرنا بأن ثمة أي خطر. إن أحداً لم يتعرض لنا عندما سرنا على نحو مكشوف في محاذاة الخط الحديدي. لقد حدث القتل فجأة ولغير ما سبب. وتساءلت أين كان بونيلو.

وسألني بياني:

ـ «كيف أنت أيها الملازم؟»

كنا نتقدَّم في جانب من طريق ازدحمت بالعربات والجنود.

ـ «ممتاز.»

ـ «حسن. كل ما علينا أن نفعله الآن هو المشي. لا داعي بعد للقلق.»

ـ «لقد كان بونيلو معتوهاً.»

ـ «كان معتوهاً إلى أبعد الحدود.»

ـ «ما الذي ستفعله في شأنه أيها الملازم؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «ألا تستطيع أن تقول بكل بساطة، أن العدو قد أسره؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «لأنه إذا استمرت الحرب أنزلوا بعائلته أذى كبيراً.»

فقال أحد الجند:

ـ «الحرب لن تستمر. نحن عائدون إلى بيوتنا. لقد انتهت الحرب.»

ـ «الناس جميعاً عائدون إلى بيوتهم.»

ـ «نحن كلنا عائدون إلى بيوتنا.»

وقال بياني:

ـ «هيا أيها الملازم.»

كان يريد أن يتخطَّاهم.

ـ «ملازم؟ من يحمل رتبة ملازم؟ A basso gli ufficiali (فليسقط الضباط).»

وجذبني بياني من ذراعي وقال:

ـ «من الخير أن أناديك باسمك. إنهم يحاولون إيذاءك. لقد أطلقوا النار على بعض الضباط»

واسرعنا فتخطَّيناهم.

وتابعت الحديث فقلت:

ـ «أنا لن أضع تقريراً يؤدي إلى إنزال الأذى بعائلته.»

فقال بياني:

ـ «إذا انتهت الحرب فلن يكون لذلك أيما أثر. ولكني أعتقد أنها انتهت. إن انتهائها شيء صالح أكثر مما ينبغي.»

فقلت:

ـ «سوف نتحقق من ذلك قريباً جداً.»

ـ «لست أعتقد أنها انتهت. إنهم يعتقدون كلهم أنها انتهت ولكني لا أصدق ذلك.»

وهتف أحد الجند:

ـ «Viva la pace (فليحي السلم). نحن عائدون إلى بيوتنا!»

فقال بياني:

ـ «إنه لرائع جداً أن نرجع كلنا إلى بيوتنا. ألا تحب أن ترجع إلى بيتك؟»

ـ «بلى.»

ـ «إننا لن نرجع أبداً. أنا لا أعتقد أن الحرب انتهت.»

وهتف جندي:

ـ «Andiamo a casa (نحن ذاهبون إلى بيوتنا).»

وقال بياني:

ـ «إنهم يطرحون بنادقهم. إنهم ينزعونها عن أكتافهم ويطرحونها أرضاً فيما هم يسيرون، وبعد ذلك يهتفون.»

ـ «يجب أن يحتفظوا ببنادقهم.»

ـ «هم يعتقدون أنهم إذا طرحوا بنادقهم فلن تستطيع السلطة حملهم على القتال.»

وفي الظلمة والمطر، وفيما نحن نتخذ سبيلنا في جانب الطريق، استطعت أن أرى أن قوات كثيرة لا تزال تحتفظ ببنادقها. لقد رأيناها منتصبة فوق معاطفهم.»

وصاح أحد الضباط:

ـ «من أي لواء أنت؟»

فأجابه أحدهم:

ـ «Brigata di pace (لواء السلم!)»

ولم يقل الضابط شيئاً.

ـ «ماذا يقول؟ ماذا يقول الضابط؟»

ـ «فليسقط الضابط. Viva la pace (فليحيَ السلم!)»

فقال بياني:

ـ «هيا!»

وتخطّينا سيارتي إسعاف بريطانيتين مهجورتين بين جمهرة من العربات.

وقال بياني:

- «إنهم من غوريتزيا. أنا أعرف السيارتين.»

- «لقد اجتازتا مسافة أبعد من تلك التي اجتزناها.»

- «ولكن أين سائقاهما!»

- «أغلب الظن يتخذان سبيلهما أمامنا.»

فقلت:

- «لقد توقف الزحف الألماني خارج يودين. وهؤلاء الناس سوف يوفقون كلهم إلى عبور النهر.»

فقال بياني:

- «أجل. وهذا ما يجعلني أعتقد أن الحرب سوف تستمر.»

فقلت:

- «كان في استطاعة الألمان أن يتقدموا. إني لأتعجب لماذا لم يتقدموا.»

- «لست أدري. أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الضرب من الحرب.»

- «أظن أنهم مضطرون إلى انتظار وسائط النقل.»

فقال بياني:

- «لست أدري.»

كان كثير اللطف بطبعه. ولكنه ما إن يتحدث مع أحد حتى يغدو جلفاً.

- «هل أنت متزوج يا لويجي؟»

- «أنت تعلم أني متزوج.»

- «أهذا هو السبب الذي من أجله لم ترد أن تقع في الأسر؟»

ـ «هذا أحد الأسباب. هل أنت متزوج أيها الملازم؟»

ـ «لا.»

ـ «وبونيلو غير متزوج أيضاً.»

فقلت:

ـ «إن كون المرء متزوجاً لا يدل على شيء. ولكنني أميل إلى الاعتقاد أن الرجل المتزوج يرغب دائماً في العودة إلى زوجته.»

لقد كنت أجد متعة في التحدث عن الزوجات.

فقال بياني:

ـ «هذا صحيح.»

ـ «كيف قدماك؟»

ـ «إنهما تآلمانني ألماً شديداً.»

وقبل أن يرتفع الضحى بلغنا ضفة الـ «تاغليامانتو»، وهبطنا في محاذاة النهر الفائض إلى الجسر حيث كانت حركة المواصلات على أشدها.

وقال بياني:

ـ «يتعيَّن عليهم أن يكونوا قادرين على الصمود وراء هذا النهر.»

في الظلام بدت مياه النهر عالية جداً. لقد دوَّمت المياه، وانبسطتْ إلى مدى بعيد. كان الجسر الخشبي على مبعدة ثلاثة أرباع الميل تقريباً، وكان النهر ـ الذي كان يجري عادة في مجار ضيقة في الحوض المفروش بالحصى تحت الجسر ـ يكاد يمسُّ خشب الجسر. وتابعنا سبيلنا على الضفة، ثم انضممنا إلى الحشود التي كانت تعبر الجسر. وتقدمتُ في بطء، تحت المطر، على بضعة أقدام من الماء، وقد شعرت بالازدحام يعصرني عصراً. وفجأة وجدت نفسي أمام صندوق المدفعية. وأطللت من جانب الجسر، وراقبت النهر. والآن وقد أصبحنا عاجزين عن السير بسرعتنا الطبيعية استشعرت أني تعب

جداً. لم يكن ثمة ابتهاج ما في عبور الجسر. ولقد تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي يحدث لو أن طائرة قصفته بقنابلها في وضح النهار.

وناديت:

ـ «بياني.»

ـ «ها أنا ذا أيها الملازم.»

كان يتقدَّمني بعض الشيء. وسط الزحام. إن أحداً لم يكن يتكلم. وكان القوم كلهم يحاولون أن يعبروا الجسر بأسرع ما يستطيعون. تلك كانت هي الفكرة الوحيدة المسيطرة عليهم. وكنا قد وصلنا إلى الضفة الأخرى تقريباً. وفي الطرف الأقصى من الجسر كان عدد من الضباط والكارابينيري واقفين على الجانبين وفي أيديهم أضواء كشافة. لقد رأيت ظلالهم الداكنة مرتسمة على صفحة الماء. وفيما نحن نقترب منهم رأيت أحد الضباط يشير إلى رجل من الحشد المصطف هناك. فاندفع أحد الجنود الكارابينيريين نحوه، ثم عاد ممسكاً به من ذراعه. لقد أزاحه من الطريق. وكنا قد أصبحنا أمامهما وجهاً لوجه، تقريباً. كان الضباط يتفرسون في وجه كل فرد من أفراد القافلة، وكانوا يتبادلون بعض الكلمات أحياناً، ويتقدمون إلى أمام لكي يشعلوا ضوءاً كشافاً في وجه شخص ما. وكانوا قد أخرجوا رجلاً آخر قبل أن نبلغ تلك النقطة مباشرة. ورأيت الرجل. كان ضابطاً برتبة عقيد، لقد رأيت النجوم تلتمع على كمه عندما صوَّبوا إليه الضوء الكشاف. كان أشيب الشعر، وكان قصيراً وبديناً. وجذبه الكارابينيري إلى ما وراء خط الضباط. وفيما نحن نمر، لمحت واحداً أو اثنين منهم ينظران إليّ. ثم إن أحدهم أشار إليَّ وراح يتحدث إلى جندي من الكارابينيري. ورأيت الكارابينيري يتقدم نحوي. لقد شق لنفسه طريقاً وسط الحشد، ثم أمسك بي من طوق قميصي.

وقلت:

ـ «ماذا دهاك؟»

ولطمته على وجهه. لقد رأيت وجهه تحت القبعة، ورأيت شاربيه المعقوفين والدم يسيل من خده. واندفع جندي آخر نحوي.

وقلت:

ـ «ماذا دهاك؟»

ولم يجب. كان ينتظر الفرصة للقبض عليَّ. ووضعت يدي خلف ظهري لكي أخرج غدارتي.

ـ «ألا تعلم أنه ليس في ميسورك أن تمسَّ ضابطاً؟»

وأمسك بي الجندي الآخر من الخلف، وجذب ذراعي إلى أعلى جذباً عنيفاً حتى لقد التوت في مفصلها. واستدرت معه، وأخذ الجندي الآخر بخناقي. ورفستُه على قصَبَتي ساقيه، وضربته على وركه بإحدى ركبتي.

وسمعت أحدهم يقول:

ـ «أطلقوا النار عليه إذا قاوم.»

وحاولت أن أصيح:

ـ «ما معنى هذا كله؟»

ولكن صوتي لم يكن عالياً جداً. ووجدت نفسي الآن على حافة الطريق.

قال ضابط:

ـ «أطلقوا النار عليه إذا قاوم. أبعدوه إلى الوراء.»

ـ «مَنْ أنت؟»

ـ «سوف تعرف.»

ـ «مَنْ أنت؟»

فقال ضابط آخر:

ـ «بوليس الجيش.»

ـ «لماذا تسألونني التقدم نحوكم بدلاً من تكليف واحدة من هذه الطائرات بإيقافي.»

ـ «ولم يجيبوا. إنهم لم يكونوا ملزمين بالإجابة. لقد كانوا ينتسبون إلى شرطة الجيش.»

قال الضابط الأول:

ـ «ارجعوه إلى الوراء مع الآخرين. إنه يتكلم الإيطالية برطانة، كما ترى.»

فقلت:

ـ «وكذلك أنت، أيها الـ....»

فكرر الضابط الأول:

ـ «ارجعوه إلى الوراء مع الآخرين.»

وقادوني إلى ما وراء صف الضباط تحت الطريق، نحو جمع من الناس احتشدوا في حقل محاذ لضفة النهر. وفيما نحن نتقدم نحوهم سمعنا طلقات نار. لقد رأيت وميض الغدارات وسمعت دوي رصاصها. وأخيراً بلغنا الحشد. كان ثمة أربعة ضباط واقفين معاً وأمامهم رجل يقف إلى جانب من جانبيه جندي من الكارابينيري. وكان جمع من الناس واقفين يحرسهم عدد من الكارابينيري. ووقف قرب الضباط المستجوبين أربعة من جنود الكارابينيري أيضاً، منحنين على غداراتهم. كانوا يعتمرون بقبعات عريضة. ودفعني الجنديان الممسكان بي إلى الحشد الواقف في انتظار الاستجواب. ونظرت إلى الرجل الذي كان الضباط يستجوبونه. كان هو العقيد البدين القصير الأشيب الذي انتزعوه من قافلة الهاربين. كان المستجوبون يتمتعون بكامل الفعالية، والبرود، ورباطة الجأش التي يتمتع بها الإيطاليون المطلقون للنار من غير أن يطلق النار عليهم أحد.

ـ «من أي فوج أنت؟»

فأجابهم.

ـ «من أي فرقة؟»

أجابهم.

ـ «ما الذي جعلك تنفصل عن فرقتك؟»

أجابهم.

ـ «هل تعلم أن على الضابط أن يكون إلى جانب رجاله؟»

فقال إنه يعلم.

وكان ذلك كل شيء. وتكلم ضابط آخر:

ـ «إنك أنت وأمثالك الذين سمحتم للبرابرة بتدنيس ثرى الوطن المقدس.»

فقال العقيد:

ـ «أرجوك...»

ـ «إن خيانتك وخيانة أمثالك هي التي جعلتنا نخسر ثمرات النصر.»

فسأله العقيد:

ـ «هل قُدِّر لك أن قمت بعملية تراجع؟»

ـ «ينبغي لإيطاليا أن لا تتراجع أبداً.»

لقد وقفنا هناك تحت المطر واستمعنا إلى هذا. كنا نواجه الضباط، وكان الأسير يقف تجاههم، بعيداً عنا بعض الشيء.

وقال العقيد:

ـ «إذا كنتم تعتزمون قتلي رمياً بالرصاص فأرجو أن تفعلوا ذلك من غير ما استجواب إضافي. إن الاستجواب أحمق.»

ورسم إشارة الصليب. وتشاور الضباط. وكتب أحدهم شيئاً على رزمة من الورق.

وقال:

- «فارقَ جنوده. حُكم بالموت رمياً بالرصاص.»

وقاد جنديان من الكارابينيري العقيد إلى ضفة النهر. لقد مشى تحت المطر، عجوزاً حاسر الرأس، يحيط به جندي كارابينيري عن يمينه وآخر عن يساره، ولم أشهدهما يعدمانه رمياً بالرصاص ولكنني سمعت الطلقات النارية. كان الضباط يستجوبون أسيراً آخر. وكان هذا أيضاً ضابطاً فارقَ جنوده. إنهم لم يسمحوا له بإعطاء أي تفسير لذلك. ولقد انتحب عندما تلي الحكم الصادر بحقه كما هو مدوَّن على رزمة الورق. وكانوا يستجوبون رجلاً آخر عندما أعدموه رمياً بالرصاص. كانوا يحرصون على الانهماك في استجواب الرجل الآخر فيما تسدد النار إلى صدر المستجوب السابق. وبهذه الطريقة يحسمون الأمر ولا يدعون أيما مجال للتردد. ولم أدرِ ما الذي ينبغي أن أفعله: أأنتظر حتى استجوب أم أركن إلى الفرار في الحال؟ لقد كنت في نظرهم من غير ريبٍ ألمانياً في بزة عسكرية إيطالية. لقد قرأت ما كان يجول في عقولهم، إذا كان عندهم عقول يجول فيها شيء. لقد كانوا شباناً في مقتبل العمر، وكانوا ينقذون بلادهم. وكان الجيش الثاني يعاد تشكيله وراء الـ «تاغليامانتو»، وكانوا ينفذون حكم الموت بالضباط من رتبة عقيد فما فوق لمفارقتهم جنودهم. ويحاكمون في سرعة بالغة أيضاً جميع المهيَّجين الألمان المرتدين بزات عسكرية إيطالية. كانوا يعتمرون خوذاً فولاذية. وكان اثنان منا فقط يعتمرون مثل تلك الخوذ. وكان بعض الجنود الكارابينيري يعتمرون مثلها أيضاً. أما الكارابينيري الآخرون فكانوا يعتمرون قبعات عريضة. وكنا ندعوهم «الطائرات». لقد وقفنا تحت المطر، وكانوا يستدعوننا واحداً إثر واحد لكي نُستجوب ثم نقْتل رمياً بالرصاص. وكان المستجوِبون يتمتعون بذلك التعلق الجميل بالعدالة الصارمة وبذلك التعبد لها اللذين يتمتع بهما رجال يوزِّعون الموت من غير أن يتعرَّضوا هم لأيما خطر من أخطاره.

كانوا يستجوبون زعيماً (كولونيل) من جند المشاة. وكان ثلاثة ضباط آخرين قد أضيفوا إلينا في تلك اللحظة.

ـ «أين كان فَوْجُه؟»

ونظرتُ إلى الكارابينيري. كانوا ينظرون إلى الوافدين الجدد. وكان الآخرون ينظرون إلى الزعيم (الكولونيل). فانحنيت نحو الأرض وشققت طريقي بين اثنين من الرجال وعدوت إلى النهر، منكَّس الرأس. واندفعت في محاذاة الضفة ثم غطست في النهر مثيراً رشاشاً صارخاً. كانت المياه باردة جداً، ولقد بقيت تحتها أطول ما استطعت أن أبقى. كان في ميسوري أن استشعر التيَّار يعصف بي، وبقيت تحت الماء حتى خيِّل إليَّ أني لن أرتفع فوقه أبداً. ولم أكد أرتفع فوق الماء حتى أخذت نفساً وعاودت الغوص من جديد. كان من اليسير عليَّ أن أبقى تحت الماء ما دمت ألبس كل هذه الملابس وانتعل حذائي العسكري الطويل الساق. وحين ارتفعت كرة ثانية فوق الماء رأيت أمامي قطعة من خشب فبسطت يدي نحوها، وتعلقت بها بيد واحدة. وأبقيت رأسي خلف الخشبة، ولم أحاول قط أن أنظر من فوقها. أنا لم أكن راغباً في رؤية الضفّة. كان ثمة طلقات نارية عندما فررتُ وطلقات نارية عندما انبثقتُ من تحت الماء أول مرة. لقد سمعتها عندما أصبحت فوق سطح الماء تقريباً، وقد توقّفت الطلقات النارية الآن. ودوَّمت قطعة الخشب وسط التيار، وأمسكت بها بيد واحدة. ونظرت إلى الضفة. لقد تراءت وكأنها تعدو في سرعة بالغة. كان في التيار كثير من الخشب. وكان الماء بارداً جداً. اجتزت نباتات خفيضة أطلعت رؤوسها فوق الماء في إحدى الجزر. وتمسكت بقطعة من الخشب بيديَّ الاثنتين. وأجزت لها أن تسوقني سوقاً. كان الشاطئ قد غاب الآن، عن البصر

الفصل الحادي والثلاثون

إنك لا تدري كم قضيتَ في مياه النهر عندما يندفع التيار في سرعة بالغة، إنه يبدو لك وقتاً طويلاً، وقد يكون قصيراً جداً. كان الماء بارداً ومرتفعاً جداً، وكان قد حمل من الضفتين عند ارتفاع النهر أشياء كثيرة تطفو على سطحه. كنت محظوظاً بعثوري على قطعة خشب ضخمة أتعلق بها، فكنت أغوص في الماء المثلج، وذقني مُسندة إلى الخشبة، ممسكاً بها، أيسرَ ما استطعت أن أمسك بيديَّ الاثنتين. وخشيت آلام المغص وتمنيت لو أمضي نحو الشاطئ. وهبطت النهر في منعطف طويل. كانت الشمس قد أرسلت طلائع أشعتها، وبذلك أصبح في ميسوري أن أرى القصب الملتف على طول الشاطئ. كان ثمة أمامي جزيرة مخضوضرة الأعشاب. وكان التيار يندفع نحو الشاطئ. وتساءلت هل يتعيَّن عليَّ أن أخلع حذائي وملابسي وأحاول السباحة حتى الشاطئ أم لا، ولكنني صممت آخر الأمر على الإحجام عن ذلك. ولم تكن تسيطر عليَّ غير فكرة واحدة هي أن أبلغ الشاطئ بطريقة أو بأخرى، وأني سوف أكون في وضع سيئ إذا وطئت البر حافي القدمين. كان عليَّ أن أصل إلى ميستر بأية طريقة.

راقبتُ الشاطئ يقترب مني، ثم يبتعد، ثم يقترب مرّة أخرى. كنت أطفو في بطء شديد. وكان الشاطئ قريباً جداً الآن. كان في ميسوري أن أرى الأغصان على أجمة الصفصاف. وتذبذبت قطعة

الخشب في تؤدة حتى لقد أصبح الشاطئ خلفي، وأدركت أنني كنت في دوَّامة. واستدرت في بطء. وحين رأيت الضفة مرّة أخرى، وكانت قد أمست على مقربة دانية جداً. حاولت التمسك بيد واحدة ودفع الخشبة إلى الضفة الأخرى، مستعيناً على ذلك برجليَّ وبيدي الثانية، ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح. كنت أخشى الخروج من الدوامة. ورفعت قدميَّ، وأنا متعلق بيدٍ واحدة، حتى حاذتا جانب الخشبة دفَعْتُها في عنف نحو الضفة. كان في ميسوري أن أرى القصب والنباتات. ولكن التيار كان يُقصيني على الرغم من زخمي وسباحتي بأقصى سرعة قدِرْتُ عليها. وحسبتُ آنذاك أني سوف أغرق بسبب من حذائي الطويل الساق، ولكني اندفعت ضد التيار وشققت طريقي عبر الماء، وحين رفعت بصري كانت الضفة تتقدم نحوي، فواصلت الاندفاع ضد التيار والسباحة في ذعر ثقيل القدمين حتى بلغْتُها. تعلقتُ بغصن الصفصاف، ولم تكن لي بقية من قوة تمكنني من أن أرفع نفسي، ولكني عرفت أني لن أغرق بعد الآن. والواقع أنه لم يخطر لي قط، وأنا متشبث بالخشبة، إني قد أغرق. لقد شعرت بالجوع وبألم في المعدة والصدر نتيجة الجهد الذي بذلْتُ، وتعلَّقت بالأغصان وانتظرت. وحين فارقني انحراف المزاج تقدمتُ عبر دغل الصفصاف، واسترحت من جديد، وذراعاي تطوِّقان بعض النباتات الصغيرة، ويداي متشبثتان بالأغصان، ثم إني زحفت على بطني عبر الصفصاف حتى بلغت الضفة. كان ظلام نصفي يخيم على الكون، ولم تقع عيناي على أحد. انطرحت متمدداً على الضفة، وسمعتُ خرير النهر وانهمار المطر.

وبعد لحظات، نهضتُ ورحت أمشي على طول الشاطئ. وكنت أعرف أنه لم يكن ثمة جسر عبر النهر حتى لاتيسانا. وخيِّل إليَّ أني أواجه الآن سان فيتو. وبدأت أقلِّب الرأي متسائلاً ما الذي ينبغي أن أفعله. لقد كان أمامي خندق يمتد عبر النهر. فتقدمت نحوه. لم أكن

قد رأيت حتى تلك اللحظة شخصاً ما، وقعدت على مقربة من بعض النباتات عند حافة الخندق، وخلعت نعليَّ وأفرغتهما من الماء. ثم إني نزعت سترتي، وأخرجت محفظتي فإذا بأوراقي ونقودي كلها مبللة. عصرت سترتي. ونزعت بنطلوني، وعصرته أيضاً، ثم إني فعلت الشيء نفسه بقميصي وثيابي التحتية. وبعد أن صفَعْتُ نفسي عدة مرات وفركت جسدي ارتديت ملابسي من جديد. كنت قد أضعت قبعتي.

وقبل أن أرتدي سترتي نزعت النجوم القماشية عن ردنيَّ، ووضعتها في جيوبي الداخلية مع نقودي. كانت أوراقي المالية مبللة ولكنها كانت سليمة. وعَددْتها، فإذا هي ثلاثة آلاف لير ونيف. واستشعرتُ ملابسي رطبة ولزجة. وربَّتُّ على ذراعيَّ في عنف رغبة مني في مساعدة الدورة الدموية. كانت ثيابي التحتية صوفية، وكنت أدرك أني لن أصاب بالزكام إذا واصلتُ الحركة. كانوا قد استولوا على غدارتي في الطريق، ووضعت حافظة الغدارة الجلدية تحت سترتي. لم يكن لديَّ معطف، وكان الجو الممطر بارداً. ورحتُ أصعد في ضفة القناة. كانت الشمس قد أشرقت. وكانت أرض الريف نديَّة، خفيضة، كئيبة. والحقول جرداء رطبة. عند الأفق البعيد، كان في ميسوري أن أرى برج أجراس مرتفعاً فوق السهل. ووصلت إلى طريق ما. وتجاهي، رأيت بعض القوات العسكرية تهبط الطريق. وطلَعْتُ على جانبي الطريق، فتجاوزتني تلك القوات من غير أن تلقي إليَّ بالاً. كانت فصيلة من جنود المدفعية تصعد متجهة نحو النهر. وتابعت سيري هابطاً الطريق.

في ذلك اليوم عبرتُ السهل البندقي (الفينيسي). إنها منطقة خفيضة ولقد بدت تحت المطر أشد تسطُّحاً أيضاً. وكانت ثمة في جانب البحر، مستنقعات ملحية، وعدد قليل جداً من الطرق. كانت جميع الطرق تحاذي مصبَّ النهر حتى البحر. ولكي تعبر الريف كان عليك أن تسلك الممرات على طول القنوات. كنت أجتاز المنطقة من

الشمال إلى الجنوب، وقد عبرْت خطين من خطوط السكة الحديدية وكثيراً من الطرق، وأخيراً وصلت عند نهاية إحدى الطرق إلى خط حديدي يمتد، في تلك البقعة، بمحاذاة أحد المستشفيات، كان هو الخط الحديدي الرئيسي الممتد من البندقية إلى تريبستا، وكان ذا رصيف عال صلب، وسطح صلب، واتجاه مزدوج. وعلى مسافة ما، كانت رايةٌ تشير إلى أن ثمة محطة، وكان في ميسوري أن أرى بعض الحرس. ورأيت في الناحية الأخرى جسراً يمتد فوق جدول يصب في المستنقع. وكان في ميسوري أن أرى على الجسر حرساً أيضاً. وفي خلال اجتيازي الحقول، إلى الشمال، كنت قد رأيت قطاراً يمر فوق هذا الخط الحديدي، على نحو مرئيٍّ من بعيد عبر السهل المسطح، وخيِّل إليَّ أن ذلك القطار ربما كان قادماً من بورتوغروارو. وراقبتُ الحرس، وانطرحت على رصيف السكة الحديدية بحيث كان في استطاعتي أن أرى الطريق من كلا الجانبين. وتقدَّم حرس الجسر مصعداً نحو المكان الذي انطرحت فيه، ثم استدار وانقلب متجهاً نحو الجسر. وظللت مستلقياً في مكاني، وكنت جائعاً، وانتظرت القطار. كان القطار الذي رأيته من الطول بحيث لم تستطع القاطرة أن تجرَّه إلا في بطء شديد، وكنت واثقاً من أنني قادرٌ على التعلق به. وبعد أن كدت أيأس من الفوز بقطار، رأيت قطاراً مقبلاً. وكانت القاطرة، وهي تندفع إلى أمام، تكبُرُ شيئاً بعد شيء. نظرتُ إلى حارس الجسر. كان يمشي على الجانب الأقرب من الجسر، ولكن على الجانب الآخر من خط السكة الحديدية. وكان ذلك يمنعه من أن يراني عند مرور القطار. راقبت القاطرة وهي تقترب. كانت تسير متثاقلة مرهقة. وكان في ميسوري أن أرى أنها تقطر عدداً كبيراً من الحافلات. وكنت أعلم أن على متن القطار حرساً، فحاولت أن أرى أين كانوا، ولكني وقد اضطررت إلى البقاء بعيداً عن الأنظار لم أستطع أن ألمح أحداً منهم. وانتهت القاطرة إلى حيث كنت منطرحاً، تقريباً. وحين أمست في

محاذاتي، لاهثة مبهورة حتى في السهل، ورأيت الميكانيكي قد تخطَّاني انتصبت واقفاً ووثبت إلى مقربة من الحافلات المنطلقة. إن وقوفي أمام الخط الحديدي أقل إثارة لشكوك الحرس، إذا كان الحرس يراقبون الخط. ومرَّت عدة شاحنات مقفلة. ثم رأيت عربة خفيضة مفتوحة من النوع الذي يدعوه الإيطاليون «غندولاً». كانت مغطَّاة بالخَيش. وانتظرت حتى تخطَّتني أو كادت، ثم وثبتُ وتعلقت بقضبان التسلق الخلفية. فإذا بي على متن القطار. ودبَبْتُ بين «الغندول» وبين أفريز الشاحنة العالية المقطورة بها. وكنت على يقين من أن أحداً لم يرني. كنت أزحف متعلقاً بقضبان التسلق، ورجلاي على مِصَدِّ(*) الشاحنة، وكنا قد بلغنا الجسر تقريباً. تذكرتُ الحرس. وحين تخطَّيناه، نظر إليَّ. كان شاباً صغيراً، وكانت خوذته أكبر من أن تلائمه. وحدَّقتُ إليه في ازدراء، فأشاح ببصره عني. لقد حسب أني واحد من رجال السكة الحديدية.

وابتعد بي القطار عنه. ورأيت علائم الانزعاج بادية عليه، فهو يراقب الشاحنات الأخرى أثناء مرورها. وانحنيت لأرى كيف كان الغطاء الخيشي مشدوداً إلى الشاحنة. كانت ثمة عرى معدنية، وكان موثقاً عند الحافة بحبل. أخرجت مديتي، وقطعت الحبل، ومددتُ يدي متحسساً. كانت ثمة أشياء قاسية ناتئة تحت الغطاء الخيشي الذي توتَّر من جراء المطر، ونظرت إلى أعلى وإلى أمام. كان في الشاحنة التي تجاهي حرس، ولكنه كان ينظر إلى أمام. وأفلتُّ قضبان التسلق، وغُصتُ تحت الخيش. وارتطم جبيني بشيء ما. وكانت الصدمة عنيفة، واستشعرت الدم يجري على وجهي، ولكني بقيتُ منطرحاً على طولي. ثم إني استدرت وأوثقت الغطاء الخيشي.

(*) استعملنا هذه اللفظة مقابل ما يدعوه العامة «تابونيه» tampon وهو الحاجز الحديدي الذي يخفف من وقع الاصطدام على السيارة أو الحافلة الحديدية.

كنت الآن تحت الغطاء الخيشي، بين المدافع. كانت تفوح منها رائحة زيت وشحم سائغة، ولقد استلقيت هناك وأصخْتُ إلى المطر يتساقط على الغطاء الخيشي، وإلى صوت انسياب العربة على الخط الحديدي. وتسرَّب إليَّ ضوء ضئيل. ورحت أنظر إلى المدافعُ. كانت قد أُلْبِسَتْ ستراتها الخيشية. وخيِّل إليَّ أنها لا بدَّ مُرْسَلة من الجيش الثالث. كان جبيني قد تورَّم من أثر الصدمة، ولقد أوقفت النزف بالتزام السكينة وعدم الحركة وبتَرْك الدم يتخثَّر، ثم نزعت الدم المتجمِّد إلا عن الجرح نفسه. لم يكن الجرح شيئاً ذا بال. ولم يكن لدي منديل، ولكني كنت أتحسَّسه بأصابعي وأغسل مواضع الدم الجاف بماء المطر المتساقط من الغطاء الخيشي، وأنظفها برُدْن سترتي. كنت حريصاً على أن لا أبدو مُريباً. وكنت أعلم أن عليَّ أن أترجل من القطار قبل وصوله إلى ميستر، لأنهم سوف ينصرفون عندئذ إلى الاهتمام بأمر المدافع. لم يكن لديهم مدافع يستطيعون أن يفقدوها أو ينسوها. كنت جائعاً إلى حد مروع.

الفصل الثاني والثلاثون

وإذ استلقيت على أرض الشاحنة، والمدافع إلى جانبي تحت الغطاء الخيشي، فقد أصابني البلل، والبرد، واستشعرت أني أكاد أموت من الجوع. وأخيراً انفتلت على نفسي وتمددت على معدتي واضعاً رأسي على ذراعيَّ. كانت ركبتي متصلبة، ولكنها كانت في حال مُرْضية جداً. كان الدكتور فالانتيني قد أجرى لها جراحة موفقة. وكنت قد قمت بنصف عملية الانسحاب مشياً على قدميَّ، وسحبتُ برُكبته جزءاً من الـ «غاليبامنتو». كانت هي رُكبته من غير ريب. أما الركبة الأخرى فكانت ركبتي أنا. إن الأطباء يصنعون لك أشياء وعندئذ لا يعود جسدك مُلكاً خالصاً لك. كان الرأس رأسي، وكذلك كانت أحشائي. وكنت أستشعر هناك جوعاً شديداً. ولقد كان في ميسوري أن أحسَّ بها تنقلب على نفسها. كان الرأس رأسي ولكن لا لكي أستعمله، ولا لكي أفكِّر به، بل لكي أتذكر فحسب، ولكي أتذكر من غير إسراف أيضاً. . .

كان في استطاعتي أن أتذكر كاثرين، ولكني كنت أعرف أني قد أجَنَّ إذا فكَّرت فيها وأنا لا أزال غير واثق من أني سأراها. وهكذا ما كان ينبغي لي أن أفكر فيها. . . إلا قليلاً، وإلا فيها، في القاطرة التي تجري في تؤدة، والتي كانت عجلاتها تحدث ضجة خاصة في انطلاقها فوق الخط الحديدي، وقد تسرَّبت بضعة خيوط من الضياء عبر الغطاء الخيشي، وفي استلقائي، مع كاثرين، على أرض الشاحنة. إن

اضطرارك إلى الاستلقاء من غير تفكير، مكتفياً بالشعور والإحساس، أقسى من أرض الشاحنة، وقد طال الفراق عليك أكثر مما ينبغي، وتبللت ثيابك، وأبتِ الأرض التي تتمدد عليها إلاّ السير في بطء، واستشعرتَ الوحشة فليس لك رفيق غير ثياب رطبة وأرض صلبة اتخذتَ منها زوجة.

إنك لم تحبِ أرض الشاحنة، أو المدافع ذات السترات الخيشية، أو رائحة المعدن المشحَّم، أو رائحة غطاء خيشي يرشح منه المطر، على الرغم من أن الإقامة تحت الغطاء الخيشي وبين المدافع عذبة جداً. ولكنك أحببت شخصاً آخر كنت تعرف الآن أنه لا يمكن أن يكون هناك، وقد أصبحتِ الآن ترى في وضوح كثير وفي برود - والوضوح والفراغ أغلب على تلك الرؤية من البرود. لقد رأيت على نحو فارغ لا طائل تحته، وأنت مستلق على معدتك بعد أن شهدت جيشاً يتراجع وجيشاً يتقدم. لقد خسرت سيارتك، ورجالك، كما يفقد ملاحظ في مخزن من مخازن البيع بضائع فرعه بسبب من اندلاع النار فيها، بيد أنه لم يكن ثمة، في حالتك أنت، سند تأمين. لقد خسرت عملك الآن، ولم تعد لديك مسؤولية ما. وإذا ما قتلوا رمياً بالرصاص ملاحظي مخزن كبير بعد أن شبت النيران فيه بسبب من أنهم يتكلمون بالنبرة التي اعتادوا الكلام بها دائماً فعندها لا يكون من المتوقع أن يعود أولئك الملاحظون عندما تُفتح المخازن التجارية من جديد. إن في إمكانهم أن يبحثوا عن عمل آخر - إذا كان ثمة عمل آخر، وإذا لم يلقِ رجال الشرطة القبض عليهم.

كان النهر قد ذهب بغضبي كما ذهب بجميع مسؤولياتي. على الرغم من أن ذلك الغضب كان قد زال عندما أخذ الجندي الكاربينيري بخناقي. وتمنيت لو أتخلى عن بذلتي العسكرية على الرغم من قلّة مبالاتي بالمظاهر الخارجية. كنت قد نزعت النجوم عن سترتي، ولكن ذلك كان بدافع من الفطنة وبُعد النظر. لم يكن أمراً متعلقاً بالشرف.

فلم يكن لدي أي اعتراض عليها، من حيث المبدأ. ولكني كنت قد انتهيت. ولقد تمنيت لها حظاً طيباً. فهناك الصالحون، وهناك الشجعان، وهناك الهادئون، وهناك الأذكياء، وكلهم يستحقونها. أما أنا فلم أعد واحداً من ممثلي المسرحية، ولم أكن أتمنى غير شيء واحد، هو أن يصل هذا القطار اللعين إلى ميستر لكي أستطيع أن آكل وأكفَّ عن التفكير. إن عليَّ أن أتوقف.

إن بياني سوف يخبرهم أنهم قتلوني رمياً بالرصاص، حتى إذا فتشوا الجيوب وأخرجوا أوراق الأشخاص الذين قتلوهم، لم يجدوا أوراقي. وعندئذ سوف يعتبرونني غريقاً. وتساءلت ما الذي سيُقال لأهلي في الولايات المتحدة؟ قضى متأثراً بجراحه وغير ذلك من الأسباب. لقد كنت جائعاً وحقَّ يسوع الطيب. وتساءلت ما الذي حلَّ بكاهن زمرتنا. وبرينالدي. لعله كان في بوردينون. إذا لم يكونوا قد تراجعوا إلى أبعد من ذلك. وعلى أية حال، فإني لن أراه بعد اليوم. لا، أنا لن أرى أياً منهم أبد الدهر. كانت حياتنا تلك قد انتهت. ولم أكن أعتقد أنه مصاب بالسفلس، ولم يكن السفلس داءً خطيراً على أية حال، إذا ما عالجتَه في الوقت المناسب، كما يزعمون. ولكن ذلك كان يثير قلقَهُ. لقد كنت سأقلق لو أصِبْتُ أنا به أيضاً إن كل امرئ يجب أن يقلق.

أنا لم أخلق للتفكير. لقد خُلقت لالتهام الطعام. أي وربي. خُلقت لكي آكل وأشرب وأنام مع كاثرين. هذه الليلة ربما. لا، لقد كان ذلك مستحيلاً ولكن غداً مساءً، وأن أنعم بوجبة طعام دسمة، وغطاء سرير، وأن لا نمضي بعد اليوم إلا معاً. لعلنا مضطران إلى أن نمضي في أسرع وقت ممكن. إنها سوف تمضي معي. أنا أعلم أنها سوف تمضي. ولكن متى سنمضي؟ لقد كان ذلك موضوعاً للتفكير. كان الليل يهبط. ولقد استلقيت على طولي وفكَّرت إلى أين ينبغي أن نذهب. لقد كان ثمة أماكن كثيرة.

الكتاب الرابع

الفصل الثالث والثلاثون

ترجلت من القطار في ميلانو، عندما تمهل قرب المحطة. كان ذلك في ساعة مبكرة، ولم تكن الشمس قد أشرقت. عَبَرْتُ الخط الحديدي وانسللْتُ بين بنايتين، وهبطت إلى الشارع. كان ثمة خمارة مفتوحة الأبواب، فدخلتها رغبة في ارتشاف شيء من القهوة. كان يسود الخمارة جو عابق بالصباح الباكر، وبالغبار المكنوس، والملاعق المغموسة في فناجين القهوة، والحلقات التي تركتها كؤوس الخمر. كان صاحب الحانة واقفاً خلف المشرب. وكان جنديان يجلسان إلى إحدى الطاولات. وقفت عند المشرب واحتسيت فنجاناً من القهوة وأكلت قطعة من الخبز. كانت القهوة رمادية بالحليب، فنزعت قشدة الحليب بقطعة من الخبز. ونظر صاحب الخمارة إليَّ، وقال:

- «هل تريد زجاجة من الغرابًّا؟»

- «لا. شكراً.»

- «على حسابي.»

قال ذلك وملأ كأساً صغيرة ثم دفعها نحوي. وأضاف:

- «ما الذي يجري في الجبهة؟»

- «لست أدري.»

فقال، مشيراً إلى الجنديين:

- «إنهما ثملان.»

كان في وسعي أن أصدّقه. لقد بَدوَا ثملَيْن.

وقال:

- «أخبرني، ما الذي يجري في الجبهة؟»

- «لست أعرف شيئاً عن الجبهة؟»

- «لقد رأيتك تهبط الجدار. لقد ترجلت من القطار.»

- «إن ثمة انسحاباً كبيراً.»

- «لقد قرأت الصحف. ما الذي يجري؟ هل انتهى كل شيء؟»

- «لست أظن ذلك..»

وأترع الكأس بالغرابًا من زجاجة قصيرة. وقال:

- «إذا كنتَ في خطر فإن في استطاعتي أن أخبئك.»

- «أنا لا أستشعر أي خطر.»

- «إذا كنتَ في خطر فابْقَ هنا معي.»

- «أين؟»

- «في هذا البيت. إن كثيراً من الناس ينزلون هنا. إن جميع الذين يتهددهم الخطر ينزلون هنا.»

- «وهل ثمة كثير من الناس المهددين بالخطر؟»

- «يتوقف ذلك على نوع الخطر الذي تتحدث عنه. هل أنت من أبناء أميركا الجنوبية؟»

- «لا.»

- «هل تتكلم الإسبانية؟»

- «بعض الشيء.»

ومسح المشْرب، وقال:

- «من العسير على المرء، الآن، أن يغادر البلاد. ولكن ذلك ليس مستحيلاً بأية حال.»

ـ «ليس لدي رغبة في مغادرة البلاد.»

ـ «في استطاعتك أن تبقى هنا ما شئت. ولسوف ترى أي رجل أنا.»

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أذهب هذا الصباح، ولكني سوف أتذكر عنوانك وأرجع إليك.»

وصافحته، وقال:

ـ «حين يتكلم المرء هكذا فإنه لا يعود. لقد حسبت انك في خطر حقيقي.»

ـ «لست أستشعر أي خطر. ولكنني أقدر عنوان الصديق حق قدره. ووضعت على المشرب ورقة نقدية قيمتها عشرة ليرات ثمناً للقهوة.»

فقال:

ـ «إشرب معي كأساً من الغرابّا.»

ـ «ليس ذلك ضرورياً.»

ـ «إشرب كأساً.»

وأترع الكأسين. وقال:

ـ «تذكّر جيداً. ارجع إلى هنا. لا تدع أناساً آخرين يخدعونك عن نفسك. سوف تكون ههنا في مأمن.»

ـ «أنا واثق من ذلك.»

ـ «أنت واثق؟»

ـ «نعم.»

كانت إمارات الجد بادية عليه. وقال

ـ «إذن دعني أقول لك شيئاً. لا تتجوَّل وأنت لابس هذا المعطف.»

ـ «لماذا؟»

ـ «إن في استطاعة المرء أن يرى في كثير من الوضوح أثر النجوم المنزوعة عن رُدْنيْك. فأثر ذلك واضح على القماش.»

ولم أنبس ببنت شفة.

ـ «إذا لم يكن عندك أوراق ففي استطاعتي أن أقدِّم إليك أوراقاً.»

ـ «أية أوراق؟»

ـ «أوراق الإجازة.»

ـ «لست في حاجة إلى أوراق. إن لدي أوراقاً.»

وقال:

ـ «حسناً. ولكن إذا احتجت إلى أوراق ففي ميسوري أن أقدِّم إليك ما تشاء.»

ـ «وما ثمن هذه الأوراق؟»

ـ «هذا يتوقف على ماهيَّتها. إن الثمن معقول.»

ـ «لست في حاجة إلى أي منها الآن.»

وهز كتفيه.

قلت:

ـ «أنا في خير.»

وحين غادرت الحانة قال:

ـ «لا تنسَ أني صديقك.»

ـ «لا، لن أنسى.»

فقال:

ـ «سوف أراك مرة ثانية.»

فقلت:

ـ «حسن.»

وفي الخارج اجتنَبْتُ المحطة، حيث كان عدد من رجال البوليس

الحربي، حتى إذا بلغتُ حافة الحديقة العامة الصغيرة امتطيت متن إحدى العربات، وأعطيت السائق عنوان المستشفى. وحين وصلنا إلى هناك شخصت إلى كوخ البوَّاب. وعانقتني زوجته. وصافحني هو.

ـ «لقد رجعت. أنت سالم لَم تصب بأذى.»

ـ «نعم.»

ـ «هل تناولت طعام الصباح؟»

ـ «نعم.»

وسألتني زوجته:

ـ «كيف أنت أيها الملازم؟ كيف أنت؟»

ـ «رائع.»

ـ «ألا تود أن تتناول طعام الصباح معنا؟»

ـ «لا. أشكرك. أخبريني، مس باركلي موجودة هنا في المستشفى الآن؟»

ـ «مسى باركلي؟»

ـ «الممرضة الإنكليزية.»

فقالت الزوجة:

ـ «فتاتُهُ.»

وربَّتت على ذراعي وابتسمت.

فقال البواب:

ـ «لا. لقد رحلت.»

وغار قلبي. وقلت:

ـ «أنت واثق؟ أنا أعني السيدة الشابة الإنكليزية الطويلة الشقراء.»

ـ «أنا واثق. لقد ذهبتْ إلى ستريزا.»

ـ «متى ذهبت؟»

ـ «ذهبت منذ يومين مع السيدة الإنكليزية الأخرى.»

فقلت:

ـ «حسن. أرجوك أن تقدِّم إليَّ خدمة. لا تُخبر أحداً أنك رأيتني. هذا هام جداً.»

فقال البواب:

ـ «لن أخبر أحداً.»

وأعطيته ورقة نقدية قيمتها عشرة ليرات. فردَّها وقال:

ـ «أعدك بأن لا أخبر أحداً. أنا لا أحتاج إلى مال.»

فسألتني زوجته:

ـ «ما الذي نستطيع أن نخدمك به، أيها السيد الملازم؟»

فقلت:

ـ «هذه الخدمة فقط.»

فقال البواب:

ـ «نحن أبكمان. أرجو أن تخبرني عن أي شيء أستطيع أن أفعله من أجلك.»

فقلت،

ـ «سوف أراك مرة أخرى.»

ووقفا لدى الباب، وتبعاني بنظراتهما.

وامتطيتُ متن العربة، وأعطيت السائق عنوان سيمونز، وهو أحد الذين كنت أعرفهم، وكان يدرس فن الغناء.

كان سيمونز يسكن في مكان ناء من المدينة، قرب «البورتا ماغانتا».

قال:

ـ «أنت تفيق باكراً إلى حد رهيب، يا هنري.»

- «لقد أقبلت على متن القطار الأول.»

- «ما هذا الانسحاب كله؟ هل كنت في الجبهة؟ ما رأيك في سيكارة؟ هي ذي السكاير في تلك العبلة على الطاولة.»

كانت حجرة واسعة فيها سرير قائم في محاذاة الجدار، وبيانو في الجانب الآخر منها، ومِزْينة(*) وطاولة. جلست على كرسي مجاور للسرير، وجلس سيمونز متكئاً على الوسائد وأنشأ يدخن.

قلت:

- «أنا في ورطة، يا سيمونز.»

فقال:

- «وأنا كذلك. أنا دائماً في ورطة. ألا تدخن؟»

فقلت:

- «لا. ما الإجراءات التي لا بدَّ من اتخاذها للذهاب إلى سويسرا؟»

- «أنت تريد الذهاب إلى سويسرا؟ إن الإيطاليين لن يمكّنوك من مغادرة البلاد.»

- «أجل، أعرف ذلك. ولكني أسأل عن السويسريين. أي موقف سيكون موقفهم؟»

- «إنهم سوف يأسرونك.»

- «أدري. ولكن علامَ ينطوي ذلك الأسر؟»

- «إنه لا ينطوي على شيء. الأمر بسيط جداً. سوف يكون في ميسورك أن تذهب حيث شئت. وأعتقد أنهم لن يطلبوا إليك أكثر من إثبات الوجود بين الفينة والفينة أو شيئاً مثل ذلك. لماذا؟ هل تحاول الفرار من وجه البوليس؟»

(*) المزينة dresser حيث تضع المرأة زينتها وفيها مرآة للتزيين.

- «ليس هناك شيء محدَّد حتى الآن.»

- «لا تقل لي إذا كنت غير راغب في ذلك. ومع هذا فلا ريب أن من الممتع الاستماع لمثل هذا الحديث. إن شيئاً لا يَحْدُثُ هنا. لقد أخفقتُ إخفاقاً فظيعاً في بياسنتزا.»

- «أنا آسف أعظم الأسف لذلك.»

- «أوه، أجل. لقد مُنيتُ بفشلٍ فاضح. ومع ذلك، فقد أجدت في الغناء، ولسوف أحاول مرة ثانية هنا في «الليريكو».»

- «أرجو أن أوفق إلى سماعك هناك.»

- «أنت لطيف إلى حد مروِّع. ولكنك لست في مأزق حرج، أليس كذلك؟»

- «لست أدري.»

- «لا تخبرني إذا كنت غير راغب في ذلك. كيف جاز لك أن تكون بعيداً عن الجبهة اللعينة؟»

- «أحسب أني قد نفضتُ يدي منها.»

- «يا لك من فتى طيب. لقد كنتُ دائماً أعتقد أنك ذو عقل راجح. هل أستطيع أن أساعدك بطريقة ما؟»

- «أنت مشغول إلى حد رهيب.»

- «لا، أبداً، يا عزيزي هنري. لا، لست مشغولاً البتة. سوف أكون سعيداً بأن أعمل أيَّ شيء.»

- «إن لك قواماً هو أقرب ما يكون إلى قوامي. فهل لك أن تمضي وتشتري لي بذلة مدنية كاملة؟ إن لديَّ بعض الملابس، ولكنها كلها في روما.»

- «لقد عشتَ هناك، أليس كذلك؟ إنها موطنٌ قذر. هل طُقتَ الحياة فيها؟»

- «لقد أردتُ أن أكون مهندساً معمارياً.»

- «ليس هذا هو المكان الملائم لذلك. لا تشترِ أية ملابس سوف أقدِّم إليك جميع الملابس التي ترغب فيها. سوف تخرج من بين يديَّ رجلاً بالغ الأناقة، انطلقْ إلى الخزانة. خذ منها ما تشاء، يا صديقي، لستَ في حاجة إلى شراء الملابس.»

- «مع ذلك فإني أفضل أن أشتريها، يا سيمونز.»

- «يا صديقي العزيز، إنه لأيسر عليَّ أن أقدمها إليك من أن أخرج وأشتريها. أعندك جواز سفر؟ إنك لن تستطيع الذهاب إلى بعيد بدون جواز سفر.»

- «أجل. أنا لا أزال محتفظاً بجواز سفري.»

- «إذن، فارتدِ تلك الملابس، يا صديقي العزيز، وانطلقْ إلى هلفيتيا(*) العتيقة.»

- «المسألة ليست سهلة إلى هذا الحد. يتعيَّن عليَّ أن أذهب إلى ستريزا(**) أولاً.»

- «شيء مثالي، يا صديقي العزيز. ليس عليك إلا أن تجذِّف وتعبر البحيرة. ولولا أني أحاول الغناء كرة أخرى لرافقتك إلى هناك. أنا لا بدَّ أن أذهب في يوم من الأيام.»

- «في ميسورك أن تتعلم الغناء(***) على الطريقة التيرولية هناك.»

- «من غير ريب، يا صديقي العزيز. سوف أتعلم الغناء على الطريقة التيرولية في يوم من الأيام. ومع ذلك، فإن في استطاعتي فعلاً أن أغني. ذلك هو الجزء العجيب من المسألة.»

(*) Helvita اسم شعري يطلق على سويسرا. (المعرب)

(**) Strasa. . مدينة في شمال غربي إيطاليا، وتقع على بحيرة ماغيور. (المعرب)

(***) يقصد بالغناء على الطريقة التيرولية الانتقال المتكرر من الصوت العادي إلى الصوت الناشز (ألنشاز) على طريقة الجبليين السويسريين والتيروليين. (المعرب)

ـ «أراهن على أن في استطاعتك أن تغني.»

فاستلقى على السرير مدخناً لفافة.

ـ «لا تراهن أكثر مما ينبغي. ولكني برغم ذلك أستطيع أن أغني. هذا شيء مضحك إلى حد لعين، ولكني أستطيع. أنا أحب أن أغني. اسمع.»

وأنشأ يهدر بـ «الآفريقانا» وقد انتفخت أوداجه، وقال:

ـ «في استطاعتي أن أغني. سواء أحبوا أم لم يحبوا.»

وأطللت من النافذة، وقلت:

ـ «سوف أنزل وأصرِف العربة التي جاءت بي إلى هنا.»

ـ «اصرِفها ثم ارجعْ، يا صديقي العزيز، ولسوف نتناول طعام الصباح معاً.»

ووثب من السرير. ووقف منتصب القامة، وأخذ نَفْساً عميقاً. وشرع يقوم ببعض التمرينات الانثنائية. هبطت السلم، ودفعتُ إلى الحوذي أجرته وصَرفْتَهُ.

الفصل الرابع والثلاثون

استشعرت، وأنا في تلك الثياب المدنية، أني مُقَنَّع في كرنفال لقد ارتديت الملابس العسكرية دهراً طويلاً حتى لقد أصبحت أضيق بالملابس المدنية. لقد بدا لي وكأن بنطلوني فضفاض أكثر مما ينبغي. وكنت قد اشتريت في ميلانو تذكرة سفر إلى ستريزا. واشتريت قبعة جديدة أيضاً. أنا لم أستطع الاعتمار بقبعة سيمونز، ولكن ملابسه كانت رائعة. كانت رائحة التبغ تفوح منها، ولحظةَ اتخذت مكاني في مقصورة القطار وأطللت من النافذة بدت قبعتي بالغة الجدّة وبدت ملابسي بالغة العتق. أما أنا فاستشعرت أني محزون مثل ريف لومبارديا الذي كان ينبسط أمام ناظريّ من خلال النافذة. كان في المقصورة بعض الطيارين الذين لم يُلقوا إليّ بالاً. لقد تحاشوا النظر إليَّ، وكانوا يزدرون أعظم الازدراء مدنياً في مثل سني. ولم أشعر أني أهِنت. ولو قد فعلوا ذلك في الأيام الخالية إذن لأهنتهم ولافتعلتُ معركة بيني وبينهم. غادروا القطار عند غالارات، فسعدتُ بأن أجد نفسي وحيداً. وكانت لديَّ صحيفة، ولكني لم أقرأها لأني ما كنت راغباً في قراءة شيء عن الحرب. كنت راغباً في نسيان الحرب. وكنت عقدت صلحاً منفرداً. لقد شعرتُ بوحدة موحشة، ومن هنا كان سروري عظيماً بوصول القطار إلى ستريزا.

وفي المحطة توقعت أن أرى بعض بوابي الفنادق، ولكني لم أجد منهم أحداً. كان الموسم قد انتهى منذ عهد بعيد، ولم يعد البوابون

يقبلون إلى المحطة. ترجلت من القطار وفي يدي حقيبتي. كانت حقيبة سيمونز وكانت خفيفة الحمل جداً، إذ لم يكن فيها غير قميصين اثنين، ووقفت تحت سقف المحطة إتقاءً للمطر، فيما كان القطار يمضي لسبيله. سألت رجلاً في المحطة، أيّ الفنادق لا يزال مشرع الأبواب؟ فعرفت منه أن «الغران أوتيل ودي زيل بوروميه» كان مشرع الأبواب، وكذلك كان حال عدد من الفنادق الصغيرة التي تعمل طوال العام. فانطلقت تحت المطر، قاصداً إلى فندق الـ «بوروميه»، وحقيبتي في يدي. ورأيت عربة تهبط الشارع، فأومأت إلى الحوذي. لقد كان من الأفضل أن أبلغ الفندق على متن عربة. وانتهت بنا العربة إلى باب العربات في ذلك الفندق الضخم. فخرج البواب حاملاً مظلته، وكان بالغ اللطف.

حجزت غرفة جيدة. كانت غرفة واسعة جداً، نيرة جداً، وكانت تطل على البحيرة. كانت السحب شديدة الانخفاض فهي تكاد تمس وجه البحيرة، ولكن المشهد خليق به أن يكون رائعاً في الأيام المشمسة. قلت للمشرفين على الفندق: إني أترقب أن تصل زوجتي في أقرب وقت. كان ثمة سرير واسع مزدوج ذو غطاء من الأطلس (الساتان). وكان الفندق فخماً جداً. واتخذت سبيلي عبر الأروقة الطوال ـ هابطاً السُّلم العريضة، مجتازاً عدداً من الغرف ـ إلى المشرب (البار). عرفت القيِّم على المشرب، وقعدت على كرسي عالٍ لا ظهر له، وأكلت شيئاً من اللوز المملَّح والبطاطا المقلية. وكان مذاق المارتيني(*) غضّاً نقيّاً.

وسألني القائم على المشرب بعد أن مزج لي كأساً أخرى من المارتيني:

ـ «ما الذي تفعله هنا في بورغيز؟»

(*) شراب مسكر معروف.

ـ «أنا في إجازة. في إجازة نقاهة.»

ـ «ليس ههنا أحد. أنا لا أدري لماذا لا يغلقون أبواب الفندق.»

ـ «هل كنت تصطاد السمك؟»

ـ «لقد اصطدت بعض الأسماك الجميلة. إن من يخرج للصيد في هذا الفصل يفوز بأشياء جميلة.»

ـ «هل استلمت التبغ الذي بعثت به إليك؟»

ـ «أجل. ألم تتلقَّ بطاقتي؟»

وضحكت. فأنا لم أوفق إلى الفوز بذلك التبغ. فقد كان القيِّم على المشرب يريد تبغاً أميركياً خاصاً بالبيبة (الغليون)، ولكن أنسبائي كانوا قد كفّوا عن إرساله، أو لعل السلطات صادرت ما أرسلوه إليَّ منه. وعلى أية حال، فإن ذلك التبغ لم يأتِ قط.

قلت:

ـ «سوف أعثر على شيء من ذلك التبغ في مكان ما. قل لي، هل رأيت فتاتين إنكليزيتين في البلدة؟ لقد وصلتا إلى هنا أول أمس.»

ـ «إنهما ليستا في الفندق.»

ـ «إنهما ممرضتان.»

فقال:

ـ «لقد رأيت ممرضتين. انتظر دقيقة. سوف أكتشف أين هما.»

ـ «إن إحداهما زوجتي. لقد وفدتُ إلى هنا لألقاها.»

ـ «والأخرى زوجتي.»

ـ «أنا لا أمزح.»

فقال:

ـ «اغفر لي نكتتي البلهاء. أنا لم أفهم.»

ومضى لسبيله، وبقيت وحدي فترة قصيرة. وأكلت شيئاً من الزيتون، واللوز المملَّح، والبطاطا المقلية، ونظرت إلى نفسي في

الملابس المدنية في المرآة القائمة خلف المشرب. ثم إن القيِّم على المشرب انقلب راجعاً وقال:

ـ «إنهما في الفندق الصغير المجاور للمحطة.»

ـ «هل أستطيع أن أفوز ببعض السندويشات؟»

ـ «سوف أطلب لك بعضها تلفونياً. أنت تعلم أنه ليس لدينا شيء لأنه ليس في الفندق أحد.»

ـ «أليس ههنا، حقاً، أحد على الإطلاق؟»

ـ «هناك بضعةُ زبائن ليس غير.»

وأقبلتِ السندويشات. والتهمت ثلاثاً منها، واحتسيت كأسين أخريين من المارتيني. أنا لم أذق من قبل أيما شيء في مثل هذه النضارة والنقاء. لقد أشعَرتَني أني رجلٌ متمدن. ذلك أني كنت قد سئمت النبيذ، والخبز والجبن، والقهوة الرديئة، والغرابًا. وجلست على المقعد العالي الذي لا ظهر له، تجاه الخشب الماهاغوني الجميل، والنحاس، والمرايا، ولم أفكِّر في شيء. ووجه إليَّ المسؤول عن المشرب سؤالاً.

فقلت:

ـ «لا تحدِّثني عن الحرب.»

كانت الحرب نائية جداً. ولعله لم يكن ثمة حرب البتة. وأياً ما كان، فلم يكن ههنا حرب. عندئذ أدركت أن الحرب قد انتهت بالنسبة إليَّ. ولكني لم أكن أستشعر أنها انتهت فعلاً. لقد استشعرت مثل شعور غلام يفكِّر في الذي يجري، خلال ساعة ما، في المدرسة التي غاب عنها ذلك اليوم لغير ما عذر شرعي.

* * *

كانت كاثرين وهيلين فيرغوسون تتناولان طعام العشاء عندما وصلت إلى فندقهما. لقد رأيتهما جالستين إلى المائدة وأنا واقفٌ في

الرواق. كانت كاثرين لا تنظر في اتجاهي، فرأيت خط شعرها ووجنتها وجيدها الجميل وكتفيها. كانت فيرغوسون تتحدث. ولقد كفت عن الحديث عندما دخلتُ.

وقالت:

ـ «يا إلهي!»

فقلت:

ـ «هالو!»

فقالت كاثرين:

ـ «ولكنْ هذا أنت!»

وأشرق وجهها بالبهجة. لقد بدت وكأنها تستشعر من السعادة قدراً أكبر مما ينبغي، قدراً يوقع في نفسها الشك في صحة ما ترى. قبّلتُها فشاع الدم في وجهها. وجلستُ معهما إلى المائدة.

وقالت فيرغوسون:

ـ «ما الذي تفعله هنا؟ هل تناولت طعام العشاء؟

ـ «لا.»

ودخلت الفتاة التي كانت تقدم الطعام إليهما، فسألتها أن تحمل إليَّ طبقاً. كانت كاثرين تنظر إليَّ دون أن تزيح نظرها عني. وكانت عيناها تشعّان بُشراً وسعادة.

وسألتني فيرغوسون:

ـ «ما الذي تفعله هنا وأنت في اللباس المدني؟»

ـ «أنا عضو في الوزارة.»

ـ «أنت في مأزقٍ ما.»

ـ «ابتهجي يا فيرغي! ابتهجي ولو قليلاً!»

ـ «أنا لا أستشعر الابتهاج حين أراك. إني أعرف الورطة التي أوقعت هذه الفتاة فيها. أنت لست مشهداً بهيجاً في ناظريَّ.»

وابتسمت كاثرين لي، ومسَّتني بقدميها من تحت الطاولة.

ـ «إن أحداً لم يوقعني في ورطة، يا فيرغي. إني أورِّط نفسي بنفسي.»

فقالت فيرغوسون:

ـ «أنا لا أستطيع احتماله. إنه لم يفعل شيئاً غير إلباسك ثوب الخزي والعار بحيله الإيطالية الحقيرة. إن الأميركيين أسوأ من الإيطاليين.»

فقالت كاثرين:

ـ «الاسكتلنديون قوم أخلاقيون جداً.»

ـ «ليس هذا ما قصدتُ إليه. أنا أعني أساليبه الإيطالية الحقيرة.»

ـ «هل أنا حقير، يا فيرغي؟»

ـ «أجل، أنت حقير. أنت أسوأ من حقير. أنت كالأفعى. أنت أفعى في بذلة عسكرية إيطالية. أفعى يطوِّق عنقها وشاح.»

ـ «أنا لا أرتدي بذلة عسكرية إيطالية الآن.»

ـ «وهذا ليس إلاّ مثلاً آخر على مسلك الحقير. لقد مثَّلت طوال الصيف دور المحب العاشق، وألقيت في أحشاء هذه الفتاة جنيناً، وأغلب الظن إنك سوف تنسلُّ الآن انسلالاً.»

وابتسمت لكاثرين وابتسمت كاثرين لي.

وقالت:

ـ «سوف ننسلُّ نحن الاثنين انسلالاً.»

فقالت فيرغوسون:

ـ «أنتما كلاكما من معدن واحد. أنا خجلةٌ بك، يا كاثرين باركلي. أنتِ امرأة بلا حياء، بلا شرف، وإنك لا تقلين عنه حقارة.»

فقالت كاثرين وهي تربِّت على يدها:

ـ «لا، يا فيرغي. لا تتهميني. أنتِ تعلمين أننا نحب بعضاً بعضاً.»

فقالت فيرغوسون، وقد احمرّ وجهها:

ـ «إبعدي يدكِ عني. لو كان في وجهك ذرة من خجل لكنتِ غير ما أنتِ الآن. ولكنك حامل منذ أشهر لا يعلمها إلا اللّه، وأنت تحسبين ذلك مزحةً أو نكتة، وأن وجهك ليطفح بالبشر والابتسام لأن الذي أغواكِ قد عاد. أنتِ امرأة بلا حياء وبلا إحساس.»

وشرعت تبكي. فمضت كاثرين نحوها، وطوَّقتها بذراعها. وفيما هي واقفة تسرِّي عن فيرغوسون لم أستطع أن ألمح أي تغيُّر في قوامها.

وتنهدت فيرغوسون وقالت:

ـ «لست أبالي. أنا أعتقد أن ذلك رهيب.»

فواستْها كاثرين قائلة:

ـ «كفى، كفى، يا فيرغي. سوف أعتصم بالخجل. لا تبكي، يا فيرغي. يا فيرغي الطيبة.»

فتنهدت فيرغوسون وقالت:

ـ «أنا لا أبكي. أنا لا أبكي. إلا بسبب من الهاوية الفظيعة التي تردَّيْتِ فيها.»

ونظرتْ إليَّ ثم أضافت:

ـ «أنا أكرهك. إنها لا تستطيع أن تحول بيني وبين كرهك، أيها الأميركي الإيطالي الحقير القذر.»

كانت عيناها حمراوين وكان أنفها أحمر أيضاً من أثر البكاء.

وابتسمت كاثرين لي.

فقالت فيرغوسون موجهةً الخطاب إليها:

ـ «لا تبتسمي له وذراعك تطوِّقني.»

ـ «ليس هذا تصرُّفاً عاقلاً، يا فيرغي.»

فتنهدت فيرغوسون وقالت:

ـ «أعرف ذلك. ينبغي أن لا تؤاخذاني كلاكما. إني منفعلة إلى أبعد الحدود. وأتصرف تصرفاً غير عاقل. أنا أعرف ذلك. أنا أريد أن تكونا كلاكما، سعيدين.»

فقالت كاثرين:

ـ «نحن سعيدان. أنت لطيفة، يا فيرغي.»

واستأنفت فيرغوسون بكاءها، وقالت:

ـ «أنا لا أحب لكما أن تكونا سعيدين على هذه الشاكلة لماذا لا تتزوجان؟ أنت ليس لديك زوجة أخرى، أليس كذلك؟»

فقلت:

ـ «كلا، ليس لديَّ زوجة أخرى.»

وضحكت كاثرين.

فقالت فيرغوسون:

ـ «ليس ثمة ما يُضحك. إنَّ لدى كثير منهم زوجاتٍ أخرى.»

فقالت كاثرين:

ـ «سوف نتزوج، يا فيرغي، إذا كان هذا يرضيك.»

ـ «لا. ليس من أجل إرضائي. ينبغي لكما أن تكونا أنتما راغبين في الزواج.»

ـ «لقد كنا مشغولين أكثر مما يجب.»

ـ «أجل. أدري. كنتما مشغولين في إنجاب الأولاد.»

وحسبتُ أنها سوف تستسلم للبكاء من جديد، ولكنها أخذت بأسباب السخرية والتهكم، بدلاً من ذلك، فقالت:

ـ «أحسب أنكِ سوف تذهبين معه هذه الليلة؟»

فقالت كاثرين:

ـ «نعم. إذا رغب هو في ذلك.»

ـ «وأنا، أأبقى هنا وحدي؟»

ـ «وهل تخافين البقاء وحدك؟»

ـ «أجل. أنا خائفة.»

ـ «إذن، فسوف أبقى معكِ.»

ـ «لا، اذهبي معه. اذهبي معه في الحال. لقد سئمت رؤيتكما كليكما.»

ـ «من الأفضل أن نَفْرغَ من عشائنا أولاً.»

ـ «لا. اذهبا في الحال.»

ـ «كوني منطقية. يا فيرغي.»

ـ «أقول اذهبا في الحال. اذهبا كلاكما.»

فقلت:

ـ «فلنذهب إذن.»

كان صدري قد ضاق بفيرغي.

ـ «أنتما تتحرقان إلى الذهاب. وإنكما لترْيان جيداً أنكما راغبان حتى في تَرْكي أتناول طعام العشاء وحدي. لقد كنت دائماً تواقة للذهاب إلى البحيرات الإيطالية، فانظرا الآن على أية صورة قُدِّر لي أن أرى تلك البحيرات! أوه، أوه!»

وانتحبتْ، ونظرت إلى كاثرين، وغصَّت بالدمع.

فقالت كاثرين:

ـ «سوف نبقى إلى ما بعد العشاء. ولن أتركك وحدك إذا رغبت في بقائي. لا، لن أتركك وحدك يا فيرغي.»

فكفكفت من عبراتها وقالت:

ـ «لا. لا. أنا أحب أن تذهبي. أنا أحب أن تذهبي. لقد فقدت منطقي. أرجوك أن لا تؤاخذيني.»

وكانت النادلة قد ارتبكت لدى رؤيتها هذا البكاء كله. حتى إذا عادت حاملة الصنف الثاني من الطعام سرَّى عن نفسها ما لاحظته من التحسُّن الذي طرأ على الموقف.

وفي ذلك المساء كانت غرفة الفندق التي احتللناها، الغرفة ذات الرواق الطويل الفارغ، وكان حذاءانا الموضوعان خارج الباب، وكانت السجادة الغليظة المنشورة في أرض الغرفة، والمطر المنهمر خارج النوافذ، والضياء الخارجي، والأنس بغطاء السرير الناعم وبالسرير المريح، وشعور العائد إلى بيته بعد غيبة، وإحساسه بأنه لم يعد وحيداً، واستيقاظه في حواشي الليل ليجد المحبوب إلى جانبه، لا غائباً في مكان قصي ـ كان ذلك كله أشبه بحلم. ونمنا حين ألمَّ بنا التعب، حتى إذا أفاق أحدنا أفاق الآخر أيضاً لكي لا يستشعر أي منا وحشة التوحد ولو لحظة. إن الفتى كثيراً ما يستشعر الرغبة في أن يخلو إلى نفسه، والفتاة كثيراً ما تستشعر الرغبة في أن تخلو إلى نفسها، وإذا كانا عاشقين حرصاً على تحقيق هذه النزعة المتبادلة، ولكني أستطيع أن أقول مخلصاً، إننا لم نعرف مثل هذا الشعور قط. كنا نستشعر الوحدة حين يخلو أحدنا إلى الآخر، نستشعر الوحدة إزاء الآخرين. ولم يتفق لي ذلك إلا مرة واحدة. كنت أستشعر الوحدة وأنا مع فتيات كثيرات، وتلك هي الطريقة القادرة على أن تجعلك متوحداً أقوى ما يكون التوحد. ولكنا لم نكن نستشعر معاً الوحدة البتة، ولم نكن نحس بالخوف قط ونحن مجتمعان. إن الليل لا يستوي مع النهار، وإن الأشياء كلها متباينة، وإن أشياء الليل لا سبيل إلى تفسيرها في النهار، إذ ليس من وجود لها آنذاك، وأن الليل قد يكون وقتاً رهيباً بالنسبة إلى المتوحدين من الناس بمجرد استشعارهم تلك الوحدة. أما مع كاثرين فلم يكن ثمة، إذا جاز التعبير، فرق بين الليل والنهار باستثناء أن الليل كان خيراً من النهار. وحين يواجه الناس العالم بقدر وافر من الشجاعة فإن على العالم أن يقتلهم لكي يكسرهم. وهكذا فإنه يقتلهم. إن العالم

يكسر الناس جميعاً، وبعد ذلك ينشئ كثير منهم، في مواطن الكسر، أنسجة عظمية جديدة. أما أولئك الذين يستعصون على الكسر فإنه يقتلهم. إنه يقتل ذوي الصلاح البالغ، واللطف البالغ، والبسالة البالغة على حد سواء. فإذا لم تكن واحداً من هؤلاء الذين ينكسرون ففي ميسورك أن تثق أنه سوف يقتلك، ولكن لن يكون ثمة أيما داع للعجلة.

* * *

وأذكر أني أفقت في الصباح. كانت كاثرين نائمة، وكانت أشعة الشمس تتسرّب من خلال النافذة. كان المطر قد توقّف، فوثبتُ من السرير ومضيت إلى النافذة. وهناك، تحت، تراءت الحدائق عارية من أوراق الشجر، ولكنها جميلة في نظاميّتها، وتراءت الممرات المفروشة بالحصباء، والأشجار، والجدار الحجري الممتد على طول البحيرة، والبحيرة متألقة تحت أشعة الشمس، والجبال من ورائها. ووقفت عند النافذة، وسرَّحت البصر منها، حتى إذا برحت موقفي ذاك ألفيتُ كاثرين مستيقظة تراقبني.

قالت:

ـ «كيف أنت يا حبيبي؟ إنه نهار بديع، أليس كذلك؟»

ـ «أجل، وكيف أنتِ؟»

ـ «ممتازة. لقد قضينا ليلة رائعة.»

ـ «هل ترغبين في تناول طعام الصباح؟»

كانت راغبة في تناول طعام الصباح. وكذلك كنت أنا. فتناولناه في السرير، وأشعة شمس نوفمبر تنفذ من خلال النافذة، وصينية الطعام في حجري.

ـ «ألا تريد الجريدة؟ كنت دائماً راغباً في قراءة الجريدة في المستشفى.»

فقلت:

ـ «لا. لست أريد الجريدة الآن.»

ـ «أكانت رديئة إلى هذا الحد حتى لتأبى أن تقرأ شيئاً عنها؟»

ـ «أنا لا أريد أن أقرأ شيئاً عنها.»

ـ «كم أتمنى لو كنت معك لكي أطلع على واقعها أيضاً.»

ـ «سوف أحدثك عنها إذا ما قُدِّر لي يوماً أن أنظم أفكاري بعض التنظيم.»

ـ «ولكن ألا تخشى أن يعتقلوك إذا ما ألفَوْك مرتدياً الملابس المدنية؟»

ـ «من الجائز جداً أن يطلقوا عليَّ النار.»

ـ «إذن فلن نبقى هنا. سوف نخرج من هذه البلاد.»

ـ «لقد فكّرت بشيء من هذا.»

ـ «سوف نغادر هذه الديار. يا حبيبي، يجب أن لا تعرِّض حياتك للخطر على غير طائل. أخبرني كيف ذهبت من ميستر إلى ميلانو؟»

ـ «لقد جئت بالقطار. وكنت أرتدي الملابس العسكرية آنئذ.»

ـ «ألم تكن في خطر آنذاك؟»

ـ «لم أكن في خطر كبير، كانت لدي رخصة مرور عتيقة. ولقد رتبت تواريخها في ميستر.»

ـ «حبيبي، أنت معرَّض للاعتقال هنا في كل لحظة. أنا لا أريد شيئاً من ذلك. ومن السخف الإقدام على شيء كهذا. ما الذي سيحل بنا إذا ما اعتقلوك؟»

ـ «فلنقلع عن التفكير في هذا. لقد سئمت التفكير في هذا.»

ـ «أي شيء ستفعله إذا ما أقبلوا لاعتقالك؟»

ـ «سوف أقتلهم بالرصاص.»

ـ «أترى مبلغ سخافتك! أنا لن أدعك تخرج من الفندق إلا لنغادر البلاد نهائياً.»

ـ «إلى أين سوف نذهب؟»

ـ «سوف نذهب إلى حيث تشاء. ولكن أرجوك أن تختار مكاناً نستطيع أن نذهب إليه في الحال.»

ـ «إن سويسرة تقع على طرف البحيرة. في استطاعتنا أن نذهب إلى هناك.»

ـ «سوف يكون ذلك رائعاً.»

كانت الغيوم تتلبَّد في السماء، وكان الظلام قد شرع يرين على البحيرة.

قلت:

ـ «أتمنى أن لا نضطر دائماً إلى العيش كالمجرمين.»

ـ «لا تكن هكذا يا حبيبي. إنك لم تعش كالمجرمين دهراً طويلاً. ونحن لا نعيش أبداً كالمجرمين. إننا سوف نقضي وقتاً ممتعاً.»

ـ «أنا أشعر وكأني مجرم. لقد فررت من الجيش.»

ـ «حبيبي. كن عاقلاً. أنت لا تستطيع أن تدعو ذلك فراراً من الجيش. ثم إنك لم تفر إلا من الجيش الإيطالي على أية حال.»

وضحكتُ وقلت:

ـ «أنت فتاة رائعة. فلنأوِ إلى السرير. أنا لا أستشعر الراحة إلا حين آوي إلى السرير.»

* * *

بعد قليل قالت كاثرين:

ـ «أنت لا تستشعر وكأنك مجرم، أليس كذلك؟»

فقلت:

ـ «لا. ليس حين أكون معك.»

فقالت:

ـ «أنت فتى بارد جداً. ولكني سوف أُعنى بك. أليس من الرائع، أيها الحبيب، أني لا أحس بشيء من غثيان الصباح؟»

ـ «هذا عظيم.»

ـ «أنت لا تدرك أية زوجة رائعة عندك! ولكني لا أبالي. سوف أذهب إلى مكان لا يستطيعون أن يعتقلوك فيه، وعندئذ ننعم بالسعادة.»

ـ «فلنذهب إلى هناك في الحال.»

ـ «سوف نفعل، يا حبيبي. سوف أذهب إلى أيما مكان في أيما وقت تشاء.»

ـ «دعينا لا نفكِّر في أي شيء.»

ـ «حسن.»

الفصل الخامس والثلاثون

اتخذت كاثرين طريقها في محاذاة البحيرة إلى الفندق الصغير لكي ترى فيرغوسون، وقعدت أنا في المشرب وقرأت الصحف. كان في المشرب كراسٍ جلدية مريحة فجلست على واحد منها، وقرأت حتى أقبل المسؤول عن المشرب. لقد واصل الجيش تراجعه من غير أن يتوقف عند الـ «تاغلياامانتو». كان يرتد إلى نهر الـ «بيياف». وتذكرت الـ «بيياف». كانت سكة الحديد التي تقود إلى جبهة القتال تجتازه قرب «سان دونا». وفي تلك النقطة كان النهر عميقاً بطيئاً، وكان ضيقاً جداً. وفي مواطن أكثر انخفاضاً كانت مستنقعات ملأى بالبعوض وقنوات، وكانت ثمة بعض الدارات الجميلة. وذات مرة، قبل الحرب، كنت أصعد نحو الـ «كورتينا دامبيزو» فلزمْتُ مجراه ساعات عديدة عبر الكثبان. وفي تلك المرتفعات بدا وكأنه نهر أطروط يجري في رشاقة، نهر ذو امتدادات ضحلة ومياه راكدة في ظل الصخور. وانعطفت الطريق مفترقة عنه عند كادور. وتساءلت كيف يستطيع الجيش المعسكر على تلك المرتفعات أن يهبط منها. وأقبل السّاقي المسؤول عن البار. وقال:

ـ «كان الكونت غريفّي يسأل عنك.»

ـ «من؟»

ـ «الكونت غريفّي. أنت تذكر الرجل العجوز الذي كان هنا يوم كنت أنت في المرة الماضية.»

ـ «أهو هنا؟»

ـ «أجل. هو هنا مع ابنة أخيه. لقد قلت له إنك هنا. إنه يريد أن يلاعبك بالبليارد.»

ـ «أين هو؟»

ـ «إنه يتنزه سيراً على القدمين.»

ـ «كيف حاله؟»

ـ «إنه أنضر شباباً من أيما وقت مضى. لقد شرب ثلاثة أقداح من الشامبانيا البارحة قبل العشاء.»

ـ «وكيف لعبُهُ بالبليارد؟»

ـ «حسن. لقد غلبني، ولقد سرَّ سروراً عظيماً عندما أخبرته أنك هنا. فليس ههنا أحد حتى يلاعبه.»

كان الكونت غريفي في الرابعة والتسعين. ولقد عاصر ميترنيخ، وكان عجوزاً ذا شعر أبيض، وشاربين، وكان رفيع التهذيب. لقد عمل في السلك السياسي في كل من النمسا وإيطاليا، وكانت السهرات التي يقيمها احتفالاً بذكرى ميلاده هي الحدث الاجتماعي الأكبر في ميلانو. كان خليقاً به أن يحيا حتى تبلغ سنه مئة عام، وكان يلعب البليارد في سلاسة تتغاير مع هشاشته(*) البالغة من العمر الرابعة والتسعين. كنت قد لقيته يوم قصدت إلى ستريزا في مرة سابقة، وكان ذلك في غير أيام الموسم، وفيما كنا نلعب البليارد احتسينا الشامبانيا. لقد كانت عادة رائعة، ولقد تساهل معي فتبرع لي بخمس عشرة نقطة من أصل مئة، ومع ذلك فقد غلبني.

ـ «لماذا لم تخبرني أنه هنا؟»

ـ «لقد نسيت.»

(*) الهشاشة: سرعة الانقصاف والانكسار.

- «ومَن هنا أيضاً؟

- «ليس هناك أحد تعرفه. إن نزلاء الفندق كلهم لا يزيدون على ستة.»

- «ماذا تفعل الآن؟»

- «لا شيء.»

- «هيا بنا نصطَدِ السمك.»

- «أستطيع أن أقضي في ذلك ساعة واحدة.»

- «هيا، ايتِ بالصنارة.»

وارتدى السّاقي سترة، وانطلقنا. لقد هبطنا ضفة البحيرة وأخذنا مركباً. وجذَّفتُ أنا، بينما جلس هو عند مؤخر المركب، ودلّى صنارته في الماء. كانت صنارة خاصة بصيد سمك الأطروط في البحيرة، وكانت ذات طُعم دوَّار ومُرسِّب ثقيل. وجذفنا في محاذاة الشاطئ، وقد أمسك المشربي بالصنارة في يده، وأنشأ يَنْتُرُها بين الفينة والفينة. ومن جانب البحيرة، بدت ستريزا مدينة مهجورة. كان ثمة صفوف طويلة من الأشجار الجرداء، وكانت قمة الفنادق الكبيرة، والدارات الموصدة. وجذَّفت في اتجاه الـ «إيزولا بيلا»، وحاذيتُ الجدران حيث تعاظم عمق المياه وحيث كنت ترى الجدار الصخري ينحدر في المياه الرائقة. ثم إنني جذَّفت إلى جزيرة الصيادين. كانت الشمس محجوبة خلف سحابة ضخمة، وكانت المياه قاتمة، مستوية، باردة جداً. ولم نوفق إلى صيد ما، على الرغم من أننا رأينا بعض الدوائر التي رسمها السمك في ارتفاعه إلى سطح الماء.

وجذَّفت في اتجاه جزيرة الصيادين حيث كانت مراكب مشدودة إلى الشاطئ، وحيث كان رجال يصلحون شباك الصيد.

- «ما رأيك في قليل من الشراب؟»

- «لا بأس.

ـ «وقدت المركب حتى الرصيف الحجري، عندها سحب السّاقي صنارته من الماء ولفَّها في قعر المركب، وعلَّق الطعم على حافة المركب. ووثبت مترجلاً من المركب وربطته بحبل. ثم إننا مضينا إلى مقهى صغير وجلسنا إلى طاولة خشبية عارية، وطلبنا كأسين من الفيرموت.

ـ «هل تعبت من التجذيف؟»

ـ «لا.»

فقال:

ـ «سوف أجذِّف في العودة.»

ـ «أنا أحب التجذيف.»

ـ «إذا أمسكت أنت بالصنارة فقد يتغيَّر الحظ.»

ـ «حسن.»

ـ «حدثني عن الحرب كيف تسير؟»

ـ «من سيئ إلى أسوأ.»

ـ «لست مضطراً إلى الذهاب إلى الجبهة. أنا عجوز أكثر مما ينبغي، مثل الكونت غريفي.»

ـ «قد يتعيَّن عليك أن تذهب في وقت قريب.»

ـ «في العام القادم سوف يدعون أترابي إلى الخدمة. ولكني لن أذهب.»

ـ «ما الذي ستفعله؟»

ـ «سوف أغادر البلاد. أنا لن أذهب إلى الحرب. لقد خضت الحرب مرة في الحبشة. لا، لا. لماذا ذهبت أنت؟»

ـ «لست أدري. لقد كنت مجنوناً.»

ـ «أتريد كأساً آخر من الفيرموت؟»

ـ «لا بأس.»

وجذَّف السّاقي في العودة. وحاولنا الصيد في موضع مرتفع من البحيرة، وراء ستريزا، ثم في موضع أكثر انخفاضاً على مقربة من الشاطئ. وأمسكت أنا بالصنارة، واستشعرت نبضات الطعم الخافتة وهو يدور ويدور، بينا كنت أنظر إلى مياه نوفمبر القاتمة، وإلى الشاطئ المهجور. وجذّف في خطى واسعة، وعند كل اندفاعة من اندفاعات المركب كانت الصنارة تختلج. وذات مرة أحسست بسمكة تعض الشص، فتصلب الخيط وارتد إلى الوراء. وجذبته فاستشعرت ثقل السمكة الحي، ثم اختلج الخيط من جديد. كانت السمكة قد أفلتت.

ـ «هل بدا لك أنها ضخمة؟»

ـ «ضخمة جداً.»

ـ «ذات يوم كنت أصطاد وحدي، وكنت أمسك بالخيط بأسناني. وأقبلت سمكة أطروط وعضَّت على الشص، فكادت تقتلع فمي اقتلاعاً.»

فقلت:

ـ «الطريقة الفضلى هي أن تضع الخيط فوق رجلك، وبذلك تحس به جيداً وتصون أسنانك من الضياع.»

ـ «ووضعت يدي في الماء. كان الماء بارداً جداً. وكنا قد أصبحنا تجاه الفندق تقريباً.

وقال السّاقي:

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أدخل. يجب أن أكون هناك في الساعة الحادية عشرة، ساعة الكوكتيل.»

ـ «حسن.»

ورفعت الصنارة ولففتها على عصا مثلومة الطرفين. ووضع السّاقي المركب في مُنْزلق صغير في الجدار الحجري، وربطه بسلسلة ذات قُفل.

وقال:

ـ «كلما احتجت إلى المركب أعطيتك المفتاح.»

ـ «شكراً.»

صعدنا إلى الفندق واتجهنا إلى المشرب. وإذ لم أكن راغباً في كأس أخرى، في تلك الساعة من الصباح، فقد تابعت سبيلي إلى غرفتنا. كانت الخادمة قد انتهت اللحظة من تنظيف الغرفة وترتيبها، ولم تكن كاثرين قد رجعت بعد. فاستلقيت على السرير وحاولت ألا أفكّر في شيء».

وحين رجعت كاثرين استشعرت الارتياح من جديد. وقالت لي إن فيرغوسون في الدور السفلي. كانت قد أقبلت لتناول طعام الغداء معنا.

فقالت كاثرين:

ـ «أنا أعلم أنك لن تمانع في ذلك.»

فقلت:

ـ «لا.»

ـ «ما بك، أيها الحبيب؟»

ـ «لست أدري.»

ـ «أنا أدري. ليس لديك ما تعمله. كنت أنا كل ما تملكه، وقد غادرتك.»

ـ «هذا صحيح.»

ـ «أنا آسفة، يا حبيبي. أنا أعلم أن شعور المرء فجأة بأن ليس لديه ما يعمله هو شعور رهيب.»

فقلت:

ـ «لقد كانت حياتي حافلة دائماً بكل شيء. أما الآن فحين لا تكونين معي أفقد كل شيء في العالم.»

ـ «ولكني سوف أكون معك دائماً. أنا لم أغب عنك إلا ساعتين. ليس ثمة شيء تستطيع أن تعمله؟»

ـ «لقد ذهبت لصيد السمك مع السّاقي.»

ـ «ألم تستمتع بذلك؟»

ـ «بلى.»

ـ «لا تفكِّر فيَّ حين لا أكون هنا.»

ـ «ذلك ما كنت أفعله في الجبهة. ولكن كان لدي ما أفعله آنذاك.»

فقالت مناكدة:

ـ «عُطَيْل من غير عمل.»

فقلت:

ـ «لقد كان عطيل زنجياً. وإلى هذا فأنا لا أعرف الغيرة. كل ما في الأمر أني أحبك حباً انعدم معه وجود كل شيء.»

ـ «هل لك أن تكون فتى صالحاً وأن تعامل فيرغوسون بلطف؟»

ـ «أنا لطيف دائماً مع فيرغوسون إلا إذا شتمتني.»

ـ «كن لطيفاً معها. فكِّر في كل هذا الذي ننعم به وفي مدى الحرمان الذي تعانيه هي.»

ـ «ما كنت أحسب أنها تبغي ما ننعم به نحن.»

ـ «بالنسبة إلى ذكائك البالغ أستطيع أن أقول، يا حبيبي، إنك لا تعرف شيئاً كثيراً.»

ـ «سوف أكون لطيفاً معها.»

ـ «أعلم أنك ستكون كذلك. أنت عذب إلى أبعد الحدود.»

ـ «إنها لن تبقى بعد هذا، أليس كذلك؟»

ـ «لا. سوف أتخلص منها.»

ـ «وعندئذ نعود إلى هنا.»

- «طبعاً. أي شيء تحسبني سأفعل؟»

وهبطنا إلى الدور السفلي لنتناول طعام الغداء مع فيرغوسون. كانت شديدة الإعجاب بالفندق وبأناقة حجرة الطعام وفخامتها. تناولنا غداء شهياًمع زجاجتين من شراب الـ «كابري» الأبيض. ودخل الكونت غريفي إلى حجرة الطعام وحيَّانا بانحناءة. وكانت ابنة أخيه الشبيهة بعض الشيء بجدتي، ترافقه. وحدثتُ كاثرين وفيرغوسون عنه، فكان تأثُّر فيرغوسون عظيماً. كان الفندق فخماً جداً، وضخماً جداً، وفارغاً، ولكن الطعام كان جيداً، وكانت الخمر طيبة المذاق جداً، وأخيراً أوقعت الخمر في أنفسنا نشاطاً وابتهاجاً. ولم تكن كاثرين في حاجة إلى مزيد من النشاط والابتهاج. لقد كانت بالغة السعادة، وغَدَت فيرغوسون مبتهجة جداً. واستشعرت أنا الخفة والنشاط. بعد الغداء رجعت فيرغوسون إلى فندقها. لقد قالت إنها راغبة في الاستلقاء على السرير، فترة قصيرة، بعد الغداء.

وفي ساعة متأخرة من الأصيل قرع شخص باب غرفتنا:

- «من الطارق؟»

- «الكونت غريفي يود أن يسأل: هل تستطيع أن تلعب البليارد معه؟»

وألقيت نظرة على ساعتي. كنت قد نزعتها ووضعتها تحت الوسادة.

فهمست كاثرين:

- «أأنت مضطر إلى الذهاب، حبيبي؟»

- «أظن أن من الأفضل أن أذهب.»

كانت الساعة الرابعة والربع. وفي صوت عال قلت:

- «قل للكونت غريفي أني سأكون في قاعة البليارد عند الساعة الخامسة.»

وحين بلغت الساعة الخامسة إلا ربعاً قبّلت كاثرين مودِّعاً وذهبت إلى الحمام لأردتي ملابسي. وفيما أنا أعقد رباط عنقي وأنظر إلى المرآة بدوْت غريباً في عينَيْ نفسي في الملابس المدنية، يتعيَّن عليَّ أن لا أغفل عن شراء بعض القمصان والجوارب الإضافية.

وسألتني كاثرين، وقد بدت رائعة وهي مستلقية على السرير:

ـ «وهل سيطول غيابك؟ أرجو أن تناولني الفرشاة.»

ـ «وراقبتها وهي تمرُّ الفرشاة على شعرها، حانية رأسها لكي يجتمع ثقل شعرها كله في جانب واحد. كانت العتمة قد هبطت، وكان النور المنبعث من فوق مقدَّم السرير يتلألأ على شعرها، وعلى جيدها ومنكبيها. وتقدَّمت نحوها، وقبلتها، وأخذت بيدها الممسكة بالفرشاة، وارتدَّ رأسها وارتمى على الوسادة. وقبلت جيدها وكتفيها. وأحسست لفرط حبي إياها أني على وشك أن يغمى علي.

ـ «أنا لا أريد أن أذهب.»

ـ «وأنا لا أريدك أن تذهب.»

ـ «إذن فلن أذهب.»

ـ «لا. اذهب. إنك لن تغيب غير برهة يسيرة، وبعد ذلك ستعود.»

ـ «سوف نتناول طعام العشاء، هنا في الغرفة.»

ـ «اذهب، وارجع في سرعة.

وجدتُ الكونت غريفي في قاعة البليارد. كان يتدرب، وقد بدا سهل الكسر تحت الضياء المنصب على مائدة البليارد. وعلى أحد موائد اللعب بالورق، بعيداً عن النور بغض الشيء، كان دلوُ تثليج فضي يحتضن زجاجتي شمبانيا، وقد بدا عنقاهما وسدَّادتاهما فوق قطع الثلج التي فيه. وتصدَّر الكونت غريفي عندما اقتربت من المائدة وتقدم نحوي. وبسط يده إليَّ وقال:

ـ «يسعدني إلى أبعد الحدود أن ألقاك هنا. لقد كان لطفاً عظيماً منك أن تجيء لتلعب معي.»

ـ «لقد كان لطفاً عظيماً منك أن تدعوني إلى ذلك.»

ـ «هل أنت بخير؟ لقد أنبأوني أنك جُرحتَ عند نهر ايزونزو. أرجو أن تكون استعدت عافيتك.»

ـ «أنا في صحة ممتازة. وأنت؟»

ـ «أوه، أنا بخير دائماً. ولكني أتخذ سبيلي نحو الشيخوخة. لقد بدأت ألحظ إمارات السن العالية.»

ـ «أنا لا أستطيع أن أصدّق ذلك.»

ـ «حسن. هل تريد أن أقدم إليك مثلاً على ذلك؟ من الأيسر عليَّ أن أتحدث باللغة الإنلكيزية. أنا أفرض على نفسي نظاماً قاسياً، ولكني أجد حين أتعب أنه من الأيسر عليَّ أن أتحدث باللغة الإيطالية. وهكذا أعلم أني أتخذ سبيلي إلى الشيخوخة.»

ـ «في استطاعتنا أن نتحدث بالإيطالية، أنا مُتعب بعض الشيء أيضاً»

ـ «أوه، ولكنك حين تتعب يكون من الأيسر عليك أن تتحدث بالإنكليزية.»

ـ «تعني بالأميركية.»

ـ «نعم. بالأميركية. أرجوك أن تتحدث بالأميركية. إنها لغة رائعة.»

ـ «إني نادراً ما ألتقي بعض الأميركيين.»

ـ «ولا ريب في أنك متشوّق إليهم. فالمرء يشتاق إلى مواطنيه، ويشتاق بخاصة إلى مواطناته. لقد خبرتُ ذلك بنفسي. هل نبدأ في اللعب أم أنك متعب أكثر مما ينبغي؟»

ـ «أنا لست متعباً على الإطلاق، لقد قلتُ ذلك على سبيل

للدعابة. ما عدد النقط التي تعتزم أن تسلِّفني إياها؟»

ـ «هل لعبت كثيراً في المدة الأخيرة؟»

ـ «لم ألعب قط.»

ـ «أنت بارع في اللعب. سوف أمنحك عشر نقط من أصل مئة»

ـ «أنت تطريني»

ـ «خمس عشرة نقطة؟»

ـ «سوف يكون هذا شيئاً رائعاً. ولكنك ستغلبني.»

ـ «وهل نتراهن على شيء؟ لقد كنت ترغب، دائماً، في التراهن على شيء يدفعه المغلوب إلى الغالب.»

ـ «أعتقد أن هذا أفضل.»

ـ «حسن. سوف أمنحك ثماني عشرة نقطة، ولسوف ندفع فرنكاً مقابل كل نقطة.»

ولعب لعباً ساحراً. ورغم النقاط التي منحني إياها لم أكن أتقدَّمه، حين أحرزت خمسين نقطة، بأكثر من نقاط أربع. وضغط الكونت غريفي على زر في الجدار لكي يستدعي السّاقي.

وقال:

ـ «افتح إحدى الزجاجتين من فضلك.»

ثم التفت إليَّ وقال:

ـ «سوف نأخذ منبِّهاً صغيراً.»

كانت الخمر باردة كالثلج، وكانت مُزَّاء إلى حد بعيد، ممتازة إلى حد بعيد.

ـ «هل نتحدث بالإيطالية؟ إن ذلك لن يزعجك كثيراً، أليس كذلك؟ تلك هي نقطة ضعفي الكبرى الآن.»

وواصلنا اللعب، مرتشفين الخمر بين الضربة والضربة، متحدثين بالإيطالية، ولكن في اقتصاد، مركِّزين اهتمامنا على اللعب. وحين

سجّل الكونت غريفي نقاطه المئة كنت أنا قد سجلت، برغم النقاط التي منحني إياها منذ البدء، أربعاً وتسعين نقطة ليس غير. وابتسم الكونت، وربَّت على كتفي.

ـ «سوف نشرب الزجاجة الأخرى، وأنت تحدثني حديث الحرب.»

وانتظرني حتى جلست، فجلس.

وقلت:

ـ «سأحدثك عن أيما شيء آخر.»

ـ «ألا تريد أن تحدثني عن الحرب؟ حسن. ما الذي طالعته في الفترة الأخيرة؟»

قلت:

ـ «لم أطالع شيئاً. يخيل إليَّ أني خامل جداً.»

ـ «أوه، ولكن عليك أن تطالع.»

ـ «وهل ثمة في أيام الحرب إنتاج أدبي جدير بالقراءة؟»

ـ «هناك كتاب «النار» للكاتب الفرنسي باربوس، و«مستر بريتلنغ» يرى من خلالها.(*)»

ـ «لا. إنه لا يرى شيئاً.»

ـ «ماذا؟»

ـ «إنه لا يرى شيئاً. هذان الكتابان كانا في المستشفى.»

ـ «إذن فقد كنت تطالع؟»

ـ «أجل، ولكن ما طالعته لم يكن صالحاً البتة.»

ـ «لقد وجدتُ «مستر بريتلنغ» دراسة جيدة لروح الطبقة الوسطى.»

ـ «أنا لا أعرف شيئاً عن الروح.»

(*) أحد مؤلفات هـ.ج. ويلز. (المعرب)

ـ «يا لك من فتى مسكين. إن أحداً منا، نحن الاثنين، لا يعرف شيئاً عن الروح. هل أنت مؤمن؟»

ـ «في الليل فقط.»

وابتسم الكونت غريفي. أدار الكأس بأصابعه، وقال:

ـ «كنت قد توقعت أن أصبح أكثر تقوى كلما تقدَّمت بي السن ولكن ذلك لم يحصل. إن هذا مؤسف جداً.»

وسألته:

ـ «هل ترغب في أن تحيا بعد الموت؟»

واستشعرت في الحال أن إشارتي هذه إلى الموت كانت حماقة. ولكن الكلمة لم تزعجه.

وقال:

ـ «يتوقف ذلك على الحياة. هذه الحياة حلوة جداً. وإني لأتمنى لو أعيش إلى الأبد.»

وابتسم ثم أضاف:

ـ «ولقد كدت أحقق ذلك في الواقع.»

كنا جالسين على كرسيين جديدين عميقين، وكانت الشامبانيا في دلو الثلج وكأسانا بيني وبينه على المائدة.

ـ «لو قُدِّر لك أن تبلغ من السن مبلغي إذن لألفَيت كثيراً من الأشياء بالغة الغرابة.»

ـ «أنت لا تبدو عجوزاً البتة.»

ـ «إن جسدي هو الذي أمسى عجوزاً. وإني لأخشى في بعض الأحيان أن أكسر إصبعاً من أصابعي كما يكسر المرء إصبع طباشير. ولكن روحي ليست أعلى سناً، ولا أكثر حكمة.»

ـ «أوه، ولكنك رجل حكيم.»

ـ «لا. تلك هي المغالطة العظمى: حكمة الشيوخ. إن السن لا تجعلهم حكماء. إنها تجعلهم أكثر حذراً.»

ـ «لعل هذا هو الحكمة بعينها.»

ـ «إنها حكمة مستهجنة. ما الذي يستأثر بأعظم حظ من تقديرك؟»

ـ «شخص أحبه..»

ـ «وأنا مثلك. هذه ليست حكمة. هل تقدِّر الحياة؟»

ـ «نعم.»

ـ «وكذلك أنا. لأنها كل ما أملكه. ولأنها تمكِّنني من إحياء السهرات احتفالاً بذكرى ميلادي.»

وضحك ثم أضاف:

ـ «لعلك أكثر حكمة مني. أنت لا تقيم السهرات احتفالاً بذكرى ميلادك.»

ورشف كل منا شيئاً من الكأس.

وسألته:

ـ «وما رأيك في الحرب بصراحة؟»

ـ «أنا أعتقد أنها حماقة.»

ـ «ومن سيكسبها؟»

ـ «إيطاليا.»

ـ «لماذا؟»

ـ «إنها أمة أكثر فتوّة وأنضر شباباً.»

ـ «وهل تكسب الأمم الفتية الحروب دائماً؟»

ـ «تكسبها لفترة من الزمن.»

ـ «وبعد ذلك ما الذي يحدث؟»

ـ «إنها تصبح أمماً هرمة.»

ـ «وتزعم أنك لست حكيماً. . .»

ـ «هذه ليست حكمة، أيها الفتى العزيز. هذه سخرية.»

ـ «إنها تبدو لي حافلة بالحكمة.»

ـ «ليس كثيراً. وفي استطاعتي أن أعطيك أمثلة معاكسة. ولكنها ليست رديئة. هل أتينا على الشامبانيا؟»

ـ «تقريباً.»

ـ «هل نشرب قدْراً إضافياً؟ يتعيَّن عليَّ بعد ذلك أن أرتدي ملابسي.»

ـ «من الخير لنا أن لا نشرب قدْراً إضافياً الآن.»

ـ «أواثق أنت من أنك لا ترغب في قَدْر إضافي؟»

ـ «أجل.»

ونهض. فقلت:

ـ «أتمنى لك حظاً طيباً وسعادة عظيمة، وصحة موفورة إلى أبعد الحدود.»

ـ «شكراً. لقد فزتُ بذلك. وإذا ما قُدِّر لك ذات يوم أن تصبح تقيَّاً فصلِّ من أجلي حين أموت. إني أسأل كثيراً من أصدقائي أن يفعلوا الشيء نفسه. ولقد توقعت في يوم من الأيام أن أغدو أنا تقيّاً ولكن ذلك لم يتمَّ.»

وخُيِّل إليَّ أنه ابتسم ابتسامة محزونة، ولكني لم أكن واثقاً. فقد كان هرماً متغضِّن الوجه إلى درجة جعلت الابتسامة تشوّه كثيراً من أساريره وتضيِّع ظلال المعنى كلها.

وقلت:

ـ «قد أصبحُ تقيّاً جداً. وعلى كل حال، فسوف أصلي من أجلك.»

ـ «لقد توقّعتُ دائماً أن أصبح تقياً. لقد مات أفراد أسرتي كلهم

بعد أن بلغوا مرتبة عالية من التقى. ولكني لم أوفق إلى شيء من ذلك لسبب من الأسباب.»

ـ «أعتقد أن الوقت لمَّا يحن بعد.»

ـ «بل لعلَّ الأوان قد فات. لعليَّ اجتزت سن الأحاسيس الدينية.»

ـ «إن عواطفي الدينية لا تسيقظ إلا في الليل.»

ـ «إذن فأنت عاشق أيضاً. لا تنسَ أن الحب عاطفة دينية.»

ـ «هل تعتقد ذلك؟»

ـ «طبعاً.»

وخطا خطوة نحو المائدة وقال:

ـ «لقد كان لطفاً منك أن تلاعبني.»

ـ «لقد فزتُ بمتعة بالغة.»

ـ «سوف نرتقي السلم معاً.»

الفصل السادس والثلاثون

وفي تلك الليلة، هبت عاصفة، وأفقت على صوت المطر وهو يضرب زجاج النافذة بسياطه. ويتسرب من خلال النافذة المفتوحة. وقرع شخص الباب، ومضيت إلى الباب في رفق، لكي لا أوقظ كاثرين، وفتحته. كان السّاقي واقفاً هناك. وكان مرتدياً معطفه، ممسكاً بقبعته في يده.

ـ «هل أستطيع أن أقول كلمة، أيها الملازم؟»

ـ «ما المسألة؟»

ـ «إنها مسألة خطيرة جداً.»

وأجلت البصر في ما حولي. كانت الغرفة مظلمة. ورأيت الماء على أرضها قرب النافذة. وقلت:

ـ «أدخل.»

وأمسكت به من ذراعه وقُدْته إلى الحمام، وأوصدت الباب، وأشعلت النور. ثم إني جلست على حافة المغطس.

ـ «ما المسألة يا إميليو؟ هل أنت في خطر؟»

ـ «لا. ولكنك أنت في خطر، أيها الملازم.»

ـ «ماذا؟»

ـ «سوف يعتقلونك صباحاً.»

ـ «ماذا؟»

ـ «لقد جئت لأخبرك. كنت في المدينة وسمعتهم يتحدثون في أحد المقاهي.»

ووقف هناك. مبلَّل المعطف، ممسكاً بقبعته في يده، ولم يقل شيئاً.

ـ «لماذا يريدون أن يعتقلوني؟»

ـ «الأمر متعلق بالحرب.»

ـ «أتعرف ما هو؟»

ـ «لا. لكني أعرف أنهم يعلمون أنك كنت هنا من قبل في بزة ضابط وأنك الأن هنا في الملابس المدنية. لقد أخذوا بعد هذا الانسحاب يعتقلون كل إنسان.»

وفكرت لحظة.

ـ «ومتى سيأتون لاعتقالي؟»

ـ «في الصباح. لست أدري في أية ساعة على وجه الضبط.»

ـ «بِمَ تشير عليَّ؟»

ووضع قبعته في المغسل. كانت رطبة جداً، وكان الماء يقطر منها على الأرض.

ـ «إذا لم يكن لديك ما تخافه فعندئذ لا يكون الاعتقال شيئاً ذا بال. ولكن الاعتقال بغيض إلى النفس دائماً، وبخاصة في هذه الأيام.»

ـ «أنا لا أريد أن أعتقَل.»

ـ «اذهب إذن إلى سويسرة.»

ـ «كيف؟»

ـ «في مركبي.»

فقلت:

ـ «هناك عاصفة.»

ـ «لقد هدأت العاصفة. البحيرة هائجة ولكنك سوف تكون في نجوة من الخطر.»

ـ «ومتى يتعيَّن علينا أن ننطلق؟»

ـ «في الحال. قد يقبلون لاعتقالك في ساعة مبكرة من الصباح.»

ـ «وحقائبنا؟»

ـ «أعدَّها في سرعة. واطلب إلى السيدة أن ترتدي ملابسها. سوف أتولى أنا نقل الحقائب.»

ـ «وأين سنلقاك؟»

ـ «سوف أنتظركما هنا. أنا لا أريد أن يراني أحد هناك، في الرواق.»

وفتحت الباب، ثم أوصدته، ومضيت إلى الحجرة كانت كاثرين قد استيقظت.

ـ «ما المسألة، يا حبيبي؟»

فقلت:

ـ «خير، يا كاثرين، هل لكِ أن ترتدي ملابسك في الحال وتذهبي إلى سويسرة على متن مركب؟»

ـ «وأنت؟»

فقلت:

ـ «أنا؟ إني أفضل العودة إلى السرير.»

ـ «ولكن ما الذي جرى؟»

ـ «يقول السّاقي إنهم سوف يعتقلونني في الصباح.»

ـ «هل السّاقي مخبول؟»

ـ «لا.»

ـ «إذن أرجوك أن تعجل، يا حبيبي، وأن ترتدي ملابسك لكي يكون في إمكاننا أن ننطلق.»

ونهضت قاعدة على جانب السرير. كان النعاس لا يزال يداعب عينيها.

وأضافت:

- «هل السّاقي في الحمام؟»

- «نعم.»

- «إذن، فلن اغتسل. أرجوك أن توجِّه وجهك إلى الناحية الأخرى، أيها الحبيب، ولسوف أرتدي ملابسي في دقيقة واحدة ليس غير.»

وحين خلعت منامتها وقع بصري على بياض ظهرها، وما لبثت أن أشحت بوجهي عنها لأنها طلبت مني أن أفعل ذلك. كان الجنين قد ضخَّم جسمها بعض الشيء، ولم تكن راغبة في أن أراها عارية على هذه الحال. وارتديت ملابسي على وقع المطر المنهمر على النوافذ. ولم يكن لديَّ أشياء كثيرة أضعها في حقيبتي.

وقلت:

- «إن في حقيبتي متسعاً كبيراً، يا كاثرين، إذا كنت في حاجة إلى ذلك.»

فقالت:

- «كدتُ انتهي من حزم أمتعتي. أيها الحبيب، سوف تجد أني بلهاء إلى حد فظيع، ولكن ما الذي يفعله السّاقي في الحمام؟»

- «هش: إنه ينتظرنا ليحمل حقائبنا إلى تحت.»

- «إنه رجل لطيف جداً.»

فقلت:

- «إنه صديق قديم. ولقد أرسلت إليه تبغ البيبة في يوم من الأيام.»

وأطللت من النافذة المشرعة وسرَّحت بصري في الظلام الدامس.

ولم أستطع أن أرى البحيرة. كل ما رأيته كان الظلام والمطر، ولكن الريح كانت قد أصبحت أكثر هدوءاً.

وقالت كاثرين:

ـ «أنا على استعداد، أيها الحبيب.»

ـ «حسن.»

ومضيت إلى باب الحمام.

وقلت:

ـ «دونك الحقيبتين يا اميليو.»

وحمل المشربي الحقيبتين.

فقالت كاثرين:

ـ «إن مساعدتك إيانا تنمّ عن طيبة بالغة.»

فقال السّاقي:

ـ «هذا شيء لا يستحق الذكر، أيتها السيدة. أنا سعيد بأن أساعدكما ضمن النطاق الذي لا يورِّطني بأيٍّ بلاء. اسمعْ». والتفت إليَّ: «سوف أحمل الحقيبتين واهبط بهما السلم الخاص بالخدم. ثم أمضي إلى المركب. وليس عليكما إلا أن تغادرا الغرفة وكأنكما تعتزمان التنزُّه سيراً على الأقدام.»

فقالت كاثرين:

ـ «إنها ليلة رائعة جديرة بنزهة.»

ـ «بل إنها ليلة بغيضة في الواقع.»

فقالت كاثرين:

ـ «يسعدني أن يكون معي مظلة.»

واجتزنا الرواق وهبطنا السلم العريضة المكسوة ببساط كثيف. وفي أدنى السلم، قرب الباب، كان البواب جالساً إلى مكتبه.

وما إن رآنا حتى استبد به الذهول، وقال:

ـ «أنت لا تعتزم الخروج من الفندق الآن، يا سيدي؟»

فقلت:

ـ «بلى نحن نعتزم أن نشهد العاصفة وقد هبَّت على سطح البحيرة.»

ـ «أليس عندك مظلة يا سيدي؟»

فقلت:

«لا. هذا المعطف يذود عني المطر.»

فنظر إليَّ في ارتياب وقال:

ـ «سوف آتيك بمظلة، يا سيدي.»

وانطلق ثم رجع حاملاً مظلة كبيرة وقال:

ـ «إنها كبيرة بعض الشيء، يا سيدي.»

فأعطيته عشرة ليرات إيطالية وقلت.

ـ «أوه، أنت رجل طيب جداً. أشكرك كثيراً.»

وفتح الباب، وإبقاه مفتوحاً حتى انطلقنا تحت المطر. وابتسم لكاثرين، وابتسمت له. وقال:

ـ «لا تقفا في وجه العاصفة. إن فعلتما تبللت ملابسكما، يا سيدي ويا سيدتي.»

لم يكن غير البواب الثاني. وكانت إنكليزيته مترجمة ترجمةً حرفية.

قلت:

ـ «سوف نرجع عما قريب.»

وهبطنا الممرّ مستعينين بالمظلة العملاقة، وتقدَّمنا عبر الحدائق الندية المظلمة إلى الطريق، واجتزنا الطريق إلى المجاز المعرَّش(*)

(*) الذي تكتنفه العرائش.

على طول البحيرة. كانت الريح تهب الآن بعيداً عن الشاطئ. وكانت ريحاً باردة ندية من رياح نوفمبر، ولقد أدركتُ أن الثلج كان يتساقط على الجبال. واجتزنا المراكب المقيدة بالسلاسل في مزالقها القائمة على طول الرصيف، حتى وصلنا إلى حيث كان مركب السّاقس. كانت المياه داكنة إزاء الحجارة. ووثب السّاقي من وراء صف الأشجار.

قال:

ـ «الحقيبتان في المركب.»

فقلت:

ـ «أريد أن أدفع إليك ثمن المركب.»

ـ «ما مقدار ما معك من النقود؟»

ـ «شيء قليل.»

ـ «في استطاعتك أن تبعث إليَّ بالمال في ما بعد. لا بأس.»

ـ «كم؟»

ـ «ما تشاء.»

ـ «قل لي كم.»

ـ «إذا وُفقتما إلى النجاة فأرسل إليَّ خمسمئة فرنك. إنك لن تستكثر ذلك إذا وفِّقت إلى النجاة.»

ـ «حسن.»

ـ «خذ هذه الساندويشات.» وقدَّم إليَّ رزمة، «هذا كل ما كان في المشرب. لقد أمسى كله بين يديك. وهذه زجاجة براندي وهذه زجاجة نبيذ.»

وضعتهما في حقيبتي وقلت:

ـ «دعني أدفع إليك ثمن هاتين»

ـ «حسناً. أعطني خمسين ليرا.»

وأعطيته ما طلب.

فقال:

ـ «البراندي جيدة. لا داعي لأن تخشى تقديمها إلى زوجتك. ومن الخير لها الآن أن تمتطي متن المركب.»

وأمسك بالمركب، وكان يرتفع وينخفض في محاذاة الجدار الحجري. وساعدتُ كاثرين على الركوب. ثم جلسَتْ في مؤخرة المركب، وتدثَّرتْ بمعطفها.

ـ «أنت تعرف الاتجاه؟»

ـ «أجل. يتعيَّن علينا أن نصعد إلى البحيرة.»

ـ «وتعرف حتى أية نقطة؟»

ـ «إلى ما وراء لُوينو.»

ـ «إلى ما وراء لوينو، وكانِّيرو، وكانُّوبيو، وترانزانو. إنك لن تبلغ سويسرة حتى تنتهي إلى بريسَّاغو. إن عليك أن تجتاز مونت تامارا.»

وسألتني كاثرين:

ـ «كم الساعة؟»

فقلت:

ـ «الحادية عشرة.»

ـ «إذا جذفت على نحو متواصل تصل إلى هناك حوالي الساعة السابعة صباحاً.»

ـ «أهي بعيدة إلى هذا الحد؟»

ـ «إنها تقع على مسافة خمسة وثلاثين كيلومتراً.»

ـ «وكيف نضمن ألا نضل السبيل؟ كان ينبغي أن يكون معنا، في هذا المطر، بوصلة.»

ـ «لا. جذِّف إلى إيزولا بيلا. حتى إذا بلغت الجانب الآخر من «إيزولا مادري» تعيَّن عليك أن تساير الريح في اتجاهها. إن الريح

سوف تقودك إلى بالانتزا. وهناك سترى الأضواء. وبعد ذلك لن يكون عليك إلا التجذيف في محاذاة الشاطئ.»

ـ «وإذا غيَّرت الريح اتجاهها؟»

فقال:

ـ «لا. هذه الريح سوف تحتفظ باتجاهها ذاك ثلاثة أيام. إنها تهب من ماتارون مباشرة. إن لديك هنا صفيحة تستطيع أن تستعملها لإفراغ المركب من الماء.»

ـ «دعني أدفع إليك شيئاً من ثمن المركب الآن.»

ـ «لا. أنا أؤثر أن أغامر. إذا وفقت إلى النجاة فادفع إليَّ كل ما تستطيع أن تدفعه.»

ـ «حسن.»

ـ «يخيَّل إليَّ أنك لن تغرق.»

ـ «هذا شيء جيد.»

ـ «اتجه مع الريح دائماً.»

ـ «حسن.»

ووثبتُ إلى المركب.

ـ «هل تركتَ شيئاً من المال تسديداً لفاتورة الفندق؟»

ـ «أجل. طي ظرف في الغرفة.»

ـ «حسن. أتمنى لك حظاً سعيداً، أيها الملازم.»

ـ «حظاً سعيداً. نحن نشكرك كثيراً.»

ـ «إنكما لن تشكراني إذا ابتلعتكما اللجة.»

وسألتني كاثرين: «ماذا يقول؟»

ـ «إنه يتمنى لنا حظاً سعيداً.»

فقالت كاثرين:

ـ «حظاً سعيداً. أشكرك شكراً جزيلاً.»

ـ «هل أنتما على استعداد؟»

ـ «نعم.»

انحنى، ودفع المركب إلى الماء. وأغرقت المجذافين في الماء، ثم لوَّحت له بإحدى يدي. فلوَّح لي المشربي مستنكراً. وبصُرْت بأضواء الفندق، ورحت أجذف مبتعداً عن الشاطئ، في خط مستقيم، حتى غابت عن ناظري. كانت البحيرة هائجة. ولكنَّا كنا ننطلق في اتجاه الريح.

الفصل السابع والثلاثون

جذفت في الظلام مسايراً الريح على نحو دائم. كان المطر قد انقطع فهو لا يهطل إلا في دفقات موجزة بين الفينة والفينة. كانت الظلمة دامسة، والريح باردة. وكان في ميسوري أن أرى كاثرين جالسة في مؤخرة المركب. ولكني لم أكن قادراً على رؤية المياه التي خوَّض فيها نصلا المجذافين. وكان المجذافان طويلين. ولم يكن ثمة أطواق من الجلد تقيهما شر الانزلاق. وجذفت، وتصدَّرت، وانحنيت إلى أمام، وتبيَّنت الماء، وغطست المجذافين، ورحت أجذف بأقصى ما استطعت التجذيف. ولم أكلف نفسي عناء رفع نصلَي المجذافين على نحو أفقي لأن الريح كانت تجري بما نشتهي. كنت أعلم أن يديَّ سوف تتقرَّحان، وكنت أطمع في إرجاء ذلك أطول مدة ممكنة. كان المركب خفيفاً، وكان يتقدم في يسر. وخضتُ غمار المياه المظلمة. لقد عميت فلست أرى شيئاً، وكنت أرجو أن ننتهي وشيكاً إلى بالانتزا.

ولكنا لم نرَ بالانتزا قط. كانت الريح تهب مصعدة في البحيرة، واجتزنا الرأس الذي يُخفي بالانتزا في الظلام، ولم نرَ الأضواء قط. حتى إذا رأينا آخر الأمر بعض الأضواء، على مقربة دانية من الشاطئ، كانت تلك هي انترا. ولكنا لم نعد نرى، طوال فترة غير قصيرة، أيما أضواء، ولم نعد نرى الشاطئ أيضاً، بل جذفنا في غمرة من الظلام تجذيفاً موصولاً، وقد حملتنا الأمواج على متونها. وفي بعض

الأحيان، كنت أخطئ المياه بمجذافيَّ، وسط الدجنة، فيما كانت موجةٌ ترفع المركب وتحمله على متنها. كانت البحيرة هائجة جداً، ولكني واصلت التجذيف حتى أصبحنا، فجأة، على مقربة من البحيرة عند رأس صخرة ارتفعت إلى جانبنا. كانت الأمواج تتلاطم فوقها، واثبة إلى أعلى، ثم ترتد عنها خائبة. وركّزت جهدي على المجذاف الأيمن، وردَدْت المياه بالأيسر، واندفعنا إلى البحيرة من جديد. لقد غاب الرأس عن أنظارنا، وكنا نصعد في البحيرة تصعيداً.

قلت لكاثرين:

ـ «لقد أمسينا في وسط البحيرة.»

ـ «أما كان من المفروض أن نرى بالانتزا؟»

ـ «لقد أخطأناها.»

ـ «كيف أنت، أيها الحبيب؟»

ـ «عظيم.»

ـ «في استطاعتي أن أجذف عنك بعض الشيء.»

ـ «لا. أنا ما زلت نشيطاً.»

فقالت كاثرين:

ـ «مسكينة فيرغوسون! سوف تفدُ في الصباح على الفندق وتكتشف أننا قد مضينا لسبيلنا.»

فقلت:

ـ «إن هذا لا يشغل بالي بقدر ما يشغله أمر الوصول إلى الجزء السويسري من البحيرة قبل انبلاج الصبح، وقبل أن تقع أعين الحرس الجمركي علينا.»

ـ «وهل لا يزال ذلك الجزء من البحيرة بعيداً؟»

ـ «إنه يبعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً عن هذه النقطة.»

* * *

وجذفت طوال الليل. وأخيراً تقرحت يداي إلى درجة كاد يتعذَّر عليَّ معها أن أطبقهما على المجذافين. وكدنا نصطدم بالشاطئ مرات عديدة اصطداماً يسحقنا سحقاً. وقد حاولت التزام الشاطئ، لأني كنت أخشى أن أتيه في البحيرة وأن أضيّع الوقت. ولقد اقتربنا، في بعض الأحيان، من الشاطئ بحيث كان في ميسورنا أن نرى صفاً من الأشجار، والطريق الممتدة على طول الشاطئ وقد انتصبت الجبال خلفها. وكف المطر عن السقوط، وساقت الريح الغيوم حتى لقد شعَّ القمر من خلالها. والتفت إلى الوراء فرأيت رأس كاستانيولا الطويل المظلم، والبحيرةَ مزبدة الأمواج، والقمرَ فوق الجبال الشامخة المتعمرة بالثلج، ثم إن الغيوم حجبت القمر كرة أخرى، وغابت الجبال وغابت البحيرة عن البصر، ولكن الظلمة كانت أضأل من ذي قبل بكثير، فكان في ميسورنا أن نرى الشاطئ. لقد رأيته في وضوح بالغ، فانطلقت إلى حيث لا يستطيعون أن يروا المركب إذا ما كان جماعة من رجال الحرس الجمركي يراقبون طريق بالانتزا. وحين برز القمر من وراء الحجاب، كرة أخرى، غدا في استطاعتنا أن نرى على الشاطئ، عند سفوح الجبال، دارات بيضاء، وأن نرى الطريق البيضاء حيث تبدَّت من خلال الأشجار. وطوال الوقت كنت أجذف على نحو موصول.

واتسعت البحيرة، وعَبْرَها على الشاطئ، عند سفوح الجبال من الجانب الآخر، رأينا بضعة أضواء. إنها لوينو من غير ريب. ورأيت الفجوة الوتدية بين الجبال على الضفة الأخرى وقلت إن هذه هي لوينو من غير ريب أيضاً. فإذا كانت هي لوينو فمعنى ذلك أننا اجتزنا مسافة واسعة. ورفعت المجذافين واستلقيت على المقعد. كنت متعباً من التجذيف إلى حد لا يوصف. كان الألم يعصف بذراعيَّ وكتفيَّ وظهري. وكانت يداي متقرحتين.

وقالت كاثرين:

ـ «في استطاعتي أن أحمل المظلة. وفي ميسورنا أن نتخذ منها شراعاً وننطلق مع الريح.»

ـ «هل تستطيعين إدارة الدفة؟»

ـ «أظن ذلك.»

ـ «خذي هذا المجذاف، وضعيه تحت ذراعك على مقربة دانية من جانب المركب، وأديري الدفة. ولسوف أحمل أنا المظلة.»

وارتددت إلى مؤخر المركب وأريْتُها كيف تمسك بالمجذاف. وتناولت المظلة الضخمة التي كان البواب قد قدَّمها إلَيَّ، وقعدتُ مواجهاً صدر المركب، وفتحتها. فانفتحت محدثة صوتاً حاداً. وأمسكت بها من جانبيها، مباعداً ما بين قدميَّ، وقد عُلِّق مقبضها بالمقعد. وانتفخت المظلة بالريح، واستشعرت أن المركب ينطلق إلى أمام فيما كنت أمسك بجانبي المظلة بأقصى ما استطعت من الإحكام. كانت الريح تدفع المركب دفعاً عنيفاً. ولقد جرى المركب في خفة ورشاقة.

قالت كاثرين:

ـ «لا. أنا لا أزال نشيطاً. لقد تقرحت يداي ليس غير.»

ـ «نحن ننطلق إنطلاقاً رائعاً.»

كان كل ما رأيته هو أضلاع المظلة. وتوترت المظلة، ودفَعَتْ، واستشعرت أنها تسوقنا سوقاً. وجمعت ما بين قدميَّ وحاولت التشبث بها. وفجأة، التوت وأصبح باطنها ظاهرها. واستشعرت أحد أضلاعها يصدم جبيني. وحاولت التقاط الجزء الأعلى الملتوي مع الريح، ولكنه كان منقلباً تماماً، ووجدت نفسي مباعداً ما بين ساقيَّ عند مقبض مظلة ممزقة تمزيقاً، هناك حيث أمسكت قبل لحظة شراعاً منتفخاً بالريح. وحررتُ المقبض من المقعد، ووضعت المظلة في مقدم المركب، وارتددت إلى كاثرين إلتماساً للمجذاف. كنت تضحك. وأمسكت بيدي، وواصلت ضحكها.

تناولتُ المجذاف وقلت:

ـ «ما بالك؟»

ـ «لقد بدوتَ مضحكاً جداً وأنت ممسك بتلك المظلة.»

ـ «أحسب ذلك.»

ـ «لا تغضب، يا حبيبي. لقد كان ذلك مضحكاً إلى حد رهيب. لقد بَدَوْت وكأن عرْضك يبلغ عشرين قدماً، وكنت شفيقاً جداً وأنت تمسك المظلة من طرفيها...»

وغُصَّت بريقها.

ـ «سوف أجذف.»

ـ «استرح قليلاً واشرب كأساً. إنها ليلة ساحرة، ولقد اجتزنا مسافة مقبولة.»

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أجنب المركب غائلةَ منخسفَات الموج.»

ـ «سوف آتيك بكأس. إذن استرحْ قليلاً، أيها الحبيب.»

ورفعتُ المجذافين إلى أعلى متخذاً منهما شراعين. كانت كاثرين تفتح الحقيبة. وقدَّمتْ إليَّ زجاجة البراندي. نزعتُ السدادة بمديتي الجيبية، وأخذت جرعة طويلة. كانت عذبة وحارة، وبعد قليل دبَّت الحرارة في أوصالي واستشعرتُ الدفء والبهجة. وقلت:

ـ «إنها براندي رائعة!»

كان القمر قد احتجب من جديد، ولكني استطعت أن أرى الشاطئ. لقد بدا وكأن ثمة، أمامنا، رأساً آخر بعيداً جداً.

ـ «هل تنعمين بقَدْر كاف من الدفء؟»

ـ «أنا في حال ممتازة. إني أستشعر التصلب بعض الشيء.»

ـ «أفرغي إذن هذه المياه من جوف المركب، وفي استطاعتك أن تمدي رجليك.»

ثم إني جذفت، وأصخت إلى ركيزتَيْ المجذاف وإلى صوت الصفيحة وهي تغرف المياه من تحت المقعد القائم في مقدم المركب.

وقلت:

- «هل تسمحين لي بهذه الصفيحة؟ أنا أريد أن أشرب.»

- «ولكنها قذرة إلى حد رهيب.»

- «لا بأس. سوف أغسلها.»

وسمعت كاثرين تغسلها من فوق حافة المركب. ثم إنها قدَّمتها إليَّ ملأى بالماء. كنت ظمئاً بعد البراندي، وكان الماء ثلجيَّ البرودة. كان بارداً جداً حتى لقد أوقع الألم في أسناني. وتطلعتُ إلى الشاطئ. كنا قد أمسينا أكثر قرباً إلى الرأس الطويل. ولم يكن ثمة أضواء في الخليج الذي أمامنا.

قلت وأنا أعيد إليها الصفيحة:

- «شكراً.»

فقالت كاثرين:

- «في خدمتك دائماً. إن ثمة مقداراً إضافياً إذا شئت.»

- «ألا تريدين أن تأكلي شيئاً؟»

- «لا. سوف أستشعر الجوع عما قريب. يجب أن نحتفظ بزادنا إلى تلك اللحظة.»

- «حسن.»

إن ما بدا لنا وكأنه رأس لم يكن غير أكمة بحرية طويلة شاهقة. وأمعنت في الابتعاد عن الشاطئ اجتناباً لها. وكانت البحيرة قد ضاقت الآن أكثر بكثير. وبرز القمر من وراء الحجاب كرة أخرى، وكان في ميسور الحرس أن يروا مركبنا على نحو واضح إذا ما كانوا يراقبون الشاطئ.

وسألتها:

ـ «كيف أنت، يا كات!»

ـ «بخير. أين نحن؟»

ـ «أحسب أنه لم يبق أمامنا غير ثمانية أميال أخرى.»

ـ «يعني أنه سوف يتعيَّن عليك أن تجذف هذه المسافة الطويلة كلها، أيها الحبيب البائس. ألم تمت من التعب.؟»

ـ «لا. أنا لا أزال نشيطاً. لقد تقرحت يداي ليس غير.»

وتابعنا تقدمنا مصعدين في البحيرة. كان ثمة انقطاع في سلسلة الجبال القائمة على الضفة اليمنى. وانبساط في الأرض مع خط ساحلي منخفض قدَّرتُ أنه كانُّوبيو من غير ريب. وحرصت على البقاء بعيداً عن الشاطئ جهد الطاقة، لأن خطر التقائنا بالحرس كان قد أمسى على أشده. وعلى الضفة الأخرى، تجاهنا، انتصب جبل شامخ ذو قمة أشبه بالقبة. وألمَّ بي التعب. إن المسافة التي كان عليَّ أن اجتازها مجذفاً لم تكن طويلة، ولكن حين يكون المرء في مثل البلاء الذي كنا نعانيه تتراءى له طويلة حقاً. وأدركت أن عليَّ أن اجتاز ذلك الجبل وأصعد في البحيرة خمسة أميال أخرى على الأقل قبل أن نبلغ المياه السويسرية. كان القمر قد غاب الآن، تقريباً، ولكن قبل غيابه تلبَّدت الغيوم في السماء كرة أخرى، وأمست الظلمة دامسة. وبقيتُ في عرض البحيرة. وبين الفينة والفينة كنت أكف عن التجذيف، واستريح، ممسكاً بالمجذافين على نحو جعل الريح تلطم نصليهما.

وقالت كاثرين:

ـ «دعني أجذف فترة قصيرة.»

ـ «لست أظن أن ذلك يناسبك.»

ـ «هراء. إن التجذيف سوف ينفعني ويقيني من التصلب.»

ـ «أعتقد أن من الخير لك ألا تقدمي على ذلك.»

ـ «هراء. التجذيف في اعتدال مفيد جداً للسيدة الحامل.»

ـ «حسن. جذفي إذن في اعتدال. سوف أمضي إلى مؤخر المركب، وعندئذ تتقدمين أنت إلى أمام. تمسَّكي بحافتي المركب وأنت تتقدمين.»

وقعدتُ في مؤخر المركب. مرتدياً معطفي، وقد التوى طوق قميصي إلى أعلى، وراقبت كاثرين وهي تجذف. لقد جذفت تجذيفاً حسناً جداً، ولكن المجذافين كانا أطول مما ينبغي، وكانا يزعجانها. وفتحتُ الحقيبة والتهمت ساندويشتين، وأخذت جرعة من البراندي. وسرعان ما عاودني النشاط، فتجرعت جرعة أخرى.

وقلت:

ـ «عندما تتعبين أخبريني بذلك.»

ثم أضفت بعد قليل:

ـ «حذار أن يصدم المجذاف بطنك.»

فقالت كاثرين بين تجذيفتين:

ـ «إذا حدث ذلك فعندئذ قد تصبح الحياة أكثر بساطة.»

وتجرّعتُ جرعة ثالثة من البراندي.

ـ «كيف أنتِ الآن؟»

ـ «على خير حال.»

ـ «انبئيني حين ترغبين في الكف عن التجذيف.»

ـ «حسن.»

وأخذت جرعة أخرى من البراندي، ثم استعنتُ بحافتي المركب وتقدمت إلى أمام.

ـ «لا. أنا أستمتع بذلك كثيراً.»

ـ «ارجعي إلى مؤخر المركب. لقد فزتُ بحظ كبير من الراحة.»

وبفضل البراندي جذفت، فترة يسيرة، في يسر واطراد. ثم شرعت اضرب المجذاف ضربات خرقاء، وسرعان ما عاودت

التجذيف في سرعة وقوة، وفي حلقي مذاق صفراء(*) رقيق أسمر ناشئ عن مغالاتي في التجذيف بعنف بعد الذي تجرعته من البراندي.

وقلت:

- «أعطيني شيئاً من الماء، من فضلكِ.»

فقالت كاثرين:

- «ذلك شيء يسير.»

وقبل انبلاج الصبح شرعت السماء ترسل المطر رذاذاً. كانت الريح قد همدت، أو لعلنا كنا قد اتّقينا بالجبال التي طوقت مُنْحَرَف البحيرة. وحين أدركت أن الضحى على وشك أن يرتفع حشدت كامل قواي وجذفت في عنف وثبات. ولم أكن أعلم أين نحن، وكنت تواقاً للوصول إلى الجانب السويسري من البحيرة. حتى إذا آذن الصبح بالانبلاج كنا على مقربة دانية من الشاطئ. لقد أصبح في ميسوري أن أرى الصخور والأشجار.

وقالت كاثرين:

- «ما هذا؟»

وأرحت جسدي على المجذافين وأصغيت. كان زورقاً بخارياً يشق طريقه في البحيرة على نحو مدوٍّ. واقتربت من الشاطئ، ولزمتُ الهدوء. وغدا الدوي أقرب إلينا من ذي قبل، ثم إننا رأينا الزورق البخاري وراءنا بعض الشيء، تحت المطر. كان في الجزء الخلفي منه أربعة من حرس الشواطئ. كانت قبعاتهم «الألبينية» تغطي جزءاً كبيراً من رؤوسهم، وكانت أطواق معاطفهم مائلة إلى أعلى، وكانت بنادقهم على مناكبهم. لقد بَدوا كلهم أنصاف نائمين في تلك الساعة المبكرة. وكان في ميسوري أن أرى اللون الأصفر على قبعاتهم، والعلامات

(*) الصفراء: السائل الذي يفرزه الكبد.

الصفراء على أطواق معاطفهم. وتابع الزورق البخاري تقدمه المدوي، وغاب وسط المطر عن العيان.

وجذفت مبتعداً عن الضفة. ذلك بأني ما كنت أريد، وقد أصبحنا على هذا القرب كله من الحدود، أن يوقفني أحد الحرّاس. وبقيت حيث كان في ميسوري أن أرى الشاطئ، وواصلت التجذيف ثلاثة أرباع الساعة تحت المطر المنهمر. وسمعنا دوي أحد الزوارق البخارية مرّة أخرى، واعتصمت بالهدوء حتى تلاشت ضجة المحرك عبر البحيرة.

وقلت:

ـ «أعتقد أننا في سويسرة، يا كاث.»

ـ «حقاً؟»

ـ «لن نستطيع أن نتأكد من ذلك إلا بعد أن نرى القوات السويسرية.»

ـ «أو الأسطول السويسري.»

ـ «الأسطول السويسري ليس، بالنسبة إلينا، فكاهة يُتندَّر بها. لعل الزورق البخاري الثاني الذي سمعناه جزء من الأسطول السويسري.»

ـ «إذا كنا في سويسرة فينبغي أن ننعم بفطور عظيم. إن لديهم رقاقات رائعة وزبدة ومربًّى في سويسرة.»

* * *

كانت الشمس قد أشرقت الآن، وكانت السماء ترسل مطراً رقيقاً، وكانت الريح لا تزال تهب فوق البحيرة، وكان في استطاعتنا أن نرى قمم الأمواج المزبدة تبتعد عنا وتتجه إلى طرف البحيرة. لقد أصبحت واثقاً أننا في سويسرة. كان ثمة كثير من المنازل القائمة بين الأشجار، على مَبعدة من الشاطئ. وفي نقطة أعلى، كانت قرية ذات بيوت حجرية، وبضع دارات، وكنيسة. وكنت قد راقبت الطريق

المحاذية للشاطئ بحثاً عن الحرس، ولكني لم أجد أحداً. وأصبحت الطريق قريبة جداً من البحيرة، الآن. ورأيتُ جندياً يغادر أحد المقاهي. كان يرتدي بذلة عسكرية خضراء ضارباً لونها إلى الرمادي، وخوذة فولاذية مثل الألمان. وكان ذا وجه ناضح بالعافية، وشارب صغير هو بفرشاة الأسنان أشبه.

والتفت الجندي إلينا.

ـ «لوِّحي له بيدكِ.»

فلوحَتْ له، فابتسم مرتبكاً، وردَّ التحية بمثلها. وجذَّفتُ في تؤدة. كنا نجتاز واجهة القرية المائية.

قلت:

ـ «لا ريب في أننا اجتزنا مسافةً واسعة داخل الحدود.»

ـ «نريد أن نتأكد، أيها الحبيب. نحن لا نريد أن يعيدونا إلى إيطاليا.»

ـ «لقد خلَّفنا الحدود وراءنا منذ برهة. وأنا أعتقد أننا الآن في المدينة الجمركية. وأني لشبه متأكد أن هذه هي بريسَّاغو.»

ـ «ألن يكون هناك إيطاليون؟ إن المدينة الجمركية تحفل عادة بجنود من الفريقين.»

ـ «ليس في أيام الحرب. أنا لا أعتقد أنهم يجيزون للإيطاليين أن يعبروا الحدود.»

كانت مدينة صغيرة بهية الطلعة. وكانت تنتشر على طول الخليج قوارب صيد عديدة، وكانت الشِباك منشورة على رفوف خاصة. كانت السماء ترسل مطراً نوفمبرياً ناعماً، ولكنَّ كل شيء بدا، برغم المطر، مبتهجاً صافياً.

ـ «هل نهبط البر هنا ونتناول طعام الصباح؟»

ـ «لا بأس.»

وركّزت جهدي على المجذاف الأيسر، واقتربت من الضفة، حتى

إذا أمسينا في محاذاة الرصيف جعلتُ المركبَ في وضع مستقيم لكي يكون في ميسورنا أن ننتقل إلى اليابسة. ورفعت المجذافين، وأمسكتُ بحلقة حديدية، ووثبت إلى الحجارة المبلّلة. كنت قد أصبحت الآن في سويسرة. وأوثقت المركب، وبسطتُ يدي إلى كاثرين.

ـ «هيا، اصعدي يا كاث. إن بهجة غامرة لتضج في جوانحي.»

ـ «والحقيبتان؟»

ـ «أتركيهما في المركب.»

ووثبت كاثرين إلى اليابسة، فإذا بنا معاً في سويسرة.

وقالت:

ـ «يا لها من بلاد جميلة!»

ـ «أليس هذا رائعاً؟

ـ «فلنذهب ونتناول طعام الصباح!»

ـ «أليست بلاداً عظيمة؟ أنا أحبُّ مَلْمَسها تحت حذائي.»

ـ «أنا من التصلب بحيث لا أستشعر ذلك في وضوح. ولكن يبدو لي أنها بلاد رائعة. هل تدرك أننا هنا، وأننا نجونا من ذلك المكان اللعين؟»

ـ «أنا أدرك ذلك. أدرك حقاً. أنا لم أدرك أيما شيء من قبل.»

ـ «انظرْ إلى البيوت. أليست هذه الساحة رائعة؟ ههنا مكان نستطيع أن نتناول فيه طعام الصباح.»

ـ «أليس المطر رائعاً؟ إن إيطالية لم تعرف في يوم من الأيام مثل هذا المطر. هذا المطر بهيج.»

ـ «إننا في سويسرة، يا حبيبي! هل تدرك أننا في سويسرة؟»

ودخلنا المقهى، وجلسنا إلى مائدة خشبية نظيفة، وقد عصف بنا ابتهاج مجنون. وأقبلت علينا امرأة بهيَّة تبدو عليها سمات النظافة الفائقة، امرأة ترتدي مئزراً، وسألتنا أيَّ شيء نريد؟

فقالت كاثرين:

ـ «رقاقات ومربى وقهوة.»

ـ «آسفة. ليس عندنا رقاقات في أيام الحرب.»

ـ «هاتِ لنا بشيء من الخبز، إذن.»

ـ «في استطاعتي أن أعدَّ لكما بعض الخبز المحمَّص.»

ـ «لا بأس.»

ـ «أريد بعض البيض المقلي أيضاً.»

ـ «كم بيضة يريد السيد؟»

ـ «ثلاث.»

ـ «خذ أربعاً، أيها الحبيب.»

ـ «أربع بيضات.»

ومضت المرأة لسبيلها. وقبَّلتُ كاثرين وضغطت على يدها بقوّة. ونظر كل منا إلى الآخر، وإلى المقهى.

ـ «حبيبي، يا حبيبي، أليس هذا رائعاً؟»

فقلت:

ـ «إنه عظيم.»

فقالت كاثرين:

ـ «ليس يسوؤني أن لا يكون لديهم رقاقات. لقد فكَّرت في الرقاقات طوال الليل. ولكن ذلك لا يسوؤني. إنه لا يسوؤني على الإطلاق.»

ـ «يخيَّل إليَّ أنهم سوف يعتقلوننا عما قريب.»

ـ «لا بأس، أيها الحبيب. دعنا نتناول طعام الصباح أولاً. إنك لن تجد بأساً في الاعتقال بعد طعام الصباح. وإلى هذا، فليس في استطاعتهم أن يفعلوا بنا شيئاً. فأنت مواطن أميركي وأنا مواطنة إنكليزية، ونحن نسلك مسلكاً قانونياً.»

ـ «أنتِ تحملين جواز سفركِ، أليس كذلك؟»

ـ «طبعاً. فلنكفَّ عن التحدث في هذا الموضوع. ولنأخذ بأسباب البهجة والسعادة.»

فقلت:

ـ «لا يمكن أن أكون أعظم سعادة مني الآن.»

وتقدمت نحو مائدتنا هرة رمادية بدينة ذات ذَنَب منتصب وكأنه ريشة زينة. ومسَّت قدمي مسّاً رفيقاً، وأنشأت تموء. وانحنيت وأمررت يدي على وبرها مداعباً. وابتسمت كاثرين لي في بهجة غامرة. وقالت:

ـ «دونك القهوة.»

* * *

واعتُقلنا بعد طعام الصباح. لقد قمنا بنزهة صغيرة في القرية، سيراً على الأقدام، ثم هبطنا إلى الرصيف للإتيان بحقيبتنا. كان أحد الجنود يقوم بالحراسة قرب المركب.

ـ «أهذا مركبكما؟»

ـ «نعم.»

ـ «من أين أقبلتما؟»

ـ «من أقصى البحيرة.»

ـ «في هذه الحال يتعيَّن عليَّ أن أسألكما المضيَّ معي.»

ـ «وحقيبتانا؟»

ـ «في استطاعتكما أن تحملا الحقيبتين.»

وحملتُ الحقيبتين، ومشت كاثرين إلى جانبي، ومشى الجندي خلفنا إلى مركز الجمرك العتيق. وفي مركز الجمرك استجوبنا ملازم أول، مهزول جداً، عسكري الروح إلى حد بعيد.

ـ «ما جنسيتكما؟»

ـ «أميركي وبريطانية.»

ـ «اسمحا لي بأن أرى جوازَيْ سفركما.»

وقدمت إليه جوازي وأخرجت كاثرين جوازها من حقيبتها اليدوية. ودرسَهما فترةً طويلة.

وقال:

ـ «لماذا دخلتما إلى سويسرة، بهذه الصورة، على متن مركب؟»

فقلت:

ـ «أنا رجل رياضي. والتجذيف رياضتي المفضلة. إني أجذف كلما أتيحت لي الفرصة.»

ـ «لماذا جئت إلى سويسرة؟»

ـ «من أجل رياضة الشتاء. نحن سائحان، ونريد أن نشارك في رياضة الشتاء.»

ـ «إن الرياضة الشتوية لا تجري في هذا المكان.»

ـ «نحن نعرف ذلك. إننا نريد الذهاب إلى حيث تُجرى الرياضة الشتائية.»

ـ «ما الذي كنتما تفعلانه في إيطالية؟»

ـ «كنت أدرس فن العمارة. أما ابنة عمي فكانت تدرس فن الرسم.»

ـ «لماذا غادرتما تلك البلاد؟»

ـ «لقد أردنا التمتع بالرياضة الشتوية. إنَّ المرء لا يستطيع دراسة الفن المعماري ما دامت الحرب دائرة.»

فقال الملازم الأول:

ـ «أرجوكما أن تبقيا حيث أنتما.»

ومضى حاملاً جوازينا.

وقالت كاثرين:

ـ «أنت رائع. تابع قول ذلك. أنت تريد التمتع بالرياضة الشتوية.»
ـ «هل تعرفين شيئاً عن فن الرسم؟»
فقالت كاثرين:
ـ «روبنز.»
فقلت:
ـ «رجل ضخم بدين.»
فقالت كاثرين:
ـ «تيتيان.»
فقلت:
ـ «شعر أشقر. تيتيان الأشقر. وماذا تعرفين عن مانتيغنا؟»
فقالت كاثرين:
ـ «لا تسأل أسئلة صعبة. أنا أعرفه برغم ذلك. رجلٌ فظ.»
فقلت:
ـ «فظ جداً، من خروق المسامير.»
فقالت كاثرين:
ـ «وهكذا ترى أني سوف أكون زوجةً رائعة. سوف أكون قادرة على التحدث في الفن مع زبائنك.»
فقلت:
ـ «ها هو قد أقبل.»
واجتاز الملازم الأول المهزول مركز الجمرك وجوازا سفرنا في يده.
وقال:
ـ «يتعين عليَّ أن أرسلكما إلى لوكارنو. في استطاعتكما أن تركبا عربة، ولسوف يصحبكما أحد الجنود إلى هناك.»

فقلت:

ـ «حسن. والمركب؟»

ـ «المركب مُصادَر. ماذا في هاتين الحقيبتين؟»

وفتح الحقيبتين وألقى نظرة على محتوياتهما، وأخرج زجاجة البراندي.

فسألته:

ـ «أتحب أن تشرب معي كأساً؟»

فانتصب وقال:

ـ «لا. شكراً. كم تحمل من المال؟»

ـ «ألفين وخمسمئة لير.»

ثم أضاف برقّة:

ـ «وابنة عمك، ما مبلغ المال الذي معها؟»

وكانت كاثرين تحمل ألفاً ومئتي لير أو يزيد. وسُرَّ الملازم الأول. وغدا مسلكه معنا أقلَّ جفاءً.»

وقال:

ـ «إذا كنتما تلتمسان الرياضة الشتوية فأفضل مواطنها «وينغن». إن لأبي فندقاً رائعاً جداً في «وينغن». وهو يستقبل الضيوف على مدار السنة.»

فقلت:

ـ «هذا شيء عظيم. هل تستطيع أن تعطيني اسمه؟»

ـ «سوف أكتبه لك على بطاقة.»

وقدَّم إليَّ البطاقة في كثير من الكياسة.

ـ «إن الجندي سوف يرافقكما إلى لوكارنو. وسوف يحتفظ بجوازيكما. أنا آسف لهذا، ولكنه ضروري. وإن أملي لكبيرٌ بأنهم سوف يمنحونكما سمة (فيزا) أو بطاقة إقامة في لوكارنو.»

ودفع الجوازين إلى الجندي. فحملنا الحقيبتين وانطلقنا إلى القرية بحثاً عن عربة.

ونادى الملازمُ الأول الجنديَّ:

- «هاي!»

وقال له شيئاً ما بالألمانية. فتنكب الجندي بندقيته وحمل الحقيبتين.

وقلت لكاثرين:

- «إنها بلاد عظيمة.»

- «وبلاد عملية جداً.»

وقلت للملازم الأول:

- «أشكرك شكراً كثيراً.»

فلوَّح لي بيده، وقال:

- «خدمة!»

وتبعنا حارسنا إلى القرية.

انطلقنا إلى لوكارنو في عربة، وقد احتل الجندي المقعد الأمامي مع السائق. وفي لوكارنو جرى كل شيء على ما يرام. لقد استجوبونا، ولكنهم كانوا لطفاء لأننا كنا نملك جوازَيْ سفر ومالاً كثيراً. ولست أظن أنهم صدَّقوا كلمة واحدة من قصتي، ولقد وجدتُ أنا كل ذلك سخفاً وحماقة، ولكن الموقف كان أشبه بالذي يجري في المحاكم حيث لا يتطلب المرء شيئاً منطقياً معقولاً، ولكن شيئاً تقْنياً، وحيث يتعيَّن عليه أن يتشبث به من غير أيما تفسير. ولكننا كنا نحمل جوازي سفر، ونحمل مالاً ننفقه. وهكذا منحونا سمةً مؤقتة. كانت هذه السمة عرضة للإلغاء في أيِّ لحظة. وكان علينا أن نتصل بمركز الشرطة حيثما ذهبنا.

هل كان في ميسورنا أن نذهب حيث شئنا؟ أجل. إلى أين كنا نريد أن نذهب؟

ـ «إلى أين تريدين أن تذهبي، يا كاث؟»

ـ «إلى مونترو.»

فقال الموظف:

ـ «إنها موطن رائع جداً. وأنا أعتقد أنكما سوف تعجبان به.»

فقال موظف آخر:

ـ «ولوكارنو هذه، حيث أنتما الآن، رائعة جداً أيضاً. وأنا واثق أنكما سوف تحبان الحياة هنا في لوكارنو حباً عظيماً. إن لوكارنو مدينة جذابة جداً.»

ـ «نريد مكاناً يستطيع المرء فيه الاستمتاع بالرياضة الشتوية.»

ـ «ليس في مونترو رياضة شتوية.»

فقال موظف آخر:

ـ «عفواً. أنا من أبناء مونترو. وليس من ريب في أن ضروب الرياضة الشتوية تجري عند سكة حديد مونترو ـ أوبرلاند ـ بيرنوا. أنت لا تستطيع أن تنكر ذلك.»

ـ «أنا لا أنكره. كل ما قلته هو هذا: ليس في مونترو رياضة شتوية.»

فقال الموظف الآخر:

ـ «أنا أشك في هذا. أنا أشك في صحة هذا الحكم.»

ـ «وأنا أتمسك بذلك الحكم.»

ـ «إني أشك في ذلك الحكم. فأنا نفسي تزلّجت بالزلاّقة(*) في شوارع مونترو. لقد نعمتُ بذلك، ليس مرةً واحدة، ولكنْ مراتٍ عديدة. والتزلج بالزلاّقة رياضة شتوية من غير ريب.»

(*) اصطنعنا هذا التعبير مقابل فعل luge بالإنكليزية وluger بالفرنسية ويختلف هذا النوع من التزلج العادي بأن المتزلج يقوم به قاعداً لا واقفاً. (المعرب)

ـ «أيكون التزلج بالزلاقة هو مفهومك من رياضة الشتاء؟ أؤكد لك أنك ستنعم بمتعة بالغة، هنا في لوكارنو. سوف تجد المناخ صحياً، ولسوف تجد الضواحي جذابةً. إنك ستعجب بها إعجاباً عظيماً.»

ـ «لقد أبدى السيد رغبته في الذهاب إلى مونترو.»

فسألت:

ـ «وما التزلج بالزلاقة؟»

ـ «أرأيت؟ إنه لم يسمع حتى بالتزلج بالزلاقة!»

لقد عنى سؤالي شيئاً كثيراً بالنسبة إلى الموظف الثاني. فقد سرَّ به سروراً عظيماً.

وقال الموظف الأول:

ـ «التزلج بالزلاقة luge-ing هو التزلق tobogganing.»

فهز الموظف الثاني رأسه وقال:

ـ «اسمح لي أن أخالفك. يتعيَّن عليَّ أن أخالفك مرةً أخرى. إن الـ toboggan تختلف اختلافاً كبيراً عن الـ luge. فالأولى تصنع في كندا من رقائق خشبية مسطحة. أما الثانية فزلاقة عادية تجري على مزالق. يجب على المرء أن يكون دقيقاً.»

فسألت:

ـ «أليس في استطاعتنا التزلق؟»

ـ «طبعاً، تستطيع أن تتزلق. تستطيع أن تتزلق أحسن ما يكون التزلق. ففي مونترو تباع «توبوغانات» كندية ممتازة. إن محل «الأخوان أوتشز» يبيع «التوبوغانات». إنه يستورد «توبوغاناته» الخاصة.»

فأعرض الموظف الثاني وقال:

ـ «التزلق tobogganing يحتاج إلى مضمار piste خاص. ليس في استطاعتك أن تتزلق في مونترو. أين تعتزمون أن تنزلوا هنا؟»

فقلت:

ـ «لسنا ندري. لقد جئنا بالعربة من بريسَّاغو. العربة تنتظرنا في الخارج.»

فقال الموظف الأول:

ـ «إنكما لن تخطئا إذا ذهبتما إلى مونترو. سوف تجدان المناخ بهيجاً جميلاً. ولسوف تجدان رياضة الشتاء على مقربة منكما.»

فقال الموظف الثاني:

ـ «إذا كنتما ترغبان في رياضة الشتاء حقاً فاقصدا إلى اينغادين أو إلى مورِّين. يتعيَّن عليَّ أن أحتج على إغرائك بالذهاب إلى مونترو إلتماساً لرياضة الشتاء.»

ـ «في «ليه زافان»، فوق مونترو، سوف تقعان على مختلف ضروب الرياضة الشتوية.»

قال نصير مونترو ذلك، وحدج زميله بنظرة مغضبة.

فقلت:

ـ «أيها السيدان، يخيَّل إليَّ أن علينا أن نمضي. إن ابنة عمي متعبة جداً. ولسوف نذهب إلى مونترو على سبيل التجربة.»

فصافحني الموظف الأول وقال:

ـ «إني أهنئكما.»

فقال الموظف الثاني:

ـ «أعتقد أنكما سوف تندمان على مغادرة لوكارنو. وعلى أية حال، فيتعيَّن عليكما أن تقصدا إلى دائرة الشرطة في مونترو.»

فقال الموظف الأول:

ـ «أؤكد لكما أنكما لن تجدا في دائرة الشرطة مضايقات ما. ولسوف تجدان جميع السكان هناك أصحاب كياسة وودّ.»

فقلت:

قدرها.»

وقالت كاثرين:

- «وداعاً. إني أشكركما شكراً كثيراً.»

ورافقانا حتى الباب، وهنا انحنيا لنا احتراماً، وإن تكن انحناءة نصير لوكارنو باردة بعض الشيء. وهبطنا السلم وامتطينا متن العربة.

قالت كاثرين:

- «يا إلهي، ألم يكن في ميسورنا أن ننصرف بأسرع مما فعلنا، أيها الحبيب؟»

وأعطيت الحوذيَّ اسمَ واحد من الفنادق التي نصحني بها أحد الموظفين.

وأمسك الحوذي بعنان الفرس.

وهنا قالت كاثرين:

- «لقد نسيتَ الجيش.»

كان الجندي واقفاً في جانب العربة. فقدمت إليه ورقة نقدية من فئة العشرة ليرات، وقلت:

- «أنا لا أملك حتى الآن شيئاً من العملة السويسرية.»

فشكرني، وأدَّى لنا التحية، ومضى لسبيله. وانطلقت العربة بنا، متجهة نحو الفندق.

وسألتُ كاثرين:

- «كيف اتفق لك أن اخترتِ مونترو؟ هل ترغبين في الذهاب إلى هناك فعلاً؟»

فقالت:

- «لقد كانت أول مكان خطر لي ببال. إنها ليست رديئة. وفي استطاعتنا أن نجد مكاناً ما في الجبال.»

ـ «هل أنتِ ناعسة؟»

ـ «أنا على وشك الإغفاء.»

ـ «سوف ننعم بنوم عميق. مسكينة أنتِ كاث، لقد قضيتِ ليلة طويلة مضنية.»

فقالت كاثرين:

ـ «بل لقد قضيتُ فترةً ممتعة وبخاصة عندما اتخذتَ من المظلة شراعاً.»

ـ «هل تصدِّقين إننا في سويسرة؟»

ـ «لا. أنا أخشى أن أستيقظ ويثبت لديَّ أن هذا غير صحيح.»

ـ «وأنا أيضاً.»

ـ «ولكنه صحيح، أليس كذلك، يا حبيبي؟ أنا لست متجهةً الآن إلى محطة القطار إلى ميلانو لتوديعك.»

ـ «أرجو أن لا يكون الأمر كذلك.»

ـ «لا تقل هذا. إنه يوقع الرعب في نفسي. من الجائز أن نكون ذاهبين إلى هناك.»

ـ «أنا ثمل إلى حدّ يتعذّر عليّ معه أن أعرف.»

ـ «أرني يديك.»

وبسطتهما لها. كانتا كلتاهما متقرحتين.

وقلت:

ـ «أن جنبي غير مصاب بجرح ما.»

ـ «لا تمزح مزاحاً ينطوي على سخرية بالمقدَّسات.»

واستشعرت تعباً شديداً ودُواراً في الرأس. كان ابتهاجي كله قد تلاشى. وكانت العربة تنطلق بنا في الشارع.

قالت كاثرين:

ـ «يا لليدين البائستين!»

فقلت:

ـ «لا تمسِّيهما. وحق الإله، أنا لا أدري أين نحن. إلى أين نحن ذاهبون أيها الحوذي؟»

فأوقف الحوذي فرسه.

ـ «إلى أوتيل متروبول. ألا تريد أن تذهب إلى هناك؟»

فقلت:

ـ «بلى. حسن جداً، يا كاث.»

ـ «حسن جداً، أيها الحبيب. لا تقلق. سوف ننعم بنوم عميق، ولن تشعر غداً أنك ثمل.»

فقلت:

ـ «إني أحسُّ الآن إني ثمل إلى حد بعيد. لقد كان ما شاهدناه اليوم أشبه بمغنَّاة هزلية. لعلي جائع.»

ـ «أنت متعَب ليس غير، أيها الحبيب، ولا بدَّ أن تستعيد نشاطك.»

ووقفت العربة أمام الفندق. وأقبل أحد الخدم ليحمل حقيبتينا.

وقلت:

ـ «أحس أني بخير.»

كنا على الرصيف نتخذ سبيلنا إلى الفندق.

وقالت:

ـ «أنا واثقة أنك ستكون بخير. أنت متعَب ليس غير. لقد وقفت على قدميك فترة طويلة.»

ـ «مهما يكن من أمر، فالشيء الثابت هو أننا هنا.»

ـ «أجل نحن هنا حقاً.»

وتبعْنا الخادمَ الذي حمل الحقيبتين، ودخلنا الفندق.

الكتاب الخامس

الفصل الثامن والثلاثون

ذلك الخريف أقبل الثلج في موعد متأخر جداً. لقد نزلنا في بيت خشبي أسمر تحيط به أشجار الصنوبر، على كتف الجبل. وفي الليل كان الصقيع يُغلّف الأرض، فكنا نفيق صباحاً لنجد طبقة جليدية رقيقة تعلو الإبريقين الموضوعين على الخزانة ذات الأدراج. وكانت السيدة غوتنجن تفدُ على غرفتنا في ساعة مبكرة من الصباح لكي توصد النوافذ وتضرم النار في الموقد الخزفي الطويل. كانت أغصان الصنوبر الجافة تطقطق وترسل الشرر. ومن ثم كانت النار تهدر في الموقد. وكانت السيدة غوتنجن تحمل في زيارتها الثانية إلى الغرفة قطعاً من الحطب ضخمة لإذكاء النار، وإبريق ماء حار. حتى إذا شاع الدفء في الغرفة حملت إلينا طعام الصباح. كنا نتناول طعام الصباح ونحن قاعدان في السرير نكحِّل العين بمشهد البحيرة والجبال القائمة في الناحية الأخرى على الضفة الفرنسية. كانت قمم الجبال مكللة بالثلج، وكانت البحيرة زرقاء، كالفولاذ، ضارباً لونها إلى الرمادي.

وفي الخارج، تجاه البيت الخشبي، كانت طريق تصعد إلى الجبل. وكانت ممرات العربات قاسية كالحديد من أثر الجليد، وكانت الطريق تصعد في اطراد خلال الغابة وحول الجبل إلى حيث كانت مروج، وعنابر قمح وأكواخ في المروج عند حافة الغابة المطلة على الوادي. كان الوادي سحيقاً، وكان في قعره جدول يجري إلى

البحيرة. حتى إذا هبت الريح في الوادي كان في ميسورك أن تسمع خرير الجدول بين الصخور.

وفي بعض الأحيان كنا نأخذ الطريق لنسلك ممرّاً يمتد عبر غابة الصنوبر. كانت تربة الغابة ناعمة تحت أقدامنا، ولم يكن الصقيع قد قسَّاها كما فعل بالطريق. ولكنا ما كنا نبالي بقَسْوة الطريق لأن نعالنا وأعقاب حذاءينا الطويلي السَّاق كانت مزوَّدة بالمسامير، وكانت المسامير تَغْرُزُ في الممرات المتجمدة، وكانت الأحذية ذات المسامير تجعل السير على الطريق سائغاً منعشاً للنفس. ولكن السير في الغابة كان فاتناً.

وتجاه البيت الذي نزلنا فيه انحدر الجبل على نحو شبه عمودي إلى السهل الصغير المحاذي للبحيرة، وكنا نجلس على شرفة البيت، تحت أشعة الشمس، ونتأمل تعرُّج الطريق الهابطة سفحَ الجبل الأدنى، وكروم العنب المدرَّجة، والعرائش الميتة كلها الآن بسبب من برد الشتاء وصقيعه، والحقول التي تفصل ما بينها جدران حجرية، وبيوت المدينة المنتشرة تحت الكروم في السهل الضيق المتاخم لشاطئ البحيرة. وكانت في البحيرة جزيرة فيها شجرتان، وكانت الشجرتان تبدوان كأنهما شراعا مركب من مراكب الصيد. كانت الجبال وعرة شديدة الانحدار عند الضفة الأخرى من البحيرة، وهناك عند أقصى البحيرة كان سهل وادي الرون المنبسط بين السلسلتين الجبليتين. وفي أعلى الوادي، حيث كانت الجبال تضع حداً له، كان الـ «دان دو ميدي». كان جبلاً شامخاً مكسواً بالثلج، وكان يشرف على الوادي، ولكنه كان نائياً إلى حدّ لم يكن ظلّه يصل إلينا.

وكنا، كلما كانت أشعة الشمس قوية، نتناول طعام الغداء على الشرفة، أما في سائر الأحوال فكنا نتناول الطعام في الدور العلوي في غرفة صغيرة ذات جدران خشبية ساذجة وموقد ضخم في الزاوية. واشترينا من المدينة كتباً ومجلات ونسخة من كتاب «هوْيْل» Hoyle،

وتعلَّمنا كثيراً من ألعاب الورق التي يدور فيها اللعب بين لاعبين اثنين ليس غير. وكانت الغرفة الصغيرة ذات الموقد هي غرفة جلوسنا. وكانت تنتظم كرسيين مريحين وطاولة للكتب والمجلات، وكنا نلعب الورق على مائدة الطعام حين تُرفع عنها الأطباق. وكان السيّد والسيّدة غوتنجن يسكنان الدور الأسفل، وكنا نسمعهما يتحدثان أحياناً في المساء، ولقد كانا سعيدين جداً أيضاً. كان هو في وقت مضى رئيس نُدُل(*)، وكانت هي قد عملت خادمة في الفندق نفسه، ولقد اقتصدا شيئاً من المال اشتريا به ذلك المنزل. وكان لهما ولد يتدرَّب على مهمَّة رئيس الندل. كان يعمل في فندق زوريخ. وفي الدور السفلي كان بهو تُباع فيه الخمر والجعة، وفي بعض الأحيان كنا نسمع ـ في حواشي الليل ـ عربات تقف على الطريق، ورجالاً يرتقون درجات السلم ويمضون إلى البهو ليحتسوا الخمر.

كان في الرواق، خارج غرفة الجلوس، صندوق حطب، فكنت أذكي النار بمحتوياته. ولكننا لم نسهر طويلاً. لقد أوينا إلى الرقاد، في حجرة النوم الكبيرة، يلفُّنا الظلام. وحين نزعت ملابسي فتحتُ النوافذ ونظرت إلى الليل وإلى النجوم الباردة وإلى شجرات الصنوبر تحت النافذة، ثم اندسست في الفراش بأسرع ما استطعت. كان الإيواء إلى السرير ممتعاً في تلك اللحظات التي كان الهواء فيها بارداً جداً، نقياً جداً. وكان فيها الليل ساجياً خارج النافذة. ونمنا نوماً عميقاً. وإذا كنت قد أفقت في موهن من الليل فلم يكن ذلك إلا لسبب وحيد أعرفه. وعندئذ كنت أرد لحاف الزغب عليَّ في كثير من الرفق لكي لا تفيق كاثرين، ثم أستسلم للرقاد من جديد، ناعماً بالدفء تحت هذه الخفة الجديدة التي تميّز الأغطية الرقيقة. لقد بدت الحرب نائية جداً

(*) جمع نادل وهو الخادم في مقهى أو فندق، والمقصود برئيس الندل ما يعرف عادة بـ «الميتر دوتيل.»

كمباريات كرة القدم التي تجري في جامعة ما ليس لك بها صلة، جامعة ينتسب إليها شخص آخر. ولكني عرفت من الصحف أنهم كانوا لا يزالون يقاتلون في الجبال لأن الثلج لم يشأ أن يتساقط.

* * *

وفي بعض الأحيان كنا نهبط الجبل إلى مونترو. كان ثمة ممرّ يمتد إلى أدنى الجبل ولكنه كان شديد الانحدار، وهكذا كان من دأبنا أن نؤثر الطريق العريضة القاسية المنسابة بين الحقول، والمتغلغلة، عند نقطة أدنى، بين جدران الكروم الحجرية ثم بين بيوت القرى القائمة على جانبيها. كانت ثمة قرى ثلاث: تشيرنيكس، وفونتانيفان، وثالثة نسيت اسمها. وعلى الطريق كنا نجتاز بقصر حجري عتيق. وكان ذلك القصر ينتصب مربَّع الشكل فوق سَطيحة على كتف الجبل ومن حوله حقول الكرمة المدرَّجة، وقد شُيِّدت كل عريشة على عصا تتكئ عليها، وجفت العرائش واسمرَّت، وأمست الأرض على استعداد لاستقبال الثلج، والبحيرة المنبسطة تحت ذلك كله مستوية رمادية كالفولاذ. وهبطت الطريق مسافة طويلة تحت القصر، ثم انعطفتْ إلى اليمين وانتهت آخر الأمر إلى مونترو بمنحدر رهيب معبَّد بالحصى الضخام.

ولم نكن نعرف أحداً في مونترو. لقد مشينا في محاذاة البحيرة. ورأينا البجع وكثيراً من النورس وخطاطيف البحر التي كانت تولّي طائرة كلما اقتربتَ منها وتصيح فيما هي تخفض أبصارها نحو الماء. وهناك في البحيرة كانت أسراب من الطائر المعروف بالغطاس، صغيرة داكنة، تخلِّف حين تسبح آثاراً متطاولة في الماء. وفي المدينة تمشَّينا في الشارع الرئيسي ووقفنا نتأمل واجهات المحال التجارية. كان ثمة عدد كبير من الفنادق الكبيرة التي أوصدت أبوابها، ولكن معظم المحال التجارية كانت مشرعة الأبواب، وكان الناس سعداء جداً برؤيتها. وكان ثمة صالون حلاقة ممتاز دخلته كاثرين لتسوِّي شعرها. وكانت المرأة التي تدير ذلك الصالون بهيجة جداً، وكانت هي

الشخص الوحيد الذي عرفناه في مونترو. وبينما كانت كاثرين هناك دلفتُ إلى محل لبيع الجعة وشربت من جعة مونيخ الداكنة، وطالعت الصحف. لقد قرأت الـ «كورير ديلاسيرا» والصحف الإنكليزية والأميركية الوافدة من باريس. كان قلم الرقيب قد حذف جميع الإعلانات، ولعله فعل ذلك للحؤول دون أي اتصال مع العدو من هذه الطريق. وكانت مطالعة الصحف تبعث الأسى في النفس. فقد كانت الأحوال رديئة جداً في كل مكان. لقد جلستُ في الزاوية، وقد انتصب أمامي قدح ضخم مليء بالجعة الداكنة، وعلبة مفتوحة من البسكويت المملح ذات غلاف مزجَّج مصقول. وأكلت البسكويتات لمذاقها المالح، ولأنها كانت تخلع على الجعة نكهة طيبة، وقرأت عن الكارثة. وتوقعت أن تكون كاثرين في طريقها إليَّ، ولكنها لم تأتِ. وهكذا أعدت الصحف إلى الرف، ودفعت ثمن الجعة، ورحت أصعد في الشارع بحثاً عنها. كان النهار بارداً، قاتماً، عاصفاً، وكانت حجارة المنازل تبدو باردة. كانت كاثرين لا تزال في صالون التجميل وكانت المرأة تموِّج لها شعرها. جلست في المقصورة الصغيرة ورحت أراقبهما. كان مشهداً مثيراً، وابتسمت كاثرين، وتحدَّثت إليَّ، وغدا صوتي أجش بعض الشيء بسبب من التأثر. كانت الملاقط تُحدث طقطقة عذبة، وكان في استطاعتي أن أرى كاثرين في ثلاث مرايا وكانت المقصورة أنيسة دافئة. ثم إن المرأة رفعت شعر كاثرين، فنظرت كاثرين في المرآة وأحدثت فيه تغييرات بسيطة نازعة بعض الملاقط واضعة بعضها الآخر. ثم إنها وقفت وقالت:

ـ «أنا آسفة لأني أضعت وقتك إلى هذا الحد.»

فابتسمت المرأة وقالت:

ـ «ولكنك يا سيدي كنتَ تتابع العملية في اهتمام بالغ أليس كذلك يا سيدي؟»

فقلت:

ـ «أجل، هذا صحيح.»

وخرجنا، ورحنا نصعد في الشارع. كان الجو بارداً، غائماً، وكانت الريح تعصف. وقلت:

ـ «أوه، يا عزيزتي، أنا أحبك حباً عظيماً.»

فقالت كاثرين:

ـ «ألسنا نقضي وقتاً ممتعاً؟ اسمع، دعنا نذهب إلى مكان ما، ونشرب الجعة بدلاً من الشاي. الجعة مفيدة جداً لكاثرين الصغيرة. إنها تحول بينها وبين البدانة.»

فقلت:

ـ «كاثرين الصغيرة. يا لها من متسكعة متكاسلة!»

فقالت كاثرين:

ـ «لقد كانت عاقلة جداً. إنها لا تسبب لي إزعاجاً كثيراً. والطبيب يقول إن الجعة سوف تفيدني وتحول بينها وبين البدانة.»

ـ «إذا أبقيتِها نحيلة وكانت غلاماً فقد يصبح في المستقبل راكب خيل في السباق!»

فقالت كاثرين:

ـ «أحسب أن علينا أن نتزوج، إذا ما أبصر هذا الطفل النور.»

كنا جالسين إلى مائدة الزاوية نحتسي الجعة في أحد المحال الخاصة ببيعها. وكانت العتمة تهبط في الخارج. لم تكن الشمس على وشك الغروب، ولكن النهار كان قاتماً وكان الظلام يُقبل مبكراً.

وقلت:

ـ «فلنتزوج الآن.»

فقالت كاثرين:

ـ «لا. إن هذا مُربك أكثر مما ينبغي، الآن. إن حالتي جلية للعيان إلى حد بعيد. وإني لن أظهر أمام أحد وأتزوج وأنا في هذا الوضع.»

ـ «كم أتمنى لو أننا تزوجنا من قبل.»

ـ «لو فعلنا إذن لكان ذلك أفضل، في ما أعتقد. ولكن متى سنوفق إلى ذلك، يا حبيبي؟»

ـ «أنا أدري شيئاً واحداً، وهو أنني لن أتزوج وأنا في هذا الوضع الأمومي الرائع.»

ـ «أنت لا تبدين حاملاً على نحو واضح.»

ـ «أوه، على العكس، يا حبيبي. لقد سألتني المزينة ما إذا كان هذا هو حملي الأول؟ فكذبت وقلت: لا، إن لنا صبيين وبنتين.»

ـ «ومتى سنتزوج؟»

ـ «حالما أستعيد رشاقتي. إنا نريد أن نقيم عرساً بهياً، وأن نحمل كل امرئ على القول: يا لهما من عروسين شابين جميلين.»

ـ «ألست مغتمة معذبة النفس؟»

ـ «وما الذي يدعوني إلى ذلك، يا حبيبي؟ إن المرة الوحيدة التي خجلت بها من نفسي هي يوم شعرت، في ميلانو، وكأنني بنت من بنات الهوى، ولم يدم ذلك غير سبع دقائق! وإلى هذا فقد كان ذلك بسبب من أثاث الغرفة. ألم أثبت أني زوجة صالحة؟»

ـ «أنت زوجة رائعة.»

ـ «إذن لا تعلق كثيراً من الأهمية على التفاصيل الفنيَّة. سوف أتزوج منك حالما أستعيد رشاقتي.»

ـ «حسن.»

ـ «هل تعتقد أن من الخير لي أن أحتسي كأساً أخرى من الجعة؟ لقد قال الطبيب إن حوضي ضيق بعض الشيء، وإن أفضل ما أفعله هو أن أُبقي كاثرين مهزولة الجسم.»

ـ «وماذا قال أيضاً؟»

ـ «إن ضغط الدم عندي رائع أيها الحبيب. لقد أُعجب بضغط دمي إعجاباً عظيماً.»

ـ «وماذا قال عن مسألة ضيق الحوض هذه؟»

ـ «لا شيء. لا شيء على الإطلاق. لقد قال إن عليَّ أن لا أتزلج.»

ـ «إنه لعلى حق.»

ـ «لقد قال إن الأوان قد فات إذا كنت لم أبدأ بعد. وذهب إلى أن في استطاعتي أن أتزلج إذا كنت واثقة من أني لن أقع على الثلج.»

ـ «إنه ساخر ذو قلب كبير.»

ـ «الواقع أنه كان ظريفاً جداً. سوف نعهد إليه بمهمة التوليد عندما يجيئني المخاض.»

ـ «هل سألتهِ أيتعيَّن عليك أن تتزوجي أم لا؟»

ـ «لا. لقد قلت له إننا متزوجان منذ أربع سنوات. أترى، يا حبيبي، إنني إذا تزوجت منك أصبحت أميركية. وأيّاً كان موعد الزواج فإن الطفل سوف يكون شرعياً في نظر القانون الأميركي.»

ـ «وأين عثرت على ذلك؟»

ـ «في تقويم نيويورك العالمي، في المكتبة.»

ـ «أنت فتاة عظيمة.»

ـ «سوف أكون سعيدة جداً باكتساب الجنسية الأميركية. ولسوف نذهب إلى أميركا، أليس كذلك يا حبيبي؟ أنا أريد أن أرى شلالات نياغارا.»

ـ «أنت فتاة رائعة.»

ـ «هناك شيء آخر أريد أن أراه، ولكني لا أستطيع أن أتذكره.»

ـ «مرابط الماشية؟»

ـ «لا. أنا لا أستطيع أن أتذكره.»

ـ «بناية وولوورث؟»

ـ «لا .»

ـ «الغَوْر الكبير؟(*)»

ـ «لا . ولكني أحب أن أرى هذا أيضاً .»

ـ «حسناً . حاولي أن تتذكري .»

ـ «الباب الذهبي! ذلك ما أريد أن أراه. أين يقع هذا الباب الذهبي؟»

ـ «في سان فرنسيسكو .»

ـ «إذن فلنذهب إلى هناك. أنا أريد أن أرى سان فرنسيسكو على أية حال .»

ـ «والآن فلنرتقِ الجبل. ما رأيك؟ هل نستطيع أن ندرك الـ .M.O.B؟»

ـ «هناك قطار بعد الساعة الخامسة بقليل .»

ـ «فلنحاول أن نلحق به .»

ـ «حسن . سوف أشرب كأساً أخرى أولاً .»

وحين خرجنا لنصعد في الشارع ونرتقي سلَّم المحطة كان الجو بارداً جداً . كانت ريح باردة تهب من وادي الرون. وكانت واجهات المحال التجارية مضاءة، وارتقينا السلم الحجري الشديد الانحدار إلى الشارع الأعلى، ثم ارتقينا سلماً آخر انتهى بنا إلى المحطة. وكان القطار الكهربائي ينتظر هناك، وقد أُضيئت مصابيحه كلها . وكان ثمة وجه ساعة يشير إلى موعد الانطلاق. وكان عقرباه يشيران إلى الخامسة والدقيقة العاشرة. نظرت إلى ساعة المحطة فإذا بها تشير إلى الخامسة والدقيقة الخامسة. وحين ركبنا القطار رأيتِ السائق والمفتش يخرجان من حانة المحطة. وجلسنا وفتحنا النافذة، كان القطار ينعم بتدفئة

(*) يقصد حديثة الغور الكبير العامة Grand Canyon National Park في أريزونا الشمالية. (المعرب)

كهربائية وكان الهواء حبيساً غير نقيٍّ، ولكن الهواء الطلق البارد كان يُقبل من خلال النافذة.

وسألتها:

ـ «هل أنتِ متعبة يا كاث؟»

ـ «لا. أنا أحسّ أني في أحسن حال.»

ـ «إن المسافة ليست طويلة.»

ـ «أنا أحب السفر بالقطار. لا تقلق عليَّ. أنا أستشعر نشاطاً بالغاً.»

ولم يسقط الثلج إلا قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام. وأفقنا ذات صباح فألفينا الثلج يتساقط. ومكثنا في السرير والنار تتأجج في الموقد، وراقبنا الثلج وهو يتساقط. وأخرجت السيدة غوتنجن أطباق الفطور، ووضعت في الموقد مقداراً إضافياً من الحطب. كانت عاصفة ثلجية ضخمة. ولقد قالت السيدة غوتنجن إن تلك العاصفة انطلقت حوالي منتصف الليل. ومضيت إلى النافذة، وأطللت منها ولكني لم أستطع أن ألمح الناحية الأخرى من الطريق. كانت العاصفة تهب في ضراوة، وكان الثلج يسقط في عنف، وانقلبتُ إلى السرير فاستلقيت عليه وأخذنا بأطراف الحديث.

فقالت كاثرين:

ـ «أتمنى لو كان في إمكاني أن أتزلج. إنه لمما يثير الاشمئزاز أن يكون المرء عاجزاً عن التزلج.»

ـ «سوف نأخذ زُلَيْقة(*) ونهبط الطريق. إن ذلك ليس أسوأ من الركوب في عربة.»

(*) الزليقة bab-sled عبارة عن سطح على دواليب من حديد أو خشب ولها محول أو موجه للانزلاق على السفوح الثلجية.

ـ «ألا ينطوي ذلك على احتمال ارتجاج كثير؟»

ـ «في استطاعتنا أن نرى.»

ـ «أرجو أن لا يحصل ذلك.»

ـ «بعد قليل سوف نتمشَّى على الثلج.»

فقالت كاثرين:

ـ «قبل طعام الغداء. إن هذا سوف يقوي شهيَّتنا.»

ـ «أنا جائع دائماً.»

ـ «وكذلك أنا.»

وخرجنا نتمشى على الثلج، ولكنه كان متكوِّماً كتلاً كتلاً فلم يكن في ميسورنا أن نجتاز مسافة طويلة. وتقدَّمتُ كاثرين وشققت لها طريقاً حتى المحطة. ولكن ما إن وصلنا إلى هناك حتى رغبنا عن الذهاب إلى أبعد. كان الثلج يتساقط في قوة وعنف، فتعذَّر علينا ـ أو كاد ـ أن نرى شيئاً.

وهكذا دخلنا النُزُل الصغير المجاور للمحطة. ونفض كل منا الثلج عن ثياب الآخر، مستعيناً على ذلك بإحدى المكانس، وجلسنا على مقعد خشبي، ورحنا نحتسي كأسين من الفيرموت.

وقالت النادلة:

ـ «إنها عاصفة هائلة.»

ـ «لقد تأخر الثلج كثيراً، هذه السنة.»

ـ «أجل.»

وسألتني كاثرين:

ـ «هل أستطيع أن آكل لوحاً من الشوكولا؟ أم أننا أوشكنا على تناول طعام الغداء؟ أنا ينتابني الجوع.»

فقلت:

ـ «طبعاً، في استطاعتك أن تأكلي لوحاً.»

فقالت كاثرين:

- «سوف آخذ واحداً محشواً بالبندق.»

فقالت النادلة:

- «هذا الصنف لذيذ جداً. أنا أفضله على سائر الأصناف.»

وقلت:

- «أما أنا فسأشرب كأساً آخر من الفيرموت.»

وحين خرجنا لنصعد عائدين كان الثلج قد طمس سبيلنا، ولم يكن قد بقي منها غير بضعة ثلوم غامضة. وصَفعنا الثلج في وجهينا فكدنا نعجز عن الرؤية. ثم إننا نفضنا الثلج عن ملابسنا. ودخلنا لنتناول طعام الغداء، وقد قدَّمه إلينا السيد غوتنجن. وقال:

- «غداً سوف يكون في الإمكان التزلج على الثلج. هل تحسن التزلج يا مستر هنري؟»

- «لا. ولكني أريد أن أتعلَّم.»

- «سوف تتعلم ذلك في سهولة بالغة. إن ولدي سوف يقضي عيد الميلاد هنا، ولسوف يقوم هو بتعليمك.»

- «هذا رائع. ومتى سيأتي؟»

- «غداً مساء.»

وفيما نحن جالسان قرب الموقد، في الغرفة الصغيرة. وكنا قد تناولنا طعام الغداء ورحنا نتأمل الثلج المنهمر قالت كاثرين:

- «ألا تود أن تذهب بمفردك، يا حبيبي، فتتنزه في مكان ما مع بعض الرجال، وتنعم بالتزلج؟»

- «لا. وما الذي يدعوني إلى ذلك؟»

- «يخيَّل إلي أحياناً أنك ترغب في أن ترى أناساً آخرين.»

- «وهل ترغبين أنتِ في أن تري أناساً آخرين؟»

- «لا.»

ـ «وكذلك أنا.»

ـ «أدري. ولكن وضعك مختلف. إني حامل، وهذا ما يجعلني أرتضي الامتناع عن القيام بأي عمل. أنا أعلم أنني الآن بلهاء، إلى أبعد الحدود، وإني لأسرف في الثرثرة، وأعتقد أن عليك أن تبتعد عني بعض الشيء لكي لا تملَّني وتسأمني.»

ـ «هل تريدين أن أبتعد عنك؟»

ـ «لا. أنا أريدك أن تبقى إلى جانبي.»

ـ «هذا ما سأفعله.»

وقالت:

ـ «ادنُ مني. أريد أن أتحسس التورّم الذي في رأسك. إنه تورم كبير.»

ومرَّرت إصبعها فوقه، ثم أضافت:

ـ «هل لك أن تُرسل لحيتك، يا حبيبي؟»

ـ «أوتريدين مني أن أفعل ذلك؟»

ـ «أظن أن ذلك سوف يكون طريفاً. إني أحب أن أراك بلحية مُرْسلَة.»

ـ «حسن. سوف أربي لحية. سوف أبدأ منذ اللحظة. هذه فكرة جيدة. إنها تتيح لي فرصة للقيام بعمل ما.»

ـ «وهل يقلقك أن لا يكون لديك عمل تقوم به؟»

ـ «لا. أنا أحب ذلك. أنا أحيا حياة بديعة. وكذلك أنتِ. أليس هذا صحيحاً؟»

ـ «أنا أحيا حياة بديعة أيضاً. ولكني خشيت أن أكون قد أصبحتُ مدعاة لسأمك بعد أن كبر الجنين في بطني.»

ـ «أوه، يا كات. أنتِ لا تعرفين مبلغ هيامي بك.»

ـ «حتى وأنا في هذه الحالة؟»

ـ «كما أنتِ تماماً. أنا سعيد جداً. ألسنا نتمتع بحياة طيبة؟»
ـ «من غير ريب، ولكني اعتقدتُ أن شيئاً من القلق قد استبدَّ بك.»
ـ «لا. إني لأتساءل ما الذي حلَّ بالجبهة وبالناس الذي أعرفهم، ولكني لست قلقاً. أنا لا أفكّر في أي شيء أكثر مما ينبغي.»
ـ «من هم أولئك الذين تفكِّر فيهم؟»
ـ «رينالدي، والكاهن، وكثير من الناس الذين أعرفهم. ولكني لا أفكِّر فيهم كثيراً. أنا لا أريد أن أفكِّر في الحرب. لقد انتهت بالنسبة إليّ.»
ـ «فيم تفكِّر الآن؟»
ـ «في لا شيء.»
ـ «بل كنت تفكِّر في شيء. قل لي.»
ـ «كنت أتساءل أيكون رينالدي مصاباً بالسفلس؟»
ـ «أكان هذا كل شيء؟»
ـ «نعم.»
ـ «وهل هو مصاب بالسفلس حقاً؟»
ـ «لست أدري.»
ـ «أنا سعيدة لعدم إصابتك به. هل أصبت ذات يوم بأيما شيء مثل هذا؟»
ـ «كنت مصاباً بالسيلان.»
ـ «أنا لا أريد أن أسمع شيئاً عن ذلك. هل كان مؤلماً جداً يا حبيبي؟»
ـ «جداً.»
ـ «ليتني أصبتُ أنا به.»
ـ «لا.»

ـ «إني أتمنى لو أني أصبت به لكي أكون مثلك. وإني لأتمنى لو عرفت جميع محبوباتك لكي أسخر منهنَّ أمامك.»

ـ «إنها لصورة فنية ساحرة!»

ـ «أما إصابتك بالسيلان فليست صورة فنية ساحرة!»

ـ «أدري. انظري كيف يتساقط الثلج الآن.»

ـ «إني أؤثر أن أنظر إليك. لماذا لا تترك شعرك ينمو؟»

ـ «كيف ذلك؟»

ـ «اتركه ينمو حتى يصبح أطول مما هو قليلاً.»

ـ «أنا أرى أن طول شعري حسن الآن.»

ـ «لا. دعه ينمو بعض الشيء. وفي استطاعتي أنا أن أقصَّ شعري، وعندئذ نصبح متماثلين تماماً، باستثناء أن أحدنا أشقر والآخر أسمر.»

ـ «أنا لن أدعك تقصين شعرك.»

ـ «إذا قصصتُه قد يصبح شيئاً طريفاً. لقد سئمتُ منه. إنه يسبّب لي بالغاً حين آوي إلى السرير ليلاً.»

ـ «أنا أحبه.»

ـ «ألن تحبه قصيراً؟»

ـ «ربما. ولكني أحبه كما هو الآن.»

ـ «قد يكون جميلاً وهو قصير. وعندئذ نكون ـ أنا وأنت ـ متماثلين. أوه، يا عزيزي، إني أحبك إلى درجة تجعلني أرغب في أن أكون أنا أنت.»

ـ «إنك لكذلك فعلاً. نحن شخص واحد.»

ـ «أعرف هذا.. نحن شخص واحد في الليل.»

ـ «إن الليالي شيء عظيم.»

ـ «أريد أن يمتزج أحدنا بالآخر امتزاجاً كاملاً. أنا لا أريد أن تذهب. لقد قلتُ ذلك مجرد قول. في استطاعتك أن تذهب إذا شئت. ولكن شريطة أنت ترجع عاجلاً. إني لا أستشعر الحياة إلا حين تكون إلى جانبي.»

فقلت:

ـ «أنا لن أبتعد عنك أبداً. إني لا أعرف معنى السعادة حين لا تكونين معي. لم تعد لي أيما حياة على الإطلاق.»

ـ «أنا أريد أن تكون لك حياة. أريد أن تكون لك حياة جميلة. ولكنا سوف نحياها معاً، أليس كذلك؟»

ـ «والآن، أتريدين مني أن أكف عن إرسال لحيتي أم أتركها تطول أكثر؟»

ـ «اتركها. إنها سوف تكون رائعة. ومن يدري فلعلك تستقبل العام الجديد بها.»

ـ «والآن. هل تريدين أن تلعبي الشطرنج؟»

ـ «إني أفضّل أن ألعب معك.»

ـ «لا. دعينا نلعب الشطرنج.»

ـ «وبعد ذلك نلعب معاً؟»

ـ «نعم.»

ـ «حسن.»

وأخرجتُ رقعة الشطرنج، ورتَّبت البيادق(*). كان الثلج لا يزال يتساقط، في الخارج، عنيفاً قوياً.

* * *

(*) البيادق: حجارة الشطرنج.

وذات مرة أفقت في ساعة من الليل. فعرفت أن كاثرين كانت مستيقظة أيضاً. كان القمر يلتمع على النافذة، وكان يلقي ظلالاً على السرير من خلال قضبان النافذة.

ـ «لقد استيقظتَ، يا حبيب؟»

ـ «نعم، ألا تستطيعين أن تنامي؟»

ـ «لقد استيقظتُ وأنا أفكِّر كيف استبد بي الهيام عندما لقيتُك أول مرة. هل تذكر؟»

ـ «أجل، لقد بدت عليكِ إمارات الهيام بعض الشيء.»

ـ «أنا لم أعد كذلك. أنا رصينة الآن. قل رصينة في عذوبة بالغة. قل رصينة.»

ـ «رصينة.»

ـ «أوه، إنك ظريف. لقد تحررتُ من الهيام الآن. ولقد أصبحتُ سعيدة جداً، جداً، جداً، ليس غير.»

فقلت:

ـ «أوه، عودي إلى النوم.»

ـ «حسن. فلننم معاً في اللحظة نفسها.»

ـ «حسن.»

ولكننا لم نفعل. لقد بقيت يقظان فترة طويلة، مفكِّراً في مختلف الأشياء، متأملاً كاثرين وهي نائمة، وقد ترقرق ضوء القمر على وجهها. ثم إني استسلمت للرقاد أيضاً.

الفصل التاسع والثلاثون

حوالي منتصف كانون الثاني كانت لي لحية، وكان الشتاء قد أمسى كناية عن سلسلة متعاقبة من النهارات الباردة المشرقة، والليالي المثلوجة القاسية. لقد أصبح في ميسورنا أن نمشي في الطرق مرّة أخرى. كان الثلج صقيلاً متلبِّداً تلبُّداً قوياً حيث كانت عرباتُ التبن، وزلاّقاتُ الخشب، وجذوعُ الأشجار الضخام تهبط الجبل. كان الثلج يغمر الريف كله حتى مونترو تقريباً. وكانت الجبال القائمة عند الضفة الأخرى من البحيرة بيضاء كلها، وكذلك كان سهل وادي الرون مغموراً أيضاً. كنا نخرج في نزهات طويلة، سيراً على الأقدام عند الجانب الآخر من الجبل، إلى الـ «بان دو لالياز». كانت كاثرين تنتعل حذاء ذا مسامير عريضة الرؤوس، وتطرح على كتفيها رداء، وتتوكأ على عصا ذات رأس فولاذي حاد. إنها لم تبدُ عالية البطن في ذلك الرداء. لم نكن نمشي في سرعة بالغة، ولكنا كنا نقف بين الفينة والفينة ونقعد على جذوع الأشجار الملقاة على جانب الطريق لنستريح كلما تعبَتْ كاثرين.

كان ثمة في الـ «بان دو لالياز» نُزُل قائم وسط الأشجار يقف الحطّابون عنده ليطفئوا ظمأهم. وكنا نلمّ بهذا النزل فننعم بدفء الموقد، ونشرب خمرة حمراء ساخنة ممزوجة بالتوابل وعصير الليمون الحامض. وكانوا يسمون ذلك الشراب «غلوهفاين» Gluhwein. لقد

كان شراباً يوقع في نفس المرء دفئاً وحبوراً. وكان النزل مغمّاً عابقاً بالدخان، حتى إذا غادَرْتَهُ اقتحم الهواء رئتيك في قوة وعنف، وخدَّرَ أرنبة أنفك وأنت تستنشقه. والتفتنا ذات مرة إلى الوراء فرأينا النزل وقد انبعث النور من خلال نوافذه، ورأينا خيول الحطَّابين تضرب الأرض بقوائمها الأمامية وتحرِّك رؤوسها التماساً للدفء. كان ثمة جليد على شعر خُطومها(*)، وكانت أنفاسها ترسم في الهواء خطوطاً من بخار. وكانت الطريق التي نصعد فيها إلى منزلنا صقيلة زلقة في الجزء الأول منها، حتى إذا انعطفنا إلى ممرّ تجميع الأحطاب أمسى الجليد بلون البرتقال بسبب من الخيل التي كانت تسلكه. أما بعد ذلك، فكانت الطريق مغطاة بثلج نظيف متلبِّد، وكانت تخترق الغابة. ومرتين اثنتين شاهدنا بعض الثعالب ونحن عائدان إلى المنزل في موهن من الليل.

لقد كانت بلاداً جميلة، وكنا نجد في كل نزهة من نزهاتنا متعة بالغة.

قالت كاثرين:

ـ «لقد أصبحت لك لحية رائعة الآن. إنها أشبه ما تكون بلحى الحطَّابين. هل رأيت الرجل الذي يتدلى من أذنيه قرطان ذهبيان صغيران جداً؟»

فقلت:

ـ «إنه صائد شَمْوة(**) إنهم يعلقون هذه الأقراط في آذانهم لاعتقادهم أنها تجعل سمعهم مرهفاً.»

ـ «فعلاً؟ أنا أصدق ذلك. أنا أعتقد أنهم يعلقونها لكي يظهروا أنهم صائدو شموة. هل توجد شموات على مقربة من هذا المكان؟»

(*) جمع خطم وهو مقدم أنف الدابة وفمها.

(**) chamois شموة: جنس من الأنعام شبيه بالماعز يتخذ منه جلد الشاموا المشهور.

ـ «نعم، وراء الـ «دانت دو جامان.»

ـ «لقد كان من الممتع أن نرى ذلك الثعلب.»

ـ «إنه حين ينام يلف ذيله ذاك حوله التماساً للدفء.»

ـ «لا ريب في أنه يستشعر عند ذاك إحساساً لطيفاً.»

ـ «لقد تمنيت دائماً أن يكون لي ذيل كذيله. تخيلي لو كان لنا أذناب كالذئاب، ألا تجدين ذلك ممتعاً؟»

ـ «ولكن هذا قد يجعل ملابسنا أكثر تعقيداً وأشد عسراً.»

ـ «في استطاعتنا أن نرتدي ملابسَ فُصِّلت خصيصاً لهذا الغرض، أو أن نحيا في بلاد لا تعلق كبير أهمية على هذه الأمور.»

ـ «نحن نحيا في بلد لا أهمية فيه لشيء. أليس من الرائع أننا لا نرى أحداً على الإطلاق؟ أنت لا تريد أن تقع عينك على أحد من الناس، أليس كذلك، يا حبيب؟»

ـ «لا. لست أريد.»

ـ «ما رأيك في القعود هنا دقيقة واحدة؟ أنا متعبة بعض الشيء.»

وجلسنا شبه متلاصقين على جذوع الأشجار اليابسة. وأمامنا، كانت الطريق تمتد تائهة وسط الغابة.

ـ «إن الطفلة الصغيرة المدللة لن تفصل ما بيننا، أليس كذلك؟»

ـ «لا. لن ندعها تفصل ما بيننا.»

ـ «وحالتنا المالية، كيف هي؟»

ـ «إن لدينا مالاً كثيراً. لقد قُبِلت آخر حوالة من حوالاتي.»

ـ «ألن تحاول أسرتك أن تستردَّك حين تعرف أنك الآن في سويسرا؟»

ـ «ربما. سوف أكتب إليهم شيئاً.»

ـ «ألم تبعث إليهم بأية كلمة حتى الآن؟»

- «لا. لقد طلبت منهم الحوالة فقط.»

- «أحمدُ اللّه على أني لست جزءاً من أسرتك.»

- «سوف أبعث إليهم ببرقية.»

- «ألست تستشعر عاطفة ما نحوهم؟»

- «بلى. ولكنا تشاجرنا كثيراً حتى لقد بلِيَتْ تلك العاطفة.»

- «يخيل إليَّ أني سوف أحب أسرتك. وسأحبها، في أغلب الظن، حباً عظيماً.»

- «فلنقلع عن الحديث عن الأسرة. وإلا ساورني القلق عليها.»

قلت هذا، ثم أضفت بعد برهة قصيرة:

- «فلنذهب إذا كنت قد استعدتِ نشاطكِ.»

- «لقد استعدتُ نشاطي.»

هبطنا الطريق. كانت العتمة قد خيّمت، وكان الثلج يَصِرّ تحت حذاءينا صريراً. وكان الليل جافاً، بارداً، والسماء صافية جداً.

قالت كاثرين:

- «أنا أحب لحيتك. لقد أحسنت صنعاً في إرسالها. إنها تبدو صلبة جداً، وضارية جداً، ومع ذلك فهي ناعمة إلى أبعد الحدود، سائغة إلى أبعد الحدود.»

- «أتحبينني هكذا أكثر من حبك لي وأنا حليق؟»

- «أظن ذلك. أنت تدري، أيها الحبيب، أنني لن أقص شعري إلا بعد أن أضع كاثرين الصغيرة. أنا أبدو الآن ضخمة البطن وقوراً أكثر مما ينبغي. أما بعد ولادتها، حين أستعيد رشاقتي، فسوف أقصّه، وعندئذ أبدو في عينيك امرأة صغيرة جميلة. سوف نذهب معاً ونقصّه، وقد أذهب وحدي ثم أرجع وأفاجئك به مقصوصاً.» ولم أقل شيئاً.

- «أنت لن تمنعني من قصّه، أليس كذلك؟»

ـ «لا. يخيل إليَّ أنه سوف يكون رائعاً.»

ـ «أوه، ما أعظم لطفك. ولعلي أبدو جميلة، يا حبيبي، وأغدو رشيقة مثيرة لإعجابك، فتقع في غرامي مرّة أخرى.»

فقلت: «يا للجحيم! أنا أحبك الآن حباً عظيماً. ما الذي تريدين أن تفعليه؟ أتريدين أن تهلكيني؟»

ـ «أجل، أنا أريد أن أهلكك.»

فقلت: «حسن. هذا ما أريده أنا أيضاً.

الفصل الأربعون

لقد عشنا حياة رائعة. قضينا هناك شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير)، وكان الشتاء رائعاً جداً، وكنا نحن سعيدين جداً. كان الجليد يذوب بعض الشيء كلما هبَّت الريح الحارة، وكان الثلج يرق ويلين، ويبدو الهواء وكأنه هواء الربيع، ولكن البرد القارس كان يعود في كل مرة، وفصل الشتاء كان يتجدد في كل حين. وفي شهر آذار (مارس) عرفنا أول ثغرة في ذلك الشتاء. وذات ليلة، بدأ المطر يهطل. لقد هطل طوال الصباح، فأحال الثلجَ إلى وحل، وجعل سفح الجبال موحشاً كئيباً. كانت السحب تعلو البحيرة والوادي، وكان المطر يهطل بغزارة على قمة الجبل. لبست كاثرين جرماقاً(*) ثقيلاً، ولبست أنا «جزمة» مستر غوتنجن المطاطية، ومشينا إلى المحطة مستعينين بإحدى المظلات، عبر الثلج الذائب والمياه الجارية التي كانت تجرف جليد الطرق. ثم إننا وقفنا عند النُزُل لكي نحتسي كأساً من الفيرموت قبل الغداء. كان في ميسورنا أن نسمع المطر يهطل في الخارج.

ـ «ألا تعتقدين أن علينا أن ننتقل إلى المدينة؟»

فقالت كاثرين:

(*) الجرموق ما يلبس فوق الحذاء. وقد استعملناه مقابل overshoes.

ـ «ما رأيك أنت؟»

ـ «إذا انحسر الشتاء واستمر المطر في السقوط فلن تكون الإقامة هنا ممتعة جداً. متى ستبصر كاثرين الصغيرة النور؟»

ـ «بعد شهر تقريباً. وربما أكثر قليلاً.»

ـ «في إمكاننا أن نهبط إلى مونترو ونسكن فيها.»

ـ «لِمَ لا نذهب إلى لوزان؟ فالمستشفى في تلك المدينة.»

ـ «حسن. ولكني أعتقدتُ أن لوزان ربما كانت مدينة كبيرة أكثر مما ينبغي.»

ـ «في استطاعتنا أن ننعم في المدينة بمثل التوحد الذي ننعم به هنا. ولا بد أن نستسيغ العيش في لوزان.»

ـ «ومتى نذهب؟»

ـ «لا فرق عندي. عندما تشاء يا حبيبي. لست راغبة في مغادرة هذا المكان إذا كنت أنت غير راغب في ذلك.»

ـ «فلننتظر لنرى عن أي شيء ستتكشف الأحوال الجوية.»

وأمطرت السماء طوال أيام ثلاثة. كان الثلج قد ذاب على سفح الجبل، تحت المحطة. وكانت الطريق تغصُّ بسيل من ذائب الثلج الموحل. وكانت الأرض مبلّلة أكثر مما ينبغي، قذرة أكثر مما ينبغي، فلم يكن في ميسورنا أن نخرج، وصباح ثالث الأيام المطيرة قررنا أن نهبط إلى المدينة.

فقال غوتنجن:

ـ «حسن جداً، يا مستر هنري. لستَ في حاجة إلى أن تُخْطرني قبل الرحيل. فما كنتُ لأعتقدُ أنكما سوف تبقيان هنا بعد أن ساءت الأحوال الجوية.»

فقلت:

- «يجب أن نكون على مقربة من المستشفى على أية حال، بسبب من السيدة.»

فقال:

- «أدري. هل لكما أن ترجعا في يوم من الأيام وتنزلا عندنا مع المولود الصغير؟»

- «أجل، إذا كان لدينا متسع.»

- «في استطاعتكم أن تجيئوا في الربيع، حين يعتدل الجو، وتستمتعوا بأيامه الحلوة. ولسوف يكون في ميسورنا أن ننزل المولود الصغير والممرضة في الغرفة الكبيرة الموصدة الآن، وأن ننزلكما أنت والسيدة في غرفتكما هذه نفسها المشرفة على البحيرة.»

فقلت:

- «سوف أكتب إليك حول مسألة العودة.»

وحزمنا أمتعتنا، وامتطينا متن القطار الهابط بعد أن تناولنا طعام الغداء. ورافقَنا مستر ومسز غوتنجن إلى المحطة. فقد أنزل مستر غوتنجن أمتعتنا على ظهر زلاّقة انطلقت وسط الثلج الذائب. ثم إنهما وقفا قرب المحطة، تحت وابل المطر. ولوّحا لنا بيديهما مودِّعيْن.

قالت كاثرين:

- «لقد كانا ظريفين جداً.»

- «أجل، لقد كانا لطيفين معنا.»

ركبنا القطار من مونترو إلى لوزان. وأطللنا من النافذة في اتجاه المنزل الذي كنا نسكنه، ولكننا لم نستطع أن نرى الجبال بسبب السحب الكثيفة. توقف القطار عند «فيفي»، ثم تابع انطلاقه، بين البحيرة من جانب، والحقول الرطبة السمراء والغابات الجرداء والبيوت التي غسلها المطر من جانب آخر. حتى إذا بلغنا لوزان قصدْنا إلى

فندق ليس بالكبير ولا بالصغير. كان المطر لا يزال يهطل فيما نحن نجتاز الشوارع بعربتنا، وندخل باب الفندق الخاص بالعربات. وبدا البواب، وقد تدلت مفاتيحه النحاسية من ثنايا سترته العليَا، وبدا المصعد، والسجاد الممدود على أرض الفندق، وأحواض الغسل البيضاء ذات الحنفيات اللماعة، والسرير النحاسي، وحجرة النوم الواسعة المريحة. بدا ذلك كله ترفاً مغالى فيه بعد إقامتنا في منزل مستر ومسز غوتنجن. كانت نوافذ الغرفة تطل على حديقة يحيط بها سور في أعلاه سياج حديدي. وعَبْر الشارع المنحدر انحداراً حاداً، كان فندق آخر يحيط به سور مماثل وحديقة. وأطللت لأرى المطر يهطل على نافورة الحديقة.

أضاءت كاثرين الأضواء كلها، وشرعت تخرج الأمتعة من حقائبها. طلبتُ كأساً من الويسكي والصودا، واستلقيت على السرير أقرأ الصحف التي كنت قد اشتريتها في محطة القطار. كان ذلك في آذار (مارس) عام 1918، وكان الهجوم الألماني قد بدأ في فرنسا. احتسيت الويسكي والصودا، وقرأت فيما كانت كاثرين تفرغ الحقائب وتطوِّف في الحجرة.

قالت:

ـ «أنت تدري ما الذي يتعيَّن عليَّ أن أعِدَّه.»

ـ «ما هو؟»

ـ «ثياب الطفل. فمعظم النساء لا يجتزن من مراحل الحمل ما اجتزته أنا من غير أن يُعْدِدْن ملابس الطفل.»

ـ «في استطاعتك أن تشتريها.»

ـ «أدري. ذلك ما سوف أفعله غداً. سوف أسأل أي الملابس يتعيَّن عليَّ شراؤه.»

ـ «ولكن هذا شيء ينبغي أن تعرفيه. لقد كنتِ ممرضة.»

ـ «ولكن عدد الجنود الذين رُزقوا أولاداً في المستسفيات قليل إلى أبعد الحدود!»

ـ «أما أنا فسوف أرزق طفلاً.»

ورمتني بالوسادة، فسفحت الويسكي والصودا على الأرض.

وقالت:

ـ «سوف أطلب لك كأساً أخرى. أنا آسفة لسفحي إياها على الأرض.»

ـ «لم يكن فيها بقية تستحق الذكر. تعالي واستريحي قليلاً.»

ـ «لا. ينبغي أن أسعى لجعل هذه الغرفة تبدو شبيهة بشيء ما.»

ـ «شبيهة بماذا؟»

ـ «شبيهة ببيتنا.»

ـ «أنشُري رايات الحلفاء.»

ـ «أوه، إخرَسْ!»

ـ «قوليها مرة ثانية.»

ـ «إخرس!»

ـ «أنتِ تقولينها في كثير من الحذر، وكأنك تخافين أن تسيئي إلى أحد.»

ـ «لا.»

ـ «إذن، تعالي واستريحي قليلاً.»

ـ «حسن.»

وأقبلَتْ وقعدت على السرير. ثم أضافت:

ـ «أنا أعلم أنك لم تعد تستلطفني كثيراً. إني أشبه ما أكون بكيس طحين ضخم.»

ـ «لا . لستِ كذلك. أنتِ جميلة ولطيفة.»

ـ «أنا شيء فظ جداً قُدِّر لك أن تتزوجه.»

ـ «لا ، على الإطلاق، إن الأيام لا تزيدكِ إلا جمالاً.»

ـ «ولكني سوف أستعيد رشاقتي، أيها الحبيب.»

ـ «أنتِ رشيقة الآن.»

ـ «لقد أسرفتَ في الشراب.»

ـ «أنا لم أشرب غير كأس من الويسكي والصودا.»

فقالت:

ـ «هناك كأس أخرى في الطريق. وبعد ذلك، فهل تطلب إليهم أن يُحضروا العشاء إلى هنا؟»

ـ «هذه فكرة جيدة.»

ـ «إذن، فنحن لن نخرج إلى مكان ما، أليس كذلك؟ إننا سوف نبقى في الفندق هذه الليلة.»

قلت: «سوف نبقى، ونلعب.»

فقالت كاثرين:

ـ «سوف أشرب قليلاً من الخمر. إن ذلك لن يؤذيني. ولعل في استطاعتنا أن نفوز بشيء من شرابنا القديم، شراب الكابري الأبيض.»

قلت: «من غير ريب. إن فندقاً في مثل هذه الضخامة لا يمكن أن يخلو من الخمور الإيطالية.»

وقرع النادل الباب. لقد جاء بالويسكي في كأس حافلة بالثلج. وكانت على الصينية، إلى جانب الكأس، زجاجة صودا صغيرة.»

قلت: «شكراً. ضعها هناك. هل لك أن تأتينا إلى هنا بعشاء لشخصين، وبزجاجتين مثلوجتين من خمر كابري البيضاء غير الحلوة؟»

- «هل ترغبان في أن تستهلاّ طعامكما بالحساء؟»

- «هل تريدين حساء، يا كاث؟»

- «إذا سمحت.»

- «هات طبق حساء لشخص واحد.»

- «شكراً، يا سيدي.»

قال ذلك، وخرج موصداً الباب خلفه. ورجعتُ أنا إلى الصحف، وإلى أنباء الحرب في الصحف، وصبَبْتُ الصودا، في تؤدة، فوق الثلج السابح في الويسكي. كان ينبغي أن أقول له أن لا يضع الثلج في الويسكي، أن يجيء بالثلج على حدة. فبهذه الطريقة يستطيع المرء أن يعرف مقدار الويسكي في الكأس، ولا يخفّفها أكثر مما ينبغي - وعلى نحو مفاجئ - بالصودا. سوف أشتري في المرة القادمة زجاجة من الويسكي، وأسألهم أن يحملوا إليّ شيئاً من الثلج والصودا. تلك هي الطريقة الفضلى. إن الويسكي الجيدة سائغة جداً، إنها متعة من متع الحياة.

- «في أي شيء تفكر، يا حبيبي؟»

- «في الويسكي.»

- «وفي أية ناحية من نواحيها؟»

- «في مقدار ما تنطوي عليه من لذة.»

ولوَتْ كاثرين وجهها ساخرة، وقالت:

- «حسن جداً.»

* * *

لبثنا ثلاثة أسابيع في ذلك الفندق. وكانت أياماً لا بأس بها. كانت حجرة الطعام فارغة، عادة، وكنا نتناول طعام العشاء في غرفتنا، في كثير من الأحيان. كنا نتمشّى إلى المدينة ونركب القطار المسنَّن

هابطين إلى أوتشي حيث نتنزه على ضفة البحيرة. وكان الجو قد أمسى دافئاً جداً، فهو أشبه ما يكون بالربيع. وتمنينا لو رجعنا إلى الجبال، ولكن جو الربيع هذا لم يدم غير بضعة أيام، عاد بعدها ذلك الجو الرطب البارد الذي يميِّز الشتاء المحتَضر.

اشترت كاثرين من أسواق المدينة ما كانت في حاجة إليه من ملابس الطفل. ومضيت أنا إلى معهد من معاهد الرياضة البدنية لكي أتمرَّن على الملاكمة. وكان من دأبي أن أذهب إلى هناك صباحاً، بينما تكون كاثرين ما تزال في سريرها. لقد كان من الجميل، في أيام الربيع الزائف ذاك وبعد الملاكمة والابتراد بالدُشِّ، أن تتمشى في الشوارع وتشمّ رائحة الربيع في الهواء، وتجلس في أحد المقاهي وتراقب الناس، وتقرأ الصحيفة وتشرب كأساً من الفيرموت، ثم ترجع إلى الفندق وتتناول طعام الغداء مع كاثرين. كان الأستاذ في معهد الرياضة البدنية ذا شاربين، وكان دقيقاً جداً، وعصبياً جداً، وكان يفقد صوابه إذا ما بدأت بعده. ولكن الساعات التي قضيتها في معهد الرياضة كانت ممتعة. كان ثمة هواء نقي وضياء موفور، ولقد بذلتُ جهداً كبيراً: لقد قفزتُ فوق الحبل، ولاكمتُ ظلِّي في المرآة، وقمت ببعض تمرينات البطن وأنا مستلق على أرض المعهد في رقعة من أشعة الشمس المتسربة من خلال النافذة المفتوحة، وبين الفينة والفينة كنتُ أروِّع الأستاذ أثناء تلاكُمنا. لم يكن في ميسوري، بادئ الأمر، أن ألاكم ظلي أمام المرآة الطويلة الضيقة إذ بدا لي أن من أغرب الغريب أن يرى المرء رجلاً ذا لحية يتمرن على الملاكمة. ولكني وجدت آخر الأمر أن ذلك شيء مضحك. لقد رغبتُ في حلق لحيتي حالما بدأتُ دروس الملاكمة تلك، ولكن كاثرين أبت عليَّ ذلك.

في بعض الأحيان كنت أركب أنا وكاثرين متن إحدى العربات وننطلق إلى الريف. كانت هذه النزهات جميلة في الأيام الصاحية،

وكان ثمة موطنان صالحان اعتدنا أن نقصدهما لتناول الطعام. كانت كاثرين عاجزة عن السير مسافات بعيدة، وكنت أحب أن أركب العربة معها لنطوّف في طريق الريف. وكنا نعلم أن ساعة الميلاد أمست الآن قريبة جداً، لذلك كان علينا أن نتعجل الأشياء، وأن لا نضيع لحظة من لحظات التلاقي.

الفصل الحادي والأربعون

ذات صباح، أفقتُ حوالي الساعة الثالثة وقد سمعت كاثرين تتحرك في السرير.

ـ «هل تشعرين بشيء، يا كاث؟»

ـ «إني أحس ببعض آلام الولادة، يا حبيبي.»

ـ «على نحو متواصل؟»

ـ «لا. ليس على نحو متواصل جداً.»

ـ «إذا كنت تحسِّين بذلك في غير انقطاع فعندئذ يتعيَّن علينا أن نذهب إلى المستشفى.»

وقد غلبني النعاس فاستسلمت للرقاد. وبعد برهة قصيرة استيقظت من جديد.

وقالت كاثرين:

ـ «لعل من الخير لي أن أستدعي الطبيب. أنا أحسب أن المخاض قد جاء.»

مضيت إلى التلفون، واتصلت بالطبيب.

فسألني:

ـ «ما الفترة التي تفصل ما بين كل طَلْقة وطلقة؟»

ـ «ما المدة التي تفصل ما بين كل فترة من فترات الألم، يا كاث؟»

ـ «يخيل إليَّ أن الطَلْق ينتابني مرة كل ربع ساعة.»

فقال الطبيب:

ـ «يجب أن تذهبي إلى المستشفى. سوف أرتدي ملابسي واذهب بنفسي إلى هناك، في الحال.»

ورفعتُ سماعة التلفون، لأطلب إلى المرآب القريب من المحطة أن يبعث إليَّ بسيارة أجرة. ولم يجب أحد بادئ الأمر. وانقضت فترة غير قصيرة، وأخيراً ردّ عليَّ رجل ما، ووعدني بأن يوجِّه إليَّ سيارة أجرة في الحال. كانت كاثرين ترتدي ملابسها. وكانت حقيبتها ملأى بكل ما ستحتاج إليه في المستشفى وبملابس المولود. وفي الرواق قرعتُ الجرس إلتماساً للمصعد. بيد أني لم ألق جواباً. وهبطت درجات السلم. لم يكن في الدور السفلي غير الحارس الليلي. ارتقيت بالمصعد منفرداً، ووضعت حقيبة كاثرين فيه. وولجتُهُ كاثرين، وهبطنا إلى الدور السفلي. ففتح الحارس الليلي لنا الباب. وجلسنا على قطع الحجارة العريضة المستوية المجاورة للسلم والمؤدية إلى الممرّ الخاص بالسيارات، وانتظرنا سيارة الأجرة. كانت السماء صافية الأديم، وكانت النجوم تتلألأ في أرجائها. وكانت كاثرين متوفزة الأعصاب إلى حد بعيد.

قالت:

ـ «أنا سعيدة جداً بمجيء المخاض. فما هي إلا فترة يسيرة حتى ينتهي كل شيء.»

ـ «إنك فتاة طيبة شجاعة.»

ـ «لستُ خائفة. ومع ذلك أتمنى لو أقبلت السيارة.»

وسمعناها تصعد في الشارع، ورأينا أضواءها الأمامية. وانعطفتْ نحو الممرّ الخاص بالسيارات، وساعدتُ كاثرين على ركوبها، ووضع السائق الحقيبة إلى جانبه.

وقلت:

ـ «انطلقْ بنا إلى المستشفى.»

فارقنا ممرّ السيارات، وشرعت السيارة الصغيرة تصعد في الهضبة.

دخلنا إلى المستشفى، وحملتُ أنا الحقيبة. كانت تجلس إلى المكتب امرأة دوَّنت اسم كاثرين، وعمرها، وعنوانها، وأسماء أنسبائها، ودينها، في سجلٍّ خاص. لقد قالت إنها لا دين لها، فرسمت المرأة خطاً في الفراغ الذي يلي تلك الكلمة. وكانت كاثرين قد قالت للمرأة إن اسمها كاثرين هنري.

وقالت المرأة:

ـ «سوف أقودك إلى غرفتكِ.»

وركبنا مصعداً. ثم إن المرأة أوقفته. فغادرناه، وتبعناها وهي تتقدمنا في الرواق. وضغطت كاثرين على ذراعي بقوّة.

ـ «هذه هي الغرفة. هل لكِ أن تنزعي ملابسكِ وتأوي إلى السرير؟ دونك هذه المنامة فارتديها.»

قالت كاثرين: «عندي منامة.»

فقالت المرأة: «من الأفضل لك أن تلبسي هذه المنامة.»

وغادرتُ الغرفة، وجلست على كرسيٍّ في الرواق.

وبعد لحظة، قالت لي المرأة من على عتبة الباب:

ـ «في استطاعتك الآن أن تدخل.»

كانت كاثرين مستلقية في السرير الضيق، وقد ارتَدت منامة بسيطة ذات طوق مربّع يكشف عن أعلى الصدر، منامة بدا وكأنها قد فُصّلت من قماش غليظ. ابتسمتْ لي وقالت:

ـ «إني أقاسي الآن آلاماً عظيمة.»

كانت المرأة ممسكة بمعصمها تقيس قوة الطَلْق بواسطة ساعة في يدها.

قالت كاثرين:

ـ «كانت هذه طلقة قوية.»

لقد رأيت أثرَ ذلك على وجهها.

سألتُ المرأة:

ـ «أين الطبيب؟»

ـ «إنه نائم في الدور السفلي. ولسوف يقبل إلى هنا عندما تمسّ الحاجة إليه.»

ثم أضافت:

ـ «يتعيَّن عليَّ أن أقوم بعمل ما للسيدة. هل لك أن تغادر الغرفة كرة أخرى؟»

خرجتُ إلى الرواق. كان رواقاً عارياً تتخلَّله نافذتان اثنتان، وتنهض على مداه كله أبواب موصدة. كان عبق المستشفيات يفوح منه. وجلستُ على الكرسي، وأطرقت برأسي إلى الأرض، وصلَّيت من أجل كاثرين.

وقالت الممرضة:

ـ «في إمكانك أن تدخل.»

دخلتُ. وقالت كاثرين:

ـ «هالو، أيها الحبيب!»

ـ «كيف حالك؟»

ـ «الطلقات تتعاقب في غير انقطاع تقريباً.»

وتقلَّص وجهها. ثم ابتسمتْ.

ـ «لقد كانت هذه طلقة حقيقية. هل لكِ أن تضعي يدك على ظهري، مرّة أخرى، أيتها الممرضة؟»

فقالت الممرضة:

ـ «إذا كان هذا يساعدك.»

فقالت كاثرين:

ـ «اذهبْ من هنا، يا حبيبي. اذهب وكُل شيئاً ما. الممرضة تقول إن هذا قد يستمرّ فترة طويلة.»

وقالت الممرضة:

ـ «إن الولادة الأولى تستغرق، في العادة، مدة طويلة.»

فأضافت كاثرين:

ـ «أرجوك أن تخرج وتأكل شيئاً ما. أنا في حال جيدة فعلاً.»

فقلت:

ـ «سوف أبقى هنا برهة قصيرة.»

تعاقب الطلق في اطّراد، ثم هدأ بعض الشيء. كانت كاثرين متوترة الأعصاب إلى حد بعيد. وكانت كلما ألمَّ بها طلق قويٌ قالت: لقد كانت هذه طلقة جيدة. وكانت كلما خَمَدَ الطلق اغتمَّت وخجلت.

وقالت كاثرين:

ـ «أخرج، حبيبي. فوجودك يجعلني شديدة الخجل.» وتقلَّص وجهها. «ها! لقد كانت هذه أفضل. ما أشدَّ رغبتي في أن أكون زوجة صالحة وفي أن أنجب هذا المولود من غير ما حماقة. أرجو أن تذهب. وتتناول الفطور، وبعد ذلك عُدْ إليَّ أنا لن أفتقدك. إن الممرضة تُعنى بي عناية فائقة.»

قالت الممرضة:

ـ «في ميسورك أن تتناول طعام الصباح في تؤدة. إن لديك متسعاً من الوقت.»

فقلت:

ـ «سوف أذهب إذن. إلى اللقاء، يا حبيبتي!»

فقالت كاثرين:

ـ «إلى اللقاء. وتناولْ عني فطوراً شهياً أيضاً.»

وسألت الممرضة:

ـ «أين أستطيع أن أتناول طعام الصباح؟»

فقالت:

ـ «هناك، عند أقصى الشارع، مقهى قائم في الساحة العامة. ولا ريب في أنه قد فتح أبوابه الآن.»

كان الضحى قد ارتفع. فهبطتُ الشارع المقفر، متجهاً نحو المقهى. كان ثمة ضياء ينبعث من النافذة. دخلت المقهى، ووقفتُ أمام المشرب المصنوع من الزنك، فقدَّم إليَّ رجل عجوز كأساً من الخمر البيضاء وقطعة من «البريبوش»(*). وكانت قطعة «البريبوش» قد خُبِزت أمسِ. وغمستُها في الخمر. ثم شربت فنجاناً من القهوة.

وسألني العجوز:

ـ «ما الذي تفعله في هذه الساعة؟»

ـ «إن زوجتي على وشك أن تلد في المستشفى.»

ـ «هكذا إذن. أتمنى لك حظاً سعيداً.»

ـ «أعطني كأساً أخرى من الخمر.»

وصبَّ الخمر من الزجاجة، مُميلاً إياها بعض الشيء حتى لقد جرى بعض الخمر على الزنك. واحتسيت هذه الكأس، ودفعتُ، وغادرت المقهى. في الخارج، وعلى طول الشارع، كانت صفائح القاذورات تنتظر عامل التنظيفات عند أبواب البيوت. وكان كلب يتشمّم واحدة من تلك الصفائح.

سألتُهُ:

(*) نوع من الحلوى مصنوع بالدقيق والسمن والبيض.

ـ «ماذا تريد؟»

ونظرتُ إلى الصفيحة لأرى ما إذا كان ثمة شيء أستطيع أن أخرجه له. لم يكن في أعلى الصفيحة غير رواسب القهوة، والرماد، وبعض الأزهار الذاوية.

وقلت:

ـ «لا يوجد شيء أيها الكلب.»

فاجتاز الكلب الشارع. وارتقيت أنا سلَّم المستشفى إلى الدور الذي كانت كاثرين فيه، واجتزتُ الرواق إلى حجرتها. وقرعتُ الباب. لم يكن ثمة جواب. وفتحتُ الباب. كانت الحجرة فارغة، إلا من حقيبة كاثرين مرفوعة على كرسي، ومبذلها(*) متدلياً من مسمار على الجدار. وخرجتُ واندفعت في الرواق باحثاً عن شخص ما. ووجدتُ ممرضة.

ـ «أين مدام هنري؟»

ـ «منذ لحظة أُدْخِلَتْ سيدة إلى حجرة التوليد.»

ـ «أين هي؟»

ـ «أقودك إليها.»

وقادتني إلى أقصى الرواق. كان باب الغرفة مفتوحاً على نحو جزئي. وكان في إمكاني أن أرى كاثرين مستلقية على مائدة، يعلوها غطاء أبيض. كانت الممرضة واقفة عند جانب من جانبي المائدة، وكان الطبيب واقفاً عند الجانب الآخر على مقربة من بعض الأدوات الإسطوانية، وقد حمل في يده قناعاً مطاطياً متصلاً بأحد الأنابيب.

وقالت الممرضة: «سوف أعطيك رداء، وعندئذ يصبح في إمكانك أن تدخل. تعال إلى هنا، أرجوك.»

(*) المبذل: الروب دو شامبر.

وألبستني رداء أبيض، أحكمت شدَّه عند مؤخر عنقي بدبوس واقٍ.

وقالت: «في استطاعتك الآن أن تدخل.»

دخلت إلى الغرفة.

وقالت كاثرين في صوت مُجْهَد:

ـ «هالو، أيها الحبيب! أنا لا أحقِّق تقدماً كبيراً.»

وسألني الطبيب: «أأنت مستر هنري؟»

ـ «نعم. كيف حالها، أيها الطبيب؟»

فقال الطبيب: «كل شيء يجري على أحسن ما يرام. لقد انتقلنا إلى هنا ليسهل علينا إعطاؤها البنج في لحظات الطلق.»

قالت كاثرين: «أنا أريد ذلك الآن.»

فوضع الطبيب القناع المطاطي على وجهه. وأدار قرصاً راح يراقب كاثرين وهي تتنفس تنفساً عميقاً وسريعاً. ثم إنه نزع القناع عن وجهها، وأغلق الحنفية.

ـ «لم تكن هذه الطلقة قوية جداً. لقد عانَيْتُ قبل قليل من طلقة قوية جداً. ولقد عملَ الطبيب على التخفيف من شدَّتها، أليس كذلك يا دكتور؟»

كان صوتها غريباً. ولقد ارتفع عند لفظة «دكتور.»

ابتسم الطبيب.

وقالت كاثرين: «أعطني مقداراً إضافياً من البنج.»

وضغطتِ القناع المطاطي على وجهها وأنشأت تلهث. لقد سمعتُها تئن بعض الشيء. ثم إنها أزاحت القناع جانباً وابتسمت.

وقالت: لقد كانت هذه الطلقة قوية. لقد كانت قوية جداً. لا تقلق، يا حبيبي! اذهب. اذهب وتناول فطوراً جديداً.»

فقلت: «سوف أبقى.»

* * *

كنا قد ذهبنا إلى المستشفى حوالي الساعة الثالثة صباحاً. وعند الظهيرة كانت كاثرين لا تزال في غرفة التوليد. كان الطلق قد وَهَن من جديد، وكانت تبدو، الآن، منهوكة القوى، ولكنها كانت لا تزال مبتهجة الفؤاد.

وقالت:

ـ «لقد أعجزني ذلك، أيها الحبيب. أنا آسفة جداً. لقد حسبتُ أني سأنجزه في سهولة بالغة. والآن، ها قد بدأ الطلق من جديد...»

وبسطت يدها إلتماساً للقناع، ووضعته على وجهها. وأدار الطبيب القرص وراقبها. وما هي إلا لحظة حتى انحسر الطلق.

قالت كاثرين:

ـ «إنها لم تكن قوية.»

وابتسَمتْ ثم أضافت:

ـ «أنا متيَّمة بالبنج. إنه رائع.»

فقلت:

ـ «سوف نزوِّد بيتنا بشيء منه.»

فسارعت كاثرين إلى القول:

ـ «لقد عاد الطلق...»

فأدار الطبيب القرص، ونظر إلى ساعته.

وسألتُهُ:

ـ «ما هي الفترة الفاصلة الآن؟»

ـ «حوالي دقيقة.»

ـ «ألا تريد أن تتناول طعام الغداء؟»

فقال:

ـ «سوف آكل شيئاً عمَّا قريب.»

وقالت كاثرين:

ـ «ينبغي أن تأكل شيئاً، يا دكتور. أنا آسفة لاستمرار ذلك حتى الآن. أليس في استطاعة زوجي أن يعطيني البنج؟»

فقال الطبيب:

ـ «إذا شئتِ. ليس عليك إلا أن تدير القرص إلى رقم اثنين.»

فقلت:

ـ «فهمت.»

لقد كان على القرض إبرة تدار بمقبض.

وقالت كاثرين:

ـ «أريد البنج الآن.»

وأحكمتْ وضع القناع على وجهها. وأدرتُ القرص إلى رقم اثنين، وحين أزاحت كاثرين القناع أوقفتُ مجرى البنج بأن أعدت القرص إلى وضعه السابق. لقد كان الطبيب لطيفاً جداً حين أجاز لي أن أقوم بعمل ما.»

وسألتني كاثرين:

ـ «أأنت الذي قمتَ بذلك، يا حبيبي؟»

قالت ذلك وأمرَّت يدها على معصمي ملاطِفةً.

فأجبتها:

ـ «نعم أنا.»

ـ «ما أشد لطفك.»

كانت ثملةً بعض الشيء بسببٍ من البنج.

فقال الطبيب:

ـ «سوف أتناول طعامي من على صينية في الغرفة المجاورة. في استطاعتك أن تستدعيني في كل لحظة.»

وفيما كان الوقت ينقضي، راقبتُه وهو يأكل، ثم رأيت بعد فترة قصيرة أنه قد استلقى على ظهره وراح يدخّن سيجارة. كانت كاثرين قد أمست في حال من التعب شديدة.

وتساءلَتْ:

ـ «هل تعتقد أني سأكحل عينيَّ برؤية هذا الطفل في يوم من الأيام؟»

ـ «أجل، بكل تأكيد.»

ـ «أنا أبذل غاية جهدي. أنا أحاول أن أنزله، ولكن محاولاتي كلها تذهب أدراج الرياح. ها قد أقبل الطلق. أعطني البنج.»

وعند الساعة الثانية غادرت المستشفى وتناولت طعام الغداء. كان في المقهى عدد قليل من الناس وأمامهم فناجين القهوة وكؤوس ماء الكرز أو كؤوس الـ «ماك». وجلست إلى إحدى الموائد، وسألت النادل:

ـ «هل أستطيع أن أتناول طعاماً ما؟»

ـ «لقد فات أوان الغداء.»

ـ «ألا تقدِّمون أيما شيء في غير المواعيد المحدَّدة؟»

ـ «في استطاعتك أن تتناول «الشوكروت.»

ـ «أعطني شيئاً من الشوكروت والجعة.»

ـ «وكيف تريد الجعة؟»

ـ «هاتها جعةً خفيفة، غير قوية.»

وجاءني النادل بطبق من الكرنب المخمَّر وقد عَلَتْه شريحة من لحم الخنزير ودفنت في جوفه قطعة من النقانق. التهمت الطبق، وشربتُ الجعة. فقد كنت جائعاً جداً. وراقبت الناس الجالسين إلى موائد المقهى. كانت أوراق اللعب منثورة على إحدى الموائد. وعند

المائدة المحاذية لي كان رجلان يتحدثان ويدخنان. كان المقهى غاصاً بالدخان. وكان خلف المشرب التوتيائي، الذي وفدتُ عليه من قبل لتناول طعام الصباح، ثلاثة رجال الآن: الرجل العجوز، وامرأة بدينة ذات ثوب أسود جالسة إلى منضدة تراقب كل ما يقدَّم إلى الزبائن، وغلام يرتدي مئزراً. تساءلت في ما بيني وبين نفسي كم ولداً كان لهذه المرأة وكيف وُفِّقتْ إلى ذلك.

وحين أتيت على طبق الشوكروت عدتُ إلى المستشفى. كان الشارع نظيفاً جداً الآن. ولم يكن ثمة صفائح قاذورات على أبواب البيوت. كان النهار غائماً، ولكن الشمس كانت تحاول أن تبرز من وراء السحب. ركبت المصعد، ثم غادرته واجتزت الرواق إلى غرفة كاثرين حيث كنت قد تركت ردائي الأبيض. ارتديت هذا الرداء وأحكمت شدَّه عند مؤخر العنق. ونظرت في المرآة، فرأيت نفسي أشبه شيء بطبيب دجال ذي لحية. ثم إني اتخذت سبيلي في الرواق، إلى حجرة التوليد. كان الباب موصداً، فقرعْتُهُ. ولم يُجبني أحد، فأدرت مقبض الباب ودخلت. كان الطبيب جالساً على مقربة من كاثرين. وكانت الممرضة تعمل شيئاً ما في الطرف الآخر من الغرفة.

قال الطبيب: «هوذا زوجك.»

فقالت كاثرين في صوت غريب جداً:

ـ «أوه، يا حبيبي، إن طبيبي هذا رائع إلى أبعد الحدود. لقد قصَّ عليَّ حكاية ليس أبدع منها ولا أجمل، وحين تشتد عليَّ وطأة الألم يسارع إلى إنقاذي منه في الحال. إنه رائع. أنت رائع أيها الطبيب.»

فقلت:

ـ «أنت نشوى.»

فقالت كاثرين:

ـ «أدري. ولكن لا ينبغي لك أن تقول ذلك.»

وصمتت لحظة ثم أضافت:

ـ «أعطني إياه. أعطني إياه!»

وتشبَّثتْ بالقناع، وأنشأت تتنفَّس أنفاساً قصيرة وعميقة، وهي تلهث مما جعل أداة التنفُّس تطلق أصواتاً دقيقة، ثم إنها أرسلت تنهيدة طويلة، فبسط الطبيب يده اليسرى ورفع القناع عن وجهها.

وقالت كاثرين:

ـ «لقد كانت هذه طلقة قوية جداً.» كان صوتها غريباً جداً. «أنا لن أموت الآن، يا حبيبي. لقد اجتزت المرحلة التي يموت فيها الإنسان. لقد كنت على وشك أن أموت. ألستَ سعيداً؟»

ـ «حذار أن ترجعي إلى تلك المرحلة مرة أخرى.»

ـ «لن أرجع. ومع ذلك فأنا لست خائفة منها. إني لن أموت، يا حبيبي.»

فقال الطبيب: «إنك لن ترتكبي مثل هذه الحماقة. لن تموتي وتتركي زوجك وحيداً.»

ـ «أوه، لا. أنا لن أموت. أنا لا أريد أن أموت. من السخف أن يموت الإنسان. ها قد أقبل الطلق. أعطني إياه.»

وبعد برهة قصيرة قال الطبيب:

ـ «أرجوك أن تخرج بضع لحظات، يا مستر هنري، ريثما أجري لها فحصاً.»

فقالت كاثرين:

ـ «إنه يريد معرفة مدى التقدم الذي أحرزته. في استطاعتك أن ترجع بعد ذلك. أليس في استطاعته أن يفعل، أيها الطبيب؟»

فقال الدكتور:

ـ «بلى. سوف أعلمُه حالما يصبح في ميسوره أن يعود.»

وغادرت الحجرة، واجتزت الرواق إلى الغرفة التي كان من المتوقع أن تُنقل كاثرين إليها بعد أن تضع جنينها. وارتميت على كرسي هناك وأجْلتُ بصري في الغرفة. وكنت أحمل في جيبي الصحيفة التي اشتريتها عندما خرجت لتناول طعام الغداء، فرحتُ أقرأها. كان الليل قد شرع يهبط، فأضأت النور أستعينُ به على القراءة. وبعد برهة يسيرة، كففتُ عن القراءة، وأطفأت النور، وراقبت الظلام وهو يشتدّ في الخارج، وتساءلت لماذا لم يستدعني الطبيب. لعله كان من الأفضل أن أظل بعيداً. لعله أراد أن أظل بعيداً، فترة قصيرة من الزمان. ونظرتُ إلى ساعتي. وقلت في نفسي: إذا لم يستدعني خلال عشر دقائق ذهبت على أية حال.

مسكينةٌ، مسكينةٌ أنت يا كاث الحبيبة! لقد كان هذه هو الثمن الذي دفعتِهِ لليالينا السالفة. لقد كانت هذه هي نهاية الشَرَك. كان هذا هو ما يكسبه الناس من الغرام. شكراً للّه على البنج، على أية حال. تخيَّل ما الذي كان يحدث قبل اكتشاف المخدِّر! فما إن بدأت آلام الوضع حتى برز المخدِّر إلى الميدان. لقد عرفت كاثرين أياماً ماتعة في فترة الحمل. إن تلك الفترة لم تكن رديئة. وكاثرين لم تكد تعاني فيها أية وعكة صحية. وهي لم تقاسِ شيئاً من الانزعاج المروِّع إلا في نهاية المطاف. وهكذا أدركتها الآلام آخر الأمر. إن المرء أعجز من أن يتخلص من أي شيء. يتخلص؟! يا للجحيم! فالأمر ما كان ليختلف مثقال ذرة ولو تزوجنا خمسين مرة. وماذا لو ماتت! إنها لن تموت. إن النساء لا يمتن بسبب من الولادة في هذه الأيام. ذلك ما يعتقد به جميع الأزواج. أجل، ولكن ماذا لو ماتت؟ إنها لن تموت. كل ما في الأمر أنها تجتاز مرحلة صعبة. إن الولادة الأولى تكون عسيرة عادة. وبعد ذلك سنذكّر كاثرين بالمرحلة الصعبة التي اجتازتها، ولسوف تقول هي إن تلك المرخلة لم تكن بالغة الصعوبة. ولكن ماذا لو ماتت؟ إنها لا تستطيع، أقول لك. لا تكن أحمق. كل ما في الأمر أنها تجتاز

مرحلة صعبة. كل ما في الأمر أن الطبيعة تزعجها إزعاجاً بالغاً. إن الولادة الأولى تكون عسيرة في جميع الحالات تقريباً. أجل، ولكن ماذا لو ماتت؟ إنها لا تستطيع أن تموت. ولكن ما الذي يجعلها تموت؟ كل ما هنالك طفل ينبغي أن يولد، طفلٌ هو حصيلةٌ ثانيةٌ للياليا الملاح في ميلانو. إنه يزعج أمه الآن، ثم يرى النور، وبعد ذلك نُعنى به، وننتهي بأن نحبه حباً جماً. ولكن ماذا لو ماتت؟ إنها لن تموت. ولكن ماذا لو ماتت؟ إنها لا تستطيع أن تموت. ولكن ماذا لو ماتت؟ هاي، ما رأيك في هذا، ماذا لو ماتت؟»

ووفد الطبيب على الغرفة.

ـ «كيف حالها الآن يا دكتور؟»

فقال: «على غير ما يرام.»

ـ «ماذا تعني؟»

ـ «أنا أعني ما قلته تماماً. لقد أجريت لها فحصاً.»

وقدَّم إليَّ نيتجة الفحص في تفصيل، ثم أضاف:

ـ «لقد تريَّثتُ لكي أرى، ولكن الأمور لا تجري كما ينبغي.»

ـ «وبماذا تنصح؟»

ـ «هناك حلان: إما أن نلجأ إلى توليدها بالكُلابة وهي وسيلة قد تمزِّق اللحم وتُعرِّض الأم للخطر. بالإضافة إلى أنها قد تؤذي الجنين. وإما أن نلجأ إلى العملية القيصرية.»

ـ «وما هي مخاطر العملية القيصرية؟ وماذا لو ماتت؟»

ـ «إن مخاطرها لا يمكن أن تكون أعظم من مخاطر أي ولادة طبيعية.»

ـ «وهل ستجري العملية بنفسك؟»

ـ «أجل. ولربما احتجت إلى ساعة واحدة من أجل إعداد كل

شيء ولدعوة المساعدين الذين أحتاج إليهم. وقد يستغرق ذلك فترة أقصر.»

ـ «ما رأيك؟»

ـ «أنا أفضّل إجراء العملية القيصرية. ولو كانت زوجتي لأجريت لها تلك العملية.»

ـ «وما هي عواقبها؟»

ـ «أليس ثمة خطر من حدوث تلوُّثٍ ما؟»

ـ «إن خطر التلوُّث في هذه الحال أقلُّ من خطره في حال اللجوء إلى سحب الجنين بالكلابة.»

ـ «وما قولك إذا تريَّثت من غير أن تعمل شيئاً؟»

ـ «يتعيَّن علينا أن نفعل شيئاً ما، في آخر الأمر. إن مسز هنري قد فقدت حتى الآن كثيراً من قواها. وكلما أسرعنا في إجراء العملية الجراحية كان ذلك أسلم.»

فقلت:

ـ «أجرِ العملية بأسرع ما تستطيع.»

ـ «سوف أذهب وأعطي التعليمات الضرورية.»

ودخلتُ حجرة التوليد. كانت الممرضة مع كاثرين المستلقية، وقد بدت ضخمة تحت الغطاء الأبيض وإمارات الشحوب والإرهاق الشديدين ظاهرة على وجهها.

وسألتني كاثرين:

ـ «هل قلت له إن في استطاعته إجراءها؟»

ـ «نعم.»

ـ «أليس هذا عظيماً؟ إن المسألة كلها سوف تنتهي الآن خلال ساعة واحدة. قد أشرفت على الهلاك، يا حبيبي. إن جسمي يتهدَّم

شيئاً فشيئاً. أرجو أن تعطيني ذلك البنج. إنه لم يَعُد يعمل. أوه، إنه لم يعد يعمل.»

ـ «خذي نفساً عميقاً.»

ـ «ذلك ما أفعله. أوه، إنه لم يعد يعمل. إنه لا يعمل.»

فقلت للمرضة: «هات اسطوانة أخرى.»

ـ «هي ذي إسطوانة جديدة.»

وقالت كاثرين:

ـ «أنا مجنونة حقاً، يا حبيبي. ولكنه لم يعد يعمل.» وشرعت تبكي. «أوه، لقد أردت أن أضع هذا الطفل من غير أن أزعج أحداً، وها أني قد هلكت الآن، وتهدمتُ، وهذا البنج لم يعد يعمل. أوه يا حبيبي، إنه لم يعد يعمل على الإطلاق. أنا لا أبالي بالموت شرط أن ينقضي هذا الألم. أوه، أرجوك يا حبيبي، أرجوك أن توقفه.. ها قد أقبل الطلق، أوه! أوه! أوه! وتنفَّست وهي تنتحب تحت القناع. إنه لا يعمل. إنه لا يعمل. لا تؤاخذني، أيها الحبيب. أرجوك أن لا تبكي. لا تؤاخذني. لقد خارت قواي، هذا كل ما هنالك. مسكين أنت أيها الحبيب. إني أحبك حباً عظيماً، ولسوف أستعيد نشاطي من جديد. إني سوف أوفَّق هذه المرة. ألا يستطيعون أن يعطوني شيئاً؟ آه، ليتهم فقط يستطيعون أن يعطوني شيئاً!»

ـ «سوف أجعله يعمل. سوف أفتحه إلى النهاية.»

وأدرت القرص إلى النهاية. وفيما هي تتنفس تنفساً عميقاً استرخت يدها على القناع. وأغلقتُ الحنفية، ورفعتُ القناع عن وجهها. لقد بدت وكأنها عادت من مكان بعيد.

ـ «هذا رائع يا حبيبي، أوه، أنت رفيقٌ بي إلى حد بعيد.»

ـ «كوني شجاعة لأني لا أستطيع أن أفعل ذلك طوال الوقت. قد يقضي عليك.»

ـ «أنا لم أعد شجاعة، يا حبيبي. لقد تهدَّمت. لقد هدَّموني. أنا أعرف ذلك الآن.»

ـ «ذلك ما يحدث لكل امرأة حين تضع ولدها.»

ـ «ولكنه شيء مروِّع. إنهم يتركونك تناضل حتى تتحطَّم.»

ـ «سوف ينتهي ذلك كله في مدى ساعة ليس غير.»

ـ «أليس هذا جميلاً؟ يا حبيبي، أنا لن أموت أليس كذلك؟»

ـ «لا. أنا أؤكد لك أنك لن تموتي.»

ـ «لأني لا أريد أن أموت وأفارقك. ولكني سئمت هذه الحال إلى أبعد الحدود، وأنا أستشعر أني سوف أموت.»

ـ «هراء. كل امرئ يستشعر ذلك.»

ـ «أنا أدرك في بعض الأحيان أني سأموت.»

ـ «لا. لن تموتي. أنت لا تستطيعين أن تموتي.»

ـ «ولكن ماذا لو قُدِّر لي أن أموت؟»

ـ «لن أدعك تموتين.»

ـ «أعطني إياه في سرعة. أعطني إياه!»

ثم أضافت بعد ذلك: «لن أموت. أنا لن أدع نفسي أموت.»

ـ «طبعاً لن تدعي نفسك تموتين.»

ـ «هل ستبقى معي؟»

ـ «ليس لكي أراقب ذلك.»

ـ «لا. ولكن لكي تكون هناك إلى جانبي ليس غير.»

ـ «طبعاً. سوف أكون إلى جانبك أبد الدهر.»

ـ «أنت رفيق بي إلى حدّ بعيد. أرجوك، أعطني إياه، أعطني مقداراً إضافياً. إنه لا يعمل!»

وأدرت القرص إلى رقم ثلاثة ثم إلى رقم أربعة. وتمنّيت لو يعود الطبيب. فقد كنت خائفاً من الأرقام التي تتجاوز رقم اثنين.

* * *

وأخيراً أقبل طبيب جديد ترافقه ممرضتان، فرفعوا كاثرين ووضعوها على نقالة ذات عجلات، ورحنا نجتاز الرواق. وكرَّت النقالة في الرواق كراً سريعاً. ثم أدخِلت إلى المصعد حيث كان على الجميع أن يلزم الجدار لكي يفسح لها مجالاً. ثم إن المصعد ارتفع، وفُتح الباب، وأخرِجت النقالة من المصعد واندفعت على عجلاتها المطاطية في الرواق، حتى انتهت إلى حجرة العمليات. ولم أتبيّن الطبيب وقد اعتمر قلنوسة وتقنَّع بقناع. وكان ثمة طبيب آخر وممرضات أخريات.

وقالت كاثرين:

ـ «يجب أن يعطوني شيئاً. يجب أن يعطوني شيئاً. أوه، أرجوك، يا دكتور، أعطني مقداراً كافياً للتخفيف عني بعض الشيء!»

ووضع أحد الأطباء قناعاً على وجهها، ونظرتُ من خلال الباب، فرأيت مدرّج غرفة العمليات الصغير الساطع.

وقالت إحدى الممرضات لي:

ـ «في استطاعتك أن تذهب وتجلس على مقربة من الباب الآخر.»

كان ثمة درابزون خلفه مقاعد خشبية تشرف على المائدة والأضواء. ونظرت إلى كاثرين. كان القناع على وجهها، وكانت الآن هادئة مطمئنة. ودفعوا النقالة إلى أمام. واستدرتُ وفزعتُ إلى الرواق. كانت ممرضتان قد هرعتا إلى مدخل الشرفة.

قالت إحداهما:

ـ «إنها عملية قيصرية. إنهم يجرون عملية قيصرية.»

فضحكت الأخرى وقالت:

ـ «لقد وصلنا في الوقت المناسب. ألسنا محظوظتين؟»

واجتازتا الباب الذي يؤدي إلى الشرفة.

وأقبلت ممرضة أخرى كانت تنطلق في سرعة أيضاً.

وقالت:

ـ «أدخل من هناك. أدخل.»

ـ «لا. سوف أبقى في الخارج.»

وانطلقَتْ مسرعة. ورحتُ أنا أذرع الرواق جيئة وذهاباً. نظرتُ من النافذة. كان الليل قد هبط، ولكني استطعت أن أرى ـ بفضل النور المنبعث من النافذة ـ إن المطر كان يهطل. ودخلت إحدى الغرف القائمة في أقصى الرواق. ونظرت إلى الرقع الملصقة على الزجاجات في أحد الصناديق الزجاجية. ثم إني خرجت ووقفت في الرواق الفارغ وراقبت باب حجرة العمليات.

غادر الحجرة طبيب تتبعه ممرضة. كان يرفع بيديه الاثنتين شيئاً بدا وكأنه أرنب سُلخ جلده منذ قريب، وأسرع يجتاز به الرواق ليدخل بعد ذلك غرفة أخرى. ومضيتُ إلى الباب الذي اجتازه الطبيب، فوجدتهم في الغرفة يفعلون شيئاً ما لطفل أبصر النور منذ لحظات. ورفعه الطبيب لي حتى أراه. لقد رفعه من عَقِبَيْه وصفعه.

ـ «هل هو بخير؟»

ـ «إنه رائع. إنه سيزن خمسة كيلوغرامات.»

ولم أستشعر أيما عاطفة نحوه. لقد بدا وكأنه لا صلة له بي على الإطلاق. ولم أحس بمشاعر الأبوة قط.

وسألتني الممرضة:

ـ «ألست فخوراً بولدك؟»

كانوا يغسّلونه ويلفُّونه في شيء ما. ونظرتُ إلى الوجه الصغير القاتم واليد القاتمة ولكنني لم أره يتحرك، ولم أسمعه يبكي. وكرَّر الطبيب ما كان قد فعله له من قبل. لقد بدا الطبيب قلقاً مضطرباً.

وقلت:

ـ «لا. لقد كان يقضي على أمه.»

ـ «إنها ليست غلطته. ألم تكن تريد غلاماً؟»

فقلت:

ـ «لا.»

كان الطبيب مشغولاً به. لقد رفعه من عقبيه وصفعه كرة أخرى. ولم أنتظر لأرى ذلك. فقد خرجتُ مندفعاً نحو الرواق. كان في استطاعتي الآن أن أدخل وأرى. وأجتزتُ الباب وجزءاً من الشرفة. وأومأت إليَّ الممرضات الجالسات عند الدرابزون بأن أنزل إلى حيث كن يجلسن. وهززت برأسي. لقد كان في ميسوري أن أرى كل شيء في وضوح من موضعي ذاك.

وخيِّل إليَّ أن كاثرين قد ماتت. لقد بدت ميتة. كان وجهها أو الجانب الذي استطعت أن أراه منه، رمادياً. وهناك، تحت المصباح، كان الطبيب يخيط الجرح الضخم، الطويل، الغليظ الحافتين، الذي كانت الكلابة قد زادته إتساعاً. وكان طبيب آخر متقنع بقناع يقدِّم البنج إلى كاثرين. وكانت ممرضتان مقنّعتان أيضاً تناولان الطبيب ما قد يحتاج إليه من أدوات. ولقد بدا ذلك أشبه بصورة من صور ديوان التفتيش. ولقد أدركتُ وأنا أراقب، إن في استطاعتي أن أصبر على متابعة المشهد كله، ولكني كنت سعيداً لأني لم أفعل. ولست أظن أنه كان في ميسوري أن أراقبهم وهم يُعملون المشراط في جسمها، ولكني راقبت تلك الربوة العالية التي تكوَّنت حول الجرح، والتي راح الطبيب يوصدها، في براعة، بمثل قطبات الإسكاف العريضة، وكنت سعيداً

بذلك. وحين تم ايصاد الجرح خرجتُ إلى الرواق وشرعت أذرعه من جديد. وبعد برهة يسيرة خرج الطبيب أيضاً.

- «كيف حالها؟»

- «إنها في خير. هل راقبتَ العملية؟»

لقد بدا مُرهقاً.

- «لقد رأيتك وأنت تخيط الجرح. لقد بدا ذلك الجرح طويلاً جداً.»

- «أتظن ذلك؟»

- «نعم. وهل تعتقد أن تلك الندبة سوف تتسطّح؟»

- «أوه، طبعاً.»

وبعد لحظات أخرجوا النقالة ذات العجلات. واجتازوا بها الرواق مسرعين إلى المصعد. ومشيتُ أنا في محاذاتها. كانت كاثرين تئنُّ. حتى إذا انتهوا بها إلى غرفتها في الدور السفلي، مدّدوها على السرير. وجلستُ على كرسي عند مقدَّم السرير. كان في الغرفة ممرضة. ونهضتُ ووقفت على مقربة من السرير.

كان الظلام قد ران على الغرفة. وبسطت كاثرين يدها وقالت:

- «هالو، يا حبيبي!»

كان صوتها ضعيفاً جداً، متعباً جداً.»

- «هالو، أيتها الحبيبة!»

- «من أي نوع كان ذلك الوليد؟»

فقالت الممرضة:

- «هش! لا تتكلمي.»

- «صبي. إنه طويل، عريض، أسمر.»

- «أهو بخير؟»

فقلت:

ـ «نعم. إنه في حالة ممتازة.»

ورأيت الممرضة تنظر إليَّ وعلى وجهها انطباعة غريبة.

وقالت كاثرين:

ـ «أنا متعبة إلى حد مخيف. إن الآلام تمزقني تمزيقاً. هل أنت بخير؟»

ـ «بخير كثير. لا تتكلمي.»

ـ «لقد كنت رفيقاً بي. آه يا حبيبي، إني أتوجع توجُّعاً رهيباً. كيف شكله؟»

ـ «إنه يبدو أشبه شيء بأرنب مسلوخ الجلد ذي وجه متغضن كوجوه العجائز.»

فقالت الممرضة:

ـ «يجب أن تغادر الغرفة. فليس ينبغي لمدام هنري أن تتكلم.»

فقلت:

ـ «سوف أخرج.»

ـ «أخرجْ وتناول شيئاً من الطعام.»

ـ «لا. سوف أقف بالباب.»

وقبَّلتُ كاثرين. كانت شديدة الشحوب، ضعيفة، مرهقة.

وقلت للمرضة:

ـ «هل أستطيع أن أقول لك كلمة؟»

فخرجت معي إلى الرواق. ومشيتُ بضع خطوات.

وسألتها:

ـ «ما علة الطفل؟»

ـ «ألم تعرف؟»

ـ «لا.»

- «لم يكن الطفل حياً.»

- «لقد وُلد ميتاً؟»

- «لقد عجزوا عن حمله على التنفس. كان الحبل السري يطوِّق عنقه أو شيء من هذا القبيل.»

- «إذن فهو ميت.»

- «نعم، وأسفاه! لقد كان غلاماً ضخماً رائعاً. ظننتُ أنك عرفْت.»

فقلت:

- «لا، لم أعرف. من الأفضل أن ترجعي وتبقي إلى جانب السيدة.»

وجلست على كرسي تجاه طاولة تدلت من جانبها تقارير الممرضات المعلقة بمشابك، ونظرت من النافذة. لم يكن في ميسوري أن أرى غير الظلام والمطر المنهمر عبر الضوء المنبعث من النافذة. هكذا إذن! لقد مات الطفل. هذا هو السبب الذي من أجله بدا الطبيب مرهقاً إلى ذلك الحد. ولكن لماذا تصرَّفوا معه على النحو الذي فعلوه في الغرفة؟ لقد ظنوا أنه قد يسترد وعيه ويشرع في التنفُّس في أغلب الظن. ولم أكن متديناً، ولكني كنت أعلم أنه كان علينا أن نعمِّده. ولكن ماذا لو لم يتنفَّس قط؟ إنه لم يتنفَّس. إنه لم يعشْ قط إلا في أحشاء كاثرين. لقد أحسست به يرفس بقدميه هناك في أحيان كثيرة. ولكني لم أحس بذلك منذ أسبوع. لعله كان مختنقاً طوال هذه الفترة. يا للطفل الصغير البائس! شد ما تمنيت لو أني اختنقت على هذه الشاكلة! لا. أنا لم أتمنَّ هذا. ومع ذلك فلا داعي لأن نتعجَّل الموت. إن كاثرين تشرف على الموت الآن. تلك هي القصة دائماً. إننا نموت. إننا لا نتعلم شيئاً. إننا لا نجد متسعاً من الوقت لكي نتعلم. إن الأيام تدفعنا إلى الملعب، وتلقِّننا قواعد اللعبة، حتى إذا

ارتكبنا الغلطة الأولى اغتالتنا، اغتالتنا من غير سبب مثل أيمو. أو أعطتنا السفلس مثل رينالدي. ولكنها لا بد أن تغتالنا آخر الأمر. في استطاعتك أن تتأكد من ذلك. انتظر قليلاً تجد أن دورك قد حان.

ذات يوم، وكنت في المعسكر، أذكيتُ النار بقطعة ضخمة من الحطب يغطيها النمل من أطرافها جميعاً. وما إن شرعت في الاشتعال حتى اندفعت النملات، أولاً، نحو المركز حيث كانت النار، ثم ارتدَّت على أعقابها وهرعت نحو الطرف الآخر. حتى إذا أصبح هذا الطرف مغطًى كله بالنمل تساقطت النملات في النار. لقد خرج بعضها من النار، وقد احترقت أجسادها وتسطَّحت، ونجت بأنفسها غير دارية إلى أين كانت تذهب. ولكن الكثرة العظمى منها اندفعت نحو النار، ثم انكفأت نحو الطرف البارد حيث احتشدت لتسقط آخر الأمر في النار. وأذكر أني فكرت آنذاك أن نهاية العالم قد دنت، وأنه قد أتيحت لي فرصة رائعة لكي أكون مسيحياً مخلصاً فأرفع قطعة الحطب من النار وألقي بها إلى حيث تستطيع النملات أن يغادرنها إلى الأرض. ولكني لم أفعل شيئاً غير قَذْف الحطبة بملء كوب صفيحيٍّ من الماء، لكي أفرغ ذلك الكوب فأصبَّ فيه الويسكي قبل أن أضيف الماء إليها. وأحسب أن قذف الحطبة المشتعلة بكوب الماء هذا لم يزد النملات إلا احتراقاً.

هكذا كنت الآن جالساً في الرواق، أنتظر أن أسمع كيف كانت حال كاثرين. ولم تخرج الممرضة، فما كان مني إلا أن اتجهت نحو الباب، ففتحته في كثير من الرفق، وألقيت نظرة على الغرفة. ولم أستطع أن أرى بادئ الأمر، لأن الرواق كان مضاء بنور ساطع، ولأن الغرفة كانت مظلمة. ثم إني رأيت الممرضة جالسة على مقربة من السرير، ورأس كاثرين على الوسادة، وقد استوى بطنها استواء كاملاً تحت الغطاء الأبيض. ووضعت الممرضة إصبعها على شفتيها، ثم نهضت ومضت إلى الباب.

وسألتها:

ـ «كيف حالها؟»

فقالت الممرضة:

ـ «إنها بخير. يتعيَّن عليك أن تذهب وتتناول طعام العشاء، في استطاعتك أن ترجع بعد ذلك إذا شئت.»

ورحت أخطو في الرواق، ثم هبطتُ السلم، وغادرت المستشفى إلى الشارع المظلم، وتقدَّمتُ، تحت المطر، نحو المقهى. كانت الأنوار ساطعة في المقهى، وكان كثير من الناس جالسين إلى الموائد. ولم أجد مكاناً شاغراً، فأقبل أحد النُدل نحوي، وتناول سترتي وقبعتي المبللتين ودلني على مكان عند مائدة مواجهة لرجل عجوز كان يحتسي الجعة ويطالع صحيفة المساء. وجلست وسألت النادل:

ـ «ما هو صحن اليوم؟»

ـ «يخنة بلحم العجل، ولكن لم يبق منها شيء.»

ـ «ما الذي أستطيع أن أتناوله؟»

ـ «لحم خنزير بالبيض، أو بيض مع الجبن، أو شوكروت.»

فقلت:

ـ «لقد أكلت صحناً من الشوكروت ظهيرة هذا اليوم.»

فقال:

ـ «هذا صحيح. هذا صحيح. لقد أكلتَ صحناً من الشوكروت ظهيرة هذا اليوم.»

كان رجلاً في خريف العمر، محبّب الوجه تناثرت على صلعته الملساء شعرات متفرقة.

ـ «ماذا تريد؟ لحم خنزير بالبيض أم بيضاً مع الجبن؟»

ـ «لحم خنزير بالبيض، وشيئاً من الجعة.»

ـ «جعة خفيفة غير قوية؟»

فقلت :

ـ «نعم.»

فقال :

ـ «لقد تذكرتُ. لقد احتسيت جعة خفيفة ظهيرة هذا اليوم.»

وأكلت لحم الخنزير بالبيض، وشربت الجعة. كان لحم الخنزير بالبيض في طبق مستدير ـ لحم الخنزير تحت، والبيض فوقه. وكان ساخناً جداً، فما إن وضعت أول لقمة في فمي حتى تعيَّن عليَّ أن آخذ جرعة من الجعة لكي أُبرِّد فمي. لقد كنت جائعاً. فسألت النادل أن يُقدِّم إليَّ طبقاً آخر. وأحتسيت عدة كؤوس من الجعة. ولم أكن أفكر في شيء على الاطلاق، ولكني طالعتُ صحيفة الرجل الجالس قبالتي. وكان الموضوع يدور على الثغرة التي أحدثت في الجبهة البريطانية. وحين أدرك أني كنت اقرأ قفا جريدته سارع إلى طيِّها.. وفكَّرت في أن أطلب إلى النادل أن يأتيني بجريدة، ولكنني كنت عاجزاً عن تركيز تفكيري. كان جو المقهى حاراً، وكان الهواء فيه فاسداً. وكان كثير من رواد المقهى يعرفون بعضهم بعضاً، وكان ورق اللعب دائراً على بضع موائد. وكان النُدل منهمكين في حمل الأشربة من المشرب إلى الموائد. ودخل رجلان، ولم يستطيعا أن يجدا مكاناً يجلسان به. لقد وقفا تجاه المائدة التي كنت أجلس إليها. فطلبتُ زجاجة جعة أخرى. ولم أكن مستعداً لمغادرة المقهى. ذلك أن أوان العودة إلى المستشفى لم يكن قد حان بعد. وحاولت أن لا أفكِّر، وأن التزم الهدوء الكامل. وقف الرجلان حولي، ولكن أحداً من الزبائن لم يغادر مقعده، وهكذا انصرفا. واحتسيت كأس جعة أخرى. كانت الصحون قد تراكمت الآن أمامي، على المائدة. وكان الرجل الجالس قبالتي قد نزع نظارتيه، ووضعهما في علبتهما، وطوى صحيفته ودسَّها في جيبه ورفع كأس شرابه وأنشأ يجيل طرفه في الغرفة. وفجأة استشعرت أن عليَّ أن أرجع. ناديت النادل، ودفعت الحساب، وارتديت سترتي، واعتمرت

بقبعتي واندفعت نحو الشارع، ورحت أمشي مصعداً نحو المستشفى، تحت وابل من المَطر.

وفي الدور العلوي التقيت الممرضة تجتاز الرواق.

وقالت:

ـ «لقد تلفنت لك منذ لحظة، على رقم فندقك.»

وغار شيء ما في صدري.

ـ «ما المسألة؟»

ـ «لقد أصيبت مسز هنري بنزف الدم.»

ـ «هل أستطيع أن أدخل؟»

ـ «لا. ليس الآن. إن الطبيب عندها.»

ـ «وهل النزف خطر؟»

ـ «إنه خطر جداً.»

ودخلت الممرضة الغرفة، وأوصدت الباب. وجلستُ أنا في الرواق. كان كل شيء قد اضمحلَّ في داخلي. ولم أفكِّر. كنت عاجزاً عن التفكير. لقد عرفتُ أنها ستموت، ولقد صليت لكي يمدَّ اللّه في عمرها. لا تدعها تموت. أوه، أيها الرب، أرجوك لا تدعها تموت. سوف أفعل كل شيء في سبيلك إذا لم تدعها تموت. أرجوك، أرجوك، أرجوك، أيها الرب العزيز، لا تدعها تموت. أيها الرب العزيز، لا تدعها تموت. أرجوك، أرجوك، لا تدعها تموت. أرجوك، يا إلهي، أن تحول بينها وبين الموت. أنا على استعداد لأن أفعل كل ما تأمرني به إذا حلت بينها وبين الموت. لقد أخذت الطفل، ولكن لا تدعها تموت. لم يكن في ذلك بأس، ولكن لا تدعها تموت. أرجوك، أرجوك، أيها الرب العزيز، لا تدعها تموت.

وفتحت الممرضة الباب، وأومأت إليَّ بإصبعها داعية إياي أن أدخل. وتبعتها إلى الغرفة. ولم ترفع كاثرين بصرها عندما دخلت.

ومضيت إلى جانب الفراش. كان الطبيب واقفاً قرب السرير من الناحية المقابلة. ونظرت كاثرين إليَّ وابتسمت. وانحنيت فوق السرير، وشرعتُ أنتحب.

قالت كاثرين في رقة بالغة:

ـ «أيها الحبيب المسكين!»

لقد بدت رمادية.

وقلت:

ـ «أنت بخير، يا كاث. إنك تستردين عافيتك.»

فقالت: «سأموت.»

وتمهَّلت لحظة ثم أضافت:

ـ «أنا أكره ذلك.»

وأمسكت بيدها.

فقالت: «لا تمسَّني.»

فأفلتُّ يدها. وابتسمتْ. وقالت:

ـ «يا حبيبي المسيكن. لا بأس، بإمكانك أن تمسَّني ما شئت.»

ـ «سوف تستردين عافيتك، يا كاث. أنا أعلم أنك سوف تستردين عافيتك.»

ـ «كنت أعتزم أن أكتب لكَ رسالة خشية أن يحدث شيء، ولكني لم أفعل.»

ـ «هل تودين أن أستدعي كاهناً أو أي شخص آخر لكي يراكِ؟»

فقالت: «لا أريد غيرك.»

ثم أردفت بعد صمت:

ـ «أنا لست خائفة. كل ما في الأمر أني أكره ذلك.»

فقال الطبيب: «يجب أن لا تُسرفي في الكلام على هذا النحو.»

فقالت كاثرين: «حسن.»

ـ «هل تريدين مني أن أفعل أيما شيء، يا كات؟ هل أستطيع أن آتيك بأي شيء؟»

فابتسمت كاثرين وقالت: «لا.»

ثم أضافت بعد لحظة:

ـ «إنك لن تقول لأية فتاة أخرى ما كنت تقوله لي، أو تفعل معها ما كنا نفعله معاً، أليس كذلك؟»

ـ «لا، على الإطلاق.»

ـ «ومع ذلك، فأنا أريد أن تعاشر فتيات أخريات.»

ـ «أنا لا أريد شيئاً من هذا.»

فقال الطبيب:

ـ «أنت تسرفين في الكلام. مستر هنري يجب أن يخرج. في استطاعته أن يرجع في ما بعد. إنك لن تموتي. ينبغي أن لا تكوني غبيَّة.»

قالت كاثرين:

ـ «حسن. سوف أعود عما قريب فأقضي إلى جانبك ليالي بكاملها.»

لقد كان عسيراً جداً عليها أن تتحدَّث.

قال الطبيب:

ـ «أرجوك أن تغادر الغرفة. إنك لا تستطيعين أن تتكلمي.»

وغمزتني كاثرين بعينها. كان وجهها رمادياً.

قلت: «سوف أغادر الغرفة.»

وقالت كاثرين: «لا تقلق يا حبيبي. أنا لست خائفة البتة. إنها دعابة قذرة ليس غير.»

ـ «يا حبيبتي العزيزة الشجاعة!»

انتظرت في الرواق، انتظرت دهراً طويلاً. ثم إن الممرضة فتحت الباب، وتقدَّمت نحوي.

وقالت: «أنا أخشى أن تكون مسز هنري في حالة سيئة جداً. إني خائفة عليها.»

ـ «هل ماتت؟»

ـ «لا. ولكنها فقدت الوعي.»

والذي يبدو أنها أصيبت بنزف دموي إثر نزف دموي. لقد عجزوا عن وضع حد لذلك. دخلتُ الغرفة ومكثت إلى جانب كاثرين حتى قضت نحبها. كانت فاقدة وعيها طوال الوقت. وما إن انقضت برهة يسيرة حتى أسلمتِ الروح.

خارج الغرفة في الرواق، تحدثتُ إلى الطبيب:

ـ «هل ثمة شيء عليّ أن أفعله هذه الليلة؟»

ـ «لا. ليس ثمة ما تفعله. هل أستطيع أن أوصلك إلى فندقك؟»

ـ «لا. شكراً. سوف أبقى هنا فترة قصيرة.»

ـ «أنا أدري أنه ليس ثمة ما يقال. أنا لا أستطيع أن أقول لك...»

فقلت: «لا. ليس ثمة ما يقال.»

وقال: «إلى اللقاء.» ثم استدرك: «ألا أستطيع أن أوصلك إلى فندقك؟»

ـ «لا. شكراً.»

قال:

ـ «لم يكن ثمة وسيلة غيرها. لقد برهنت العملية الجراحية...»

فقلت: «أنا لا أريد أن أتحدث عن ذلك.»

ـ «إني مستعدٌّ لإيصالك إلى فندقك.»

ـ «لا. شكراً.»

مضى لسبيله عجتازاً الرواق. ومضيت أنا نحو باب الغرفة.

قالت إحدى الممرضات:

ـ «أنت لا تستطيع أن تدخل الآن.»

ـ «ولكني أريد أن أدخل...»

ـ «ليس في استطاعتك أن تدخل الآن.»

ـ «أخرجي أنتِ من هنا. ولتخرج الممرضة الأخرى أيضاً.»

ولكني بعد أن أخرجتُهما وأغلقتُ الباب وأطفأت النور، عرفتُ أن لا فائدة من ذلك كله. كنت أشبه شيء برجل يودِّع تمثالاً. وبعد لحظة، خرجت وغادرت المستشفى. وانقلبتُ عائداً إلى الفندق، تحت المطر.

انتهى

كلمة الغلاف

ملحمة غرام جيل الضياع

* إنه لم يرد أن يقع في حبها، أو في حب أية امرأة أخرى، ومع ذلك فقد وقع في حبها، ولم يعد يبالي بالحرب، وبالعالم، ما دامت هي معه!

* لقد ودع ذلك العالم المحترق بنار الحرب الموقدة.. ليدخل عالماً آخر جديداً مضطرماً بنار الحب الرفيع، عالماً لا يستطيع تصويره أحد من كُتاب الدنيا كما صوره همنغواي صاحب «الشيخ والبحر» و«لا تزال الشمس تشرق»، في هذه الرواية التي اعتبرها النقاد «ملحمة غرام جيل الضياع»، جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى، و«روميو وجولييت الجديدة»...

* والواقع أن «وداع للسلاح» ليست «ملحمة غرام جيل الضياع»، ولا «روميو وجولييت الجديدة» فحسب، ولكنها فوق ذلك محاولة موفقة إلى طرح قضية الحرب والسلم على بساط المناقشة، وتصوير رائع لفلسفة همنغواي في الحياة والموت، تلك الفلسفة التي تقول بأن الإنسان لم يخلق ليقهر... إنه يتحطم ولكنه لا يقهر، والتي تقول بأن الفائز لا ينال شيئاً..!

* إن «وداع للسلاح» هي باعتراف النقاد جميعاً أعظم ما كتبه همنغواي على الإطلاق. ويكفي أن تعلم أنه أعاد كتابة صفحة واحدة من صفحاتها الأخيرة ثماني وثلاثين مرة، كما صرَّح هو نفسه قبيل وفاته...

أرنست همنغواي

وداع للسلاح !..

كان يقاوم الوقوع في الحب، فقد كانت تشغله الحرب. لكنه وقع في حبها، ولم يعد يبالي بالحرب، وبالعالم، ما دامت هي معه. لقد ودّع عالماً مضطرماً بالحرب، ليدخل عالماً مضطرماً بنار الحب الرفيع، عالماً لا يستطيع أحد تصويره كما صوّره همنغواي صاحب "الشيخ والبحر" و"لا تزال الشمس تشرق". وقد اعتبر النقاد هذه الرواية "ملحمة غرام جيل الضياع" جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى و"روميو وجولييت الجديدة" ...

إن "وداع للسلاح" ليست "ملحمة غرام" ولا "روميو وجولييت الجديدة" فحسب، إنها فوق ذلك تطرح قضية الحرب والسلم على بساط المناقشة، وتصوّر فلسفة همنغواي في الحياة والموت، تلك الفلسفة التي تقول بأن الإنسان لم يخلق ليقهر... وتقول بأن الفائز في الحرب لا ينال شيئاً.!

إن "وداع للسلاح"، باعتراف النقاد، أعظم ما كتب همنغواي، وقد صرّح هو نفسه قبيل وفاته، بأنه أعاد كتابة صفحة واحدة من صفحاتها الأخيرة ثماني وثلاثين مرة.



شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - بناية فرنسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 - بيروت: 2045 8402 - لبنان
www.malayin.com malayin@malayin.com

